

!.. ຈຽນ ຈຽນ

مؤنس ، حسين
أهلاً وسهلاً ... ! : رواية مصرية / حسين مؤنس . - ط 1 . -
القاهرة : دار الرشاد للنشر والتوزيع ، 2018 .
480 ص ؛ 14 × 20 سم .
تدمك : 7-159-364-977-978
1 - القصص العربية
أ - العنوان
813

الناشر : دار الرشاد
العنوان : 14 ش جواد حسنى - عابدين - القاهرة
تليفاكس : 23934605 - 02 / 01282919332
الايميل : Dar_alrashad@hotmail.com
المكتبة : اول عبدالله العربى - الحى السابع - مدينة نصر - القاهرة
الهاتف : 23789075
رقم الايداع : 13156 / 2018
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الاولى : 1440 هـ - 2019 م
الغلاف للفنان : عباده الزهيرى
مراجعة : محمد شلبى

الدكتور حسين مؤنس

أهل وسهل..!

رواية مصرية



إهداء

الأديب الراحل حسين مؤنس من الأدباء القلائل البارعين
الذين قدموا صورة المجتمع المصري في القرن الماضي ... في
جميع أعماله يقدم صورة بأسلوب يصاحب ريشة الفنان وكاميرا
تسجل بواقعية الحياة في الريف المصري .. صورة تقرأها قبل أن
تشاهدها.

وتخليداً لذكراه نعيد نشر بعضاً من أعماله الأدبية الرائعة
التي ساهمت بالكثير في ازدهار الحركة الأدبية في الوطن العربي،
وحفاظاً ممّا على تراثه الذي تركه لقرائه نقدم هذه الرواية «أهلاً
وسهلاً».

الناشر

العمدة وزيارة الملك

في الساعة الرابعة بعدظهر يوم من أيام ديسمبر، من إحدى السنوات فيما بين 1925 و1930، دق جرس التليفون في بيت الشيخ صادق أبوالشوارب عمدة كفر سهيل، وظلت صلصلاته الطويلة تتوالى متكاسلة متثاقبة، لا تقطع بينها إلا فترات قصيرة، لأن قنديل عامل التليفون في مركز بندر قوص كان مستوسناً⁽¹⁾ ناعس العين.. فكان يدير يد آلة التليفون العتيقة بضع ثوان ثم يريح يده ثواني أخرى، وهو يلعن كفر سهيل ومن اختطها.. وكلما طال به الأمر زادت لعناته في النوع والكمية. حتى شملت أهل كفر سهيل جميعاً، من عمدتها إلى عجايبي عامل تليفونه، وأسلافهم وأبناءهم جميعاً، رجالاً ونساء إلى يوم يبعثون..

وأخيراً ارتفعت سماعه التليفون في الطرف الآخر، وجاء صوت عجايبي كسولاً متثاقباً:

- قلنا طيب!.. طيب!.. داياً راكبك عفريت؟.. إيه؟.. فيه إيه؟..

فانفجر صوت قنديل عامل تليفون المركز يقول:

- وما تزال تقول إيه يا عجايبي الكلب؟.. تقضي عمرك كله نائماً على

1- مستوسناً: خلان (يتهاى للنوم) أو نعسان.

بعضك هكذا يا حلوف؟ .. أما آن الأوان ليضربوك بالرصاص
ويريحوني منك؟

فضحك عجائبي في بلاهة، وقال وهو يحك جنبه بيده حكاً عنيفاً:
- أهلاً أبو القناديل.. لن يضربوني بالرصاص حتى يقطعوا لسانك
أيها الجاموس الأبيض.. قل.. ماذا عندك؟

وكان عجائبي رجلاً مرحاً لا يعرف الهم أو الغضب، وسر مرجه
الدائم بلاهته، فقد كان ساذجاً كأنه طفل، جاهلاً كأنه دابة، قبيحاً كأنه
بومة.. وكان إلى جانب ذلك قصيراً ضئيلاً، يستر قصر قامته بطربوش
أسود طويل، تزينه قطعة نحاس لامعة تمتد من أعلى إلى أسفل تحمل رقم
293، وهذا الرقم هو الشيء الوحيد المكتوب الذي كان عجائبي يستطيع
قراءته بطلاقة..

وبينما كان قنديل يكيل لعجائبي مقادير جديدة من الشتائم، نقل
هذا سماعة التليفون من يده اليمنى إلى اليسرى، لكي يستطيع أن يفي
جنبه الأيمن حقه من الحك اللذيذ، فقد كانت البراغيث عادلة في توزيع
لدغاتها على جسده، وكان هو أيضاً عادلاً في توزيع الحك أصنافاً وألواناً..
وقال قنديل بعد أن شفى غله واستراح إلى أنه قد قام بحق هذا التخزين
الكسول من التقدير:

- أسرع.. ناد العمدة..

- لماذا؟

فقال قنديل وهو يكاد ينفجر:

- يا جدع.. ناد العمدة على التليفون..

- اسمع يا قنديل، الراجل متمدن شوية.. هات الإشارة وأنا أبلغها له عندما ينهض..

- يا ثور.. اذهب وجره من رجله..

- صن لسانك يا ولد يا قنديل.. العمد ليسوا لعباً.. قلت لك مائة مرة أن تتأدب.. هات الإشارة..

فزفر قنديل زفرة حارة، وقال:

- ماذا أعمل معك يا عجايبي النحس؟.. هذه إشارة خطيرة من الباشا المدير..

فقال عجايبي وهو ينقل سماعة التليفون إلى يده اليمنى:

- أي مدير؟..

وشعر قنديل أن لا فائدة مع هذا الغبي البليد، فقال له:

- طيب.. خذ ورقة وقلمًا واكتب..

فقال عجايبي، وكأنه قد أهين:

- ورقة وقلم؟.. لماذا؟.. ألسنت تعرف أنني لا أقرأ ولا أكتب؟.. لك

ثلاث سنين تكلمني ولا تعرف؟.. صدق من قال أنك بغل ميري..

وضحك قنديل، فقد كان يعتبر مثل هذا الوصف تحية وتدليل من

زميله عجايبي.. وكان كل منهما، رغم كل شيء، يستظرف الآخر.. فقد

كان مستواهما في الذكاء والذوق واحداً، وكانت تربط بينهما، علاوة على

سلك التليفون، روابط وذكريات ومغامرات.. فقد كان عجائبي أيسر حالاً من قنديل، وكان إذا أتى إلى قوص لم يخل جيبه من ثلاثين أربعين قرشاً ينفقها بسخاء في مغامرة تافهة، ولكنها كانت بالنسبة لهما شيئاً عظيماً: مغامرة يشربان فيها شيئاً من النبيذ ويدخنان «المزاج»، وربما أصابا أكثر من ذلك.. ليلة يهرب خلالها كل منهما من واقع حياته، وهو واقع ضيق مؤلم غاص بالعيال، ومتاعب العيال، وقلة المال، وإهانة الرؤساء، وكثرة العمل..

لهذا ضحك قنديل من دعاية صاحبه الغبي الخفيف الظل، ولو كان الوقت يسمح لاسترسل معه في ذلك اللغو، فقد كان كلاهما مغرمًا باللغو التليفوني، وكانا يحسان أن تبادل الشتائم مثلاً عن طريق التليفون أمر لا يتاح إلا للحكام والناس العظام، لأن الرعاي يتشائمون مشافهة.. ولكن الوقت لا يسمح للاسترسال في العبث، فقال لصاحبه:

- إذن فاسمع يا عجائبي .. عندما يصحو العمدة، قل له يطلب البيك المأمور.. هناك إشارة مهمة من المديرية.. الملك سيزور كفر سهيل..

ووضع عجائبي الساعة، ونفخ نفخة طويلة من بين شفثيه الغليظتين، وظل واجماً لحظة، ثم جعل يردد:

- ملك؟.. أي ملك؟.. لا بد أن هذا الولد جن.. جلالة الملك كله يأتي كفر سهيل؟.. والله لو أتى إلى هذه المخروبة.. لما استحق أن يكون ملكاً، ولا خفيراً..

واسترسل عجائبي مع أفكاره، ثم أسند ظهره إلى الحائط وأراد أن يعود إلى النوم، ولكنه لم يستطع.. فقد أطاررت هذه الإشارة التليفونية الغريبة النوم من عينيه، وصحا ذهنه شيئاً فشيئاً، ثم دس يده في جيبه وأخرج علبة الدخان وفتحها فوجدها فارغة، وذكر أنه نسى أن يسرق شيئاً من الدخان من علبة العمدة، فجعل يلعنه ويسبه كأنه هو المسئول عن ذلك..

وأحس بشيء من الجوع، نعم إنه ملأ بطنه منذ ساعتين كما هي عادته كل يوم، ولكنه كان في جوع دائم: ما صحا من النوم إلا أحس بالجوع ومضى يلتمس ما يأكل، فإذا أكل نام من جديد، وهذا هو ملخص تاريخ حياته.. وقد تعود منذ الصغر ألا يفكر في شيء، وهي عادة طيبة جعلته يشعر دائماً أنه «سلطان» رغم ضيق الحال وتوافر أسباب المتاعب. وكان دائماً يقول: «ربك كريم!..» فيشعر وكأنه رفع المتاعب عن صدره وألقى بها كأنها لا تعنيه.. إذا وضع يده في جيبه فلم يجد ما يشتري به ملابس لأولاده مثلاً، زفر زفرة عميقة وقال: «ربك كريم!..» ولا يهتم بعد ذلك لبس الأولاد أو ساروا عرايا، فقد نفّض هو يده من الموضوع وأحاله على من بيده أن يكسو ويطعم ويسعد ويشقى، ولم يعد عليه إلا أن يصبر، والصبر جميل..

وربما كان محققاً في ذلك، فقد وجد مسائله تنحل دائماً دون أن يتدخل هو فيها، بل أتمته المكاسب من وجوه المصائب! نعم، فقد كان فيما مضى يعمل في محلج، وكان عليه أن يراقب القطن الداخل والخارج، فزين له

الشیطان أن یقوم بعمليات لحسابه، دون علم صاحب المحلج، وكان یحصل من ذلك إیرادًا طیبًا، ولم یحس یومًا أن ذلك الذی كان یحصله حرام، فقد كانت نظریته أن صاحب المحلج غنی یركسب الكثير، وكل غنی فی نظره لص، فما الضرر فی أن یرسق لص صغیر من لص کبیر شیئًا؟.. ثم تبین بعد ذلك أن هذا الرجل الغنی یؤمن بأن كل فقیر لص، كل الفقراء لصوص یعیشون عیالًا على الأغنیاء، ولا ضیر على الأغنیاء إذن فی أن یرسقلوهم إلى آخر قطرة من دمائهم، فدماءؤهم نفسها مسروقة من دماء الأغنیاء.. وهكذا كانت العلاقات بینة و بین صاحب المحلج علاقات لصوصیة متبادلة: عجاییبی یرسخدم المحلج لحسابه خلصة، وصاحب المحلج یأكل من أجره وتعبه ما یرسستطیع.. حتی كان یوم وقعت فیة الواقعة، وضبط اللص الصغیر متلبسًا بإحدى جرائمه، فطرده كأنه كلب أجرب.. ووقف عجاییبی فی الطریق ولیس معه ما یطعم به زوجه وابنته منها یومًا واحدًا، فقال: «ربك کریم!..» وجاء الکرم مدرارًا.. هجرته زوجه وطلبت إليه الطلاق، فطلقها وأخذت ابنته معها فانزاح عن صدره كابوسان.. ومضى إلى أحد الذین كان یقدم إلیهم الخدماة فی المحلج فعمل عنده، ثم تزوج ابنته، وتوفی الرجل ورثت الزوجة فدانین وبضعة قراریط، وأصبح عجاییبی من الموسرین الذین لا یحملون هما.. ینام على جنبه طول النهار ویأتیه رزقه سهلًا وفیرًا!..

وكانت هذه الزوجة الثانية كأنها معمل تفریخ: لا ترى إلا حاملًا أو والدة، ولیس بین الحملین إلا شهران على الأكثر، حتی أصبح له من البنین والبنات ستة، غیر من رغب عن الحیاة فودعها بعد المیلاد بأسابیع

أو شهور، ومنهم من خرج إلى الدنيا فما كاد يفتح عينيه على ما فيها، حتى
آثر العودة إلى عالم العدم.. ثم حصل عجائبي على ذلك العمل اليسير:
عامل تليفون دار العمدة، وأصبح من رجال الحكم والسلطان في القرية،
وزادت راحة باله واتسع رزقه وسمن بدنه حتى ترهل وحسده الناس،
وربك كريم!..

وقد تعود أن يكون في مثل ذلك الوقت من كل يوم غارقاً في النوم على
الأرض إلى جانب التليفون، ولم يكن يفضل النوم في هذا الموضع ليكون
على مقربة من الآلة، فقد كان إذا نام لم تستطع إيقاظه أجراس سيارات
الحريق، وإنما كان نومه في ذلك الموضع لأنه دافئ في الشتاء رطب في
الصيف.. ثم إنه كان يرى البعد عن بيته غنيمة، وماذا في البيت إلا امرأة
مترهلة لا تكف عن الصراخ والشكوى، وأولاد كأنهم العفاريت يقلقون
الشیطان في الأرض السابعة.. كان لا يشعر أن له امرأة إلا في الليل، فإذا
طلعت الشمس وغادر البيت نسيها أو اجتهد في نسيانها، فكأنها كان
يطلقها في النهار ويتزوجها في الليل.. وكان ذلك من أسباب سعادته،
فهو لا يحمل من متاعب الزواج شيئاً..

واخترق الدهليز الموصل إلى الرحبة الداخلية للدار، كأنه قط يتشمم
الأرض بحثاً عن الطعام.. كان كل شيء نائماً راقداً في ملكوت النعاس..
في هذه القرية لا فرق بين نصف النهار ونصف الليل، كلاهما وقت للنوم
والراحة ونسيان الدنيا.. إذا فرغ الناس من طعام الغداء انبطح كل منهم

حيثما اتفق له الرقاد، وأغلق عينيه ونام ملء جفنه، حتى تنعس الشمس هي الأخرى وتميل إلى الغروب..

وأقصى إلى الرحبة ونظر إلى الأبواب المطلة عليها، واتجه نحو باب المطبخ، أحب الأبواب إليه.. كان هذا الباب يقوم مائلاً مستنداً على الحائط كأنه نائم هو الآخر.. فدفعه في رفق، فاستيقظ وانبعثت من مفاصله أصوات كأنها تأوهات مريض بالروماتزم، فقد كانت مفاصل هذا الباب كأنها مفاصل عجوز في الثمانين، تتألم لكل حركة، وتستغيث للمجهود القليل. وقد اختفت «المفصلات» تحت ما علاها من صداً كثير، وشرقت إلى شيء من الزيت من سنوات طوال، ولكن أحد لا يرحم.. وظل الباب العجوز يصرخ ولا سميع ولا مجيب، فقد اعتاد الناس سماع صراخه وأنيته..

ودخل المطبخ، فأحس كأنه أفضى إلى قبر فرعون مات من آلاف السنين، ودفنوه مع بقايا طعام جفت حتى صارت خشباً وأحجاراً.. فلم يجد المسكين إلا أواني فارغة مكدسة لم تغسل بعد، لأن التقاليد جرت في بيت العمدة ألا يغسل الإناء إلا ساعة الحاجة إليه، وفيما عدا ذلك يترك بها فيه من بقايا الطعام - إن كانت قد بقيت فيه بقايا، فهذا شيء نادر جداً.. ومضى عجائبي يبحث وينقب ويتشم كأنه ضيع، وأخذ في يأسه يسب المطبخ ومن يعملون فيه، ثم وجد كسرة من الخبز الجاف فعاد بها إلى موضعه الأول، وجلس على الأرض تحت التليفون يقضم الخبز الحجري ويفتته تحت أضراسه القوية كأنه فأر جرى..

وكان العمدة قد صحا على صوت عجايبي، وكان متمدداً في القاعة،
فصاح:

- ماء.. ماء يا عجايبي..

وتبخر عجايبي نحو الشرفة، وتناول القلة السليمة الوحيدة من أربع
قلل تزين شرفة العمدة كأنها حرس يحميها، ورفعها إلى فمه ليبل ريقه
قبل سيده، ثم سار بها إليه، وفتح العمدة فما كأنه فم تمساح، وصب فيه ما
في القلة صبا، ثم تجشأ⁽¹⁾ ومسح عينيه وقال:

- هل دق التليفون؟..

- إنه الولد قنديل عامل تليفون المركز.. إنه يعبث..

- يعبث؟.. يعبث مع تليفون العمدة؟..

- يقول أن جلالة الملك آت إلى كفر سهيل..

وفتح العمدة عينيه في تعجب، وقال:

- جلالة الملك؟.. هل بلغ العبث الملوك أيضاً؟..

- هذا الولد لا بد أن ينظر المأمور في أمره، إنه الآن يتعابث باسم

الملك.. غداً يعبث باسم حضرة العمدة..

- طيب اذهب فاعمل لي قهوة.. وسأعرف بعد ذلك كيف أؤدب

هذا الحمار.

وسار عجايبي على مهل، ووقف في الدهليز وصاح:

- يا أم مظلوم.. يا أم مظلوم.. اعلمي قهوة لحضرة العمدة.. قومي..

انهضي يا ولية.

1- تجشأ: تكرر.

وكانت أم مظلوم غارقة في بحار النوم، فاستيقظت بعض الشيء،
وبذلت جهداً عظيماً حتى فتحت عينيها قليلاً، وقالت:

- ماذا؟.. ما الحكاية؟..

- قهوة.. قهوة يا أم مظلوم.. حضرة العمدة ينتظر من ساعتين..

ونظرت أم مظلوم نحو الباب ونادت:

- سكينه.. بنت يا سكينه..

ولم تسمع سكينه.. لأن صوت أم مظلوم روع الدجاج فتصايح،
ونفض الكلب الكسول واقفاً ونبح، واستيقظ حمار كان نائماً وهو واقف
على قوائمه، وفتح فمه يريد أن ينهق، ولكنه وجد أن الأمر لا يستحق
فأغلق فاه وعاد إلى النوم..

وأخيراً سمعت سكينه، ومضت لتعمل القهوة..

ثم عاد التليفون يصلصل، فنهض عجايبي إليه، وأخذ مجلسه على
كرسيه قبل أن يرفع سماعة ذلك الجهاز العتيق المعلق على الحائط. وكان
هذا الجهاز - من دون أجهزة تليفونات العمد المعلقة على الحائط -
موضوعاً على ارتفاع يمكن الإنسان من استعماله جالساً، وكان عجايبي
يفخر بذلك، ويقول أن الدولة ركبت التليفون على هذا الارتفاع تقديرًا
لشأنه، ومراعاة للعمدة، فقد كان العمدة لا يستطيع التحدث بالتليفون
مع ذوي المقامات الكبار إلا جالساً..

ورفع السماعة، فإذا المتحدث قنديل مرة أخرى.. وقال:

- هل صحا العمدة يا عجايبي؟..

وخشى عجائبي أن يعود قنديل إلى معابثته على مسمع من العمدة،
فقال في لهجة حاسمة:

- قلت لك ألق عن قلة الأدب هذه يا قنديل.. يا قنديل هذا تليفون
عمدة.. تليفون ضبط وربط لا يهزل الإنسان معه!..

ثم نظر فإذا العمدة يهب واقفاً ويقبل نحوه، فقال:

- هكذا؟.. هذا هو البيك العمدة نفسه أت.. تستحق ما سيجري
عليك..

وأمسك العمدة بالتليفون، واستجمع جلال العمودية وسعل سعالاً
كله جاء وسلطان، ثم قال:

- ماذا جرى يا ابن المركوب؟..

- ولا مؤاخذه يا سيادة العمدة.. البيك المأمور سيكلمك..

وانتفض كيان الشيخ صادق أبو الشوارب عمدة كفر سهيل وتضاءل
حتى صار أحقر من عجائبي عامل تليفونه، وقال وهو يلع ريقه:
- خير إن شاء الله..

وجاء صوت المأمور، وكان رجلاً مترهلاً مسرفاً في التدخين، يلهث
دائماً:

- يا شيخ أبو الشوارب..

- أفندم يا سعادة البيك..

- هنا إشارة من عند الباشا المدير..

- وانتفض الشيخ صادق من قمة عمامته إلى طرف مركوبه وقال:
- خيرًا إن شاء الله.. خيرًا إن شاء الله.. ماذا جرى؟.. كفى الله الشر.. الأمن مضبوط والعوايد بخير..
 - لا تخف.. لا تخف.. إنه خبر طيب لك..
 - الحمد لله.. الله يفرحك يا سعادة البيك.. خيرًا إن شاء الله.
 - اسمع يا صادق..
 - أفندم..
 - أنت عارف أن جلالة الملك سيزور الوجه القبلي..
 - عارف يا أفندم.. جلالته يشرف وجه قلبي يا أفندم..
 - اسمع بس بلاش دوشة.. خذ ورقة وقلماً واكتب ما أقوله لك..
 - فنظر العمدة إلى عجائبي وصرخ بكل قواه:
 - افتح دفتر الإشارات يا ولد قوام.. افتح.. هاته هنا.. والقلم؟..
 - أين القلم... تفضل يا أفندم..
 - ومضى المأمور يملي:

- «علي العمدة والمشايخ والأعيان ببلدة كفر سهيل وما حولها أن يستعدوا لاستقبال جلالة مولانا الملك في بلدتهم، وذلك بإقامة الزينات والرايات وتنظيف البلد.. وستكون زيارة جلالته أثناء رحلته الميمونة في الصعيد، وسيخطر العمدة والمشايخ والأعيان المذكورون بموعد الزيارة باليوم والساعة والدقيقة فيما بعد، ولكن عليهم الشروع في إجراء اللازم من الآن وافادتنا بسير الأمور».

ووضع المأمور السماعه وانتهت الإشارة، وعلق العمدة السماعه مكانها وجلس صامتاً مفرق الذهن كأنه رئيس دولة تلقي إنذاراً نهائياً من جيوش الأعداء بالتسليم بعد مهلة قصيرة! وتلفت حوله يلتمس إنساناً يسأله عن جليلة الأمر، فلم يجد إلا هذا العجل عجائبي واقفاً كأنه الصنم لا يرجى عنده رأى، ولم يدر إلا وقد انفجر فيه يقول:

- مالك واقف هكذا كاللوح؟.. ألم تسمع؟..

- ماذا يا حضرة العمدة؟..

ونفذ صبر العمدة، فقد كان في حاجة إلى إنسان يفرج عن نفسه فيه هذه الحيرة الهائلة التي يتخبط فيها، فانفجر يقول:

- ماذا؟ تقول ماذا؟ يبلغونك هذه الإشارة الخطيرة ثم تقول ماذا؟ ألا تفهم في حياتك شيئاً؟.. يبلغك النبأ ثم تقف هكذا ولقمة العيش في يدك وفمك مليء بالطعام كأنك بهيم!

وقد تعود عجائبي أن يقابل انفجارات العمدة بالصمت، لأن أي كلمة منه تعطي العمدة مجالاً للاسترسال. وكان صمته في تلك المناسبات يزيد ثائرة العمدة ويجعله يسترسل في الشتم والسباب، وربما تعدى إلى الضرب فتتلقى وجناته لكمة أو لطمتين يرتاح العمدة بعدها كأنه تناول دواء مهدئاً.. ولم يكن عجائبي ليغضب من مثل هذه اللطمات - فهي لطمات عمد لا إهانة فيها ولا ضرر منها - بل كانت تسره، لأنها دليل زوال الأزمة ونهاية الغضب..

وسكت العمدة لحظة ثم عاد يقول:

- أين القهوة أيها البهيم؟

وهنا فقط شعر أنه أهين، فإن الضرب والسباب لا تعد في حسابه شيئاً، ولكن الذي كان يثيره هو الخلط بينه وبين عوض.. فإن عوض خادم حقير، أما هو فموظف وعامل تليفون محترم، والناس مقامات.. وفي هذا المجتمع الصغير كانت الدرجات محفوظة والمقامات محددة، وما بين العمدة وعجايبي هو بالضبط بقدر ما بين عجايبي وعوض.. نعم، فالخادم والسادة سادة، والقهوة من اختصاص عوض، فقال للعمدة:

- حاضري يا حضرة العمدة.. أقول للولد عوض حالاً..

ثم خرج يتمسح بالخائط حتى ابتعد عن العمدة، وأفضى إلى الدهليز حيث وجد عوض واقفاً يمسح عينيه، فأخذ يسقيه نفس الكأس التي سقاه العمدة إياها:

- أين القهوة أيها الغبي البليد؟ حضرة العمدة صحا من ساعة وأنت ما تزال واقفاً تمسح عينيك كأنك حمار سباخ؟!.. والله لقد صبر عليك حضرة العمدة طويلاً.. أين القهوة؟

ولم يقبل عوض هذه الإهانة من عجايبي، فنظر إليه في غضب واحتقار وقال:

- صن لسانك يا عجايبي الكلب..

- أنا كلب يا حلوف يا ابن الحلوف.. يا حشاش يا سكري؟.

وسمع العمدة العمدة ذلك فصرخ:

- أنا سامعك يا ابن المركوب! ثلاثة بالله العظيم ما تنام تحت سقف

بيتي ليلة بعد اليوم.. لعن الله أباك وأبا من أتاني بك.. هات القهوة

وامض من ساعتك ولا ترني وجهك الكئيب مرة أخرى!

واستراح العمدة بعض الشيء، فقد صرف شيئاً من الضيق الذي في

نفسه، وعاد إلى حجرته وجلس يفكر في هذا الأمر العظيم الذي دهمته به

المقادير..

أما عوض فلم يلق بالآ إلى أمر الفصل الذي أصدره العمدة معزراً

بالقسم بالله العظيم ثلاثاً، فقد كان العمدة يفصل الخدمة على هذه

الصورة الحاسمة مرة كل أسبوع على الأقل، وكان هو من جانبه يستقيل

من عمله بنفس المعدل، مقسماً ألا يعمل عند العمدة أبداً، ولكن كليهما

كان ينسى قراره بعد أن تهدأ ثائرته، فقد كان العمدة لا يستغني عن

عوض، ولا عوض يستغني عن العمدة.. فأما عوض فقد كان في الحقيقة

أكثر من خادم له، كان طبيباً يعرف ما ينبغي له من دواء في كل مناسبة،

وكان العمدة بطيئاً يأكل دون وعي، فيعسر هضمه وتضطرب أمعاؤه

ويتراخي كبده وتهيج مرارته، فيسرع إليه عوض بالمهضمات والمهدئات

والمسهلات، وكلها من خاص تجربته وعلمه وتحضيره، ولا يرتاح العمدة

بدونها.

وتربع العمدة على الأريكة في قاعته، وغاص في أفكاره حتى أتته

القهوة، حملتها إليه سكينه خادمته، فجعل يشربها على مهل. وكانت القرية كله نائمة ساكنة كعهدها في هذه الساعة من كل يوم.. وكان كل شيء ساكنًا حتى الدجاج والبط والأوز التي تمرح في رحبات البيوت وأمام الأبواب..

هجعت قرية كفر سهيل وسكن كل شيء فيها، مثلها في ذلك مثل قرى الصعيد كله، وكان الوقت شهر ديسمبر، وقد جمع بعض الفلاحين القصب من حقولهم وزرعوا مكانه البرسيم أو الذرة، وبقيت حقول تغطيها غابات القصب تقوم فيها هذه العيدان البيضاء والحمراء التي ملأها الله عسلًا يخرج من الطين والماء والملح، وقد أوسع كل فلاح مكانًا وسط قصبه واتخذة مجلسًا ومنامًا، فإذا فرغ من غدائه المتواضع توسد ذراعه ونام في ستر عن الناس فلا يراه إلا من يعرف موضعه، فإذا أخذ نصيبه من الراحة جلس وأوقد النار في «شاليه» صغيرة ووضع عليها إناء الشاي وتركه يغلي حتى يصبح في لون الخبر الأسود، ثم يأخذ شيئًا من الجمر المتوهج ويضعه في أعلى «الجوزة»، ويضع عليه شيئًا من «المعسل»، ويأخذ يدخن ويشرب الشاي فيشعر أنه سلطان الزمان وحوله هذه الأعواد قائمة كأنها حراب تحمي عرشه.. وربما تنادي نفر من أولئك السلاطين وجلسوا حلقة تمر عليهم أكواب الشاي وتدور عليهم الجوزة، يأخذ الواحد منهم نفسًا عظيمًا يملأ به صدره ثم يناولها جاره، ولا يزال إناء الشاي يعود إلى النار ويغلي وتملأ منه الأكواب، ولا تزال قطع المعسل توضع فوق حجر الجوزة وتدور حتى يهبط المساء،

وهم في حديث تافه ساذج لا يخرج عن أخبار القرية وما يجري فيها، وما أقله، وعن المحاصيل وما يرجى لها في ذلك الموسم..

ولم يكن أحد يسلم من ألسنتهم وهم جالسون في مواضعهم تلك، فهم يتحدثون عن العمدة - أيًا كان - ويلعنون آباءه جميعًا، وعن الصراف الذي لا يستكثرون عليه أي نوع من الشتائم وأي كمية من اللعنات، وعن شيخ الخفر، وهو في نظرهم لص أو شيخ اللصوص، وعن خطيب الجامع، ذلك الشيخ الوقور الذي يتلو مواعظه كل ليلة وكل جمعة بنفس الصوت والأسلوب، بل بنفس الكلمات، ولا يجد مع ذلك غضاضة في أن يقرض المال «بالفايظ»..

وربما تحدثوا عن بعض النساء الخليعات ممن لا تخلو منهن قرية.. فأما شبابهم فلا يذكرهن إلا غزلًا معجبًا، وأما شيوخهم فلا يذكرهن إلا مستغفرين محوقلين متعجبين من وجودهن في بلاد لا يسكنها إلا الأشراف.. وكان يوجد منهم في كفر سهيل اثنتان أو ثلاث، أشهرهن شمطاء سمراء تسكن في طرف القرية مع ابنة لها يجري حديثها على كل لسان.. وكانت هذه المرأة جامدة الوجه نحاسية اللون تربط رأسها بمنديل أحمر، وتشق طريقها وسط القرية بقوة ساعدها وجراتها، والفلاحون يتساءلون إذا جلس بعضهم إلى بعض من أين تعيش، فإذا خلا كل منهم إلى نفسه عرف الجواب.. فمعظم الميسورين منهم قد أعطوها شيئًا في يوم ما، وكانت تعرف كيف تحمي نفسها إذا أراد بها أحد منهم أذى. وآخر ضحاياها وكيل شونة البنك، وكان شابًا من قنا معجبًا بنفسه فرحًا

بشبابه. التمس عطفها حينًا ثم حلا له أن يتحدث بأمره معها في أسلوب الساخر الهازئ، وكثر كلامه وكثر تيهه، فأضمرت له سوء، وتوددت إليه، وترددت عليه في محل عمله، حتى إذا امتدت يده إليها صرخت واستغاثت، وأشهدت الناس على أنه أراد بها سوءًا.. ووصلت الشكوي للعمدة فطير الخبر إلى مركز البنك في قنا، وما هي إلا أيام حتى فصل المسكين وغادر القرية وهو يلعن النساء ونفاق القرويين الذين شهدوا عليه..

وكان كل شيء في هذه القرية يجري بطيئًا متكاسلًا، حتى في أيام المواسم، ينهض الفلاحون في تراخ ويذهبون إلى عملهم متكاسلين محاذرين العجلة، لأن العجلة من الشيطان، ويمضون الوقت في عملهم الراتب في الحقول، وكلما عملوا ساعة أسرعوا إلى الشاي واستراحوا نصف ساعة، فإذا انتهى اليوم عادوا بنفس البطء إلى بيوتهم، وكل منهم يسير خلف حماره أو جاموسته أو جملة.. وينعس الحيوان في الطريق وينعس صاحبه من ورائه، وتقودهم أقدامهم إلى بيوتهم، فهذه الأقدام تعرف الطريق جيدًا لطول ماسارت فيه.. ويدخل كل منهم الدار خلف بهيمته، وتتجه هذه إلى مكانها وتقف، أما هو فيأخذ مكانه على باب بيته، وتأتيه زوجة بالشاي الأسود والجوزة، ويقبل إليه نفر من أصحابه فتتعقد الندوات، بينما يلعب الأطفال الكثيرون في الطريق الضيق ويعلو صخبهم على صخب حديث الرجال.. ولا يزالون على ذلك حتى يؤذن المؤذن لصلاة العشاء، فيذهب من الناس إلى الجامع من يذهب،

ويظل جالسًا مكانه من لا تحركه نفسه إلى الذهاب، فإذا انتهت الصلاة فقد انتهى كل شيء، وعاد كل فلاح إلى داره وجلس من حوله امرأته وأولاده، ليصيبوا ما يسره الله لهم من طعام قليل معظمه خبز الذرة والخبز والملوحة وبعض الخضر كالفجل والكرات والجرجير.. ولا يكاد العشاء ينتهي حتى نهض الجميع للنوم، فيعتلي الأب ظهر القرن الدافئ ويتبعه أولاده، وآخر من ينام هي الأم، فلا بد أن تنظر في أمر الجاموسة أو الحمار أو الجمل، ثم تحكم رتاج⁽¹⁾ الباب، ثم تنظر في القرن وتحسس ما فيه من الذرة التي وضعت لتحمص، ثم تأخذ مكانها فوق القرن أيضًا، ويرفرف ملاك النوم على الجميع..

ولم يكن لدى القرويين ما يوقنون به غير آذان الصلاة، فإذا أذن المؤذن للظهر فقد انتصف النهار، وإذا أذن للعصر فقد اقترب المغيب، وإذا أذن للمغرب فقد انتهى اليوم، وأذان العشاء هو إيذانًا بالنوم.. وكان مؤذّنهم مثلهم يؤدي عمله دون عجلة، وكان معوله في التوقيت على ساعة عتيقة اشتراها من عشرين سنة، وقد صدئت آلاتها وامتألت ترابًا، ولكنها كانت تجتهد مع ذلك في ملاحقة سير الزمان متأخرة عنه في الغالب ربع ساعة أو ثلثًا أو نصفًا.. وكان الشيخ لا يجد في ذلك حرجًا، ولا يجد بأسًا في الأذان متأخرًا قليلًا، فكل شيء في البلد يمضي مترخيًا وكأنها غشاه التراب الذي ملأ الساعة، وكان يعتقد أنها ما دامت تدق وعقاربها تسير فهي بخير تأخرت أو تقدمت، والأعمال بالنيات، وهذه الساعة أضبط

1- رتاج: ترباس.

على أي حال من المزاويل التي صلى الناس عليها مئات السنين.. ثم أنها ماركة «الترامواي»، والإعلانات التي يقرأها في الصحف بين الحين والحين. تقول أن ساعة «الترامواي» لا تختل أبداً، فإذا اختلف الوقت بينها وبين غيرها فالسبب أن الساعات الأخرى ليست أصيلة وليست ماركة «الترامواي».

وربما كانت هذه الساعة المبروكة هي المسؤولة عن تأخير كل شيء في القرية عن مواعده، فإذا أذن الشيخ لصلاة العشاء مثلاً لم يتجمع الناس في المسجد إلا بعد نصف ساعة، وإذا تواعدوا على اللقاء ساعة العصر كان معنى ذلك قرب المغرب، وإذا قالوا غداً فمعناه بعد غد وربما بعد غد غد، وإذا قالوا الشهر القادم كان معناه أحد الشهور القادمة، وكل شهر قادم على أي حال.. ولم يكن في القرية شيء مضبوط إلا ديك عم بيومي، فهو ديك مشهور يصيح ساعة الفجر تماماً كأنه مصنوع في سويسرا، وكانت الديكة الأخرى توقت صياحها عليه، فإذا ارتفع صوته علمت أن الصباح قد اقترب فردت عليه، وتبدأ سيمفونية الديكة التي تقلق الكلاب فتنبج ويتجاوب نباحها في جوانب القرية كلها.. وعلى أصوات الكلاب والديكة ينحور الجاموس والبقر، وينهض الناس من مضاجعهم ويفركون عيونهم وهم يلعنون ديك العم بيومي وأصحابه من الديكة وتابعيه من الكلاب والبقر والجاموس، وينظرون إلى طاقات بيوتهم فيرون أن الصبح قد طلع وأن مواعدهم مع يوم جديد قد حان،

فينهضون متكاسلين متباطئين، ويبدأ اليوم كما بدأ أمس، وكما سيبدأ الغد وما بعده إلى أن يطوي الله الأرض ومن عليها..

وكانت القرية خافية في بطن الصعيد، كأن الذين اختطوها تعمدوا أن يستروها عن العيون.. فهي تقع على ترعة الشنهورية، وهي تتسع عند القرية حتى يسميها الفلاحون بالبحر الصغير تمييزاً لها عن البحر الكبير الذي هو النيل الجليل، وكان يسير بعيداً عن القرية لا يصل الإنسان إليه إلا على دابة تسير قدر ساعتين، ولكن كفر سهيل كانت تمتاز عن غيرها من القرى المجاورة بأنها قرية جداً من خط سكة الحديد السائر من قنا إلى قوص، ولا يفصلها عن شريط سكة الحديد إلا مستنقع كبير تبلغ مساحته بضعة فدادين..

كان أحد الأمراء يملك أرضاً واسعة قرب نجع حمادي عي الضفة الغربية للنيل، ثم خطر له أن يشتري بضعة فدادين في زمام قوص، وأفضى برغبته تلك إلى من تهمهم مرضاته، فما أسرع ما ابتاعوا له نحو مائتي فدان قرب كفر سهيل، وأبدى رغبته في أن تنشأ محطة لهذه القرية، فما أسرع ما أنشئت، أنشأوا رصيفين ظللوهما بسقف من الخشب يقوم على عمد، وأنشأوا كشكاً لناظر المحطة، وأدرج اسم كفر سهيل في سجل المحطات، ووضعت في المحطة لافتات بيضاء كتب عليها بالثلث الأزرق «كفر سهيل»، وأصبح بعض القطارات يقف على هذه القرية.

ثم باع الأمير أرضه تلك، وانصرف عن زمام كفر سهيل، ونسيت مصلحة السكك الحديدية أن تلغي محطتها.. فظلت القطارات تقف

لتلقي على الرصيف المهجور نفرًا من الناس ولتأخذ بدلهم نفرًا آخر. ولم تنتفع كفر سهيل بالمحطة أو القطار، لأن هذا المستنقع اللعين حال دونها وذلك، ولم يخطر ببال أهل القرية أن يردموه ويمهدوا الطريق بين قريتهم والعالم، فظل الذين يريدون السفر يدورون حوله دورة واسعة حتى يصلوا إلى الجسر ثم يسرون بحذائه حتى يصلوا إلى المحطة.. وكانوا يجدون في ذلك الدوران مشقة وتعبًا، ولكنهم لم يفكروا مع ذلك في ردم المستنقع، فظل يحول بينهم وبين سكة الحديد، وظل يغمر القرية كلها بأسراب بعد أسراب من البعوض الوحشي المتعطش إلى الدماء، لا يكاد يهبط المساء حتى يهاجم القرية ومن فيها، حتى اشتهرت القرية ببعوضها وسخر بعضهم منها فسمّاها «كفر الناموس».. وكان أهل القرية يحتملون بعوضهم صابرين محتسبين، وكأنه بلاء لا يرد أو قدر لا حيلة لهم فيه.

فإذا تخطى الإنسان ذلك المستنقع اللعين أفضى إلى القرية، وكان أول ما يقابله من معالمها بناء مهجور على يمين المتجه من المحطة إلى القرية، كان في الأصل وابور طحين ثم أفلس صاحبه وباع الوابور وترك البناء، وقد تشاءم الناس منه بسبب ذلك فلم يقربه أحد، فأرضه حكر لا خير فيها وبناءؤه تسكنه العفاريت والبوم ويحوم عليه شبح الخراب والمصائب.. ثم قيض الله له امرأة عجوزًا قتل زوجها في إحدى معارك الريف، ولم يعد لها من يقوم بزمرها، فلجأت إلى ذلك البيت وعمرته، واشترت بفضله من مال كانت معها عجلًا كانت تسميه «محروسًا».. وأنست به وأنس بها وعاشا وحيدين في هذا المكان الموحش.

وزعمت المرأة أن «محروسًا» طرد العفاريت.. وصدقها الناس، وأصبح محروس مخلوقًا له سمعة في القرية وهيبة، وكثرت حوله الحكايات والأساطير، فزعم بعض الناس أن لصًا حاول سرقة فشلت يده، وضربه فلاح بطوبة فقتل في المساء، فتحاماه الناس وتركوه في سلام.. وزعم آخرون أن العاقر إذا خطت من فوقه وهو راقد حملت، وربما كانت العجوز هي صاحبة الأساطير، وعلى أي حال فقد راجت وصدقها الكثيرون، وترددت العاقرات على العجوز لتتحل عنهن عقدة العقم، فكن يتركن لها ما تيسر من ذرة أو قمح، وقد حملت بعضهن فعلاً فأتينها بخير كثير، وكانت العجوز تعيش من ذلك ومن عمل أحجبة ووصفات لبعض الأمراض، فعاشت في سلام مع عجلها المبروك في ذلك الموضع المهجور.

وبعد أمتار تبلغ المائتين تقريبًا تبدأ القرية، فيجد الإنسان في مدخلها قبر سيدي الشيخ هدهد، وهو حارس القرية وقديسها، مقامه قبة متداعية كانت أول الأمر خضراء ثم زال لونها، وتحت القبة بناء مربع الشكل فيه باب مقفل لا يدخله الإنسان إلا بعد عناء. وكان لمقام الشيخ حارس أعشى لا يكاد يبصر شيئًا، ولكنه كان موسرًا بفضل بركات الشيخ، وكان إذا أذن المغرب دفع الباب بجسده الضخم ودخل فأوقد شمعة وجلس فقرأ ما تيسر من القرآن والأوراد، ثم جمع ما ألقى الناس به من النذور للشيخ ومضى به إلى داره، ولم يكن ذلك بالشيء القليل. وكان هذا الرجل يصنع الأحجبة ويبيعها ويبيع بركات شيخه لمن يريد، فيقرأ

ما تيسر على رأس المريض، ويستخير الشيخ لمن يطلب الاستخارة، فيتوضأ وينام إلى جانب المقام ويرى الشيخ فيوحي له بما يريد، وكان لا بد أن يراه إذا نام في ضريحه، كأنها متفقان على ذلك.. وما تمنى إنسان في القرية شيئاً إلا نذر للشيخ نذرًا، فإذا تحقق الأمل أوفى بنذره وحمل إلى حارس المقام ما نذره: كيلة أو كيلتين من ذرة أو قمح أو حلبة أو قدرًا من الخبز أو اللبن أو الجبن والشمع والفطير، وربما أهداه خروفاً أو جدياً أو شيئاً من المال، وكان ذلك كله يصير إلى الشيخ الحارس يتصرف فيه كيف يشاء.. وهذا جهل من أهل القرية!..

وأمام المقام المبارك يمر «الدرب» وهو شارع القرية الرئيسي، إذا جاز تسميته شارعًا، إذ هو عمر ضيق تتزاحم على جانبيه البيوت وينتهي بضريح آخر لشيخ منافس للشيخ هدهد، ضريح الشيخ درباس، ولكنه أقل مركزًا من الشيخ هدهد..

وكانت القرية تتكون من أربعة أقسام، كل قسم منها يتكون من دروب وأزقة كلها مسدود ولا يوصل واحد منها إلى الآخر، وكل درب تسكنه وتملكه وتسيطر عليه أسرة أو أسر تجمعها رابطة القرابة بالأسر التي تسكن دروب القسم الأخرى. وهذه الأقسام كأنها مدن مستقلة، لكل منها زاويته التي يصلي فيها أهله ودواره الذي يتجمع فيه الناس، وقيمون فيه العزاء إذا مات أحدهم أو الأعراس إذا تأهل آخر.

وكان في كل قسم تاجر يبيع كل شيء، البقالة والقماش والفحم والمحاصيل والدخان والمسل والشاي والفول المدمس في الصباح،

والناس لا يدفعون لأولئك التجار أثمان ما يشترون إلا في الموسم، إذا حصد القمح أدى كل إنسان ما عليه قمحًا، فإذا جاء أوان الذرة دفعوا ذرة، وفيما بين المحاصيل يأخذون ما يريدون على الحساب. وكان موسمهم الأكبر موسم القطن، وهو الموسم الوحيد الذي يعرفون فيه النقود، فيشتري كل منهم كسوة السنة لنفسه وأولاده، وهي كسوة متواضعة لا تزيد على أمتار من القماش الأبيض أو الأزرق للرجال والأسود للنساء، فإذا نفدت نقود القطن عادوا إلى التعامل بالمحاصيل وعلى الحساب أيضًا حتى يأتي موسم جديد. وكان أشد الشهور عليهم أغسطس ونوفمبر. في هذين الشهرين لا تجد مع أحد منهم مالا أو مخزونا، فإذا نزلت بأحدهم نازلة وكان لابد من مال استدان على المحصول من التاجر أو من الشيخ رمضان، وكان هذا الرجل ممولًا كبيرًا يخرج المال بالفايظ، ويرى أن الفايظ ليس ربًا، وإنما هو أجر تشغيل المال وجزاء فك ضيق الناس، وكان قنوعًا جدًا لا يطلب من الناس إلا خمسين قرشًا عن الجنيه.. ويمهلهم إلى عام، ويأخذ عليهم صكوكًا بالمبلغ وفايظه، ولا يستطيع أحد التلاعب بهاله أبدًا، فهو رجل حريص ذو عزوة كبيرة، يبجله الناس إذا رأوه ويستمعون إلى مواعظه التي يلقيها في المسجد وفي عينيه الدموع خشية من الله وتقى، فإذا انصرفوا عنه لعنوه بكل ما في قلوبهم من غيظ وحقد مكتوم..

وكان دوار العمدة يقع على الدرب الكبير، وهو دوار رحب ذو أجنحة وفروع، تحيط به دور أسرته من آل أبي الشوارب، وهي أسرة من

أقوى أسر القرية وأغناها، وكان هو أكثرهم مالاً وأقواهم جاهاً، لا ينازعه في القرية إلا بيت خليل سلامة، وهو اقطاعي موسر مثله، وتاريخ القرية كله صراع ومذابح بين هذين البيتين. وكان كلاهما من الأشراف العرب الذين يميزون أنفسهم عن غيرهم من الفلاحين، وكان الناس يكرهون أفراد البيتين وكل أشراف البلد، ولا يرون إلا أنهم طغمة⁽¹⁾ لصوص..

ظل العمدة متربعا على الأريكة مبلبل الخاطر وقد شغلت نفسه الهواجس، فإن الأمر أخذ يتضخم في خياله حتى شغله عن كل شيء عداه. وأحس أنه بحاجة إلى أن يخلو بنفسه ليفكر دون أن يزعجه أحد. كانت هذه هي المرة الأولى التي ساوره فيها هذا الإحساس، فإنه كان يفكر دائما مع الآخرين، أو بالآخرين. يجلس والناس من حوله ويجري الحديث. وقد يشارك فيه وقد لا يشارك، ولكنه يخرج من الحديث الصاخب أو «الدردشة» الفارغة بالرأي الذي يريد. وكانت هذه المجالس تخلع عليه الهيبة وتشعره بجلالة العمودية، وتجنبه الشيء الوحيد الذي لا يطيقه: التفكير.. وكيف يكون عمدة ويفكر؟.. وماذا يعمل عشرات الأقارب والمحاسيب والتنايلة من حوله إذا كان هو يعمل كل شيء ويفكر أيضا؟.. أما هذه المرة فقد بدا له الأمر أخطر من أن يشرك فيه هؤلاء الأذئاب والحشم الذين يحيطون به. فجلس على الكنبه الوثيرة إلى جانب السرير، ولم تكد تمر خمس دقائق حتى شعر أن رأسه

1- طغمة: مجموعة.

يثقل ويميل على صدره ويعود إلى النوم.. وأطل خادمه عوض من الباب فلا رآه مستوسناً دخل على أطراف أصابعه، وجلس عند قدميه، وخلع له حذاءه، ثم وضع المخدتين الصغيرتين على جانب الكنبه، وتناول جسد العمدة الضخم وأرقده في رفق، ثم رفع قدميه ووضعها على الكنبه، وجلس عند رأسه يطرد الذباب عن وجهه ويديه، ولم يلبث هو الآخر أن هوم ونام!..

ولم يطل النوم بالعمدة.. أرقه هذا الخاطر الذي ملأ نفسه ففتح عينيه، وظل راقداً على جنبه والأسئلة المحيرة تتوارد على ذهنه دون أن يجد لها جواباً: أحقيقة اختار الملك قريته هذه من دون قرى الصعيد كله ليزورها؟.. من الذي حدث الملك عنه ودله عليه؟.. وماذا يريد الملك بهذه الزيارة؟.. أحق ما قال له المأمور من أن الملك يريد أن يري بنفسه سير الأمور في مملكته؟.. أم أن خصومه سعوا به وأرادوا أن يعزلوه من العمودية بهذه الطريقة؟.. أسئلة ضخمة محيرة أطارت النوم من عينيه، وهو من ثلاثين سنة لا ينام بعد الظهر أقل من ثلاث ساعات متواليات على الأقل.

ثم رفع رأسه عن الوسادة وشفق بيده، ونادى:

- عوض!.. ولد يا عوض!..

وصحا عوض مفزوعاً وهو يقول:

- هذا أنا يا حضرة العمدة..

فصاح به:

- أنت طول عمرك نائم يا حلوف؟.. فرقم^(١).. هل هذا وقت نوم يا ثور؟.. جلالة الملك آت والدنيا ستتقلب هنا، وأنت نائم؟.. قم قل لسكينة تعمل قهوة.. وابحث لي عن صندوق السجائر..

فقال عوض بكل بلاهة:

- لقد شربت القهوة يا حضرة العمدة..

فنهره قائلاً:

- متى شربتها يا حمار؟.. وإذا أردت أن أشرب مرتين، فهل أنت شريكي؟..

وذهب عوض إلى الباب وفتحته وأبلغ أوامر العمدة لسكينة، ثم مضى بحث عن السجائر في أرجاء الغرفة فلم يجدها، فأقبل ودس يديه في يوب العمدة وهو جالس لا يتحرك كأنه دولا ب، ووجد السجائر في يبيه فناوله إياها، وأشعل له واحدة، ومضى يقول:

- هل أنت يا حضرة العمدة متضايق لأن جلالة الملك آت يزور بلدنا؟.. هذا يوم عيد.. لا بد أن تأتي بالمزيجة تضرب من الآن إلى

أن يجيء.. هذا يوم المنى يا بيبك.. هذا يوم المنى..

- إنني أعرف ذلك.. أعرفه جيداً.. أتظن أنك تفهمني؟..

- لا سمح الله يا حضرة العمدة.. ولكنني رأيت حضرتك مشغولاً مهموماً تفكر.

- زقم: بلع ريقه.

- ألا تريدني أن أفكر أيضًا؟.. جلالة الملك كله آت بلدنا.. لا أفكر؟..
إنني في حيرة.. ما الذي جعله يفكر فينا؟.. هل تستبعد أن أحدًا
قال له شيئًا عنا؟.. عمدة مثلي يعيش في حالة كافيًا خيره وشره..
ما للناس الكبار وماله؟..

- أي كبار يا حضرة العمدة؟.. هل في الدنيا من هو أكبر من
العمدة؟.. علام يقوم أمر هذا البلد كله؟.. أليس على العمدة؟..
هل هذا الملك ملك مصر كما يقولون؟.. إنه ملك عمدة.. هو نفسه
عمدة كبير، عمدة مصر كلها.. ماذا في ذلك؟.. عمدة مصر آت
يزور عمدة كفر سهيل.. ما الغرابة في ذلك؟..

فانبسطت أسارير العمدة أبو الشوارب، وهدأت نفسه بعض الشيء..
إنه يستريح دائمًا لكلام عوض، ذلك الساذج البسيط الذي ينطق - في
رأي صادق - بالحكمة دون أن يدري، فقال له مداعبًا:

- إذن فأنت يا وجه النحس ستري الملك؟!.. هل أنت لا تزال
تصدق أنه آت إلى هنا؟.. والله إن قلبي ليقول لي أن هذه حكاية
دبرها المدير مع أولاد سلامة..

- وما الذي أوصل أولاد سلامة للمدير يا حضرة العمدة؟.. أولاد
سلامة الشحاذون الذين يعيشون على القتل والنهب، ما الذي
أرسلهم للمدير؟.. ثلاثة بالله العظيم أنهم لا يجروءون على المرور
على المديرية.. أنت نسيت يوم ما المدير خبط الشيخ خليل بالكف
قصاد الناس كلها؟..

وتركه العمدة يتحدث، واسترسل هو في خواطر سريعة تراجعت على نفسه: صحيح أن الشيخ خليل سلامة مجرم كبير، عزله المدير عن العمودية وضربه أمام الناس، وصحيح أن أولاده مجرمون وقطاع طرق.. ولكن من يدري كيف تجري الأمور في هذه الأيام؟.. إن الناس كلهم يعرفون أن المدير نفسه لا يربأ بنفسه عن التعامل مع أولاد سلامة، فهو ينهب أموال الناس دون خوف أو حياء، ويتناول الرشوة علانية معتمداً على خدماته التي يؤديها لذلك الأمير الكبير الذي يملك آلاف الأفدنة في زمام المديرية. أن الأمير نفسه قاطع طريق، وهو لا يقطع الطريق بشهامة لصوص الريف الذين يغامرون بأنفسهم ويخوضون المعارك والبنادق في أيديهم، بل يستعين في ذلك بالمدير والمأمير: يستدعي من يريد منهم إلى قصره ويقول له: نريد الكذا فداناً التي بين التربة والنيل! نريد مائة، مائتين، بهيمة تحرث لنا الأرض بعد البرسيم! انظر لنا في عدد من الأنفار يعملون لنا جسراً!.. وهكذا.. وهم يتلقون هذه الأوامر كأنها أوامر الهية، ويسرعون في تنفيذها ويزيدون عليها من عندهم: إذا كان الأمير طامعاً في عشرين فداناً مهدوا له الطريق للحصول على ثلاثين، وإذا أراد خمسين بهيمة جمعوا له مائة، وإذا طلب مائة نفر جمعوا له مائتين.. وكانوا يعتمدون في ذلك كله على رجال مثل الشيخ خليل سلامة وأولاده، لقد كان يدهم اليمنى إلى ما قبل سنتين، حتى اقترفوا جناية لم يستطع المدير أن يتستر عليهم فيها: أشعلوا النار في قرية وقتلوا من أهلها نحو عشرين رجلاً، فقامت القيامة وثارَت الصحف وتكلم النواب في البرلمان،

فاضطر إلى عزل الشيخ خليل عن العمودية وأمر النيابة بالتحقيق معه ومع أولاده، بعد أن أخفى من معالم الجريمة كل ما أمكن إخفاؤه.. ولا زال بعض أولاد الشيخ في السجن رهن التحقيق، ولكن الشيخ لا زال كالأفعى يجري هنا وهناك، ولا هم له إلا السعي لاستعادة العمودية لكي يستطيع تبرة المحبوسين من أولاده وأقاربه..

وأشعل العمدة سيجارة أخرى، وقال لعوض:

- ناد لنا متبولي..

وأقبل متبولي، شيخ خفراء القرية وهو يتشاءب، فصاح به العمدة:

- كنت نائماً؟..

فقال الرجل ببلاهة:

- لا والله يا حضرة العمدة.. كنت على باب حضرتك..

- ماذا عملت؟..

- فيهم؟..

قالها وهو يتمطى مفيقاً من النوم، فثارت نائرة العمدة وقال:

- يا واد يا متبولي أنا قلت لك ألف مرة أنك لا تنفعني.. قلت لك

ألف مرة أنك لا تصلح خفير درك.. ثلاثة بالله العظيم إذا لم تتبه

وتنظر في أمورك كما أريد لأبحثن لي عن شيخ خفر غيرك.. أولاد

سلامة يحومون حولنا كالشعابين وأنت نائم؟.. جلالة الملك آت

- يزور بلدنا وأنت تقول: «فيم؟».. سنذهب في داهية يا متبولي الكلب وأنت نائم أنت والتنايلة الذين تسميهم خفراء؟..
- لماذا كل هذا يا حضرة العمدة؟.. ماذا جرى؟..
- ولا زلت تقول ماذا جرى؟.. جلالة الملك آت وتقول ماذا جرى؟..
- طيب وهل هو أتى يا حضرة العمدة؟.. فليفضل بالمجيء، وسيرى ماذا نعمل..
- هل سنتنظر حتى يأتي ثم ننظر ماذا نعمل؟.. لعلك تظن أن جلالة الملك هذا شيخ خفر مثلك؟!
- إذن ماذا نعمل يا حضرة العمدة؟.. تريد أن نذهب فنأتي به من قصره؟.. ماذا يريد؟.. قبل أن يأتي بيوم نزين البلد والمحطة ونذبح له كم عجلًا ونقيم البرجاس⁽¹⁾.
- هل أنت شيخ خفر؟.. يا ناس!.. لقد كفرت منك!.. هل أنت ابن آدم؟.. ألا أزال أعلمك طول عمري؟.. ألا يمكن أن يفهم مخك التخين هذا شيئًا؟..

فتدخل عوض ليهدئ من نائرة العمدة المغيظ وقال لمتبولي:

- اذهب الآن من وجه العمدة.. اذهب الآن حتى يروق حضرته..
- فصاح العمدة:

- أين يذهب يا حلوف يا ابن الحلوف؟.. أين يذهب؟.. أما ينتظر حتى يأخذ الأوامر؟..

1- البرجاس: رقصة الحصان.

ثم استعاد وقار العمودية وقال:

- انظر يا شيخ البهائم: تجمع أنفارك وتفهمهم أنهم لابد أن يفتحوا أعينهم جيدًا، لقد دخلنا الآن في الجذ وكفر سهيل ستصبح أكبر بلد في وجه قبلي كله. ها أنت ترى أن جلالة الملك آت وهذا شيء معناه كبير، كبير جدًا، وأولاد سلامة لن يدعونا نستريح. سيعملون ما يستطيعون لكي تفسد هذه الزيارة. أنا عملت كل جهدي حتى يستتب الأمن وينقطع دابر الجرائم، والحمد لله وفقني ربنا. سنة مرت دون أن تقع جريمة واحدة، وأيام خليل سلامة كان الدم للركب. قال لي سعادة المدير أن جلالة الملك راض عنا وأنه يقول: ليس عندي عمدة مثل صادق أبو الشوارب.. فاهم يا متبولي؟..

- فاهم يا حضرة العمدة..

- الاتكال على الله وعليك.. وزع أنفارك في كل مكان. نبه عليهم بالمحافظة على الدرك والسهر طول الليل، لو وجدت واحدًا منهم نائمًا لألقيت به وبك في البحر.

- لا حاجة لأن تقول ذلك يا حضرة العمدة، نحن في خدمتك ورقابنا فذاك وحضرتك عارف..

- هيا.. توكل على الله.. لك عندي مكافأة كبيرة لو مرت هذه الحكاية بخير..

فابتسم متبولي ابتسامة عريضة، ولم يتحرك من مكانه، فقال له العمدة:

- هيا يا متبولى.. ماذا تنتظر؟.. عندكم بنادق كفاية وجبخان⁽¹⁾
كفاية؟..

- نعم يا حضرة العمدة..

- إذن مالك واقف هكذا كاللوح؟..

- أريد أن أقول إننا نتعب ونشقى ولا يدري بنا أحد..

- كيف لا يدري بك أحد؟..

- قصدي يعني أن المدير وجمالة الملك اعترف بأن الأمن في البلد
أربعة وعشرون قيراطًا.. لكن أحدًا لم يشر إلى العبد لله خادمك..
جمالة الملك لا يدري بما يعملها شيخ الخفر..

فنظر إليه العمدة وكأنه قد صعق، ومضى يضرب كفًا بكف ويقول:
- والله عال!.. متبولى شيخ الخفر يريد أن يتكلم عنه جمالة الملك..
هل جنت؟..

- لا، لم أجن ولا شيء يا حضرة العمدة.. إنما نحن ناس مساكين..
نعرض أنفسنا للأخطار ليل نهار.. نقطع دابر المجرمين ونقر
الأمن.. ولا أحد يذكرنا..

- ماذا تقصد يا متبولى؟..

- قصدي أن تتكرم بكلمتين لسعادة المدير وكلمتين لجمالة الملك
عندما يجيء.. يقولون أن حضرتك ستصبح مديرًا.. وخادمك
يرجو أن يكون له نصيب..

1- خبخان: حجرة السلاح - أو الذخيرة.

وسكت دون أن يتم كلامه، فقد قرأ في عين العمدة أنه فهم، وهؤلاء الناس يفهم بعضهم بعضاً دون كلام. فهم أن متبولى يريد أن يكون عمدة من بعده، وأحس نحوه باحتقار شديد، لأن متبولى لم يكن إلا صعلوكاً حقيراً. كان أبوه مقاول عمال تراهيل، إذا احتاجت قرية لعمال جمعهم وساقهم إلى حيث يعملون وقاسمهم الأجر، وكان متبولى نفسه خادماً في بيت أبي الشوارب، ثم أصبح لصاً يسطو على البيوت والمزارع ويسمم البهائم، فأخذ خليل سلامة في خدمته واستعان به، ثم اختلف معه، فعاد إلى بيت أبي الشوارب وأخلص لهم، وعندما أصبح صادق أبو الشوارب عمدة عينه شيخاً للخفر.. وأفاد منه في إقرار الأمن بطريقة خاصة يعرفها من يعرفون الأحوال في بطون الريف. إنه مرتزق عديم الأصل، ومثله لا ينبغي أن يتطلع إلى العمودية، وإن كان في الواقع أقدر على ضبط الأمن من أي رجل في هذه القرية..

وفي هذه اللحظة ود صادق أبو الشوارب لو نهض فصفعه على وجهه وركله بقدمه، ولكن الظرف لم يكن مناسباً، فهو بحاجة إليه والمملك على الأبواب، فاغتصب ابتسامة باهتة أخفى وراءها ما كان يجول في نفسه وقال: - انظريا متبولى.. دع هذه الزيارة تمر على خير وسترى ما أعمله لك..

فأسرع الرجل وتناول يد العمدة وقبلها وهو يقول:

- أنا خادمك وتحت أمرك يا صادق بيك يا سيد الكل .. وعهد الله هذه البلدة لا تسمع فيها خبر جريمة طالما أنت عمدة.. ربنا يحفظك لنا.. غداً تصبح مدير المديرية كلها، وأكون أنا خادمك هنا.. السلام عليكم..

- وعليكم السلام..

وخرج متبولي، وبقي العمدة جامدًا، ونظر إليه عوض وقال:

- بودي لو أفرغت رصاصة في رأسه..

- ليس هذا وقته يا سي عوض..

قالها في هدوء وبرود.. ثم استطرد:

- اذهب وانظر لماذا تأخر أخوتي إسماعيل ومحمد بن ورجب وعمي

سالم، اذهب وائت بهم.. نريد أن نتدبر الأمر..

لم تنقض دقائق حتى أقبل حمدين أبو الشوارب أخو العمدة، وهو رجل جاوز الخمسين من عمره بقليل، يسير في خطوات متناقلة لا تكاد قدماه تحملان قامته الطويلة لفرط ما ألحت عليه الأمراض، ولطول ما ألح هو على البقية الباقية من صحته بالإسراف. فقد كان الرجل مبتلى بذات الكبد منذ كان صبيًا، ولقد عالجوه منها مرارًا وتكرارًا دون جدوى، فقد كان جسده معتلاً عاجزًا عن المقاومة، وانتهى الأمر بأن أصبح هذا المرض جزءًا من كيانه، يأتيه في نوبات متباعدة تكاد كل منها تقضي على حياته. ومنذ نيف وعشر سنوات يعيش هذا الرجل في فراشه أكثر مما يعيش على قدميه، فقد اعتل طحاله وامتلأت كليته بالحصى، وأصبح يدب على ظهر الأرض كأنه شبح مقبل من عالم العدم، وكان طويل القامة ناحلاً شاحب الوجه، يخيل إليك أن بشرته قطعة من جلد حذاء قديم.. وله شارب ضخم أرسله على علاته، وصوت أجش غليظ

إذا سمعته خيل إليك أنه خارج من صدع صخرة، وإذا تحدث تحركت
تفاحة آدم مدبية في رقبته الطويلة المعروفة حركات سريعة عنيفة تستلفت
النظر، وربما صرفت السامع عن الاصغاء إلى الحديث..

جلس محمد بن علي الدكة المتهالكة، وأخرج إحدى قدميه من الحذاء
ورفع رجله وثناها أمامه، ثم أخرج من صدره صندوق الدخان، ولف
سيجارة في بطء شديد، وأشعلها ومديده بها وأراحها على ركبته المرفوعة،
ونظر إلى أخيه طويلاً، ثم قال:

- خير يا صادق..

- خير يا محمد بن.. ها أنت ترى.. ما رأيك؟..

- فيم؟..

- في زيارة جلالة الملك..

فابتسم محمد بن ابتسامة صفراء ساخرة، وأرسل من أنفه ضحكة
تهكم قصيرة جافية، ثم قال:

- اتصدق هذا الكلام يا صادق؟.. ستظل عمرك كله ساذجاً يضحك
منك الناس..

- من هم أولئك الناس الذين يضحكون مني؟..

- كل الناس.. المأمور مثلاً.. يقول لك إن الملك سيزور بلدك من
دون بلاد القطر جميعاً فتصدق..

- ولم لا أصدق؟..

- هل يدخل عقلك أن الملك بجلالة قدره يدع بلاد وجه قبلي كلها لكي يزور كفر سهيل وعمدتها صادق مندور أبو الشوارب؟.. هل هذا معقول يا ناس؟..

- ولم لا يكون معقولاً يا محمدين؟.. لنفرض أن الملك يريد أن يزور قرية من القرى ويتعرف على عمدة من العمدة، فلماذا تستبعد أن تكون القرية هي كفر سهيل والعمدة هو أنا؟.. أليست كفر سهيل قرية كغيرها؟.. أليست أنا عمدة من ضمن آلاف العمدة، يمكن أن يزورني الملك كما يزور غيري إذا أراد أن يزور عمداً؟.. لماذا تراني دائماً أقل من غيري؟..

- لا سمح الله يا صادق.. لست أقل من غيري في شيء..

فابتسم صادق ابتسامة جامدة حملها كل الألم الذي تفيض به نفسه من ناحية أخيه الذي لا يكف عن إيلامه، وقال:

- بل أنت تراني أقل من غيري يا محمدين.. أتعرف لماذا؟.. أتعرف ما ذنبي عندك؟..

ففوجيء محمدين بهذه اللهجة الجافية، والنظرة الحادة التي وجهها إليه أخوه، وظل ينظر إليه فاغراً⁽¹⁾ فاه، واستطرد صادق يقول:

- ذنبي أنني أخوك. الواحد منا يحقد على الناس لمجرد قرابتهم منه، من ذنوب الناس عندنا أن يكونوا أقاربنا أو معارفنا. أو أن ثروة الدنيا هبطت عي إنسان بعيد لا نعرفه لما استكثرناها عليه، فإذا

1- فاغراً: فاتحاً.

أصابنا أخا أو قريباً لنا كانت الطامة الكبرى والتهبت قلوبنا حسداً وألماً.. ألا تحمد الله على أن العمدة أخوك؟.. أليس هذا خيراً من أن يكون العمدة إنساناً غريباً عنك؟..

فاحتقن وجه محمددين، وقال وهو ينتفض:

- أتمتن على بأنك عمدة؟ أنسيت أنني صاحب فضل في هذه العمودية؟.. ألم أكن أنا أولى بها منك؟.. ألم يكن الناس كلهم يرشحونني لها حتى ذهبت أنت وألقيت بنفسك على أقدام المدير والمأمور تقبلها؟.. ألم أتنازل لك وأؤيدك؟.. قسماً بالله العظيم أي لقادر أن أعزلك اليوم لو أردت..

وظهر الشر في وجهه، وتحول في لحظة واحدة من أخ شقيق إلى خصم رهيب متأهب لأن ينشب أظفاره في عنق أخيه، وكل ذلك بسبب كلمة واحدة..

واستولى الخوف على قلب العمدة. لم تكن لديه هذه الطاقة الهائلة من الشر التي تضمها قلوب من حوله من القرويين، وكان يعرف أن أقاربه ألد أعدائه، وأن أخاه محمددين هذا كتلة ملتهبة من الحقد والحسد والمرارة، وكان يتحاشى جهده هذه الانفجارات، لأنه كان عاجزاً عن مواجهتها. كان فيه هدوء لا يعرفه هذا النوع من القرويين، وكان هذا الهدوء يتيح له فرصة سياسة الناس وتدبير الأمور، وبهذا الهدوء ساد هذا الوحوش الكاسرة وقلم ما استطاع تقليمه من أظفارها.

وكان محمددين قد هم في غاضباً يريد الخروج، وكان على لسانه بمين

طلاق ألا يدخل بيت أخيه، ولكن العمدة أسرع يعالج الموقف، فابتسم،
وأسرع يحول بين أخيه وبين الخروج وهو يقول:

- يا محمد بن يا أخي، أما يرضي الله عنك ويشفيك من هذه الفرعة؟..
في لحظة واحدة تنسى كل شيء وتهذر كالجمل؟.. أتنتسى أن لنا
خصوصًا متأهبون للقضاء علينا؟.. تريد أن يشمت فينا خليل
سلامة وأولاده؟.. أقعد يا شيخ أقعد واخز الشيطان، نحن اليوم
في نعمة كبيرة وجلالة الملك سيزورنا، والدنيا كلها تتحدث عنا، ثم
نتساجر وتتشائم ونضحك الناس منا؟.. أقعد يا أخي يا محمد بن..
فهدأت سورة محمد بن وعاد إلى مجلسه متمهلاً وهو يقول:

- والله ما عدت إلا خوفًا من شهامة الأعداء..

وساد الهدوء المجلس من جديد، فقال العمدة:

- سم باسم الله الرحمن الرحيم يا محمد بن وصل على الذي يشفع فيك
واخز الشيطان.. صدقني أن جلالة الملك سيزورنا، وهذه نعمة
من الله علينا نريد ألا تفلت من أيدينا.

فقال محمد بن:

- اسمع يا صادق.. أصدقني القول ولا تخف عني شيئًا.. من الذي
قال لك أن جلالة الملك سيزور بلدنا هذه من دون بلاد الصعيد
كلها؟..

فابتلع صادق ريقه تأهبًا لكذبة كبيرة، وقال:

- الباشا المدير..

- الباشا المدير بفمه؟..

- ثلاثة بالله العظيم ما قال لي ذلك إلا الباشا المدير بفمه.. قال لي في التليفون إن جلالة الملك يريد أن يكافئ العمدة الذين أظهروا كفاية في الضبط والربط بالوقوف على بلادهم أثناء الرحلة الملكية، واختار من قرى الصعيد الجواني قريتنا هذه كفر سهيل..

ثم ضحك وقال:

- نعمة من ربك يا أخي يا محمدين.. نعمة من ربك.. سبحانه وتعالى ألهم جلالته أن يشرفنا ويعلي مقامنا حتى يعظم مكاننا بين أهل البلد. وتنكتم أنفاس خليل سلامة وأولاده.. ماذا تريد؟..

ثم ضحك بكل وجهه وقال:

- ثلاثة بالله العظيم يا محمدين إننا سنصبح أعظم ناس في البلد كلها، وفي وجه قبلي كله، تستطيع حينما يأتي جلالة الملك أن تطلب أي عمودية في القطر كله، وسترى كيف يعينك الملك في الحال..

ثم اقترب من أخيه وهمس:

- أريد أن نكون يدًا واحدة.. أريد أن تشير على..

فظل محمدين صامتًا لا يعرف كيف يفكر. لو سأله أخوه في موضوع اغتيال أو حرق محصول أو تسميم ماشية لاتسع أمامه مجال الآراء.. ولكن الموضوع الآن لا قتل فيه ولا حقد ولا دماء، ولهذا ظل جامدًا كالصنم.. ثم فتح الله عليه بفكرة فابتسم، وقال:

- أول شيء نفعله أن نطلب إلى المدير أن يأمر بالقبض على خليل
سلامه وأولاده ويرمي بهم في أضيق السجون.
وفوجئ العمدة بهذه الفكرة الشيطانية التي صدرت عن أخيه صدورًا
طبيعيًا كما تصدر الثمرة عن الشجرة، وظل واجمًا لحظة ثم قال:

- هذه ليست فكرة يا محمد بن.. إنها تشعل البلد نارا، ولا يضرنا شيء
بقدر ما يضرنا ذلك الآن. نريد أن يبدو الأمن مستتبًا بأي طريقة
حتى تتم الزيارة الملكية بخير.. إذا نحن حبسناهم اليوم بدأت
المعارك وجرائم القتل وحرق المحاصيل.

فهز محمد بن رأسه وقال:

- عيبك يا صادق يا أخي أنك تخاف.. إن من يراك لا يصدق أنك
صعيدي بن صعيدي.. الصعيد يريد القلب الحديدي.. لقد
نصحتك وأنت حر.. إنهم لن يدعوك تهنأ بشيء..

فقال صادق:

- أنت تعلم أنني لست جبانًا، قلت لك ألف مرة ألا ترسل في لسانك
كأنني لست عمدة.. إذا لم تحترمني على أنني عمدة، فاحترمني على
أني أخوك.. تريد مني أن أرتكب أكبر حماقة يمكن أن يرتكبها
عمدة، فإذا لم أفعل قلت أنني جبان؟..

فقال محمد بن وهو كالمغضب:

- إذن افعل ما بدا لك.. لقد نصحتك.. ولن تلومن بعد ذلك إلا
نفسك.. سترى ما سيفعله أولاد خليل سلامة..

- دعنا من ذلك الآن يا أخي يا محمد بن، وتعال نفكر.. أمامنا شهر واحد.. ولا بد من تدبير شيء.. إن الملك كله قادم إلينا، ولا بد أن نعد له استقبالا حافلا، لا بد أن نقيم احتفالات وأعيادا سبعة أيام.. ففكر محمد بن وقال:

- يعني تريد أن تفعل شيئا مثل الذي فعلناه في طهور ياسين ابن عبد الوهاب؟..

فضرب العمدة كفا بكف وقال:

- يا رجل!.. أقول لك جلالة الملك تقول لي ياسين بن عبد الوهاب؟! يا صادق يا أخي ماذا تريدنا أن نعمل؟.. هل لدينا إلا الطبل والمزمار والبرجاس وضرب النار والفتة واللحم؟.. هل هناك في الدنيا غير ذلك؟..

وكان عوض خادم العمدة قد دخل، وأصغى إلى بعض الحديث، فقال:

- نعم هناك أشياء أخرى كثيرة تليق بالملوك.. هناك العوالم والراقصات.. هذه أشياء ملوكية!..

وكان صدر صادق قد أخرج من مناقشة أخيه، فلم يكده عوض ينطق بهذه الفكرة حتى تناول مركوبه وقذفه به وانفجر فيه قائلاً:

- أهذا كلام يقال يا ابن المركوب؟.. تأتي بغزالة وغوازيها يهزرن

بطونهن أمام صاحب العرش الذي لا يترك فرضاً؟.. قسماً بالله
لو أريتني وجهك القبيح اليوم لهشمت رأسك!..
ثم أطرق مفكراً شيئاً من الوقت، وأشعل سيجارة وقال لأخيه:
- اسمع يا محمدين.. نريد أن نستشير من يعرف هذه الأمور. نحن
فلاحون وعمد لا نعرف عن هؤلاء الملوك شيئاً.. ما للملوك
ومالنا؟.. إنهم يعيشون هناك في القاهرة مع الباشوات والبكوات
والحكام والناس العظام.. أتدرى يا محمدين؟.. إن قلبي يحدثني
أنها مكيدة مدبرة لنا.. يريدون أن يخربوا بيتنا ويفضحونا في العالم..
ماذا يعمل رجل مثلي للملك؟.. إن اليوم الذي زارنا فيه المدير كان
يوماً أسود.. أنفقنا مائة جنيه وقدمنا له من الهدايا ما كسر ظهورنا
ولم نعبه مع ذلك.. ثم نفاجأ بالملك دفعة واحدة؟!.. الملك
كله؟!..

وهنا دخل فقيه القرية الشيخ عبد الجليل، وكان أزهرياً أبقاً⁽¹⁾ درس
في الأزهر بضع سنوات عجز خلالها عن أن يصل إلى العالمية، وأراد أن
يحصل على الابتدائية فالتحق بمدرسة ليلية وجاهد بضعة شهور ولكنه
انهزم أمام اللغة الإنجليزية، فلم تتعد معرفته بها فك الحروف، وزعم
مع ذلك أنه حصل على الابتدائية، وأنه يجيد اللغة الإنجليزية، وأثبت
بالفعل أنه يجيدها في مناسبة شهدها نفر كثير من أهل القرية.. فقد كان
واقفاً معهم في محطة قنا عندما وصل مفتش الري الإنجليزي، ووقف

1- أبقاً: ذو نتوءات جلدية.

على الرصيف يبحث عن مساعده وكان قد تأخر، ثم رأى هذه الجماعة من القرويين وفي وسطها ذلك الشيخ ينظر إليه نظرة توسم منها أنه على شيء من المعرفة، فتقدم منه، وحياء بتحية المساء، وكان الوقت مساء، فبهت الشيخ عبد الجليل، ثم عثر على لسانه أخيراً فقال: جود مورننج!.. فابتسم المفتش وحسب أنه يعرف الإنجليزية، فمضى يسأله عما يريد في كلام طويل، وصاحبنا ينظر إليه فاغراً فاه دون أن يفهم حرفاً، ولكنه جعل يقول: ييس.. ييس، ينغمها في نغمات شتى، وجعل يدور بعينه في فناء المحطة باحثاً عن مخرج من هذه الورطة.. وساعفه القدر، فبصر بمعاون المحطة مقبلاً من بعيد فأيقن بالخلاص وأشار إليه وقال: هير.. هير.. وفرح المهندس، واتجه نحوه بعد أن هز يد الشيخ عبد الجليل شاكراً..

ومن ذلك اليوم لم يعد أحد من أهل القرية ينازعه في أنه ضليع في اللغة الإنجليزية، وأحاطه القرويون بهالة من الإكبار جعلته يستقل على نفسه الشهادة الابتدائية، فمنح نفسه البكالوريا وزعم أنه حصل عليها من «منازلهم» بالمراسلة، وأنه أدى الامتحان خلال إحدى زيارته للقاهرة، وعلا مقامه بين الناس، وأصبح مستشار العمدة أبو الشوارب في كثير من المسائل..

ولم تكد عين العمدة تقع عليه حتى صاح:

- تعال.. تعال.. أين أنت ونحن في هذا المشكل؟..

فأقبل وسلم على العمدة وقبل يده، واكتفى بالسلام على محمد بن لأنه

ليس عمدة، وجلس وطلب سيجارة، فأشعلها، ثم قال:

- خير إن شاء الله..

- خير بإذن الله يا شيخ عبد الجليل، أنت عرفت الخبر طبعاً؟..

- خبر الزيارة الملكية؟.. وهل بقي أحد لم يسمعه إلى الآن؟! إنه

حديث القطر كله من الصعيد إلى بحري، أنا أقرأ الجرائد وأعرف..

فقفز العمدة صادق أبو الشوارب من مجلسه وصاح:

- يا خبر أسود.. وهل بلغ الأمر إلى الصحف؟.. إذن فهو صحيح..

- وكيف لا يكون صحيحاً؟.. المديرية كلها قائمة قاعدة..

فضرب العمدة كفاً بكف وقال:

- ماذا تفعل الآن؟.. وقعنا وكان الذي كان..

فقال محمددين في شيء من الاستهزاء:

- أما كنت متأكداً إلى الآن؟.. يبلغك المدير بنفسه ولا تصدق؟

اصدقني القول يا أخي بالله.. هل قال المدير لك ذلك حقاً؟..

فبلغ به الضجر مداه وصاح بأخيه مستعظفاً:

- بالله ألا أرحتني من استهزائك هذا.. قلت لك ألف مرة أن المدير

هو الذي قال لي ذلك، والإشارة في دفتر الإشارات عندك تستطيع

أن تراها..

- إذن لماذا يدهشك أن تكتب الصحف؟..

- المدير شيء والصحف شيء.. المدير يقول كل يوم شيئاً.. يقول

اليوم شيئاً وغداً غيره.. أما الجرائد.. يا خبر أسود!.. وصلت

للجرائد؟! وكتبت اسمي؟!.. الأهرام والمقطم والبلاغ؟..

فقال الشيخ عبد الجليل مكملًا:

- والجهاد والعلم واللطائف..

- كل هذه كتبت؟.. أين هي؟.. هاتها واقرأ لي ما قالت..

- لم أقرأها بعد.. إنها تصل إلى هنا متأخرة.. ولكنني سمعت أنها كتبت، قال لي ذلك حسين الباشمحضر وألفونس الكاتب في دائرة البرنس..

- إذن فلا بد أنها كتبت.. حسين الباشمحضر وألفونس لا يكذبان.. ماذا من عمل الآن؟..

فتناول عبد الجليل سيجارة أخرى من علبة العمدة، وأشعلها وقال:
- نريد شيئًا من الشاي والمعسل حتى نستطيع أن نفكر..
فصاح العمدة:

- يا عوض.. ولد يا عوض!..

وظهر عوض على الباب، فقال له العمدة:

- يا ولد يا حلوف.. الناس هنا من ساعة ولما يأت الشاي بعد؟..
هات الشاي والمعسل..

فقال عوض:

- الشاي جاهز.. ها هي سكينة مقبلة به.. والشيشة تأتي حالًا..

وبعد دقائق كان عبد الجليل يرشف الشاي ويشد الأنفاس من

شيشة، والعمدة ينظر إليه كأنها ينتظر الوحي.. وأخيرًا فتح عبد الجليل
بها وابتسم وقال:

- انظر يا حضرة العمدة.. نساfer إلى القاهرة لنرى الموضوع بأنفسنا..

- ولا بد من هذا السفر؟..

- ما من ذلك بد..

- أما نسأل المدير أولًا؟..

- حذار من ذلك! لن تحصل من المدير على شيء ينفعك، ستعود

من عنده دون أن تعرف شيئًا، وربما حاول أن يستغل الموضوع

لصالحه.. الرأي عندي أن نذهب إلى القاهرة حالًا، ونصل

بالناس الكبار..

فقال محمدبن:

- أي ناس كبار؟..

- قصدي رئيس الوزراء.. رئيس الديوان..

- لم يبق إلا أن تقول أنكما ستقابلان الملك..

فقال عبد الجليل:

- والملك أيضًا.. ماذا في ذلك؟.. هل الملك إله من السماء؟.. أليس

هو ابن آدم مثلنا؟..

- لا يا سيدي.. إنه ليس من بني آدم مثلنا..

- إذن ماذا يكون؟..

- ملك.. ملك من طينة ملوك..

- سبحان الله يا أخي.. هو نفسه يقول إنه من بني آدم مثلنا فتقول أنت إنه ليس من بني آدم؟.. وما هي طينة الملوك هذه؟..

- أولاً هو نفسه لم يقل إنه مثلنا.. إنه يقول إنه الملك، بل يقول نحن الملك.. ثانياً طينة الملوك غير طينتنا.. صحيح إننا كلنا من طين.. ولكن فرق بين طين وطين.. هناك طين الترع والمصارف، وهناك الطين الشريف الذي نصنع منه قلل الفخار البيضاء.. وهناك الطينة الحلوة.. هذه كلها أصناف وأشكال..

- استغفر ربك يا عم محمد.. إننا كلنا أولاد آدم عليه السلام، وآدم خلقه الله من طين الجنة..

فصاح محمد:

- يا عالم!.. هل تصدقون أن حلوقاً مثل زناقي الأقرع من طين الجنة؟.. أقسم بالله العظيم أنه لم يخلق إلا من السباخ.. منظره منظر سباح.. ورائحته رائحة سباح!..

فقال العمدة:

- يا محمد.. يا أخي مالنا ولهذا الكلام؟.. كم مرة قلت لك لا تتحدث فيما لا تفهم فيه.. الذي نعرفه كلنا أننا كلنا أبناء آدم، وآدم عليه السلام خلقه الله من طين.. المهم عندنا أن نعرف الآن ماذا نصنع؟!..

- قلت لك يا حضرة العمدة، نساfer الآن إلى القاهرة.. نريد أن نتحقق من الأمر بأنفسنا، ونريد أن نستفهم ونتنور حتي نعرف ماذا نعمل في ذلك اليوم؟..

- فكرة والله.. ما رأيك يا محمدين؟..

- ما دمتم لا تقبلون كلامي، فافعلوا ما تريدون..

- اسمع يا محمدين.. الوقت ليس وقت خصام.. إن عبد الجليل يقرأ الصحف ويفهم أشياء كثيرة، إننا هنا في قريتنا ولا ندري كيف تدور الدنيا..

فقال عبد الجليل محاولاً استرضاء محمدين، وكان يخافه:

- يا عم محمدين يا بوي.. أنا خادمكم وقسيمكم في الخير والشر، وحضرة العمدة سيدنا كلنا وتاج رأسنا.. ومن واجبنا كلنا أن نضحى بكل شيء في سبيله.. العمودية في بيتكم ولا بد أن تظل في بيتكم، نريد أن نكون يدًا واحدة حتى تمر الزيارة بسلام. قسمًا بالله أن هذه الزيارة فيها باشوية لحضرة العمدة، وبكوبة لك، وإن شاء الله عندما يسر الملك من الزيارة سيعلي مراتب عمدتنا صادق أبو الشوارب، وستكون العمودية بإذن الله من نصيبك.. فليس لها من بعده إلا أنت.. وأنا عندما أقول إننا ينبغي أن نسرع إلى القاهرة فورًا إنما أريد أن أخدم وأفوز لكم من هذه الفرصة بكل خير.. صحيح إنني لست من مقامكم ولكني محسوبكم.

وهبطت هذه الكلمات بردًا وسلامًا على قلب محمد بن، وتراءت له العمودية خلال الابتسامة الماكرة التي ملأت وجه عبد الجليل، فكأنما عثر على كنز زاخر كاد يضيعه بجهله. وأحس للمرة الأولى في حياته بالاحترام نحو هذا الهلغوت الذي ظل يحتقره طول عمره، وبدأ يؤمن بأنه متعلم وحاصل على البكالوريا، وخف على قلبه، فمضى يقول:

- بالله العظيم أنا ما فكرت في العمودية ولا هي خطرت لي على بال، وما دام العمدة هو أخونا صادق فكلنا عمد. أنا عمدة وأخي إسماعيل عمدة وعمي سالم عمدة، وكلنا فداء بعض..

فانبسطت أسارير العمدة، ونظر إلى عبد الجليل نظرة إعجاب، وقال:
- إذن أنت موافق على رأي عبد الجليل، نذهب إلى مصر لرعى مصلحتنا بأنفسنا؟..

- أظن هذا هو أصوب ما يمكن عمله، عبد الجليل ولد ناصح ويعرف أن أحدًا في المديرية لن يصدقنا القول، ونحن نريد أن نرسو على بر..

وأحس عبد الجليل أن قيادة الموقف أصبح في يده، فاعتدل في مجلسه، وعلا رأسه وصوته وهتف:

- يا ولدي عوض!..

ولم يقبل عوض.. لقد سمع النداء، ولكنه استنكر أن يناديه هذا الصعلوك بهذا الأسلوب، فظل مكانه دون أن يتحرك. فعاد عبد الجليل يناديه، وهو مصر على عدم الاستجابة، فهتف العمدة:

- يا عوض الكلب..!

وهنا أفاق عوض، وكان واقفًا في الممر خارج الحجرة متكئًا على نافذة. فاعتدل، وبلع ريقه، وسار نحو الحجرة، وفتح الباب وأطل برأسه، فقال العمدة:

- أين أنت أيها البغل؟.. نائم كعادتك؟..

- لا والله.. كنت داخل الدار..

- ولم تسمع نداء سيدك عبد الجليل؟..

وأحس عوض كأنها كلمة «سيدك عبد الجليل» صفعه هوت على وجهه، ولكنه تحملها، وكأن تحمل الصفعات إحدى مواهبه ومؤهلاته لذلك المركز الممتاز الذي يحتله في دار العمدة. فظل مكانه خافض الرأس متأهبًا لتلقي كل ما عسى أن يجود به أهل المجلس من صفعات..

وقال عبد الجليل:

- هات لنا شايًا، وأتيني بورقة معسل..

ثم نظر إلى العمدة وقال:

- انظر يا حضرة العمدة، نسافر بإذن الله بعد غد، الجمعة، بعد صلاة الجمعة، نأخذ قطار الثالثة بعد الظهر من قوص، نذهب إلى هناك على الركائب، دون أن يعلم أحد أننا سنأخذ القطار.. الأوفق ألا يعلم أحد من أهل القرية بشيء من هذا. قال رسول الله ﷺ:

«استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».. لو علم خصومنا بذلك لسبقونا إلى القاهرة ليفسدوا الأمر علينا..

فقال محمد بن:

- ولكن أهل البلد سيلاحظون أن العمدة ليس هنا..

- لن يكون أمامهم وقت ليفهموا شيئاً، سنمكث في القاهرة ثلاثة أيام.. أربعة على الأكثر. الناس هنا يلاحظون بسرعة ولكنهم يفكرون ببطء، سيتبهنون إلى غياب العمدة يوم الأحد، وسيبدأون في التفكير بعد أن نعود..

ثم التفت إلى العمدة مكماً حديثه:

سيقوم الشيخ محمد بن مقام حضرتك، وسيجتهد هو والشيخ إسماعيل في حفظ الأمن حتى نعود..

- والمدير؟.. والمأمور؟..

- نقول لهما إننا استدعينا إلى القاهرة فجأة.. نقول لهما ذلك بعد أن نعود منصورين بإذن الله..

وظل محمد بن واجماً. كان الأمر كله يبدو كأنه عبث فارغ لا يستحق التفكير فيما عدا شيء واحد: أنه سيصبح عمدة لمدة ثلاثة أيام.. أربعة.. ومن دري؟.. خمسة أو ستة.. واسترسل مع أحلام العمودية لحظات، وبدأ يتصور نفسه عمدة جليل القدر حاكماً بأمره على هذا البلد، فلم ينتبه

إلا عندما سمع عبد الجليل يقول:

- ولكننا في حاجة إلى نقود..

ودوت كلمة «نقود» في كيان محمدين كله، وأحس لها بشيء من الرعب، ولا شيء يرعب الفلاحين في العالم قدر مطالبتهم بالنقود. إن العملة في نظرهم هي أقيم شيء في الوجود، ولو أنك خيرت فلاحًا بين أن يعطيك أردب قمح أو خمسين قرشًا لما تردد في إعطائك القمح.. كل شيء إلا دفع النقود!..

ونظر محمدين إلى عبد الجليل وقال:

- نقود؟ لماذا؟ إذا كان المطلوب أنفارا يعملون جمعنا الأنفار، وإذا كان المطلوب طعامًا ذبحنا الذبائح وأطعمنا جيشًا بأسره.
- نعم، ولكننا ذاهبون الآن إلى القاهرة، وأهل القاهرة لا يتعاملون بالمحاصيل ولا يعرفون الذبائح، إنهم لا يعرفون إلا النقود.
- لا أفهم.. هل سنوزع على أهل القاهرة نقودًا؟..

فاعتدل عبد الجليل في مجلسه وقال:

- نحن الآن أمام فرصة لا تعوض.. أهل الحل والعقد في مصر ينظرون إلينا، فعلينا أن ننتهز الفرصة.. تعلمون أن الملك أنشأ لنفسه حزبًا يحكم البلد باسمه. لقد جبي منكم المدير اشتراك جريدة هذا الحزب، وهي تصلنا كل يوم، وأنا أقرأها، وأفهم منها

- أن الملك في حاجة إلى أنصار.. أنصاره هم الذين يشتركون في هذا الحزب ويتبرعون لخزائنه بالأموال..
- عجيب.. ولماذا لا يتبرع الملك لحزبه؟.. أليس هو أغنياء هذا البلد؟..
- هذا صحيح، إن الملك غني جدًا، ولكنه يشعر أنه فقير، في حاجة إلى مزيد من المال..
- فقير؟ كل هذا ولا زال فقيرًا؟..
- فقير أو غير فقير.. الملوك هكذا، يأخذون دائمًا ولا يعطون شيئًا.
- إذن ما هذا الذي نسمع عنه يا أخي عن كرم الملوك.. وعطايا الملوك؟.. ألا يقولون أن الملك الفلاني أو السلطان العلاني دخل عليه فلان فأعطاه ألف دينار؟..
- لا تصدقوا أنهم يعطون من ما لهم.. بل من مال الناس. وهذا الملك أيضًا إذا أعطانا مائة أخذ ألفًا..
- كيف؟..
- شرح ذلك كله مدحت بك باشكاتب سراي أفندينا البرنس الذي يملك نصف زمام هذه المديرية.. مدحت بك هذا رجل عجيب. إنه شركسي يتحدث العربية كما يتحدثها كوستا البقال، ولكنه في غاية التقى والصلاح. يصلي طول اليوم ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولهذا تشاجر مع البرنس. كان ناظرًا لسرايه في

مصر، ولم تعجبه أمور المسخرة التي كان أفندينا يعملها في سرايه، فجعل يذكره بالله وعقابه والجنة والنار وأفندينا لا يسمع، وأخيراً غضب عليه ونفاه إلى العزبة هنا..

وسكت عبد الجليل، ثم تلفت حوله وقال:

- لقد جعنا يا ناس.. أين العشاء؟..

وصفق العمدة، فدخل عوض، فقال العمدة:

- طول عمرك بهيم لا تفهم؟.. ألف مرة أنبهك إلى إحضار العشاء من نفسك عندما يكون عندنا ضيوف..

فقال عوض في بلاهة:

- هل هؤلاء ضيوف يا جناب العمدة؟ سيدي محمد بن صاحب بيت، والشيخ عبد الجليل يقيم هنا ليل نهار.. فهو ليس ضيفاً..

وتضايق عبد الجليل من ملاحظة عوض فقال:

- مقيم هنا ليل نهار؟.. ما هذا الكلام يا حضرة العمدة؟.. أيرضيك هذا؟..

ودهش العمدة من استنكار عبد الجليل، فهو بالفعل يكاد يكون مقيماً في البيت، وما هو، رغم البكالوريا التي يقول إنه يحملها، إلا واحد من الهلافت المحاسب.. ولكن وضعه الليلة قد تغير بعض الشيء، وأصبح جديراً بشيء من الاعتبار، فنظر العمدة إلى عوض وقال:

- والله لولا احترام الموجودين وكرامة الضيوف لتناولت الحذاء

ولا زلت أضربك به حتى يتمزق، لأنك بغل لا تفهم ولا ينفع
فيك التعليم.. ولا بد لي من خادم غيرك، فأنت غير جدير بخدمة
العمد.. أمش هات العشاء.. امش!!..

قالها في غضب بالغ استراحت له نفس عبد الجليل، فاعتدل في مجلسه
وقد لبسته العزة من رأسه إلى أخمص قدميه وقال:

- دعه يا حضرة العمدة. لا تغضب نفسك، غداً يكون لك خادم
غيره.. إنه ثور لا يفهم شيئاً..

وقال محمد بن:

- إذن فمدحت بك ليس أميراً من الأمراء؟..

- أي أمير يا سيدنا؟.. إنه خادم، خادم تركي، والأترك لا تعرف
الغفير منهم من الأمير.. كلهم حمر الوجوه منفوخون كأنهم
القرب..

- ولكنك تقول إنه رجل صالح..

- أجل.. هذا الرجل، والشهادة لله، صالح يعرف ربه، وهو يعتقد
اعتقاداً راسخاً في سيدي عبد الرحيم القناوي.. إنه يزوره ويوزع
الصدقات عند ضريحه كل جمعة..

ثم سكت لحظة، وعاد يقول:

- لقد تعلمت من هذا الرجل شيئاً كثيراً، فقد خطر ببالي أن يتعلم
العربية ليقراً كتب التفسير، فدلّه أولاد الحلال على، فكنت أذهب

إليه يومي الثلاثاء والجمعة من أسبوع، فكان يحدثني كثيرًا عن الملك ومن حوله.. صحيح إنه لم يتعلم من العربية شيئًا رغم الدروس التي أعطيته إياها.. ولكنني عرفت منه شيئًا كثيرًا عن أحوال البلد.. إنه يعرف الملك معرفة جيدة، وخدم في السراي سنوات قبل أن ينتقل لخدمة أفندينا، ثم غضب عليه أفندينا وجار عليه الزمان وأصبح فلاحًا مثلنا..

فقال العمدة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. هذا حال الدنيا..
- هذه قسمته.. المهم أنني عرفت منه كل شيء عن الملك ومن حوله، وكل شيء عن عالم السياسة، وهو الذي قال لي حكاية حزب الملك..

فقال محمد بن:

- وهل هو الذي قال لك أن الملك في حاجة إلى نقود؟..
- نعم.. هو قال لي أن السياسة عند الملك هي جمع المال.. يريد أن يكون ملكًا بباله. لقد رأى أن سادة البلد من الأعيان الأغنياء، فقرر أن يكون كبير الأعيان وأغنى الأغنياء..

ففكر محمد بن طويلًا ثم قال:

- فهمت السر في هذه الزيارة.. والله ما أتى إلا طامعًا في أرض أخي صادق..

وذعر صادق ذعرًا شديدًا وقال:

- ألم أقل لكم إنها مكيدة مدبرة لنا؟.. ماذا نفعل لو نزل الملك علينا
ضيّفًا، ثم طلب مني ثلاثين فدانًا أو أربعين؟..
فقال عبد الجليل مهدئًا:

- لا يا حضرة العمدة.. قال لي مدحت بك أن الملك لا يطلب بقمه
مالًا أو أرضًا.. بل لا يطمع في أراضي الناس، ولكنه يمد يده على
أراضي الأوقاف والحكومة والدوائر.. وهذه آلاف مؤلفة من
الفدادين.

فهذا روع صادق بعض الشيء وقال:

- ليأخذها كلها إذا أرد.. كل ما نريده أن يتعد عنا..
- إنه لا يتعد عنا أبدًا.. إنه يأخذ ما يريد بواسطتنا، بواسطة الوزراء
والكبراء والعمد.. أقصد أنه إذا زار بلدنا هذه كان علينا أن نسهل
له الحصول على الخمسين فدانًا الموقوفة على سيدي عبد الرحيم في
زماننا..

فسارع العمدة يقول:

- ليأخذها..

- وأرض الميري؟..

- ليأخذها أيضًا..

- وعزبة أفندينا؟..

- ليأخذ ما يريد..
- وستطالبنا الخاصة بأن نشهد أن وقف سيدي عبد الرحيم مثلاً أصله ملك أفندينا عباس؟..
- نشهد..
- خلاص.. أبشرك إذن بالباشوية.. إن الملك يأخذ أرضاً وعقارات ويعطي ألقاباً ووظائف، والألقاب تدر مالاً والوظائف تدر ذهباً..
- فهز محمد بن رأسه وقال:
- لا بد أن مدحت بك هذا شيطان..
- إنه يعرف كل شيء.. هو الذي قال لي مرة أن كل من ينضم إلى حزب الملك لابد أن يدفع في خزانة الحزب مائة أو مائتين من الجنيهات، فيطمئن بعد ذلك على ماله ومركزه إلى الأبد، ثم يعين بعد ذلك وزيراً أو مديراً أو ناظر على وقف أو عضو في مجلس النواب، لكي يعوض ما دفع..
- ثم فتح الباب، ودخل خادم يحمل الطبلية في يد وصينية كبيرة من حاس في اليد الأخرى، ووضع الطبلية وفوقها الصينية، ومضى إلى ن الحجرة، فحمل أربع وسائد كبيرة كانت موضوعة هناك ورصها ل الطبلية، ثم دخلت خادمة تحمل طبقاً كبيراً مليئاً بالأرز وفوقه قطع اللحم، وعاد الخادم الأول يحمل طبقاً وضعه فوق الطبلية، ثم أتت خادمة بمشنة فيها خبز، وفوق الخبز بصل، وتناولت البصل ووضعتة ق الطبلية، ودخل عوض يحمل قلة الماء وملعق كثيرة، وضعها على

الطبلية وقال:

- تفضلوا بالهنا والشفاء..

ثم خرج وعاد يحمل طبقاً فيه جبن، فوضعه ووقف بالباب ينتظر الأوامر..

ونفض الحاضرون فجلسوا إلى الطبلية، وبدأوا يأكلون والحديث متصل. وأخذت الأيدي تعمل في الخبز والجبن، والملاعق تضرب في الأرز والأصابع تمزق اللحم، وحمى وطيس المضغ والهرس والفتك، وخفت الحديث شيئاً فشيئاً، واستبدت بالجماعة نشوة الطعام..

ورفع العمدة قلة الماء وأخذ يكرع منها ثم أسلمها إلى أخيه محمد بن، ونظر فإذا أخوه إسماعيل داخل من الباب وهو يقول:

- سلام عليكم.. بسم الله..

فهتف الثلاثة:

- وعليكم السلام.. تفضل..

فجلس إلى الطبلية، وتناول رغيفاً فمزقه، وأخذ ملعقة دسها في الأرز وهو يقول:

- لقد تعشيت والله.. ولكنني أجلس معكم..

وقال العمدة مداعباً:

- جئت في وقتك يا إسماعيل.. ماذا أخرت الليلة؟..

- كنت على نية المجيء بعد المغرب ثم جاءني أبو هلال. إنه لا يريد

أن يسلم الفدادين التسعة. لن يفعل إلا إذا ناداه العمدة وأفهمه
أننا سنأخذ الفدادين بالسعر الذي قلنا له عليه مهما فعل.. إنه يظن
أننا لا نعرف كيف حصل على هذه الأرض.. ما هو إلا لص ابن
لص..

فقال العمدة:

- ولا بد أن تحصل على هذه الفدادين؟..
- وماذا أفعل؟.. إنها داخلية في أرضي كالشوكة في الحلق، وكان قد
وافق على بيعها لي بسعر 180 جنيهاً للفدان، ثم عرض عليه داود
سلامة ابن الشيخ خليل أن يشتريها منه بسعر مائتين..

فقال العمدة:

- اسمع يا إسماعيل.. صحيح أن أبا هلال لص، كل البلد تعرف
ذلك. وحقيقة أنه حصل على أرضه كلها بالسرقة والنهب،
ولكنك تعرف أن له عزوة كبيرة، وبيت أبي هلال..

فقال إسماعيل مقاطعاً:

- وهل نحن نخاف من أولاد هلال؟..
- لا.. نحن لا نخاف منهم.. ولكن الظرف لا يسمح.. أنت تعرف
أن الملك قادم إلى هنا..

- أجل أعرف، ولهذا أردت أن أنتهز الفرصة. أن أحداً لا يجسر على
مخالفتنا اليوم.. أنت لا تعرف يا أخي وقع الخبر في البلد.. لقد

ارتفع قدرنا فجأة وأصبح الكل يرتجفون أمامنا. أردت أن انتهز هذه الفرصة فأرسلت أستقدم أبا هلال، ففهم ما أريد وتهرب مني، ثم أتى أخيراً ولم أفز منه بشيء. أريد أن تستقدمه أنت الآن.. ابعث إليه خفيراً يجره إلى هنا..

ففكر العمدة قليلاً ثم قال:

- ما أظن هذا رأياً.. إننا لا نستطيع أن نرغم أولاد هلال على بيع الأرض.. أنت تعرف أنهم ليسوا بهذه البساطة، ثم انهم نسائب أولاد سلامة، وهم لا يسكتون على مثل ذلك.. ستقوم القيامة في البلد، وأولاد سلامة مجرمون لا يهمهم ملك أو غير ملك، وقد ينتهزون الفرصة لتعكير الأمن.. دع الأمر الآن.. بل من رأيي أن نفهم أبا هلال أننا صرفنا النظر عن الأرض، حتى يبتعد أولاد سلامة عنا..

فقال عبد الجليل:

- هذا عين الصواب يا حضرة العمدة!.. وهذه الفدادين التسعة التي يريد ها سيدي إسماعيل، سيحصل على أضعافها بثمان أقل إذا تمت الزيارة بسلام..

فاحتقن وجه إسماعيل وقال:

- أخرس أنت يا ولد يا عبد الجليل.. لا دخل لك بمثل هذه المسائل!.. لا تحشر نفسك بيني وبين أخي، نحن أسياد البلد ونحن نعرف ما نريد..

وصمت عبد الجليل، واكتفى بالنظر إلى العمدة، وظل هذا الأخير
جماً لا يدري ما يفعل أو يقول، وأخيراً وضع يده على ذراع أخيه
إسماعيل وقال:

- انظريا أبا إبراهيم يا أخي.. نحن الآن في ظرف طارئ، وللظروف
أحكام. الآن ليس أمامنا إلا زيارة الملك، لو مرت بسلام ورضى
عنا جلالته فسنصير كلنا باشوات.. وعبد الجليل من رجالنا
المخلصين، وهو يعرف أشياء كثيرة تفيدنا في هذا الظرف، وهو
عندما يقول إن هذا ليس وقت التسعة فدادين فإنما يريد صالحك
وصالحنا وصالح البيت له.. دع هذه المسألة الآن، وبعد أن تمر
الزيارة أجر لك الشحات أبا هلال وآخذ لك الفدادين من عينيه..
صل على الذي يشفع فيك الآن وقل: اللهم أخذك يا شيطان ودعنا
نتحدث في هدوء!...

فقال إسماعيل:

- والله إنك لرجل طيب يا صادق، وهؤلاء القحوف يستغلون
طبيتك.. وما أخشى إلا أن تضيع العمودية من بيتنا..

فقال صادق، بهذه الكياسة التي جعلته سيد أهل بلده:

- العمودية ستظل في بيتنا، وسيزيد ربنا نعمته علينا ببركة سيدي
عبد الرحيم.. دعنا مع عبد الجليل الآن ولا تنس أن النواة تسند
الزير..

- يعني.. ماذا تقصد؟..

- أقصد إننا في يوم كهذا ما كنا لندري ماذا نفعل لولا هذا «المفعوص»
الذي نهشته الآن.. زنت رجل دموي والغضب يؤذيك، ونحن
بحاجة إليك.. وأنت خيرنا وبركتنا..

وسكت لحظة، ثم تناول قلة الماء فصب منها في جوفه شيئاً كثيراً، ثم
عاد يقول:

- والآن يا إسماعيل.. أنا ذاهب إلى القاهرة..

فنظر إليه إسماعيل دهشاً ثم قال:

- لماذا؟.. لكي تأتي بمولانا؟..

- لا.. ولكن لكي أعمل ترتيبات الزيارة مع الناس الكبار..

- ترك البلد في هذه الظروف؟..

- البركة فيكم.. كلها ثلاثة أيام أربعة.. محمد بن أكبر منك، ولذلك

فسيقوم مقامي وأنت معه، الناس هنا يرهبونك، ولهذا فأنا أحب

أن تبذل جهدك في حفظ الزمن، وإن شاء الله عندما يأتي الملك

أطلب لكل منكما عمودية..

ولمح عبد الجليل أن نفس إسماعيل بدأت تطيب، فمضى يقول:

- لا مؤاخذه يا أبا إبراهيم.. أنا رجلكم وخادمكم وأبي تربي في

خيركم، وأريد أن تكون هذه الزيارة بركة عليكم جميعاً، والملك

لا بد أنه سمع عن بيتكم الطاهر.. ولهذا نريد أن نثبت له أننا

جديرون بزيارته، فإذا انبسط أصبحتم سادة الصعيد كله..

- وماذا ستعملون في القاهرة؟..

فقال العمدة:

- كل خير، أنا وعبد الجليل سنرى أهل الحل والعقد..

وقال عبد الجليل:

- وحضرة العمدة سيدخل حزب الملك؟؟؟

- وهل هذا حزب جديد؟..

- جديد جدًا.. ألفه الملك ليضارب الوفدين!..

- أحسن.. لكي نخلص من أولاد خليل سلامة.. إنهم قائمون

يقولون يحيى سعد، قاعدون يقولون يحيى سعد.. نهبوا البلد باسم

سعد مرة، وباسم الوطن مرة..

- عليك نور.. نريد نحن أن نأخذ الجانب الآخر: جانب الملك.

- نأخذ جانب العفريت لو اقتضي الأمر.. المهم أن نخلص من أولاد

خليل سلامة..

فقال عبد الجليل:

- تستطيع أن تقول أننا فرغنا منهم.. المهم أن نعمل في سرعة سنذهب

- حضرة العمدة وأنا - إلى القاهرة لترتب الأمر..

فقال العمدة:

- وعليكما أنت ومحمدين أن تحافظا على البلد..

- توكلوا على الله!..

- هكذا يكون الأخوة.. نحن محتاجون إلى نقود.. نريد أن يكون معنا..

فقال عبد الجليل:

- نحو خمسمائة جنيه..

فصعق إسماعيل وقال:

- خمسمائة جنيه؟!..

- أجل.. نريد أن يشترك حضرة العمدة في حزب الملك ويتبرع لخزانة الحزب بمبلغ كبير.

- نحن نعطي الملك.. أم الملك هو الذي يعطينا؟..

- نعطي حزب الملك هذا المبلغ.. وسترى كيف يعطينا الملك ألوفاً بعد ذلك..

فقال العمدة:

- عندي نحو 200 جنيه هنا.. وأريد منكما معاً ثلاثمائة أردّها إليكما في بحر أسبوعين..

فقال إسماعيل:

- لدي نحو مائة وخمسين.. خذها..

- عشت يا أبا إبراهيم!..

- ولك علينا أن نتحفظ على البلد كعينينا حتى تعود.. على مسألة الأمن والخفر.. ولكم على ألا يتنفس في هذا البلد صريخ ابن

يومين.. وسأسهر الليل كله أرعى زمام البلد، ولن تسمع إلا خيراً..
وفرغوا من الطعام، وجلسوا يتحدثون في موضوع الزيارة وغيره،
حتى ساعة متأخرة من الليل. ونظر العمدة إلى عبد الجليل وقال:

- وماذا نفعل لو سأل المدير عن سبب رحيلي؟..

فقال عبد الجليل دون تفكير طويل:

- لدي فكرة.. نقول أن رجال القصر استدعوك إلى مصر.. فبهت

العمدة لهذه الفكرة العبقريّة، وزاد قدر عبد الجليل في نظره، وقال:

- إنك والله لداهية ونحن لا ندري يا ولد يا عبد الجليل فقال عبد

الجليل:

- أنا خادمك يا حضرة العمدة.. نريد أن نساfer بعد غد.. يوم الجمعة

كما قلنا..

- على بركة الله.. نعمل ترتيبنا غداً..

ثم صفق العمدة، ودخل عوض، فقال له:

- إن متبولي شيخ الخفر.. ينتظر على الباب..

- ناده لي..

ودخل شيخ الخفر والنعاس يملأ عينيه، فقال العمدة:

- أتذكر ما أوصيتك به؟..

- فبدت الدهشة في وجه الخفير، وفرك عينيه، وقال:
- خير إن شاء الله.. بماذا أوصيتني حضرتك؟..
- فضرب العمدة كفًا بكف وقال:
- بالأمن يا شيخ البهايم.. ألم أقل لك أن تفتح عينيك؟..
- إنها مفتوحتان يا حضرة العمدة.
- قالها وهو يجتهد في أن يرفع جفنيه اللذين أثلهما⁽¹⁾ النعاس.. وسعل مشى وثلاث ليصفو حلقه.. ووقف وقفة شيخ خفر نشيط..
- ونظر إليه العمدة وقال:
- انظر يا متبولي الكلب، لا أريد نومًا..
- لن ننام يا أفندم.. إن سمعت بخبر جناية أو مشاجرة.. أو حريق أو اعتداء على بهائم أو ناس من أي نوع، فهذه رقبتى أقطعها..
- كيف وزعت الخفراء؟..
- كالعادة يا حضرة العمدة: في دابر الناحية وفي الأرباع وعند مخازن المحاصيل وشونة البنك وشاطئ التربة والمحطة!..
- ودارنا.. دار العمودية.. ألا يحرسها أحد؟..
- أقوم أنا بحراستها شخصيًا..
- تحرسها مع الملائكة.. أليس كذلك؟..
- لا والله يا حضرة العمدة.. نحن لا ننام.. لا ليلاً ولا نهارًا.. نحن يقظون باستمرار حتى تنتهي الزيارة..
- 1- أثلهما: أفضلهما.

- هأنت قد فهمت.. والجبخان؟..

- ليس لدينا كفاية.. كل خفير عنده أربع طلقات..

- يا ليلة سوداء!.. أربع طلقات؟!.. هل تحرسون تقفيصة دجاج؟..

البلد كله لصوص يا رجل.. وتقول لي أربع طلقات؟!

- الحاضر يا افندم!..

فنظر العمدة إلى أخيه إسماعيل، الذي وعد بأن يسهر على الأمن، فوجده يغط في نومه: لم يكد يفرغ من العشاء حتى مال رأسه على صدره وحملته الملائكة على أجنحتها.. وتأمله العمدة ثم ناداه:

- إسماعيل:.. إسماعيل!..

وفتح الرجل عينيه في صعوبة وقال دهشاً:

- إيه.. فيه حاجة؟..

- فيه سلامتك.. هكذا السهر على الأمن يا أبا إبراهيم..

فنظر إسماعيل حوله، ثم قال يخاطب شيخ الخفر:

- هات القلة يا واد يا متبولى..

وناوله متبولى القلة، فأفرغ ما فيها في جوفه دفعة واحدة، ثم تجشأ،

ومسح فمه بظهر يده، وقال:

- اطمئن يا عمدة.. كل شيء على ما يرام والبلد كالدجاج في

الأقفاص.. ما دمت أنا هنا..

- والله إني لخائف يا إسماعيل.. خصومنا أعينهم مفتوحة..

- وأعيننا نحن أيضًا..
- نحن في حاجة إلى جبخان.. الغفر ليس لديهم ذخيرة.
- نكتب للمديرية يا حضرة العمدة..
- وهل المديرية لديها جبخان يا إسماعيل؟..
- إذن ماذا لديها؟..
- التليفون.. المديرية تحكم بالتليفون.. المدير يمسك التليفون ويعطي أوامر.. وعلينا نحن السلاح والجبخان..
- فضحك عبد الجليل وقال:
- وعلينا للصوص أيضًا..
- وقال العمدة:
- يا إسماعيل.. نريد بضع مئات من الطلقات..
- نشترى شيئًا من النمس..
- وكان النمس من أعتى لصوص الناحية، ولكنه كان -في نفس الوقت- مورد السلاح والذخيرة لمن يريد من الناس، العمدة وغير العمدة..
- ما رأيك في أن تشتري كل ما لديه؟..
- غير ممكن يا عمدة.. لديه سلاح وذخيرة لجيش كامل.. كل الجبال التي حول البلد مخازن ذخيرة له.. عنده مدافع أيضًا لمن يريد..
- إذن نأده غدًا.. أحضره يتعشى معي مساء الغد.. سامع يا متبولي؟..

فقال شيخ الخفر:

- حاضر يا حضرة العمدة..

ثم التفت صادق نحو أخيه إسماعيل وقال:

- غداً نزيد عدد الأنفار ونوزعهم.. أريد أن تمسك البلد في يدك..

- ماسكها بيد الاثنين يا صادق..

- ومن غد تصحصح..

- مصحح من لآن..

- هيا يا متبولي.. اعمل دورية مرور على الرجال.. إياك أن اسمع

طلقة واحدة!..

- ربنا يستر يا حضرة العمدة..

واستدار شيخ الخفر في حركة عسكرية، وخرج، ونهض إسماعيل

وقال:

- انتظر يا متبولي حتى توصلني البيت..

ونهض وزير داخلية كفر سهيل ليسير في حراسة شيخ خفر لا يكاد

يفتح عينيه!..

وقال محمددين:

- يا واد يا متبولي.. مر على البيت وقل للجماعة إنني سأنام عند

العمدة..

ونفض عبد الجليل، فحيا العمدة وخرج وحده.. كان يرجو أن يسير في حماية شيخ الخفر، ولكن شيخ الخفر مضى يحرس من هو أهم منه، ومحمد بن لم يجد الشجاعة لذهاب إلى بيته، فلم يبق أمامه هو إلا أن يخرج وحده، ليجوس دروبًا يتردد الشيطان نفسه قبل المرور فيها في هذا الظلام الدامس!..

وخرج وحده دون أن يحفل له أحد. كأنه كلب حوم حول مائدة الطعام، ثم انصرف عندما رفعت، ومضى يخترق الظلام الدامس في دروب القرية الخالكة.. كان الليل مثل بحر من الظلمات، والبيوت قائمة كأنها أشباح، وبين الحين والحين ينبع كلب من الكلاب الكثيرة التي تعج بها القرية، وليس في قرى الصعيد ما هو أخطر من هذه الكلاب. إنها كلها في الليل جائعة غصبي، وكأنها تنتظر سواد الليل، لتعلن نقمتها على الناس لما أصاب جنسها من الهوان. فهذه الكلاب، كلاب أرمنت، أصلها من أرفع أصناف كلاب الدنيا: كلاب سان برنار، أتى الفرنسيون إلى مصر بعدد منها معهم عندما دخلوها مع نابليون، وأخذ الجنرال ديزيه جانبًا كبيرًا منها عندما قام بحملته المشهورة في الصعيد مطاردًا مراد بك ومماليكه. وفي موضع ما من مديرية قنا، وقعت اشتباكات عنيفة بينه وبين بعض المماليك، واضطر الفرنسيين للانسحاب تاركين شيئًا كثيرًا مما معهم. ومن بينه الكلاب، فشردت إلى الجبال والتلال واستوحشت فيها، واختلطت بما وجدته من الكلاب هناك فنشأت عن ذلك كلاب أرمنت، وهي الكلاب الوحيدة في الدنيا التي لا تفرق بين الآدمي وغير

الآدمي، انتقامًا من أبناء آدم الذين أتوا بها من مراعي الألب الخضراء إلى هذا الجحيم القاتل المقفر الذي يصاب كل شيء فيه بالسعار..

وكان عبد الجليل يسكن في طرف القرية، خارج دايـر الناحية، كان يسكن في جانب من الطاحونة المهجورة، آوته العجوز التي كانت تسكنها، وأنست به وانس بها وبعجلها.. وفي فناء الطاحونة أقام كُتَّابًا متواضعًا نصف معروش، واستخدم فيه شيخًا ضريـرًا ليقوم بتحفيظ الصبية القرآن، وأخذ هو على عاتقه تعليمهم اللغة العربية والمحفوظات والحساب، وأطلق عليه هذه الخبرة اسم «مدرسة كفر سهيل الإلزامية»، وكتب إلى الوزارة يطلب إعانة، وتناول الموظف المختص الطلب، وكفنه في ملف، ووراه الدرج دون احتفال..

ولم يصادف عبد الجليل في طريقه غير خفير واحد، وجده نائمًا متمددًا على الأرض مسندًا ظهره إلى جدار زاوية أبو جراب، فأيقظه في رفق، وأعطاه سيجارة ليغريه بمرافقته، ولكن الخفير أخذ السيجارة وعاد إلى نومه.. واغتاظ عبد الجليل، فجعل يهز الخفير، والخفير لا يتحرك، بل رفع أحد حاجبيه وفتح العين التي تحته فتحة أشبه بالشق.. فقال له عبد الجليل:

- أهكذا تسهرون على حياة الناس وأموالهم؟..

ولم يرد الخفير، فعاد عبد الجليل يقول:

- ألا تخش أن يسرقوا منك بندقيتك؟..

ولم تكذ هذه العبارة تصل إلى أذن الخفير الوسنان⁽¹⁾ حتى هم جالسًا
ويده اليمنى تبحث في الأرض في حركة عصبية وهو يقول:

- السلاح.. لا سلاح يا ناس.. الميزر⁽²⁾.. يا داهية مطينة!!
ثم قفز واقفًا وقال:

- كبريت.. معك كبريت؟.. السلاح راح!..

وانحنى عبد الجليل يبحث معه.. فعثر على البندقية وقال له:

- ها هي.. ها هي..

وناوله إياها.. فجعل يتحسسها كمن يتحسس طفلًا له أشرف على
الموت، واستطاع إنقاذه في آخر رمق.. فلما اطمأن إلى أنها بخير وعافية،
نظر إلى عبد الجليل وقال:

- لقد صنعت بي شيئًا لو صنعه غيرك لأفرغت فيه عيارًا..

- ماذا فعلت؟..

- أتجعل من السلاح والنظام موضوعًا لعبثك؟..

- يا أخي أحمد الله.. كنت غارقًا في النوم وسلاحك على متر منك،

ونبهتك إليه، فيكون هذا جزائي؟.. لو مر بك إنسان وسرقه ماذا

كنت تفعل؟..

- يسرق السلاح؟.. هل يجروء إنسان على أن يمس هذا السلاح؟

- ألم تكن غارقًا في النوم كالقتيل؟..

1- الوسنان: النعسان أي يغلب عليه النوم.

2- الميزر: البندقية.

فاقترب الخفير منه وقال غاضبًا:

- عليّ الطلاق بالثلاثة.. لو إنسان غيرك لأفرغت فيه عيارًا..

وفوجئ عبد الجليل بذلك وبهت، وقال:

- ماذا جرى لك؟..

- جرى لي؟.. تسألني ماذا جرى لي؟.. تتهمني بأنني كنت نائمًا ثم

تقول ماذا جري لي؟.. تريد أن تخرب بيتي ثم تقول ماذا جري

لي؟.. قسماً بالله العظيم ثلاثة.. لو إنسان غيرك لأفرغت فيه عيارًا..

- اتق الله يا خفير!..

- اخرس!..

- قصدي.. يا شيخ الخفر!..

- امشي لحالك.. امش وإلا أطبقت في خناقك..

وابتلع عبد الجليل ريقه، وحمد الله على أن الخفير تنازل عما هدده به

ثلاث مرات من إفراغ الرصاص في صدره، وأشعل عودًا من الثقاب

يريد أن يشعل به سيجارته، وهنا قال الخفير: - الآن عرفتكَ.. أليس عيبًا

أن تكون «فقي كتاب» وتحاول العبث والهزار؟..

وأفرخ روع عبد الجليل، وإن كانت عبارة «فقي الكتاب» صكت

سمعه.. ولم يجد بداً من ابتلاعها.. لم يكن له من ذلك مفر، فهو واقف

وحده في ظلام الليل مع طاغية أعمى القلب لا يتورع عن شيء.. وماذا

يحدث لو أفرغ فيه عيارًا كما قال؟.. لا شيء.. سيزعم الخفير أنه ضبطه

يحاول سرقة بهائم من بيت فلان أو علان.. وسيجد ألفاً يشهدون بأنهم رأوه يفعل ذلك.. أليس «فقي كتاب» بسيطاً لا عزوة له، ولا جاه؟.. في هذا الريف القاسي لا يأمن الإنسان إلا إذا كان فرعاً من شجرة حمير أو شجرة لبخ.. أما إذا كان عوداً منفرداً فما أسرع ما تقصفه الأيدي!.. أي أيد، فهي كلها هناك غليظة قاسية!..

وبعد أن كان يرجو أن يأمن بالخفير صار يخشاه.. شعر بالخوف من أن يولي عنه ويعطيه ظهره فلا يدري ماذا يحدث له. هناك لا تأمن أن تولي ظهرك إنساناً معه بندقية في هذا الليل الدامس. لا يملك حامل البندقية أصابعه من أن تجري على الزناد. لا يتصور الإنسان جاذبية الظهور لمن في يدهم سلاح في ليل الريف. إنها كأمواج البحر للملاح، لا يستطيع مقاومة إغرائها. تسعة وتسعون في المائة ممن يموتون بالرصاص في الريف يصابون في ظهورهم.. عبد الجليل يعرف ذلك جيداً، وما من مرة سار فيها في الليل إلا أحس بتنميل في ظهره كأنه يتوقع رصاصة.. رصاصة من أي إنسان، أي إنسان في يده بندقية!..

وقال له الخفير وهو يتناول بندقيته:

- سر في طريقك.. امش!..

وملاً الخوف قلب عبد الجليل ولم يدر ما يفعل، وهذا الضبع ينظر إليه بوجهه الكالح البشع الذي لا ينبئ بخير.. وتمنى لو عاد الرجل نائماً كما كان..

وعاد الخفير يقول:

- مالك تسمرت في مكانك؟.. امش..

- والله يا شيخ الخفر إنني لخائف من السير وحدي، فأنت تعلم أنني خادم العمدة وحيبيه، وأعداء عمدتنا لا بد متربصون بي بعد أن علموا أنني مسافر معه إلى القاهرة لنقابل الملك..

قالها ليهز بها قلب الرجل، ولكن مجهوده ضاع سدى، لأن الخفير قال:
- أي ملك أيها الفقيه الشحاذا؟.. أنت حبيب العمدة؟.. وتتجاسر وتقولها؟.. والله لو إنسان غيرك..

فقال عبد الجليل مكملًا:

- لأفرغت فيه عيارًا..

- بل خمسين.. أتريد أن ترى؟..

وحرك الرجل بندقيته كمن يريد أن يستعملها، فخارت قوي المسكين، وحار في أمره، ولم يدر ما هو فاعل مع هذا الوحش الكاسر، الذي انفرد به في هذه الليلة السوداء. وجعل يبحث في ذاكرته عن صورة هذا الإنسان فلم يجدها، وجعل يتعجب كيف يكون هناك خفير في هذا البلد الصغير دون أن يعرفه. وأخيرًا خيل إليه أنه يفهم شيئًا. فلا بد أنه ضمن أنفار جدد أتى بهم متبولي شيخ الخفر بعد أن نبه عليه العمدة بضرورة التشديد في حفظ الأمن..

وعاد الخفير يقول:

- يا رجل قلت لك سر في طريقك..

وعلى صوت هذه المجادلة بين عبد الجليل والخفير صحا بعض

الناس، وأطل الحاج عبد التواب فرج من طاق⁽¹⁾ بيته وقال:

- من هناك؟.. ما هذه الشوشرة؟..

والتقط عبد الجليل أنفاسه كغريق أمسكت أصابعه بطوق النجاة،
ونظر إلى النافذة وقال في لهجة المستغيث:

- يا عم عبد التواب الحقنا.. اعمل معروفًا..

فبهت الحاج عبد التواب وهتف قائلاً:

- مالك؟.. مالك يا أستاذ؟..

- تعال يا حاج عبد التواب، وانظر ماذا يريد هذا الخفير مني؟..

- أي خفير؟.. ما اسمه؟..

- لا أدري..

- لا أدري؟.. كيف يكون خفيرًا في البلد ولا تعرفه؟..

وعلى هذا الصوت فتحت طاقات أخرى وأطلت رءوس، وجرؤ
بعض الناس على الخروج من البيوت. واستطاعوا أن يخلصوا عبد
الجليل المسكين من يدي الخفير العاتي.. ومع أن الناس جميعًا أنكروا ذلك
الخفير إلا أن أحدًا منهم لم يقل له حرفًا، وعادوا إلى بيوتهم وأغلقوها من
خلفهم، وسار عبد الجليل وحده في الظلام، وتمدد الخفير من جديد على
الأرض، مسندًا ظهره إلى جدار زاوية أبي جراب، وأشعل السيجارة التي
منحه إياها عبد الجليل، ومضى يدخنها في هدوء..

1- طاق: شباك.

وسار عبد الجليل يشتد في خطاه، فقد كان يخشى أن يلقي خفيراً
آخر.. وعندما بلغ مقام سيدي أبو ودان تنفس الصعداء وقرأ الفاتحة
سرعاً، فقد بدا له بيته في الناحية الأخرى من الميدان الصغير.. وعندما
جتاز آخر بيت في الحارة التي تقضي إلى الميدان، أحس كأنه خارج من
رداب تحت الأرض، وارتاح ذلك الضوء الباهت الذي ينبعث من
فضاء فيخفف ظلمة الليل البهيم، وذكر ما كان أبوه يقوله له من أن
سيئاً من نور الله يتسرب إلى الكون في الليل ليهدي الساري في الظلام.
كان الليل ساكناً سكون الموت، لا يعمره غير نقيق الضفادع وصوت
سرار الليل. وجعل يدق الباب ويهتف بالعجوز:

- يا أم عويس!.. يا أم عويس!..

وفتحت أم عويس الباب شقاً صغيراً، فنفذ منه إلى فناء البيت، وأسرع
لزيارة ركن الفناء، فملاً منه كوزاً أفرغه في جوفه، ودخل غرفته فوجد
أم عويس واقفة له بمصباح غاز خافت الضوء.

ولم يكن لديه من «متاع» الدنيا غير حصير ومرتبة ومخدة وصندوق
كرسي وموقد غاز ومصباح وزير وكوز، ولهذا كان آمناً على نفسه تمام
الأمْن في هذا البناء المهجور البعيد، إذ كانت القرية كلها تعرف أنه لا
ملك شيئاً، وأن الساطي على بيته لن يسرق إلا المتاعب، وقاتله لن يفيد
من العدوان عليه إلا تحمل دم لا قيمة له، دون مبرر أمام الله والناس.
كان هذا أمانة، أمان المفلسين..

ولم يسارع النوم إلى جفنيه، لأن أحداث هذا اليوم كانت أكثر من أن

تسمح له بالنعاس، وعندما تمدد على الفراش أخذت نسائم عذبة من مستقبل باسم ترف على فواده، فهذه فرصة أتاحتها له السماء: فرصة زيارة ملكية لهذه القرية الخافية في بطن الريف، فسيكون هو دون ريب بطل هذه الزيارة وكوكبها اللامع، وها هو قد قفز خلال ساعات إلى مكان الصدارة، وأصبح مستشار العمدة دون غيره من الناس، وبعد غد يمضي معه إلى القاهرة ليتصلا بكبار القوم فتزداد شخصيته وضوحًا ومكانته تجليًا. وخطر بباله أن يحاول تحقيق حلمه القديم في هذه المناسبة، حلم الحصول على إعانة لمدرسته من وزارة المعارف، والاعتراف بها مدرسة ابتدائية حرة، فذلك يأتيه بدخل محترم، ويقفز به إلى مرتبة النظار ذوي المكانة والاحترام. وحلقت به الأحلام، فقرّر أن يطلب بخمسمائة جنيه كاملة، وأن يسمي مدرسته «المدرسة الفؤادية الابتدائية».. وقدر أن الوزارة لا شك ستجيبه إلى هذا الطلب، بل ربما تفضل «جلالة المليك» بزيارة المدرسة، وهنا رأى أن يرفع مبلغ الإعانة إلى ألف جنيه، حتى يبنى أربعة فصول ويشتري بعض التخت والسبورات، ويهيء لنفسه حجرة ناظر محترم، بمكتب وكراسي، هيبة وجلال..

وفي الظلال الوردية التي أضفتها على وجدانه هذه الأحلام، خطرت بباله صورة «وجيدة» بنت حمدان خلاد: بنية رائعة الحسن في الثالثة عشرة من عمرها رآها مرة واحدة في حياته، رآها خلف باب دارها وهو في الطريق إلى بيت العمدة. إن رؤية وجه صبية في هذه السن تعد حدثًا في حياة الرجل في كفر سهيل.. رأى وجهها الأبيض الغض وعينيها

السوداوين وفستانها الأخضر الطويل، فبعث بلبه وخياله، وأصبحت من ذلك الحين عروس أحلامه، وود لو حدثت المعجزة، وأمكن لمتسول مثله أن ينال ملاكًا من بيت عريق مثلها!.. ولكن هيهات!.. إن الناس هناك طبقات، فأبوها عربي من آل خلاد، وأمها فيما يقال تركية من ذوات البشرة البيضاء، والشعر السائل، والرمش الكحيل.. وفي الثالثة عشرة يعقد على البنات أو يوعدن بصبي مثلهن، من أبناء البيوت المعادلة لبيوتهن في الشرف والمحتد، وفتاة كهذه لن يمهلهن الناس طويلاً!..

وقد كان لا يخطر لمثل هذا الصعلوك أن يفكر في مثلها، بل لو علم أهلها أنها تخطر في خياله لقتلوه، فإن مجرد هذا التفكير عندهم اعتداء على الشرف الرفيع.. ولكن اليوم، اليوم وقد انفتح أمامه الطريق السلطاني، طريق الصدارة والمكانة في القرية، والإعانة الضخمة من الوزارة، ونظارة المدرسة العتيدة.. الآن لا حرج عليه في أن يتخيل أنه يخطب وجيدة يومًا ويرتفع بنفسه من دركات الصعاليك إلى مدارج الأشراف!..

وأثقلت هذه الأحلام الحلوة جفنيه، وأخذ يهبط رويدًا في بحار النوم الفضية، بينما تعالى صياح ديك عم بيومي، وأعقبه ديكة القرية كلها، في سيمفونية طويلة تعلن مولد اليوم الجديد.

في القطار

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر عندما تحرك القطار بالعمدة وعبد الجليل في الطريق إلى القاهرة. كان القطار قد عانى وصبًا شديدًا حتى استطاع الحركة، فقد قضى تسع ساعات وهو يلهج ويتحشرج، ويجر حملة الثقيل من أقصى أطراف مصر في طريقه إلى العاصمة، ولا تزال أمامه سبع ساعات أخرى من الجري والوقوف، حتى يصل آخر الأمر لمحطم الأوصال إلى محطة القاهرة. تحرك القطار يسيرًا، ثم توقف ليعلن احتجاجه على المعاملة السيئة التي يلقاها منذ مست عجلاته قضبان مصر، فقد عاش قبل ذلك سبع سنوات يعمل ما بين كولونيا وامستردام، وكانوا يحسنون معاملته ويحترمونه كقطار، فلا يكاد يقطع هذه المسافة مرة، حتى يسرع إليه الخدم والميكانيكيون، يواسونه وينظفونه ويفحصون مفاصله واحدًا واحدًا، بل لا يكاد يقف في محطة حتى يخف إليه «ممرض» خاص يجس عجلاته بقطعة من حديد ليتأكد من سلامتها، وكان السائقون يدللونه ويسمونهم «تيدي» والدولة تسميه في أوراقها الرسمية «ينكر»، فلما انتقل إلى مصر لم يعد له اسم، بل مجرد رقم على لوحة في صدره احتقارًا لشأنه، ولم يعد السائقون يدللونه، وسماه واحد منهم «العتريس» وهو اسم ثقيل نفر منه نفورًا شديدًا، وكاد البخار ينفجر من صدره ساعة سمعه أول

مرة!.. ولقد سيروه أول الأمر على خط القاهرة - الإسكندرية، فوجد في ذلك بعض العزاء، وانقضت عشر سنوات رأي فيها الولايات من الإهمال وسوء المعاملة، وتراكم الشحم والتراب في مفاصله، حتى تصلبت كما تتصلب شرايين العجوز، ثم ألقوا به في خط الصعيد ليقطع المسافة من القاهرة إلى مدار السرطان مرة في اليوم، فيظل داخلًا القارة الأفريقية خارجًا منها أيامه جميعًا. وقد لقي في هذه المرحلة الأخيرة من عمره من الهوان ألوانًا لم تكن تخطر له على بال، وكان كلما اشتدت به الآلام هفت به الذكرى إلى السنوات السبع السعيدة أيام الشباب، ولم يكن يثقل على نفسه شيء كالوقوف في المحطات الصغيرة والقرى التي لا اسم لها، فهناك يزحف إلى جوفه ناس يحملون أسفاطًا وأقفاصًا تضم هموم الناس. كان يعز عليه أن يقف إكرامًا لكل هلفوت تجمعت في جيبه بضعة قروش يمتطي بها ظهره لغرض لا يمكن إلا أن يكون تافهًا، وأي مهام هذه التي تكون على عاتق مخلوق تافه كل غنائه من الحياة جلاباب وقفة خبز جاف كأنه حجارة الصوان؟..

ولكن هذا حكم القدر ولا مفر.. ولا بد له من أن يقف على رغمه في كفر سهيل وأمثاله، ثم يتحرك منها والغيط يملأ صدره، ليقف على ما هو أقل منها بعد قليل!..

جلس العمدة صادق في مقصورة من مقصورات الدرجة الثانية، وجلس أمامه عبد الجليل متعبًا صامتًا متأدبًا في حضرة سيد البلد كلها. كان قد انفق جهدًا عظيمًا في رفع حقبة العمدة ووضعها على الرف، وكانت

حقيقية قديمة متهاكة محزومة بحزام من الجلد يضم أوصالها بعضها إلى بعض، ولكنها كانت الحقيقية الوحيدة في القرية على أي حال، وبقية أهل البلد لا يسافرون إلا بالأسقاط والأقفاص، والصرر والطشوت والحلل، فكانت الحقيقية على وجه من الوجوه شارة من شارات العمودية!..

أخذ عبد الجليل مكانه قبالة العمدة، جلس صامتًا متأدبًا يتشاغل بالنظر من النافذة ريثما ييأدئه العمدة بالكلام، ولكن العمدة لم يفتح فمه، كان أوان نومه بعد الظهر قد حل من وقت طويل، وكان قد أكل أكلة رهيبة تزودًا لهذه الرحلة كأنه مسافر إلى القمر: أكل ملوخية ولحماً ودجاجاً وبيضاً وفطيراً كثيراً، فلا عجب أن استرخت أوصاله وأحس بخدر شديد، وجعل يثائب ويعصر عينيه، ثم أسند رأسه إلى ظهر مقعده، واستغرق في نوم عميق، وتعالى من فمه المفتوح شخير غطى على ضجيج القطار!!

أما عبد الجليل فلم تغمض له عين، وجعل ينظر إلى وجه العمدة النائم، وقد أصابه خوف أخذ يشتد رويداً، فقد اتضح له الساعة فقط عظم ما حل نفسه بدخوله في ذلك الأمر، فهو الذي زعم للعمدة أنه قرأ في الجرائد خبر اعتزام الملك زيارة كفر سهيل، ويعلم الله أنه لم يقرأ شيئاً.. وإنما هي كلمة جرى بها لسانه أردا أن يدل بها على سعة العلم، على عادته بين أهل البلد، وما كان يعلم إذ قالها أنها قد تكون القاضية عليه.. حقيقة أن اللسان حصان!.. ها هو الآن في الطريق إلى القاهرة مع العمدة، ولا مهرب.. وسيتبين للعمدة أنه كذب عليه، بل سيتبين أنه صعلوك لا قدر

له ولا قيمة، فهو لا يعرف في القاهرة أحدًا من رجال السياسة أو غير السياسة، ولا يعرف من رجال الدولة أو أهل الأحزاب أحدًا، فماذا هو فاعل بالعمدة إذا وصل القاهرة؟ أيمضي به إلى القصر؟ وكيف يمضون إلى القصر؟ وكيف يدخلونه؟ ومن أين؟.. ثم، ما عساهما فاعلين إذا دخلًا؟.. سيقف العمدة صامتًا على عهده في المواقف الخطيرة، وعليه هو وحده الكلام.. ماذا يقول؟.. أيقول: ها هو صادق مندور أبو الشوارب، عمدة كفر سهيل التي سيزورها الملك؟.. ومن أين يعلم إن كان الملك سيزورها حقًا؟.. إنه يستطيع أن يقول أي شيء في القرية ولا حرج، أما أمام أولئك الناس فهو لا يستطيع أن يقول إنه قرأ الخبر في الصحف!.. إنها لن يخرجوا من القصر إلا مشيعين بالإزدراء والاحتقار، ثم لا يكادان يصلان إلى الفندق حتى يمسك به العمدة، ويمسح به الأرض مسحًا، ويدق عظامه دقًا..

وأصابه شيء بالغ من الهلع، بينما تصاعد صوت غطيظ العمدة إلى عنان السماء، ونظر إليه عبد الجليل وهو نائم يخور كالثور، فخافته أعصابه، وتضعضت قواه، وفكر في الهرب.. ثم أخذ يستجمع أشتات نفسه، ويسترد قواه، ويعصر ذهنه، فتبين أن زيارة القصر مغامرة غير محمودة العواقب، وأحسن من ذلك البحث عن مقر حزب الملك هذا، فلعله يجد هناك خادماً أو كاتباً، يشير عليه بشيء نافع.. ثم خطر بباله خاطر جديد: لماذا لا يبحث عن أحد معارفه من زملاء الدراسة في الأزهر؟.. إنه يذكر زميلاً قديماً اسمه زهران كان وثيق الصلة به، وكان

يسكن ربعا من الرباع المجاورة للأزهر.. ولكن أين يكون الآن؟ لقد انتقضت على ذلك عشر سنوات أو تزيد، ولا يدري إلا الله أين هو وماذا فعلت به الأيام، وهل من المعقول أن يظل في هذا الظلل الرهيب بعد تخرجه؟.. لعله الآن مدرس في ناحية من النواحي، ومن يدري فلعله قد أصبح قاضيا؟..

واسترسلت به أفكاره السوداء وهو ينظر من النافذة يتأمل الحقول والقطار يخطف بها خطفاً، والفلاحون متناثرون فيها يعملون في هدوء، أو يسوقون ماشيتهم، أو يتجمعون تحت الأشجار يتحدثون ويشربون الشاي. لقد طالما رثى لهم وهو في القرية، وتعجب كيف يصبرون على هذا البلاء وسوء الحال والفقر وتعسف أصحاب الأرض ومظالم العمد، ولكنه الآن يحسدكم، فإن حياتهم تكفير عن جرائم لم يرتكبوها، أما هو فقد اقترف الجريمة وقد آن أوان العقاب، وأعسر شيء في الدنيا هو انتظار البلاء!..

ثم تعب من التفكير، وهربت به مخاوفه إلى صهام الأمن الذي يريح الملايين من التفكير في العواقب: التوكل على الله المنجي من كل عسير، وأخذ يقرأ الفواتح لولي الله عبد الرحيم القنائي ولآل البيت، مبتهلاً إلى الله أن يهديه إلى المخرج، وأن يهدي الملك إلى زيارة كفر سهيل...

وأقبل رجلان: أحدهما يلبس بذلة لا يشك من رآها في أنه وجدها في صندوق قمامة، وعلى رأسه طربوش حال لونه حتى أصبح في لون الطين، وامتلاّت جدرانها بالعرق من طول ما استقر على هذا الرأس

المنحوس، والثاني يلبس جلبابًا ومعطفًا فيراي اللون، يطل منه رأس فأر على عينيه نظارة، تراكم عليها من التراب قدر ما تراكم على نافذة القطار، وأخذ يتحاسبان وقد أمسك صاحب المعطف بمفكرة صغيرة يقرأ منها، وصاحبه يجادله في كل حرف، وكلما أقسم واحد منهما بقسم أجابه الثاني بقسم أغلظ منه، حتى حلف واحد منهما بالله العظيم ثلاثًا، ورب العرش ثلاثًا، وبالرسول الكريم ثلاثًا، ثم انتقل إلى الملائكة والرسل والقرآن والبخاري فحلف بذلك كله ثلاثًا، وانتظر صاحبه حتى إذا فرغ من الطواف بالملكوت قال له: ورسول الله أنت كذاب، والحسن والحسين أنت كذاب!.. وأخذ صوته يتعالى وهو يردد هذه التكذيبات الرهيبة، حتى صحا العمدة، فنظر إليهما مليًا ثم قال:

- جرى إيه؟.. ما هذه الشوشرة؟..

ونظر إليه الرجلان، ثم تهلل وجه صاحب المعطف، ونسى المناقشة الحامية التي كان فيها وأقبل على لعمدة مادًا يديه يلمس يده وهو يقول:
- أهل وسهلاً سيدنا وتاج راسنا صادق بك أبو الشوارب عمدة كفر سهيل!..

ونظر إليه العمدة في إنكار وازدراء، ومد يده للرجل، بكل ما للعمودية من جلال، فقبلها الرجل، وسحبها العمدة، وهو يقول:
- من أنت؟..

- محسوبك الحاج شرارة الأبونيه.. ألا تذكرني؟..

فهز العمدة رأسه وقال:

- الأبونيهات كثير..

- أنا يا سعادة البيك الذي أحضرت لك الجوخ من القاهرة، جوخ
العباية...

ثم نظر إلى الجبة التي يرتديها العمدة وصاح كأنها وجد شيئاً ضائعاً:

- هذا هو.. هذا هو جوخي يا ناس.. انظروا الصوف!

ثم تناول طرف الجبة والتفت إلى الركاب الآخرين ومضى يقول بأعلى
صوته:

- صوف حر.. إنجليزي مائة في المائة.. ثلاثة بالله العظيم لا يجلب

هذا في الصعيد كله إلا الحاج شرارة.. انظر.. امسك الصوف..

أطبق يدك عليه.. اعمل به ما تريد.. يعد كما كان.. انظر..

وجعل يجذب الجبة والعمدة المذهول ينظر إليه ووجهه يحمر شيئاً

فشيئاً، ثم جذب الجبة من يد الرجل ووقف صائحاً به:

- ما هذا يا أبونيه الكلب؟.. امش من هنا وإلا لهفتك قلماً عي طاجن

قفاك ينثر أسنانك من حلقك.. امش!..

ونظر إليه الرجل لحظات في هشة، ثم عادت الابتسامة العريضة تملأ

وجه الكالـح، ثم ضحك ضحكة جافة وأخذ يقول وهو ينسحب:

- الله.. أنت غضبت يا سعادة العمدة؟.. هل لي بركة إلا أنت؟..

والله العظيم ما تغضب مني أبداً.. ما أردت إلا أن يرى الناس

أنك لا تضع على جتتك إلا الصوف الحر الغالي الذي لا يجلبه إلا
خادمك شرارة.. أليس كذلك يا سعادة البيك؟.. أنا خادمك..
أنا خدامكم كلكم يا حضرات.. السلام عليكم.. سلام عليكم..
وخرج وهو يضحك ضحكًا جافًا مفتعلًا، فلما صار منفردًا في عمر
العربة تناول سيجارة من فوق أذنه، ونظر إلى صاحبه ذي البذلة المهلهلة
وقال له:

- هات كبريتًا هات، لعن الله الزمان الذي أحوجنا إلى أمثال هؤلاء
البغال، ثلاثة بالله العظيم لولاي لما لبس أحد في الصعيد قطعة
صوف، وهذا نصيبي، يطردونني كالكلب وأنا رجل أعمال
قد الدنيا.. ثلاثة بالله العظيم إن في جيبى ما اشتري به مثل هذا
الرجل..

ثم نظر فإذا مفتش القطار يطيل النظر إليه ويقول:
- رجل أعمال قد الدنيا ويركب القطار سرقة، ولا يكتفي بالدرجة
الثالثة بل يجرؤ على الدرجة الثانية..

ونظر إليه فاحصًا، فسرى الخوف في بدنه، وجمد لسانه في حلقه، ولكن
وجهه الكالح لم يتأثر، كان جلده أسمك من أن تنفذ فيه النظرات، ثم
أخذ يبتسم حتى ملأت الابتسامة وجهه وعاد يضحك، كسيل للخروج
من ذلك الحرج - ثم قال:

- يا سعادة المفتش، ألا زلت تدقق؟.. هل الحكومة في حاجة إلى
قرشين من رجل غلبان مثلي؟..

فقال المفتش:

- غلبان؟.. غلبان وفي جييك ما تشتري به الناس؟.. أخرج النقود
ولا سلمتك للبوليس في المحطة القادمة..

وذعر الرجل وصاح:

- بوليس؟.. ما لنا وللبوليس يا سعادة البيك؟.. يا جرجس أفندي
أنت عارف إنني صاحب أولاد..

- وفلوس..

- ما هي الفلوس للعيال يا جرجس بيك، أنت رجل ابن حلال
وخيرك علينا..

فأخرج جرجس أفندي دفتره وقال:

- هات 298 قرشاً..

فصرخ المسكين بأعلى صوته وقال:

- يادي النهار الأسود.. ثلاثة جنيها؟.. ليه؟.. هل هذا هو المفتخر؟..

- لأ.. قطر الصعيد، درجة ثاني مطوق..

- درجة ثانية؟.. أنا أركب درجة ثانية يا ناس؟ ليه؟.. عملت إيه؟..

وبنفس الهدوء قال جرجس أفندي:

- عملت بني آدم..

- ودي جناية؟..

- طبعاً جناية.. ولا بد من دفع العقوبة..

وبكل تذلل اندفع شرارة يقول:

- أنا لست بني آدم.. أنا حمار.. أنا عجل.. بس سييني.. سييني لا
سأك الله أبدًا ولا أصابك في عزيز عليك.. إلهي يبقى لك أولاد
مجلي وروزفلت وكرومويل وبسارك..

فنظر إليه المفتش طويلًا ثم قال:

- وتعرف أولادي أيضًا؟..

- وبناتك كمان الله يخليهم لك.. فيكتوريا وهانم وجوزيفين.. ربنا
يبارك لك فيهم والست كمان الطاهرة حنية أم روزفلت.. آمال..
أنا خدام العائلة من سنين.. ألا تذكر قطعة الصوف التي أخذتها
مني لبسارك؟.. قطعة كحلية لا مثيل لها..

وبدأ الغضب يزایل جرجس أفندي لذكر أولاده، وأحس الثعلب
بذلك فمضى يقول:

- بسم الله ما شاء الله عليه وحواليه الدكتور بسارك بن جرجس
وحنية.. أعظم أجزجي في الصعيد، صاحب أجزخانة ليستر بيني
سوف.. يا سلام على الدواء الذي يشتري من عنده.. لا يجيب
أبدًا.. والأستاذ روزفلت المحامي لدى الاستئناف العالي أعظم
محام في أسيوط.. والأستاذ كرومويل وكيل البنك الزراعي في
ديروط.. والست جوزفين حكيمة رعاية الطفل..

وأحس جرجس أفندي أنه قد ضعف تمامًا أمام هذا البهلوان، ولكنه
استمسك ببقية باقية من الحزم والعزم ومضى يقول:

- طيب.. امش على الدرجة الثالثة.. وتنزل في المحطة القادمة..
فاهم؟..

- الله يبارك فيك يا جرجس أفندي، كذا الإنسانية، كذا المعروف..
ونظر إلى رفيقه ذي البذلة المهلهلة، وقال:

- هيا يا عبد الستار..

فقال جرجس:

- وما هذا أيضًا؟.. ألا يحمل تذكرة؟..

- لا.. إنه معي.. هيا يا عبد الستار..

وسار الصعلوكان والمفتش ينظر إليهما في احتقار شديد، ثم هز رأسه
ومضى. ولم يكد يخطو حتى فتح باب الديوان وخرج عبد الجليل، فصاح
فيه جرجس:

- وأنت أيضًا معها؟..

- من هما؟..

- هذا اللص ورفيقه.. هات تذكرتك...

- مع البيك العمدة.. أنا مع الحاج صادق مندور أبو الشوارب عمدة
كفر سهيل.

- كفر سهيل.. كفر عفريت.. هات التذكرة.. ماذا جرى للدرجة
الثانية اليوم؟.. زحف عليها الواغش من الشقوق؟..

فقال عبد الجليل:

- أي واغش يا حضرة الأفندي؟.. ألا تدري من تكلم؟..
ونظر إليه جرجس أفندي نظرة حوت كل ما في هذا الوجود من
احتقار ومن سم وقال:

- لا أدري من أكلم؟.. ماذا تكون بهذا الجلباب المصنوع من الخيش
وهذه العمامة التي لا تصلح أن تكون ممسحة بلاط؟.. ماذا
تكون؟..

- أتريد أن أوقظ العمدة ليريك شأنك؟..
- آنست أنت والعمدة.. ما أظنه إلا هلفوتًا مثلك.. أرني أين هذا
العمدة..

وفتح الباب، فإذا العمدة منبطح على المقعد بطوله كالجاموس، وقد
ارتفع بطنه كأنه قبة وتعالى غطيطة، فنظر جرجس إليه وقال:

- أهذا منظر عمد.. أم حلايف؟..
- قلت لك يا أفندي تأدب، إنه عمدة كفر سهيل.. حاسب في
كلامك..

فقال جرجس منادياً النائم:

- يا حضرة.. يا أستاذ.. يا شيخ.. يا أخينا..
ولم يستيقظ «أخونا» أو يتحرك، ظل بطنه يعلو ويهبط في حركة راتبة
مع شهيقه وزفيره المزعجين، وزاد جرجس أفندي حنقًا فمد يده وهزه

- أو خيل إليه أنه هزه - في عنف، وأخيرًا فتح العمدة عينيه المحمرتين ونظر بهما إلى هذا الرجل الواقف أمامه وقال:

- ماذا تريد؟..

- التذاكر..

- تذاكر إيه؟..

- تذاكر القطر...

- قطر إيه؟..

قال كل ذلك وهو نائم ما يزال، ثم أفاق إلى نفسه شيئًا، وبذل مجهودًا عظيمًا حتى جلس، ثم قال:

- آه.. انت بتاع الوابور؟.. أين الواد عبد الجليل؟..

- أي عبد الجليل؟..

فصاح العمدة:

- ألا تعرف عبد الجليل؟.. انظر لي عبد الجليل..

وقال عبد الجليل:

- ها أنا يا حضرة العمدة..

- أين أنت يا ابن الوطيس؟.. أعط التذاكر للأفندي..

- التذاكر معك يا حضرة العمدة..

- معي؟.. أين؟..

ودس يده في جيوبه يبحث عن التذكريتين، فقال عبد الجليل:

- ليست في الجيوب يا حضرة العمدة، إنها في العمامة..

وكانت العمامة مستقرة على المقعد المواجه للعمدة كأنها بيضة مقلية، فأخرج عبد الجليل التذكريتين من بين الطربوش والشال، وناولهما للعمدة وهو ينظر إليه مبتسماً ابتسامة النصر، وقرضهما المفتش بمقراضه ثم أدار ظهره وخرج.. ومال العمدة على جنبه فما لبث أن احتواه النوم من جديد، وانتظر عبد الجليل حتى عاد غطيظه يتردد، وأخذ بطنه يعلو ويهبط، ففتح الباب وخرج، وأغلقه من خلفه في حذر شديد..

خرج يبحث عن شرارة الأبونيه، لقد خطر بباله أنه يستطيع أن يهديه إلى شيء في القاهرة: يعطيه عنوان فندق أو مطعم، يستعلم منه عما إذا كانت أرقام الترام وخطوطه لا تزال كما كانت ويستفسر منه عن أشياء كثيرة جدًا يستعين بها على هذه المهمة التي ابتلى بها نفسه..

ومضى ينظر في دواوين العربَة واحدًا واحدًا عليه يهتدي لمكانه، دون جدوى.. حتى انتهى من عربات الدرجة الثانية، وأهل على أولى عربات الدرجة الثالثة فوجدها كسفينة نوح، فيها من كل جنس وشيء.. مدخل العربَة مكتظ بخلائق لا عدد لها، بعضهم يجلس على الأقفاص وبعضهم على القفف أو فيها، فعادت به الذكرى إلى أيام دراسته في الأزهر، أيام كان يخرج من بلده بمقطف الزاد والزواد كأنه خارج إلى الحج، أو كأنه ذاهب إلى موضع لا طعام فيه ولا ماء. وشق طريقه وسط كتل الآدميين وأكوام القفف والأقفاص، حتى توسط العربَة ولكنه لم يستطع أن يرى

شيئاً، فقد كان الناس من حوله أكداًساً، ثم خيل إليه أنه يسمع صوت شرارة، فأصغى حتى تأكد أنه هو، عن الصوف والتجارة والشرطة، وأطل عليه بوجهه وقال:

- أين أنت يا عم شرارة؟..

فقفز الرجل واقفاً وقال:

- حضرة البيك العمدة يسأل عني؟..

فقال له:

- نعم، ولكن لا تتعب نفسك، سأجلس معكم قليلاً ثم نذهب معاً..

حضرة العمدة نائم الآن..

فعاد الرجل إلى مجلسه على الأرض في ممر العربة، وجلس إلى جانبه عبد الجليل، وقال شرارة:

- حضرة العمدة غاضب اليوم.. ترى لماذا؟.. إنني أعامله منذ سنين،

ولم أره بمثل هذا الغضب إلا اليوم..

- سأحدثك عن ذلك فيما بعد..

قالها ليتخلص، لأنه يعرف أن ذلك الرجل لم يعامل العمدة إلا مرة واحدة، ولكنه يحاول أن يثبت لمن حوله أنه لا يعامل إلا العمد والأعيان.

قال عبد الجليل:

- لقد خفت عليك من ذلك المفتش..

فقال شرارة وهو يضحك ضحكته الجافة الكريهة:

- مفتش؟.. خليها على الله.. ولا ناظر المحطة.. ولا مدير السكة الحديد يستطيع معي شيئاً.. عشرون سنة وأنا أركب أولى وثانية دون أن يجرؤ أحد على سؤالني.. مفتش!.. شيء الله يا مفتش!..

- أأنت تقول إنك أبونيه؟.. أليس معك أبونيه؟..

- عندي... أعمله كل سنة مرة لمدة ثلاثة أشهر.. ودرجة ثالثة.. ثم أركب به طول العام الدرجة التي تعجبني.. أسأل صاحبي هذا كيف وقف جرجس أفندي أمامي كالأرنب.. أليس كذلك؟..

فقال الرجل ذو البذلة المهلهلة:

- معلوم!..

فصاح شرارة:

- لقد لعنت سنسفيل أبيه وهو واقف أمامي كالفار.. إنه يعرف أنني محسوب الباشا المدير والييك الحكمدار.. أليس كذلك؟..

- معلوم..

- هل أنا قليل في البلد؟.. أنا شرارة والرزق على الله!..

وسكت قليلاً ثم قال يخاطب عبد الجليل:

- أليس معك سيجارة نحرقها على روح جرجس أفندي؟..

وضحك الجميع وقال عبد الجليل:

- أنا لا أدخن..

- إذن هات شيئاً نشترى به سجائر.. الرجال «خرمانون»..
وأشار إلى من حوله.. وعاد يقول:
- ايدك على شلن.. الله يحنن عليك.. من بركات العمدة.. هات...
خزنة العمدة في يدك.. كل الصعيد يعرف أنك الكل في الكل في
كفر سهيل.. إيدك على الخمسة..
ووضع عبد الجليل يده في جيبه وأخرجها بقطعة من ذات الخمسة
القروش، فاختمها شرارة وهو يردد:
- تسلم اليد.. يعيش وكيل العمدة.. هكذا المكارم وإلا فلا..
ثم دار بعينه وصاح:
- يا واد يا بتاع السجائر..
فقال أحد الحاضرين:
- على السطح.. سطح العربية!..
فضحك شرارة وقال:
- خائف من المفتش؟.. الله يحنن عليه.. ناده هنا، وقل له شرارة يريد
علبة ملكونيان تخين..
وهبط بائع السجائر من سطح العربية، كأنه قرد يتنقل بين الشجر،
وأقبل يتخطى الناس، كأنهم حجارة، ومثل أمام شرارة وقال:
- طلبك يا عم شرارة أفندي..

فقال شرارة مستنكرًا:

- أريد سجائر.. أين صندوق السجائر؟..

- ها هو!..

ورفع الغلام جلبابه فإذا تحته قميص فيه صفان من الجيوب ملأى
بعلب السجائر الصغيرة، وقال:

- هذا هو الصندوق.. أنا نفسي صندوق.. في كل جيب صنف
من أصناف السجائر: هذا جيب ملكونيان معدن، وهذا جيب
كوتاريلي معدن ممتاز، وهنا الماتوسيان الملوكي، وهنا سجائر
الجولد، وهنا القيل..

- وماذا هنا؟..

- المعسل.. وفي الجيب الأسفل الكبيرت.. ماذا تريد؟.. أمامك دكان
سجائر كامل..

فضحك شرارة وقال:

- يا لها من فكرة.. أقول لك؟.. أولاد مصر لا يغلبهم أحد.. هات
علبة ملكونيان معدن تخين..

وأخرجها الغلام من الجيب رقم 3 يمين، ووضع فوقها الكبيرت..
وناولها لشرارة، فناوله هذا القروش الخمسة، واسترد منه قرشين،
وضعهما في جيبه وعبد الجليل ينظر إليه في استنكار.. لم يكتف ب شراء
السجائر بل وضع الباقي في جيبه.. وفتح شرارة العلبة وأخذ لنفسه

سيجارة، ووزع خمسًا أو ستًا على من حوله واشتعلت السجائر وتصاعد
الدخان وتلبد الجو، وفجأة دوى صوت يصيح:
- أبو شبت!..

وتطير ركاب العربة كأنهم عصافير على شجرة انطلقت بقرها
رصاصة، وإذا الكثيرون يخرجون من النوافذ فيتسلقون العربة إلى سقفها،
وزحف آخرون تحت الكرسي، ولم يبق في العربة إلا ستة أو سبعة جلسوا
في هدوء، وأقبل المفتش جرجس أفندي يسير في توده وخلفه مساعد له،
فهو لا يجرؤ على دخول عربات الدرجة الثالثة وحده.. ووقف الرجل
بباب العربة وقال:

- ليخرج الذين تحت الكرسي، فذلك أحسن لهم..
وساد صمت.. فعاد يقول:

- أقول مرة ثانية: ليخرج الذين تحت الكراسي..
فقاطعه شرارة قائلاً:

- لماذا تبدأ بالذين تحت الكراسي؟.. لماذا لا تبدأ بالذين على
الكراسي؟..

فنظر إليه جرجس أفندي وقال في غضب:

- أما زلت هنا يا وجه النحس؟.. ألم أمرك بالتزول؟.. بالله العظيم لا
أتركك هذه المرة..

فقال شرارة في هلع:

- ليه بس يا جرجس بيك؟.. ماذا فعلت لك؟.. ألم تسامحني الآن؟..

ألم تتركني بكرمك ولطفك أركب حتى المحطة التالية؟..

- لقد مضت التالية والتي تليها والتي تليها..

- ولكن القطار لم يقف.. ماذا تريد؟..

- كنت أحسب أنك تعاونني على هؤلاء اللصوص..

فضحك شرارة وقال:

- بس كدة؟.. رقبتي.. أنا أخرجهم بالذوق..

ثم وقف وصاح مهدداً:

- اطلعوا بالمعروف يا أولاد الخنازير..

فقال جرجس أفندي:

- هذا هو الذوق عندك؟.. تريد أن توقعنا في إشكالات؟..

فقال شرارة وكأنه غاضب:

- بلاش.. الحق على.. انظر كيف تصنع أنت؟

فمال المساعد على أذن جرجس وقال له:

- لم يبق على أسبوط إلا قليل.. دعهم الآن، وعندما نصل هناك

نستدعي بوليس الضبطية ليركب معنا إلى المنيا..

فنظر إليه جرجس أفندي وقال:

- لا يمكن ياسي حلمي.. دي فيها جزاء..

- يا جرجس أفندي.. إذا قدرنا على الذين تحت الكراسي، فمن يقدر على الذين فوق القطار؟.. إن الناس هنا لا يركبون في القطار، بل فوقه أو تحته.. لا تعجبهم الكراسي، وإنما يعجبهم سقف العربة.. هذا عالم آخر يا جرجس أفندي.. عالم آخر..

فنظر إليه جرجس طويلاً، ثم أدار بصره في العربة الخالية، ثم استدار وعاد من حيث أتى، ولم يكذب قليلاً حتى ارتفع صوت:
- أمان.. أمان يا رجاله!..

وفي أقل من دقيقتين زحف العشرات من تحت الكراسي، وهبط القردة من أعلى القطار، والتأم الشمل، وتكدست العربة من جديد، ودار الحديث كأن لم يحدث شيء..

ومال شرارة على عبد الجليل وهمس:

- إيه.. ما حكاية العمدة؟..

- أي حكاية؟..

- ألم تقل لي أن هناك حكاية ستقصها على إذا جلسنا على انفراد؟..

ففكر عبد الجليل، ثم قال:

- لا.. إنها مسألة بسيطة.. إنه ذاهب إلى أسيوط ليشتري جرارات وأشياء أخرى..

- ولماذا يذهب بنفسه؟..

- لا أدري.. لم يقل لي.. إنها مسألة خاصة به لم أسأله عنها.

- تسافر معه دون أن تعرف؟..
- لست مسافرًا معه.. أنا ذاهب إلى القاهرة لموضوع خطير.
- خطير؟.. كيف؟.. ما هو؟..
- سأقول لك إذا وعدتني ألا تقول لأحد..
- لك على عهد الله..
- سأقول لك لأنك فيما يظهر ابن حلال تعرف الدنيا جيدًا، تستطيع أن تعاونني..
- في خدمتك.. والله لقد انفتح قلبي لك من يوم قابلتك.. ألا تدري أنني أعرفك من زمن طويل؟.. منذ أكثر من عشر سنوات، منذ بدأ أهل كفر سهيل يتحدثون عنك.. لو تعلم كم يحبك الناس هناك!..
- وصمت عبد الجليل قليلًا أمام هذا الرجل العجيب الذي يخترع له تاريخًا لا يعلمه هو نفسه.. فإن عهده بكفر سهيل لا يرجع إلى أكثر من عشر سنوات.. قبل عشر سنوات كان لا يزال يتسكع في البلاد باحثًا عن الرزق.. نعم إنه من كفر سهيل.. ولكن أحدًا من أهل القرية لم يكن ينتبه لوجوده..

قال شرارة:

- ما هو الموضوع؟..
- أريد أن أدخل ميدان السياسة.

فنظر إليه شرارة طويلاً ثم قال مستنكراً:

- سياسة؟.. وهل أنت من أولئك الذين يدخلون ذلك الميدان؟..
كفي الله الشر.. وماذا تريد أن تفعل في السياسة؟..
- لماذا؟.. مالها السياسة؟..

- يا بني يا.. ما اسمك على فكرة؟..
- محسوبك عبد الجليل..

- يا ابني يا عبد الجليل إنها بحر، والذين فيه سمك، الكبير يأكل الصغير.. يوم في الحكم، ويوم في السجن. يوم يقولون يحى عبد الجليل، ويوم يقولون يسقط عبد الجليل.. سمك يا بني في بحر: حيتان وقروش وحشاش.. أين تذهب أنت بينها وأنت سمكة بلطية صغيرة؟.. هذا ينهشك من هنا، وذاك من هناك. إن كنت مع الوفد أخرب الملك بيتك، وإن كنت مع الملك أخرب الوفد بيتك..

- أنا أعرف أنها خطيرة.. ولكن ألا ترى الذين كسبوا من السياسة، وأصبحوا أعياناً وأغنياء بالسياسة، وعمداً بالسياسة، وباشوات ووزراء بالسياسة؟..

- هؤلاء هم الحيتان والقروش والحشاش.. إنهم يسمنون على لحم أمثالك... تدخل من هنا ويخطفون الفدائين اللذين تملكهم من هنا.. كم فدائاً عندك؟..

- ليس كثيرًا..

- خمسون؟..

- أقل من ذلك..

- ثلاثون؟..

- هذا لا يهم..

- بل هذا هو المهم.. إنها تجارة لها رأس مال، من دخلها مفلسًا زاد إفلاسًا، ومن دخلها موسرًا زاد يسارًا.. السياسيون اليوم تجاريًا عبد الجليل، والأحزاب لا تهتم إلا بمن لديه مال، كانت الوطنية فيما مضى جهادًا، وهي اليوم مضاربة. إنني أنصحك نصيحة أخ، وقد رأيت بعيني المأسى والفواجع.. لا تنظر إلى من كسبوا في ميدانها فهم قليلون جدًّا، والباقي محاسيب وصعاليك وهلافيت.. لا يغرك مظهرهم، فأنا أعرف الكثير منهم.. اشتغلت سمسار انتخابات، وتاجر أصوات، وهتاف مظاهرات، ونمت في السجون أكثر مما نمت تحت سقف بيتي.. لقد كانت الوطنية على أيامي، أيام كنا نحارب الإنجليز، أما الآن فنحن نحارب بعضنا بعضًا. كنت في المنيا أيام هوجة سنة 19 وخرجت في المظاهرات.. كنت أحسبها جهادًا.. فماذا حدث؟.. ها أنا كما تراني صعلوكًا أشقى في سبيل قروش، وأصحابنا أصبحوا وزراء وأمراء.. كل واحد منهم أخذ أقاربه ووضعهم في المناصب الكبيرة.. وظل المساكين أمثالي في الطريق.. ماذا أفدت من يحبى سعد ويسقط

علي؟.. البهدلة وقطع العيش والسجن.. عندنا حوت كبير اسمه الملك، كلهم يطعمونه وهو لا يشبع: أرضاً ييلع، بيوتاً ييلع، أموالاً ييلع.. فمه مفتوح على مصراعيه والكل يقذفون فيه، وهناك صنف سمك القرش.. أولئك الذين يسمون أنفسهم الوزراء، يأكلون كل شيء حتى الخشب والحجارة والناس.. وحول هؤلاء جميعاً النواب، كل واحد منهم حنش.. السياسة اليوم عمل أولاد الذوات، ناس دخلوها ذوات وناس أصبحوا بها من الذوات، فماذا تفعل بينهم أنت أيها المسكين؟..

- أريد أن أرشح نفسي لمجلس النواب..

- مجلس نواب؟.. هل معك ألفان أو ثلاثة آلاف من الجنيهاً؟.. هل معك نحو 500 جنيه لخزينة الحزب ومثلها أربع مرات أو خمساً للناخبين؟..

- لست في حاجة لهذا.. لأنني سأرشح نفسي على مبادئ حزب الشعب..

- أعوذ بالله يا شيخ.. شعب إيه وهباب إيه؟.. هذا حزب الحوت الكبير.. حزب الإنجليز.. تريد أن تكون من رجال الإنجليز؟..

- إن الملك يريد أن يغير سياسته.. يريد أن يتجه اتجاهها وطنياً..

- وطني؟.. ومن أين تأتيه الوطنية؟.. من أبيه أم من أمه أم من المندوب السامي؟..

- ألم تسمع عن زيارته القرية للأقاليم؟..

- طبعًا.. زيارة مشؤومة بإذن الله!.. يريد أن يقف في كل بلد ليرى بعينه الأراضي التي سيسرقها فيما بعد..

- يا عم شرارة حرام عليك.. الرجل قد سئم الأحزاب ويريد أن يقود الحركة الوطنية بنفسه..

فنظر إليه شرارة نظرة كأنها سهم نفذ إلى أعماق نفسه وقال:

- يا عبد الجليل يا ابني.. أما أنك مغفل أو تحسبني مغفلًا.. لمن تقول هذا الكلام؟.. الملك يريد أن يقود الحركة الوطنية؟.. والله إن الملك هذا لا يبغض شيئًا كما يبغض الوطنية وكل ما فيه رائحة الوطنية.. إنه خواجه.. خواجه بطربوش.

- صدقني.. إنني أقول لك الحق.. عندي أخبار..

- لا يا عم.. إلى هنا وكفاية.. لا أخبار ولا أسرار.. الملك يصبح وطنيًا! أتعرف حكاية القط الذي أصبح ناسكًا؟..

ثم ضحك ضحكة مدّ آخرها مدًا طويلًا حتى أصبحت كصياح ديك، ثم قال:

- اسمع يا بني.. إنهم يضحكون عليك..

- من هم؟..

- الذين وضعوا في مخك هذه الفكرة..

- بس اسمع يا عم شرارة.. خليك معي وثق أنني أعرف كثيرًا جدًا في هذا الموضوع..

- طبعًا.. ظاهر جدًا أنك تعلم كثيرًا جدًا.. أظنك ذاهب الآن لمقابلة
سكرتير الحزب رفقي باشا.. هذا أول الخراب.. هذه المقابلة
تكلفك خمسمائة جنيه على الأقل.. لا بد أن تعطيه مبلغًا كهذا رسم
دخول في الحزب.. رسم دخول جهنم، فيقيد اسمك في دفتر
المغفلين، وهذه الخمسمائة جنيه يqtسمها مع رجال السراي.. ثم
يرشحونك للبرلمان.. ويستقبلك أهل بلدك بالطوب..

ثم سكت قليلاً وعاد يقول:

- اسمع كلامي، ولا تفعل بنفسك ذلك.. إنك فيما يبدو ابن ناس
طيبين.. وحرام.. حرام أرضك تلقيها للكلاب..

- غداً تعرف أنني على حق..

- أنت حر.. افعل ما بدا لك.. هل أستطيع أن أمنحك عقلاً غير
عقلك؟..

- سوف ترى.. على فكرة.. لي زمن طويل لم أذهب إلى القاهرة.. ألا
تعرف لي فندقاً؟..

- ما دمت ستدخل حزب الملك.. فلماذا لا تبتي من الان في السراية..

- يا أخي أنت تعبت دائماً.. أسألك عن فندق فتقول لي سراي
الملك؟..

- ألا تعجبك السراية؟.. إذن فأمامك لوكاندة شبت..

- شبت؟.. وكم أدفع فيها؟..

- جنيهاً.. ورقة خضراء لا تنقص ملياً..

- في النوم فقط؟..

- أجل في النوم فقط، ولكن أي نوم.. فرش السرير من الحرير
الخالص، تغوص فيه غوصاً كأنك في بحر من ريش النعام.. ولا
ينامون هناك إلا على نغمات الموسيقى.. هناك ذر صغير تضغطه
فتعزف الموسيقى، وتغوص في الحرير وريش النعام فكأنك مع
الملائكة..

فقال عبد الجليل، وقد فتح فاه من الدهش:

- ملائكة؟.. لا.. لا أحب أن أكون مع الملائكة إذا كان هذا يكلفني
جنيهاً في الليلة..

- إذن، فأنت تريد أن تنام مع الشياطين..

- وكم يكلفني ذلك؟..

- خمسة قروش في فندق «دار النعيم».. هناك تجد نفسك مع
الوطاويط..

- أي وطاويط؟..

- المفلسين والهلاليات وواغش الريف.. ينامون كل عشرة في
حجرة.. الفندق لا يقدم لك إلا ملاءة على السرير، وعليك
الباقى، وعليك أن تحافظ بنفسك على حاجياتك، الناس ينامون
هناك فوق حقائبهم.

- أعود بالله.. أريد شيئاً أحسن من ذلك، أريد شيئاً وسطاً..
- كم تريد أن تدفع؟..
- عشرة قروش مثلاً..
- إذن عليك بلوكاندة اسبلنديد.. في شارع كلوت بك.. إنه فندق فاخر، يغيرون لك أغطية السرير كل خمسة عشر يوماً، والمناشف كل عشرة أيام.. شيء في منتهى النظافة..
- وهل ننام فيها أيضاً كل عشرة في حجرة؟..
- لا.. كل اثنين في حجرة، وإذا أردت أن تنام منفرداً دفعت 15 قرشاً إذا كانت الغرفة قبلية وعشرين إذا كانت بحرية.. إن صاحبها الخواجا طناشي رجل عفريت، يكسب من كل شيء، حتى من الهواء.. إن الغرفة البحرية لا تفرق عن الغرفة القبلية إلا في الهواء.. وهو يبيعك هذا الهواء بخمسة قروش.. أليست هذه عفرته؟..
- وهل هو رجل مأمون؟..
- أما هذا فمؤكد.. ذمة صافية كأنها البلور، تعطيه ما معك من نقود وتأخذ منه إيصلاً فلا يضيع منه شيء..
- ثم سكت قليلاً وغمز بعينه وقال:
- وزوجته.. يا سلام على مدام طناشي.. مهلبية بالفراولة.. أو فراولة بالمهلبية.. وجه كالقمر وجسم يرزقك الله بمثله لو كنت من المرضى عنهم.. ذراعها يا عبد الجليل يا ابني عمود بلور في سُمك عمود الجامع.. رخام شفاف..

وأخذ وجهه هيئة جادة ومضى يقول:

- ولكن حذار من أن تمد يدك عليها.. إنها هناك للمشاهدة فقط،
فإذا حدثتكَ نفسك بأكثر من ذلك فالويل لك، سيدق عظمك
الخواجه طناشي.. وكم من عمدة لعبت بعقله وأنفق عليها المئات
وقدم لها المصاغ ألواناً، وعندما ظن أنه وصل، وحدثته نفسه بأن
يمد يده إليها أمسك به طناشي ودق عظمه دقاً ثم ألقى به ويمتاعه
إلى الطريق!..

ثم سكت لحظة، ونظر من نافذة القطار وقال:

- لقد دخلنا أسيوط.. أين عبد الستار؟..

- من هو عبد الستار؟..

- شريكي.. ألم تره معي؟.. أين هو؟.. يا عبد الستار.. يا عبد الستار..

ومن تحت أحد المقاعد أقبل صوت عبد الستار يقول وكأنه صحا من

نوم عميق:

- أيوه يا معلم.. ها أنا..

- اطلع يا تنبل.. ألا تشبع أبداً من النوم تحت كراسي القطارات؟..

أخرج..

وخرج عبد الستار كأنه عامل منجم خارج من تحت الأرض، وقد
زادت بذلته رثاثة وقذارة، وانتصب واقفاً وأخذ يفرك عينيه، ومد يده في
جيبه وأخرج طربوشه ووضع فوق رأسه وأسند نفسه إلى مقعد وواصل
النوم..

والتفت شرارة إلى عبد الجليل وقال:

- انظر يا ابني يا عبد الجليل، اسمع كلامي ولا تغامر بنفسك، وإذا كنت متعباً من الفدادين التي عندك فأعطيها لي، أعطها لرجل غلبان مثلي ينوبك ثواب.. أما أن تعطيها للشياطين فأمر يحاسبك الله عليه.. افعل مثلي، فأنا قد انتهيت إلى أن البعد عن السياسة غنيمة، إنني الآن أعيش كأني ملك.. ملك فقير ولكنني أتمتع بكل شيء، لو مضيت في العمل في السياسة لكنت الآن في السجن.. أما الآن فما أنت ترى.. ألف حمد لله.. إنني متزوج من اثنتين واحدة في القاهرة وواحدة في الأقصر.. واحدة في أول الطريق والأخرى في آخره، إذا وصلت الأقصر وجدت لي بيتاً، وإذا وصلت إلى القاهرة وجدت بيتاً، وحياتي كما ترى رحلة مستمرة بين محطتين..

ثم ابتسم وقال:

- المحطة الأولى صعيدية خيرية بنت ناس طيبين، أصل وشرف وجمال، ولا تكلفني شيئاً.. والمحطة الثانية قاهرة مهلبية.. شيء معتبر يا عبد الجليل.. هذه هي السعادة في نظري.. لو وسعها الله على بعض الشيء لتزوجت محطة ثالثة في منتصف الطريق.. الرحلة من القاهرة إلى الأقصر طويلة، وبودي لو قسمتها محطتين.. ربنا يفرجها لكي أتزوج الثالثة وأستريح.

وكان عبد الجليل يصغي إلى هذا المغامر الأفاق وكأنه في حلم، بدا له أن هذا الرجل شيء عظيم.. إنه ليس صعلوكاً ولكنه حكيم.. ملك فقير

كما يقول، مملكته تحد شمالاً ببيت وزوجة وجنوباً ببيت وزوجة، حيثما ذهب وجد بيتاً..

ثم انتبه لنفسه وقال في شيء من الفزع:

- يا خبر!.. لا بد أن العمدة ينتظرني، لقد سرقني الوقت.. السلام عليكم..

واتجه نحو باب العربة معجلاً، حتى إذا ببابها ناداه شرارة وقال:

- خذ عنواني، فربما احتجت لي..

ثم أخرج من جيبه محفظة تناول منها بطاقة في حجم الكارت بوستال وناولها لعبد الجليل، فاخطفها هذا وعدا يقطع العربات، حتى انتهى إلى موضع العمدة وقد وقف القطار في محطة أسيوط.

كان العمدة واقفاً في الديوان ينظر من النافذة، ونظر خلفه، فرأى عبد الجليل فانتهره قائلاً:

- أين كنت؟.. في أي داهية كنت؟..

- لا مؤاخذه يا حضرة العمدة، لقيت أحد معارفي وسرقني الوقت.. كنت أستفهم منه عن بعض أشياء تنفعنا في القاهرة.. إنه من رجال السياسة القداماء..

فقاطعه العمدة ومضى يقول في غضب:

- إذا كنت ستسير معي على هذه الطريقة فعد إلى البلد، إنني أعرف أنك «واد هلس» لا تصلح لشيء.. والحق على.. عملت لك قيمة وأخذتك معي إلى القاهرة.

ووقف عبد الجليل صامتٌ وقد أرسل بصره إلى الأرض كأنه تلميذ
مذنب، ومضى العمدة ينهال عليه بألوان السباب، والغضب يشتد به
رويدًا رويدًا حتى قال:

- .. والله إن عدت إلى هذا اللعب معي ليكونن هذا آخر عهدك بكفر
سهيل، سأطردك منها لتعود متشرّدًا كما أتيتنا شحاذًا لا تجد لقمة
العيش.. أنفهم ذلك؟..

وظل عبد الجليل صامتًا لا يفتح فمه وهو يرجو أن يقف الأمر عند
مجرد الشتائم، وهذا العمدة شيئًا فشيئًا، وقال:

- اذهب فائتني بكوب ماء..

ففهم أن الأزمة انتهت بسلام، وأسرع يلتمس الماء، فنزل من العربة،
ونظر طويلًا، حتى رأى بائع ماء يجري في فناء المحطة بقلة ماء في يده وهو
يصيح كأنه مجذوب أخذته الجلالة:

- ميه.. ميه يا عطشان.. ميه.. ميه يا عطشان.

فصرخ فيه:

- أنت يا بهيم.. تعال..

فأقبل البهيم.. وأفرغ من القلة في الكوب نحو نصفه وناوله لعبد
الجليل وهو لا زال يردد:

- ميه.. ميه يا عطشان..

ونظر عبد الجليل إلى الكوب، ثم إلى الرجل وقال:

- ما هذا؟.. أكمل الكوب.. هل أنت صيدلي تباع دواء؟.. أكمل الكوب..

ولم يسمع الرجل شيئاً مما قال.. كان مشغولاً بالهتاف المزعج الذي كان يصرخ به دون وعي، فصرخ فيه عبد الجليل حتى كف عن ضجيجيه، ونظر إليه وقال:

- أشرب يا سيدنا الشيخ.. اشرب وهات الكوب، القطار على وشك المسير..

- أملأ الكوب أولاً..

فوضع له فيه قليلاً حتى بلغ ثلاثة أرباعه، ولم يجد عبد الجليل حيلة، فسار بالكوب حتى بلغ النافذة التي وقف فيها العمدة، وناوله إياها، فشرب، ثم قال:

- كمآن!..

فصب له الرجل قليلاً، وعادت قصة إكمال الكوب، فوضع الرجل شيئاً قليلاً آخر، وشرب العمدة وتجشأ، وأراد عبد الجليل أن يعود إلى العربة، فعدا الرجل وراءه وأمسك بجلبابه وقال:

- إلى أين؟..

- وهل هذا شأنك؟..

- أين ثمن الماء؟.. كوبتان بقرش صاغ..

فصرخ عبد الجليل:

- كوب الماء بنصف قرش؟.. أين نحن؟.. في لوكاندة شبت؟.. هل أنتم لصوص؟..

فوضع الرجل القلة والكوب على الأرض وأطبق في خناق عبد الجليل وصاح:

- إنني أعرفك أيها الحرامي!.. تشرب ولا تدفع، والله لا أتركك حتى تعطيني القرش..

وتجمع الناس حولهما، وتعالى الأصوات، وصفر القطار، وتخلص عبد الجليل من الرجل بشق النفس، وأسرع فلحق بالقطار وهو يتحرك، وعدا الرجل خلفه، وتعلق بالقطار، وأمسك به مرة أخرى، وتضاربا، وحال بينهما الناس، وانتهى الأمر بأن دفع نصف قرش، وقفز الرجل من القطار كالشيطان.. وأصلح عبد الجليل من هيئته وأعاد ضبط العمامة، ثم سار حتى دخل على العمدة، فوجده مستغرقاً في تفكير عميق. فجلس صامتاً، وظل ساكناً حتى رفع العمدة رأسه وقال:

- هات السبت لتأكل شيئاً، لقد جعنا..

ونهمض فأنزل السبت، وفتح العمدة وأخرج منه بيضاً وجبناً وخبزاً، وقام عبد الجليل فبسط منديله إلى جانب العمدة، وساعده في إعداد «المائدة» ثم عاد إلى مكانه وجلس متأدباً حتى نظر إليه العمدة وقال:

- تعال كل شيئاً..

فأقبل وجلس قبالة المنديل، وتناول بيضة وخيزًا، وأخذ يأكل.. ثم قال العمدة وقد تكور فمه بالطعام، إذ أنه كان قد حشا فيه ربع رغيف وبيضة وقطعة كبيرة من الجبن:

- ماذا قال لك ذلك الرجل؟..

ولم يفهم عبد الجليل شيئًا، فقد خرج الكلام من فم متكور الشدين مختنق بما فيه، وكان هو أيضًا قد حشا فمه بالطعام حتى صار وجهه كالكرة، فلم يستطع الاستفسار عما قال العمدة. وأسرع في المضغ حتى يستطيع الكلام، وغضب العمدة وهو يرى أمامه تلك السحنة الكروية المتنفخة، وعد ذلك من سوء الأدب ولكن صوته كان عاجزًا عن الخروج من حلقه. ومضت لحظات وهذان الوجهان المتنفخان ينظر أحدهما إلى الآخر، وفكاهما يعملان بأصوات مسموعة كأنهما طاحونان. وأخيرًا ازدرد العمدة شيئًا من المصيبة التي في فمه، فانحدرت في بلعومه كأنها حمل ازدرده⁽¹⁾ ثعبان. وكاد يغص بما ابتلع، وأشار بيديه يطلب ماء، ولا ماء.. وأسرع عبد الجليل إلى الخارج باحثًا عن أي سائل يلقي به في ذلك الأتون، حتى وجد رجلًا جالسًا في الممر وإلى جانبه قلة، فاخطفها وعاد يعدو، وناولها لعمدة، فصب منها في جوفه شللاً اكتسح ما في فمه وبلعومه إلى معدته. وأنزل القلة وأخذ يلهث، وما كاد يسترد أنفاسه حتى قال لعبد الجليل:

- مالك تحشو فمك هكذا كأنك لم تر الطعام في حياتك؟.. أهكذا

1- ازدرده: بلعه.

يؤكل العمد؟.. أما تتحسن حالك أبدًا؟.. أما زلت كما أتيتنا
مفجوعًا؟.. ألم تتعلم شيئًا؟..

وصمت عبد الجليل قليلاً، لم يجد شيئاً يقوله، فظل صامتاً، ثم قال:

- لا مؤاخذه يا حضرة العمدة.. كان الخبز جافاً!..

- إذا كان هذا فعلك في الجاف فماذا يكون فعلك في الطري؟.. والله

ما أظن إلا أنك ستعزني وتحجلني أمام الناس، قلت لك ألف مرة
أن أكل الناس الطيبين لا يكون هكذا..

- حاضر يا حضرة العمدة..

- حاضر.. حاضر.. إلى متى تقول حاضر ولا تتهذب؟..

- خلاص يا حضرة العمدة.. لن ترى مني إلا ما يعجبك..

وسكت العمدة قليلاً، ثم عاد إلى الطعام، فحشا فمه من جديد وقال:

- ماذا قال لك ذلك الرجل؟.. من هو؟..

فقال وهو يناول العمدة القلة ليزيل بها ما تكسد في فمه:

- إنه رجل من المشتغلين بالسياسة. وفدي قديم من العارفين ببواطن

الأمر.. عرفت منه اسم سكرتير حزب الملك وبعض أشياء

أخرى تهمنا.. لقد قال لي أن الملك يريد أن يكون كهارون الرشيد،

يريد أن يتعرف أحوال الرعية لينصف المظلوم من الظالم.. إن

الملك يحب الفلاحين..

- والعمد؟..

- أليس العمد فلاحين؟..
- لا.. العمد أسياد الفلاحين..
- يعني منهم.. بس أغنى وأكبر..
- لا.. العمد أمثالنا أغنياء، والأغنياء لا يمكن أن يكونوا فلاحين..
- الفلاح هو الفقير الذي يعمل بالفأس والمقطف. الفلاح هو ذو الجلباب الأزرق. لك عشر سنوات عندنا ولا تعرف من هو الفلاح؟.. ثم تقول لي أن العمد فلاحون..
- يا حضرة العمد.. أردت أن أقول أنهم مزارعون.. يشتغلون بالزرع والقلع..
- ومن قال لك إن المزارع يشتغل بالزرع والقلع؟..
- إذن ماذا يعمل؟..
- يأخذ الإيراد ويلاحظ الفلاحين..
- وهل الزرع والقلع عيب؟..
- ليس عيبًا ولكنه قلة مقام، العمل بالفأس مذلة، لنا مائة سنة في هذه الناحية لم يمسك منا أحد فأسًا. أشراف أولاد أشراف.. كيف كنا نصل إلى العمودية لو كنا فلاحين؟..
- لم أقل لا سمح الله أنكم تعملون بأيديكم، الدنيا كلها تعرف أنكم أشراف أولاد أشراف لا يليق بكم العمل.. ولكني كنت أحسب أن كل أهل الريف فلاحون، فيهم الأشراف وغير الأشراف، ولكنهم جميعًا فلاحون، والفلاحة شرف..

- لا يا ابني ليست شرقاً، إنها ذل وعذاب وفأس ومقطف وجلباب
أزرق وسخرة وفقر وبلهارسيا وأولاد كثيرون ورزق ضيق. كان
جدنا شيخ العرب رشوان أبو الشوارب يقول ذلك. إنه هو الذي
هاجر بنا من الشرقية إلى الفيوم، ومن الفيوم إلى قنا.. كان يركب
الخليل ويلعب بالسيف ويضرب بالطبنجة، وإذا وقف بقرية من
القرى لم ينزل عن حصانه حتى يكون الفلاحون قد أتوه بها يريد
من المال والخيرات. كانوا يسمونه شيخ العرب أبو الشوارب، لأن
شاربيه كانا أعظم شوارب بر مصر. ورآه الخديو إسماعيل مرة فغار
من شواربه وحلف أن يقصها، فهرب جدي وأولاده من بليس
إلى الفيوم، ومن الفيوم إلى قنا، ووصل إلى كفر سهيل ومعه صرتان
من الذهب المجيدي فاشترى عشرين فدأناً. كانت الحكومة تخافه،
والمدير يرهبه، والفلاحون يرتعدون أمامه. وكانت إذا أعجبته
قطعة أرض وضع يده عليها دون أن يعارضه أحد. كانوا يقولون
دعوا أبا الشوارب يأخذ ما يريد، هذا شيخ عرب، شريف ابن
شريف. وعندما مات خلف لنا المال في القدر، والأرض على مدي
البصر، وقد ورث أبي صفاته كلها منه دون أخوته جميعاً. كان له
نفس الطول والعرض والشوارب التي يقف عليها الصقر. كان
يجلس على كرسيه هناك تحت الشجرة التي عند الجسر، فلا يبصره
إنسان إلا وقع له شيئاً، كان رجال الحكومة لا يجروون على دخول
البلد إلا بإذنه، كان يجمع المال من الفلاحين ويدفع للحكومة ما

يريد ويستبقي لنفسه ما يريد. كان عنده كرباج يسمونه «الثعبان»، له لسانان كالثعبان، إذا لسع إنساناً أغمي عليه يومين، ولسعتان تذهبان بالإنسان إلى المستشفى، وخمس تذهب به إلى منكر ونكير.. كان هذا الكرباج يستخرج من الفلاحين ما يريد به أبي عليه ألف رحمة: لسعة تخرج خمسة جنيهاً همراء، ولسعتان تخرجان عشرة جنيهاً، وخمس تخرج مائة..

- كيف؟.. إن خمساً تخرج الروح، فلا يدفع الإنسان أبيض أو أسود..
- لم يكن أحد ينتظر حتى يحكم عليه أبي بالخمس.. كانت النقود تخرج من تلقاء نفسها.. رحم الله أبي، كان رجلاً طيباً.. الفاتحة على روحه..

وتصنع عبد الجليل أنه يقرأ الفاتحة.. تتم بشفتيه، لأن الفاتحة لا تجوز في مثل هذا المقام.. واستطرد العمدة يقول:

- كان شاربه موضع حديث البر كله. وكان الخديو يغار منه، فطلب إليه أن يقصه. فلم يفعل حتى مات. وقد ورثت أنا عنه الشارب..
- لا بد أن الملك سمع به..

فسكت العمدة قليلاً، ثم نظر إلى عبد الجليل في ذعر وقال وهو يمسك شاربه:

- واد يا عبد الجليل.. ألا يكون الملك آتياً خاصة بسبب ما سمعه عن شاربي؟.. لم أتبه لذلك إلا الساعة. هذه العائلة تغار من الشوارب.. وخصوصاً هذا الملك، إن شاربه أهم شيء في ملكه..

يقولون أنه يكلفه عشرة جنيهاً في اليوم، وله موظف خاص يسمى الشنجي. إنه يقتله له بالكوزماتيك ويربط له طرفيه قبل النوم برباط من حرير يشده إلى أعلى رأسه، فإذا أصبح الصباح صار واقفاً كالمسلة، ولذلك يسمونه أبو مسلة. وقد طرد عباس حلمي من مصر لأن شاربه أعظم من شاربه.

- يا نهار أسود يا عبد الجليل.. وماذا نعمل الآن؟..

- لا تقتل شاربك يوم الزيارة.. دعه مهلاً حتى لا يراه الملك.

- وماذا يقول الناس؟..

- ماذا سيقولون؟.. أأستحراً في شاربك؟..

- كيف تقول هذا الكلام؟.. إن الشارب نصف العمودية، بل هو

العمدة بنفسه.. أفأهمله في ذلك اليوم المشهود لأبدو إلى جانب

الملك وقد مال شاربي إلى الأرض كأنني فرخة منتوفة الريش؟..

أكون ابن أبي الشوارب ثم أسقط شاربي في يوم الشوارب؟.. تريد

أن يقول أولاد سلامة أنني حلقت شاربي خوفاً من الملك؟..

- يا حضرة العمدة، الملك ملك.. وإكرام الملك واجب، ولا يصح أن

تقابله بشاربي السبع هذين كأنك تقول له أنك أرجل منه..

- إذن.. ما العمل؟.. إنها مصيبة.. قلت لكم ما لنا وللملوك.. نحن

فلاحون مساكين في حالنا..

قالها بمسكنة يعرفها عبد الجليل وغير عبد الجليل: إنه شيخ عرب

أمام أهل القرية، وفلاح مسكين أمام شارب الملك، بل أمام شارب المدير، بل أمام الشارب التافه المسحوح الذي يحمله ضابط المركز تحت أنفه، كأنه طابع بريد بمليم..

وعاد العمدة إلى الأكل، فأخذ يحشو فمه على الأسلوب «المهذب» الذي اعتاد عليه. وتردد عبد الجليل قبل أن يمد يده إلى الطعام، ثم مدها مد الخائف الوجل، وأخذ من الطعام شيئًا قليلًا، وهو ينظر إلى أشدق العمدة وقد انتفخت من جديد ودار فكاه يطحنان ويهرسان، ثم تناول دجاجة محمرة ففتك بها فتكًا ولعاب عبد الجليل يسيل على قطعة منها.. ونظر إليه العمدة ورمى إليه بورك منها بعد أن نهش منه شيئًا، فتناوله عبد الجليل كالكلب الذليل ومضى يأكله مستعينًا على ملء فراغ بطنه بالخبز، وسبحت به الأفكار وهو يجاهد ليستخلص من ذلك الورك الضنين كل ما يمكن أن يوجد به، فاستعاد في ذهنه كلام شرارة، وأحس بالإعجاب نحوه. لم يعجب به في شيء قدر إعجابه بعبقريته في اتخاذ زوجتين الأولى في الأقصر والثانية في القاهرة، وتمنى أن يقسم له هو أيضًا هذا الحظ السعيد، فيتزوج «وجيدة» عروس أحلامه ويدعها في البلد ويتزوج في القاهرة قاهرة «مهلبية» ملتفة العود كهؤلاء اللائي كن يفتنه بمشيتهن في الملاية اللف في الغورية والسكة الجديدة، ثم حلق به الخيال إلى طبقات الأحلام العليا، فرأى نفسه من الأعيان ذوي قفاطين الحرير وجب الصوف والعمم ذات «الدرابزين»، وتصور أنه يستطيع أن يكمل حلم

شرارة، فالمسافة بين القاهرة والأقصر طويلة حقًا، ولا بد من «محطة» في أسيوط، محطة يكون له فيها عروس أسيوطية ذات جسم «مدملج» يلفه ملمس الحرير.. وكل هذا ممكن!.. فما هو في طريقه إلى القاهرة ليلقي الحكام والناس العظام في صحبة هذا التيس الذي لا يفهم من الأمور إلا أنه ابن أبي الشوارب وعمدة بالقوة ووضع اليد.. إنها فرصة العمر، ألم يقل له شرارة أن السياسة أصبحت اليوم عمل الصعاليك والشطار ومن يعرفون كيف يأكلونها وهي «والعة»؟.. لقد علمته الحياة في كفر سهيل كيف يأكل لنار ويستخرج المال من بين الجلد والعظم.. ولو عرف كيف يتسرب إلى حزب الملك هذا ويفسح لنفسه فيه مكانًا ورشحوه للبرلمان، لأصبح من عظماء الناس ولبس القفاطين والجلب والعمائم، وتزوج الثلاث الموعودات..

ونظر إليه العمدة وقال:

- مالك هكذا سابح في الملكوت والعظمة في يدك كأنك كلب أجرب؟..

وأفاق عبد الجليل من أحلامه، وارتد إلى واقعه ليجد العظمة الجافة في يده، والعمدة ينظر إليه بابتسامة عريضة فيها رثاء وفيها ازدراء.. وقال بعد لحظات:

- هناك شيء نسيت أن أقوله لك يا حضرة العمدة..
- ما هو؟..

- قال لي هذا الرجل إن أحدًا لا ينضم إلى حزب الملك إلا إذا دفع لخزانة الحزب شيئًا..

- سمعت شيئًا مثل هذا، ألم يقل لك ذلك الرجل لماذا؟..

- للحزب.. الأحزاب في حاجة إلى نقود..

- أعرف أن الأحزاب تأخذ نقودًا، ولكن ليس حزب الملك.. المفروض أن الملك ينفق على حزبه.

- الملك يساعد الحزب ورجاله ويعطيهم الحكم، وعليهم أن يقوموا بنفقات الحزب..

- وما هي نفقات الحزب هذه؟..

- لا أدري.. لم أسأله عن ذلك، عندما نكون في القاهرة سنعرف..

- أظن أن الحزب يستأجر قصرًا كبيرًا فيه مستخدمون وموظفون..

- ولماذا لا يعطيهم الملك قصرًا من قصوره الكثيرة ويأمر رئيس الوزراء أن يعطيهم بعض الأفندية؟..

- لا بد أنه هو الآخر يعطي شيئًا، ولكن لا بد من دفع مبلغ قبل الحصول على العضوية.. والإنسان يستطيع أن يعوض ذلك فيما بعد..

- يعوضه؟.. كيف؟.. هل تظن أنهم يعطوننا بعد ذلك شيئًا؟

- لا.. لكنك تستطيع تعويضه من الناس. ما دام الإنسان من حزب الملك فهو يستطيع أن يوظف من يريد في الحكومة، ويقضي

مصالح الناس، وهذه أشياء لها ثمن.. كل خدمة لها ثمن.. ثم إن رجال الإدارة يجاملونك ويساعدونك، فتحصل على الأرض الطيبة بأبخس ثمن، ويعطونك شيئاً من أملاك الميري، وهذا هو السبب في تهافت الناس على الأحزاب، وحزب الملك بصورة خاصة. الحزب الذي يحكم ينهب، والملك لا يريد أن يحكم إلا حزبه. ولهذا يتقاتل الناس على دخول ذلك الحزب..

- لم نر أحداً تقاتل ليدخل هذا الحزب.. إنما التقاتل على الأحزاب الأخرى.. أنسيت ما حدث عندما مر ببلدتنا عضو مجلس النواب عن دائرتنا، هذا الباشا الغلبان الذي أمرتنا المديرية بإقامة وليمة له، فأقمناها ولم يستمتع منها بلقمة، بسبب الطوب الذي كان الأولاد يقذفونه به من الشبايك.. ألم يكن هذا من حزب الملك؟..

- قصد حضرتك توفيق باشا أبو ريشة؟..

- نعم.. أبو ريشة.. أبو طرطور.. هل يدفع الإنسان مالا ليصبح مثل هذا الجدي الهزيل؟..

- ولكن حضرتك تعرف أن هذا الجدي الهزيل اشترى منذ دخل حزب الملك خمسين فدانا في الفيوم عند سنورس..

- لا تصدق هذا الكلام.. إن الذي اشترى الأرض هي زوجته.. ولهذا ضربه الأولاد بالطوب..

- إنه وزوجته شيء واحد..

- كيف يكون هو وزوجته شيئاً واحداً؟.. هذا كله شغل الست،

وهي التي أوصلته للملك وأدخلته الحزب، إنه بردعة مجرد
بردعة، بردعة تحمل لقب باشا، هل تظن أن أبا طرطور هذا دفع
شيئاً ليدخل الحزب؟..

- لا بد أنه دفع.. وها هو يسترد ما دفع.. إن الدفع ضروري، هل
تستطيع ركوب القطار دون تذكرة؟.. هكذا الحزب.. لا بد من
دفع ثمن التذكرة..

- وكم ثمنها؟..

وهنا دوى صوت من ناحية الباب يقول:

- قرش.. قرش صاغ..

ودهشا، ونظرا، فإذا سحنة مقلوبة مظلة من جانب خال من الزجاج
من جدار الديوان المطل على عمر العربة، سحنة كأنها من النحاس الصديء
وعليها عمامة ضخمة سيئة اللف، فبدأ الوجه والعمامة من فوقه كرأس
ثوم. ونظر العمدة إلى هذا الوجه وقال في غضب:

- ما هذا؟..

فقال الرجل المطل:

- القلة.. ثمنها قرش صاغ..

- أي قلة؟..

- القلة التي أخذها هذا الشيخ وجرى بها.

فقال عبد الجليل:

- لقد وجدتها في الممر..

- وجدتہا؟.. وهل القلقل توجد على الأرض كأنها زلط؟..

- وماذا تريد؟..

- أريد ثمنها.

- هذه قلقلك فخذها وأرحنا من سحنة الخنزير هذه..

- بعد أن شربت ما فيها؟..

- فصرخ العمدة قائلاً:

- إذن ماذا تريد؟..

- قلت أريد ثمن الماء الذي شربته بالهنا والشفاء. أنا رجل على الله،

أعيش من هذه القلقل. أسافر من أسوان إلى القاهرة بالقلقل وأعود

إلى أسوان بالقلقل.. أسقي العطشان.. سبيل الله.. يدك على القرش

والقلة والفاخرة لسيدي عبد الرحيم..

فتناول العمدة القلة ونهض ورفعها ليهوى بها على رأس الثوم، ولكن

الرأس اختفت، وانفتح الباب، وبرزت بقية الرأس، مارد عملاق كجذع

النخلة، وقف أمامه وكشر عن أنيابه وقال متحدياً:

- اضرب..

ثم نزع عمامته فإذا رأس مخلوق بالמוש كأنه بصلة، ومضى يقول:

- اضرب.. اعمل جناية بسبب قرش.. تشرب ماء الناس ولا تدفع،

ثم تقول لمفتش القطار إنك عمدة.. أي عمدة هذا الذي لا يدفع

ثمن ماء يشربه؟..

وبلغ الغيظ بالعمدة مداه، فهوى بالقلة على ذلك الرأس المحلوق
الذي يغري بكسر القلل، وتحطمت القلة وبقي الرأس كما هو.. لا هو
أصيب بخدشة ولا تأثر، وقال الرجل بكل هدوء:

- أصبح القرش قرشين.. قرش للهاء وقرش للقلة.. هات.. وكاد
العمدة يحن من الغيظ، وقال:

- والله لا أدفع شيئاً.. اذهب أيها المجرم..

فما درى إلا وقد هوى الرجل برأسه على جدار العربة فشجه شجاً
فظيحاً، وأطبق في عنق العمدة وصاح:

- يا ناس.. يا هو.. الحقوني.. قتلني المجرم..

وأخذ يبكي، وسال الدم على ملابس العمدة، وتجمع الناس، والرجل
يصيح ويبكي، والعمدة متحير في أمره لا يدري ماذا يفعل، فقد فاجأه
الرجل بما لم يكن يتوقعه، ونهض عبد الجليل فرعاً يسب الرجل ويشتمه،
وتصايح الناس:

- ما هذا الظلم؟.. يقتل الرجل الغلبان المسكين؟.. لا بد من تسليمه
للبوليس..

وجعل الرجل يصيح وهو يبكي بكاء مرّاً:

- قتلني يا ناس.. قتلني يا هو.. حرام عليك.. إنني صاحب عيال
وأهمهم.. من يجري على عيالي الآن؟.. يا أخواننا انظروا لي في شيء
يوقف الدم.. سأموت.. سأموت.. مت خلاص.. قتلني المجرم..

وصاح فيه عبد الجليل:

- ألسنت أنت الذي فلقت دماغك؟ .. ألم تهو بها على الجدار؟ ..

وصاح صائح غاضب:

- ما هذا الضلال يا شيخ السوء؟ .. هل يعقل أن يحطم رأسه

بنفسه؟ .. تقتلونه ثم تقولون أنه قتل نفسه؟ .. هذه رقبة القلة لا

زالت بيد الشيخ .. ماذا تريد؟ ..

وصاح آخر:

- ثلاثة بالله العظيم لقد رأيت هذا الظالم بنفسه يضرب رأس الرجل

المسكين بالقلة .. أدركوا الرجل يا ناس .. الرجل يغمى عليه.

وفعلًا تهالك الرجل بعد أن اطمأن إلى أن خلفه من يحمله، وتصنع

الإغماء .. وتراخت يده حتى بدا لمن يراه وكأنه قد مات.

وهتف رجل:

- الرجل مات .. امسكوا المجرم .. جناية .. جناية قتل يا ناس .. هاتوا

البوليس ..

وشق جرجس أفندي الصفوف وتقدم قائلاً:

- ماذا صنعت يا حضرة العمدة؟ .. ماذا صنعت؟ ..

قالها وهو يهز يديه هزاً عنيفاً، وقد بدا على وجهه الغضب .. ثم مضى

يقول:

- أحسبت نفسك في بلدك؟ .. تهشم الرءوس كأنك تكسر بيضاً؟ ..

إلى متى هذا الاستبداد، إلى متى؟.. مرة تضرب شرارة، ومرة تقتل
هذا الغلبان.. الزم مكانك حتى نصل القاهرة.. أنت الآن تحت
التحفظ..

وتهالك العمدة على المقعد، ونظر إلى عبد الجليل نظرة فيها كل معاني
البؤس، ثم صاح فيه:

- مالك هكذا جالس كالعجل؟.. ألم تر ما حدث؟.. قم واصنع
شيئاً..

ونفض عبد الجليل وقال لرجس افندي:

- والله يا حضرة المفتش هو الذي فلق رأسه بنفسه.. ضربه في جدار
العربة.. انظر هنا.. ها هي آثار الضربة وعليها الدم..

- هذا ليس من شأني.. هذا شأن ضبطية السكة الحديد.. اجلس بكل
أدب.. قل ما تريد عند التحقيق.

وكان الناس قد جروا الرجل إلى الديوان المجاور وضمدوا له رأسه،
ورشوا عليه الماء، ولكنه استمر يتصنع الإغماء، فهمس في أذنه واحد منهم:

- أختشي بقى وفوق.. قل كم تريد؟.. يكفيك جنيه؟..

وأصر الرجل على الإغماء، فاستمر الرجل يهمس:

- اثنان.. ثلاثة.. خمسة.. تكلم حتى نستطيع الاتفاق مع الرجل..
لقد اقتربنا من الجيزة وقد ينزل فيها، فلا تبلغ شيئاً.. تكلم.

وتحرك الرجل حركة خفيفة، ثم فتح عينيه وقال في صوت المفيق من

الإغماء:

- آه يا راسي.. آه..

وقال جرجس أفندي وهو يطل برأسه:

- هل أفاق؟..

- فقال صاحب الهمس:

- نعم.. ولكن الإصابة شديدة..

ودخل جرجس أفندي، واقترب بنظارته من رأس الرجل ونظر، ثم

قال:

- صحيح.. إنها إصابة شديدة.. هذه جناية.. العمدة راح في طوكر..

فقال الرجل:

- لا طوكر ولا أبو زعل.. ده رجل طيب.. دع العمدة يرضيه بشيء،

ونصرفها..

فصاح الرجل المتماوت:

- غير ممكن.. لا بد من البوليس والنيابة..

- وما لزومها النيابة يا شيخ؟.. انت رجل صاحب عيال، وأولادك

أولى بالقرشين..

- هل عدت أنفع أولادي؟.. ادع لي أعيش حتى أعطي أقوالي للنيابة..

- يا رجل عيب.. أفق لنفسك.. العمدة رجل طيب ومستعد

لإرضائك..

وقال يخاطب جرجس أفندي:

- قل له يا حضرة المفتش يعطي هذا المسكين شيئاً ونفضها..

فقال جرجس وهو يرفع كفيه في الهواء:

- أنا لا دخل لي في ذلك.. هذا هو العمدة.. كلموه انتم..

ونفض الرجل فدخل على العمدة وقال:

- يا حضرة العمدة.. لست أهلاً لمثل هذه البهذلة.. سليمة والحمد

لله.. إنه رجل غلبان، تستطيع أن ترضيه بشيء ونفضها..

وظل العمدة صامتاً، فقال عبد الجليل:

- أعطه خمسة قروش يا حضرة العمدة.. ودعه يرحل عنا..

وهتف الرجل:

- خمسة قروش؟!.. جناية فيها حبس ستة أشهر، ثم تقول خمسة

قروش؟!..

وتركها ومضى وهو يضرب كفاً بكف ويقول:

- ياللجبروت!.. يفتح رأس الرجل ويريد أن يرضيه بخمسة

قروش!.. والله لو كان رأس خروف لدفع فيه أكثر من ذلك..

وقام عبد الجليل حتى وصل إلى الرجل وقال:

- هذه عشرة قروش.. والله لا ندفع ملياً فوقها..

ونفض الجريح جالساً وقال في صوت جهوري:

- عشرة قروش؟.. لماذا؟ هل هانت الأرواح في البلد إلى هذا الحد؟..

ألسنا من بني آدم؟.. ألن يفرق العمدين المواشي وبني آدم؟..
وربت صاحبه على كتفيه وقال في حنان:

- على مهلك يا شيخ!.. أنت جريح.. أرفق بنفسك.. استرح..
استرح..

وأطاعه الرجل وأراح نفسه وهو يقول:

- آه.. أحس أن روحي تتسرب من بدني..

وصاح الآخر:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!.. الرجل انتهى.. لا حول ولا قوة إلا

بالله.. يا جرجس أفندي.. جرجس أفندي!..

ولم يجب جرجس أفندي، وإنما قال لعبد الليل:

- انظر يا شيخ، وفض المسألة.. انظروا له في جنيه!..

واصطك⁽¹⁾ لفظ الجنيه بسمع الرجل المتهالك، فاهتز بدنه بعض

الشيء، ثم سكن..

وقال صاحبه:

- أي جنيه يا جرجس أفندي؟.. رجل كهذا تشترون روحه بجنيه؟..

ماذا تظنون؟.. كتكوت؟..

فقال جرجس أفندي ساخرًا:

- كتكوت؟.. هذا الجاموس كتكوت؟..

1- اصطك: تلاطم وتصادم.

- ونفذ صبر العمدة فقال:

- ثلاثة بالله العظيم لا أدفع أكثر من جنيهن.. وليذهب إلى داهية إن أراد..

وطال الأخذ والرد، حتى أصبحت روح جرجس أفندي في أنفه، ووقف الأمر عند الجنيهن، استقرا في كف هذا الذي تصدى للدفاع عن حقوق الجريح، فنهض يتوكأ عليه، وساراً حتى بلغ أقصى العربة، فأفاق الرجل تماماً دفعة واحدة، ومد يده وقال:

- هات النقود..

- لي منها جنيه..

فأطبق في رقبة وضغط عليها وقال:

- كل مرة تعملها، قتلي الله إن لم أقتلك..

فقال رفيقه وهو يتحشرج:

- أعطني خمسين قرشاً.. أنا ولك الجنيهن..

- نصف ريال.. لا أكثر.. ماذا فعلت؟.. أليس دمي أنا الذي سال؟..

أليس رأسي هو الذي انفلق؟..

- وأنا؟.. ألم أضع قدمي تحت السيارة في المرة الماضية؟.. ألم أقاسمك

ما أخذته؟.. والله لا أتنازل عن خمسين قرشاً..

فدس يده في جيبه وأخرج قطعاً فضية، وناوله الخمسين قرشاً وأخذ

الجنيهن، وهو يقول:

- هكذا العدل، وقد أمر الله بالعدل.. في المرة الماضية وضعت أنت أطراف أصابع قدمك فمستها السيارة مسًا، أما هذه المرة فقد فلقت رأسي فلقًا.. والرأس أحسن من القدم على أي حال.. فقال الآخر وهو يدس الخمسين قرشًا في جيبيه:

- إنها شركة خاسرة.. سأبحث لي عن رفيق غيرك.. معاملتك ليس فيها شرف، ومثل هذه الأمور إذا لم تقم على الشرف لا تنفع.. أما العمدة فقد انفض الناس من حوله شيئًا فشيئًا، حتى صار وحده مرة أخرى مع عبد الجليل، فجعل يهز رأسه في أسف بالغ، ثم ضرب كفًا بكف وقال:

- يا لها من رحلة سوداء! ما أظن والله أننا نكسب منها شيئًا. إذا كان هذا الشحاذا الذي لا يساوي شيئًا قد عبث بنا وخطف جنيهين ومضى، فكم سيخطف منا من هم أكبر وأقوى؟.. إن قلبي منقبض يا عبد الجليل، وما أحسب إلا أننا ألقينا أنفسنا في بحر لا ساحل له.. ماذا عسانا فاعلين مع الحكام والناس العظام؟.. وما لنا نحن والملك وزيارة الملك؟.. مصيبة وحلت بنا.. وما كان أحرانا أن نتظر في بلدنا، وما سيحصل سيحصل، فذلك خير ألف مرة من هذا الجري الذي لا يجمع من ورائه إلا الخسارة.. والله ما أنبت هذه الفكرة في دماغي غيرك، والويل لك إذا كانت بقية السفرة على هذا الطراز!..

وسكت عبد الجليل، ولكنه وجد العمدة ينظر إليه نظرة يعرفها

وينحشاها، فيها تهديد وفيها شك بعيد.. فقال بعد لحظات:

- يا حضرة العمدة توكل على الله.. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. أنت تعرف أنني خادملك ولا أبغي إلا أن ينصرك الله على أعدائك.. وهذه مناسبة كان من الممكن أن يستغلها أعداؤنا فيما يضرنا.. وماذا فعلنا؟.. مجرد السفر إلى القاهرة، وهو ليس مغامرة ولا شيئاً مكروهاً، فإن رأينا خيراً كان بها، وإلا عدنا إلى البلد مسرعين. وإذا لم يكن لزيارة القاهرة فضل إلا زيارة المشايخ وقراءة الفاتحة عند مقام الحسين ومقام السيدة زينب لكفى..

- أجل.. غداً بإذن الله نصلي الظهر في مسجد الحسين ونقرأ الفواتح وندعو الله أن يكتب لنا ما فيه الخير..

- أجل.. وبعد غد نصلي في مقام الست الطاهرة!..

وشيثاً فشيئاً استغرقهما هذا الشعور الديني الطارئ إثر حادث القلة ورأس الثوم، بينما كان القطار يستقر رويداً رويداً في محطة القاهرة..

ونظر عبد الجليل إلى العمدة وقال:

- يا حضرة العمدة، إنني أخشى الشيالين في هذه المحطة، ولا أحب أن نقع في مجرم كهذا الذي فلق رأسه ليحصل على قروش، وعندي رأي أرجو أن تقبله..

- قل..

- أن نحمل متاعنا بأنفسنا. إن أحداً لا يعرفنا في هذا البلد، فضع

على رأسي الحقيتين وناولني السفط⁽¹⁾ في يدي حتى نفلت من أيدي الشياطين.. إنهم أشبه بقطاع الطرق ورؤساء المناسر والعياذ بالله، يهاجمونك ويحاصرونك كأنهم زبانية جهنم، يخطف كل واحد منهم شيئاً من أشياءك ويجري به وتعدو وراءهم لتلحق بما خطفوا، وعند باب المحطة ينتظرك ثلاثة أو أربعة كأنك مدين أو غريم، وإذا ناقشتهم فيما يطلبون انفجروا فيك بأصوات منكرة تجلجل كالرعد فلا تفهم مما يقولون شيئاً، ولكن أعينهم الجاحظة وأفواههم التي تشبه أفواه التماسيح وأيديهم التي تعلق وتمشط وأصابعهم التي تمتد نحو عينيك، كل هذه تقول لك أن عظامك ستحطم وعنقك سيدق وعيناك ستخرجان على الأصابع إذا لم تدفع ما يفرضون.. يا حفيظ!.. اللهم احفظنا يا رب!.. هيا يا سيدي العمدة، سأنزل إلى الرصيف فتناولني الحقيتين فوق رأسي، ثم تعطيني السفط في يدي..

واستقر القطار في المحطة، ألقى أوزاره ووقف يلهث، وجذب السائق يداً أخرجت البخار الحبيس في صدره، وقفز منه العمال ومضوا، ووقف المسكين يتحسر على أيام كان يصل إلى المحطة، فيسرع نحوه أربعة عمال، هذا يزيل عنه وضر الطريق وذاك يسرع إلى مفاصله بالزيت، وثالث يواسي آلاته، ورابع يفحصه فحصاً دقيقاً كأنه طبيب رؤوف.

ووضع العمدة الحقيبة الكري على رأس عبد الجليل، فأحس هذا أن عنقه سيغوص بين كتفيه، وترنح قليلاً إلى الأمام والخلف ثم ثبت.. ثم

1- السفط: مسلة يحمل فيها الأشياء.

استقرت الحقيبة الثانية فوق الأولى، فوصلت ذفن عبد الجليل إلى صدره وجحظت عيناه.. وتناول العمدة السفط ونزل به حتى أتى عبد الجليل فوجده كحمار السباخ لا يكاد يتنفس، وقد رفع يديه وأمسك بالمصية التي فوق رأسه فلم يدر ماذا يفعل بالسفط، وتلفت يمنة ويسره فلم ير أحدًا يعرفه، فقال:

- الأمر لله.. أحمل لك سفطك يا سي عبد الجليل.. هذا ما كسبته منك!..

ولم يقل عبد الجليل شيئاً، كان مشغولاً بعنقه الذي يغوص في جسده شيئاً فشيئاً، وروحه التي تهبط إلى إخمص قدميه، وأخذ يدرج على مهل كأنه دبابه خلف العمدة الذي يحمل السفط الخفيف في أصبعين من أصابعه وهو من ذلك يشكو ويتأفف.. وهم بعض الحمالين أن يختطفوا السفط، أو يهاجموا عبد الجلل، ولكنهم وجدوه من التعاسة بحيث لا يستحق أن يكون له شيال. ومر بهما الرجل الذي فلق رأسه وقد وضع في فمه سيجارة وسار في رفقة صاحبه يتضحكان، ورآهما عبد الجليل فتعجب، وأراد أن يهر رأسه فلم يستطع..

وسار موكب العمدة الحزين كأنه جنازة، وكانت تلك هي الخطوات الأولى في طريق المجد المرموق.. هكذا سار مضيف الملك ووزيره الخطير الذي يمني نفسه بالآمال الكبار..

وعند باب المحطة وضعا نفسيهما وأحماهما في سيارة أجرة، وأخذ عبد

الجليل نفسًا طويلاً استرد به بعض روحه الهاربة وقال للسائق:
- لو كاندة اسبلنديد..

ونظر إليه العمدة في شيء من التقدير والإشفاق، ثم أشعل سيجارة.
وشغلته أنوار العاصمة عن عبد الجليل وما يعاينه. وأخرج هذا منديلاً
ومضى يمسح عرقه ويتشهد ويحمد الله!..

في فندق إسبلنديد

وصل الـركب إلى فندق إسبلنديد. ووجده عبد الجليل كما قال شرارة، فندقًا نظيف الهيئة يقف على بابه رجل يلبس فـانلة طويلة زرقاء تصل إلى فخذه وقد لف رأسه بعمامة صغيرة. وحمل الرجل متاعها ودخل من خلفها حتى انتهى إلى بنك طويل جلست خلفه مدام طناش وأمامها الأوراق وإلى جوارها الخزنة. كانت كما وصفها شرارة: وجه مستدير كالقمر، وعينان سوداوان جميلتان، وذراعان كأنهما عمودان من البلور، مهلبية بالفراولة، أو فراولة بالمهلبية، وفيما بينهما زاغ بصر العمدة، وهو ينظر إليها حتى تفرغ مما تكتبه، ثم رفعت بصرها إليه وانتظرت أن يتكلم، ولكنه لم يقل شيئًا فبادر عبد الجليل:

- نريد غرفة لحضرة العمدة وسريـرًا لي..

فـقالت:

- غرفة بحري، قبلي؟.. سريـر في غرفة بسريـرين أم بثلاثة؟..

فنظر إليه العمدة وقال:

- ما هذا؟.. قل لهم يضعوا سريـرًا صغيرًا أو كنبـة في غرفتي وتنام..

- أظن يا حضرة العمدة أن الأفضل أن تنام وحدك، وأنا مع الناس..

وعادت السيدة تقول:

- غرفة بالماء أم من غير ماء؟..

فقال عبد الجليل:

- غرفة بحري بالماء لحضرة العمدة.

- ثلاثون قرشاً في الليلة.

واستهولها عبد الجليل، وأراد أن يحتج ويساوم، ولكن العمدة سبقه

وقال:

- عال.. بسيطة.. وندفع أكثر من ذلك إذا لزم الأمر.. إكراماً للست.

ونظرت «الست» إلى عبد الجليل وقالت:

- وانت تنام مع اثنين أم ثلاثة؟..

فقال العمدة:

- انظري له في غرفة صغيرة إلى جانبي.. أريده إلى جانبي..

- عندي غرفة صغيرة على السطح.. فوق غرفتك تقريباً، إيجارها اثنا

عشر قرشاً..

- ولماذا اثنا عشر؟.. ألا تكفي عشرة؟..

- كم يوماً ستمكثان؟..

- أسبوعاً..

- حسناً.. اسم حضرتك؟..

- الحاج صادق مندور أبو الشوارب.. عمدة كفر سهيل مركز قوص
مديرية قنا..

- وأنت؟..

- محسوبك عبد الجليل..

قالها وكأنه يحسب نفسه نازًا على علم.. فقالت «الست»:

- عبد الجليل ماذا. وصنعتك؟

- عبد الجليل أبو قتب.. والصنعة..

فقال العمدة:

- تابع.. تابع العمدة.. يعيش معنا في الدوار..

وسكت عبد الجليل على مضض.. كان يريد أن يقول إنه مدرس.

كان يريد أن يرتقي بنفسه درجة جديدة، ولكن العمدة عاجله ورده إلى

الوراء، وألغى ألقابه ومؤهلاته بجرة لسان..

وتناولت «الست» مفتاحين ونادت خادماً يسمى عبده، فأسرع إليها،

فقالت:

- نمرة 21 للبيه العمدة.. غير له الملايات والبشاكير وضع له قطعة

صابون..

ثم أشارت إلى عبد الجليل:

- وخذ حضرته إلى الغرفة الخالية في الدور الثالث..

فقال عبد الجليل محتجًا:

- قولي له يغير لي الملايات والبشاكير..

- الملاية نظيفة والبشكير نظيف.. والصابون تشتريه إذا أردت..

ووجد العمدة قد سار يتقدمه الخادم بالحقائب، وقد ترك السفط،
فحمله وسار خلفهما حتى وصلوا إلى غرفة العمدة، فإذا هي غرفة
بهيجة فيها سرير جميل وكنبة ودولاب وحوض ماء عليه صنوبر. وأسرع
الخادم، فأعد الحجرة في مهارة، ووقف أمام العمدة وقال:

- تنام في عافية يا حضرة العمدة..

ولم يتحرك العمدة، فعاد الرجل يقول:

- ربنا يخلي حضرة العمدة..

ولم يفهم العمدة، فقال الخادم:

- عاوزين نشرب شاي وسجاير يا حضرة العمدة والبركة فيك

وهنا فهم العمدة، فنظر إلى الرجل في ازدراء، ثم أخرج قرشًا ناوله
إياه، فنظر إليه الخادم كأنه استقله، وهز رأسه، ومضى، فقال العمدة:

- ألا بد أن تشرب شايًا وسجائر؟.. ألا يكفي أن تأكل؟..

فقال الرجل:

- يا حضرة العمدة.. نحن أيضًا بنو آدم..

- وهل لا يكون الإنسان آدميًا إلا بالشاي والسجائر؟..

ومضى الخادم ومعه عبد الجليل، حتى صعدا إلى الدور الثالث، وفتح له حجرة صغيرة فيها سرير وكرسي ودولاب صغير..

وأخرج قرشين ناولهما للخادم، فانبسطت أسارير هذا وقال:

- ربنا يخليك.. هكذا الإنسانية والفهم.. من قال إن هذا الثور يكون عمدة وتكون أنت تابعا له؟ والله إنك لتفهم أكثر منه ألف مرة..

فقال عبد الجليل:

- لست تابعا له، ولكنه كما ترى لا يفهم.. إنني مدرس أحمل البكالوريا، وقد أتيت معه إلى القاهرة لأرشده.. كم الساعة الآن؟..

- العاشرة والنصف.

- ياه.. آن وقت النوم..

- نوم؟! أي نوم؟ إن البلد تصحو الآن.. انزل إلى الشوارع تجدها غاصة بالخلق.. هذه مصر أم الدنيا، لا تنام ليلاً أو نهاراً.

- قل لي.. كيف أذهب إلى العتبة الخضراء؟..

- خذ أي ترام من أمام اللوكاندة..

- شكراً..

وتركه الخادم ومضى.. فترك عبد الجليل الحجرة وخرج إلى السطح، أحس براحة عندما وجد نفسه أمام مساحة واسعة مغطاة بالبلاط وفوقها السماء. عادت به الذكرى إلى أيام زمان.. أيام كان لا يعيش إلا في غرف

على الأسطح. هذا الطراز من الناس يشعر فوق الأسطح بأنه في بيئته الطبيعية، كما تشعر الطيور بالأمان فوق الأغصان العالية تحت القبة الزرقاء.. السطوح عالمهم الذي يعيشون فيه ويطمثنون إليه. في السطوح يفرشون الحصر ليناموا عليه، تحت أشعة الشمس في أيام الشتاء، وفي نسيم الليل في الصيف، وفي السطوح يصلون ليرى الناس أنهم أتقياء، وفي ركن السطوح يوجد الزير، فيتعللون بالعطش، ويذهبون إلى الزير ليشربوا ويتطلعوا إلى الجيران والجارات.. وعلى الأسطح الأخرى سيدات أو خادמות.. نساء والسلام، نساء يرحن ويحئن دون ملاءة أو خمار.. ومن المرصد إلى جوار الزير، أو من فتحة الشباك الضيقة، يغذي ساكن السطوح المحروم عينيه وأعصابه، وينصب شباكه وهو آمن أن أحدًا لا يراه غير السماء ونجوم السماء..

وانشرح صدر عبد الجليل، وعاد إلى حجرته، فخلع عمامته وصب شيئًا من ماء الأبريق في الصحن وغسل وجهه، فهاله أن الماء أصبح رماديًا كأنه غسل فيه حذاء.. فحمل الطبق، ورشق ما فيه في السطح، وعاد فصب ماء آخر، وغسل وجهه ورأسه، ثم فركهما بالمنشفة، ووضع العمامة فوق رأسه، وجلس على الكرسي يفكر. ثم أبرقت أساريه عندما ذكر ما قاله الخادم عبده عن القاهرة التي لا تنام الليل، فهض وأغلق الحجر ونزل حتى وقف بباب العمدة، فسمع غطيطة عاليًا، فأدرك أنه قد نام فأسرع يهبط السلم، وما لبث أن وجد نفسه في الطريق.

كان معظم المتاجر قد أغلق أبوابه، ولكن الشارع كان عامرًا بالحركة.

كان يريد أن يذهب إلى حي الأزهر لعله يلتقي في أحد المقاهي التي يعرفها بصاحب قديم يعينه على المهمة التي تثقل كاهله. لم يكن يستطيع الانتظار إلى الصباح، فغدا يضعه العمدة أمام الامتحان العسير، وهو لا يريد أن يرسب في الامتحان.

ومضي مسرعاً لا يلوي على شيء، حتى بلغ العتبة الخضراء، ثم اتجه يشتد في الخطى حتى بلغ ميدان الأزهر الصغير، ومر في طريقه برقع من تلك الرباع الهائلة القائمة هناك، وهنا قفز إلى ذهنه اسم صاحبه القديم عبد الحميد زهران. لقد ظل يبحث في ذاكرته عن هذا الاسم، فلم يجده إلا أمام بيته. ونظر إلى مدخل البيت وملكه الخوف، كان أشبه بمدخل قبر رهيب، فظل واقفاً مكانه لا يجد الجرأة على الدخول. حتى أقبل أحد السكان، فحياه وسأله عنه فقال:

- الشيخ عبد الحميد زهران.. الخطاط؟

- هل هو خطاط؟..

- ألا تعرف من تسأل عنه؟..

- نعم، أعرفه، ولكنني لم أره من سنوات.. كان يسكن في الدور الثاني إلى جوار السلم، إنه طويل شديد السمرة.

- نعم.. هو.. بعينه.. لقد فتح الله عليه، وانتقل من هنا منذ ستة.. إنه يسكن الآن في السيدة زينب.. ويعمل خطاطاً بالنهار ومصححاً في جريدة الشعب المصري بالليل.. إنه رجل طيب ابن حلال..
- وكيف ألقاه؟..

- والله لا أدري.. اسأل عنه غداً في جريدة «الشعب المصري».
- ألم تقل إنه يعمل هناك في الليل فقط؟..
- صحيح.. أذكر أنه قال لي إنهم يسهرون هناك بالليل.. لقد شكاً لي مرة.. أتعرف أنه رجل طيب؟..
- جداً.. مم شكاً لك؟..
- من السهر.. قال لي إنهم يظلون في الجريدة إلى الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً.
- يعني.. هل أجده هناك إذا ذهبت الآن؟..
- ربما..
- وما اسم هذه الجريدة؟..
- الشعب المصري.
- وأين هي؟..
- أذكر أنه قال لي إنها في شارع المبتديان، قرب مدرسة السنية..
- أتعرف أين هي؟..
- أظن ذلك.. السلام عليكم.. شكراً يا سيدي..
- اسمع.. إذا وصلت إلى الشارع فاسأل عن الجريدة.. إنها معروفة هناك.. تجد على بابها اثنين من العساكر.. إنهم يحرسونها خوفاً من الناس.. إنها جريدة حزب الملك..
- جريدة حزب الملك!.. ورقص قلبه فرحاً، ومضى يشتد في خطوه وهو يتمنى لو طار طيراً.. كان كلما سار بضع خطوات تتمم لسانه: ما

أكرمك يا رب.. أنت تعلم وغيرك لا يعلم أنني مسكين وشقي وأستحق
الرحمة.. والله إن يسرت لي أمري لأصنعن فولاً وعيشاً للطاهرة..
شيء الله يا ست!.. وللحسين، شيء الله يا حسين.. ولسيدي عبد الرحيم،
شيء الله يا سيدي عبد الرحيم!..

ومضى يخطط في ظلام الليل حتى وصل شارع الخليج، فسار فيه في
ظلام موحش كأنه يدلج بين المقابر، وبين الحين والحين يسمع ضجيج
الترام آتياً من بعيد، ويسمع نغمات ناقوس التنبيه التي يعزفها السائق
بقدمه ليفسح الطريق بالنهار وليؤنس وحدته بالليل. وكان يأنس بهذا
الترام إذا مر به، ويتمنى لو لم يخطط به خطفاً ويتركه في الظلام من
جديد..

وبلغ «باب الخلق» بعد سير طويل، وشعر بالتعب ثم تذكر أن في
جيبه عشرة قروش، فركب الترام، وما أسرع ما وجد نفسه أمام شارع
المبتديان، فسار باحثاً عن الجريدة، ولم يطل بحثه، فقد رأى من بعيد داراً
على بابها مصباحان ورجلان من رجال البوليس، فدلف⁽¹⁾ إليها سريعاً..
فاستوقفه أحد الجنديين وقال:

- لقد انصرف الجميع.. ليس هناك إلا عمال المطبعة..
- إنني أسأل عن الشيخ عبد الحميد زهران المصحح..
- أظن أنني رأيته خارجاً..

1- دلف: أسرع في السير.

وقال الجندي الآخر:

- خرج يا شيخ.. لقد رأيته خارجاً..

ومر عامل، فسأله عنه، فقال له إنه بالداخل، فقال الجندي الذي أكد أنه خرج:

- آه.. إذن فهو هنا؟.. حسبته خرج..

وسار أمامه العامل يده على موضع الشيخ، وأفضيا إلى المطبعة في الدور الأرضي، وفي ركن منها جلس أفندي، وأمامه أوراق وطربوش، وقال العامل:

- يا شيخ زهران.. هذا رجل يسأل عنك..

فانتبه الرجل في شيء من الذعر وقال:

- يسأل عني؟.. خير إن شاء الله.. ومن يسأل عني في مثل هذه الساعة؟..

وأقبل عبد الجليل وألقي عليه السلام، فرد عليه وهو ينظر إليه طويلاً من خلال نظارته السمكية، وبدا بوضوح أنه لا يذكره، فقال عبد الجليل:

- أنا صديقك القديم عبد الجليل أبو قنب.. أتذكر؟.. كنا معاً في الأزهر..

فقال المصحح وكأنه يبحث في ذاكرته:

- آه.. عبد الجليل أبو قنب.. اه.. ذكرت.. أنت الذي كنت تسكن في زقاق المغربي؟..

- هو أنا..

- أهلاً..

وتعانق الرجلان كأنهما كان أحدهما مشوقاً إلى الآخر، وما زال كل منهما يربت على ظهر الآخر ويقول: سلامات يا شيخ عبد الحميد.. سلامات يا شيخ عبد الجليل - بضع دقائق..

ثم جلسا، وهتف زهران يطلب الشاي.. وقال عبد الجليل:

- أراك قد خلعت الجبة وأصبحت أفندياً؟..

فنظر الشيخ السابق إلى سترته ونفض عنها بعض التراب، ثم أشعل سيجارة وقدم العلبه إلى عبد الجليل فشكره واعتذر، ثم مضى يقول:

- هذا كان من زمن.. كانت حياتي معها تعباً متصلاً، إنها كالزوجة المعاكسة لا تطيعك أبداً.. إذا كان الجو بارداً تطايرت عنك وتركتك عارياً، وإذا كان حاراً لصقت بجسمك كأنها ورق مصمغ. وأنت لا تلبسها أبداً، ولا هي تلبسك.. لا يحس بها من جسمك إلا كتفاك، أما باقي جسمك ففي الهواء.. إذا أسرع بها رفرفت حوالبك كأنها جناح طائفة، وإذا سرت على مهل تدلت على جانبيك كأنها ضلفتا باب ربع قديم.. وهي لا تنضم عليك أبداً إلا إذا أمسكت طرفيها بيدك، كالباب العتيق، لا يقر في موضعه إلا إذا أسندته بحذاء.. ولها دلال ثقيل: كنت أركب الترام وأنظر فإذا هي لا زالت في الطريق، ولا بد أن أفرغ لها يداً لأضمها إلى.. وما اقتربت من الماء مرة لأغسل يدي إلا سبقتني

إليه واغتسلت قبلي.. ثم هي تصر على أن تكنس الشارع وراءك، ولا بد أن ترفعها بيدك إذا كنت تأبى أن تكون عربية كنس.. وهي لا تكوى إلا عند مكوجي الرّجل، ومكوجي الرّجل أصبح اليوم ذا دلال.. لقد سئمتها وتعبت منها.. هذا إلى القفطان والحزام، وأنت تعرف متاعب الحزام، يرقد على بطنك كأنه حجر ثقيل، ولا يظل على هيئته أبداً، ولا بد من بسطه باليد وتدليله بالأصابع.. والعمامة وشال العمامة.. يا سلام! كيف أشكو لك وأنت تعرف هذه المتاعب أكثر مني؟ كم ساعة تضيق في لف العمامة؟ كم تحذرت ركبتك وهي مثنية أمامك والطربوش الرخو عليها كأنه على شاهد نعش؟.. وتلف.. وتلف، ثم تجد اللفة آخر الأمر قد خرجت وكأنها لعمامة رجل آخر، فتفكها وتبدأ في اللف من جديد، وقد يتكرر الأمر مرات حتى تصل إلى الشكل المناسب لعمامتك.. أليس كذلك؟.. والشراريب، لابد من ربع ساعة حتى تنتصب في هيئة الدرايزين.. ثم تضعها بعد كل هذا على رأسك فلا تزيد بها على أنك شيخ بعمة لو حسبت الوقت الذي تنفقه في لف العمامة في عام لتبينت أن تاج كسرى لم يتكلف مثل هذا العناء.. لا يا سيدي لا.. الطربوش أرحم بكثير، والبذلة أخف وأرخص..

- فكرة والله يا شيخ زهران. طول عمرك نبيه ومجدد.. أتذكر المختصر الذي عملته لشرح الأشموني على الألفية؟..

- لا تذكرني به.. لم يخرب بيتي في الأزهر إلا هذا المختصر! أخذه

مني الشيخ الحفناوي وطبعه وكتب عليه اسمه، وعندما كلمته في الموضوع حفظها في نفسه وأسقطني في الامتحان.. أراد أن يثبت للناس أنني أزهرى خائب، والأزهرى الخائب لا يؤلف مختصراً لشرح الأسموني.. بهذا أثبت للناس أنه هو المؤلف، لا رحمه الله حيثما ذهب..

- هل مات الشيخ الحفناوي؟..

- مات وذهب إلى جهنم، ولولا أنه مات ما أخذت العالمية أبداً..
وأتى الخادم بالشاي، فمد الشيخ زهران يده إلى كم الجاكتة يرفعه كما كان يفعل بكم الجبة، وظهر طرف كم القميص منسولاً، وقد تحول إلى ما يشبه الشراريب، وبدت على أساور القميص خطوط من أثر العرق والتراب، ثم نظر إلى الشيخ عبد الجليل وقال:

- وأنت؟.. ما فعل الله بك؟..

- تركت الأزهر كما تعلم، ودرست في منزلي فأخذت الابتدائية والكفاءة والبكالوريا، وأريد بإذن الله أن ألتحق بكلية الحقوق.

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. لقد أحسنت.. وماذا تعمل الآن؟

- مدرساً.. مدرساً في مدرسة كفر سهيل الابتدائية..

- كفر سهيل؟..

- كفر سهيل مركز قوص مديرية قنا.. انشأها العمدة، وأنا وكيله هناك..

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. ووكيل عمدة أيضًا؟..
- أهى ماشية يا شيخ زهران.. الأشياء معدن..
- الحمد لله.. ألف حمد..
- ثم نظر إلى ساعته وقال:
- يا سلام.. أصبحت الساعة الواحدة..
- ثم هتف برئيس العمال:
- يا عم رفاعي.. هل بقى شيء؟.. ألم يأت وقت الإفراج؟..
- لا.. لم يأت بعد.. وصلت أخبار مهمة.. الأستاذ لا زال يكتب فوق..
- أما يفرغ من الكتابة أبدًا هذا الأستاذ؟.. أما يكفي كذبًا؟
- فقال الأسطى رفاعي:
- هناك أخبار مهمة.. حوادث خطيرة..
- ماذا؟.. ماذا حدث؟..
- هناك انشقاقات في الوفد.. أخرجوا منه المجاهد الكبير عبد الرؤوف خروف..
- فقال الشيخ زهران ساخرًا:
- كلهم أصبحوا مجاهدين كبارًا.. حتى الخروف أصبح مجاهدًا كبيرًا..
- ثم وجه كلامه إلى الشيخ عبد الجليل قائلاً:
- إنها تكية يا شيخ عبد الجليل.. تكية من غير عمدة!.. الأستاذ

خروف هذا كان من خمس سنوات فقط شحاذًا.. كان محاميًا عاطلاً لا يجد ما يأكله، كان يقف على أبواب المحاكم ويأخذ قضية بخمسة قروش وقضية بعشرة، كان يبحث عن قضية يترافع فيها ولو مجاناً حتى لا يشطبوه من سجل المحامين. ثم بدأ يتصدى للدفاع عن المقبوض عليهم في المظاهرات، ثم نصب نفسه محامياً لشباب الوفد، وفي الانتخابات قبل الماضية رشحه الوفد وأصبح نائباً، فدخل البرلمان كأنه جرادة منهومة تأتي على كل شيء.. كان يعرف أن عمر وزارات الوفد قصيرة كعمر الجرادة، فالتهم كل شيء، وفي بحر سنة كان قد أصبح صاحب عزبة عند بليس وعضو مجلس إدارة شركتين. وسقطت وزارة الوفد وبدأوا يطلبون منه أن يتبرع ويجاهد، ولكن أين هو من التبرع والجهاد؟.. لقد دخل الحزب ليتبرع له الناس لا ليتبرع هو لهم.. والجهاد؟ كان زمان وجبر! وكان جهاداً للقمّة العيش، أما ولديه الآن بدل العيش فطير، فقيم الجهاد؟.. لقد ذاق طعم البرلمان والحكم، وأصبح لا يتصور أن يكون هناك برلمان لا يكون هو عضواً فيه، أو حكومة لا يكون من المنتفعين منها. وبدأ يختلف مع الوفد. طردوا المجاهد الكبير!.. لا يهم، عندهم مجاهدون كبار على قفا من يشيل.. الرئيس الجليل يستطيع أن يجعل من يشاء مجاهداً كبيراً.. وهذا الخبر هو الذي نسهر الآن في انتظاره!.. خبر خروج المجاهد الكبير الأستاذ عبد الرؤوف خروف من حزبه.. تصور الهوان! بعد العالمية وحفظ

الألفية وشرح الأسموني والبخاري وعمدة القاري يجور علينا
الزمان حتى ننتظر إلى ما بعد منتصف الليل لنطلع على الشعب
بخبر الأستاذ خروف! اتفوه على ده زمن!

ثم بصق على الأرض بصقة عبر بها عن تقديره العظيم للأستاذ
خروف، ورفع كم الجاكete وتناول كوب الشاي وأفرغ ثمالتها في فمه
وقال:

- زمن يا شيخ عبد الجليل.. زمن!.. دنيا!..

ثم نظر إلى الركن البعيد من المطبعة، حيث وقف الأسطى رفاعي
يعمل مع عماله وقال:

- يا أسطى رفاعي.. أما تذهب إلى ذلك الأستاذ لتحضر منه الكلمتين
حتى نستطيع أن نعود إلى بيوتنا؟..

فقال الأسطى رفاعي في هدوء:

- الصبر.. يقولون الصبر مفتاح الفرج يا شيخ زهران، حلمك
شوية.. الأستاذ مع الوحي الآن..

- ليكن مع عزرائيل.. ما ذنبنا نحن؟..

- حاضر..

- إذن فهات شيئاً على الأقل.. هات شيئاً نستعين به على بلاوي
الدنيا.

ثم نظر إلى عبد الجليل وقال:

- ها أنت ترى الشقاء الذي نحن فيه .. عبيد، نحن عبيد، عبيد بسبعة جنيهاً في الشهر، ولتتنا نقبضها دفعة واحدة .. لا .. الأستاذ الكبير يعطينا الماهية أقساطاً .. ثلاثة جنيه أول الشهر، ثم جنيهاً جنيهاً كل بضعة أيام ، ولا بد أن نشحذها منه .. ولا يمضي شهر من غير أن يأكل علينا جنيهاً على الأقل ! يأخذ المرتبات كاملة من الحزب، ويعطينا إياها على هذه الطريقة .. ولم لا ؟ .. أليس مجاهدًا كبيرًا ؟ ..

فقال رفاعي:

- يا شيخ زهران .. يا شيخ زهران حرام عليك .. إنه صاحبك، وهو الذي أتى بك إلى هذه الجريدة ..

- لماذا أتى بي ؟ .. لسواد عيني ؟ .. أم لأعيد كتابة مقالاته من جديد ؟ .. ورسول الله إنه ما يعرف الفاعل من المفعول .. تصور يا سي عبد الجليل إنه لا ينصب اسم إن أبدًا .. وخبر كان يرفعه ..

فعاد رفاعي يقول مداعبًا:

- يا شيخ زهران حرام .. وأنت ألم تحسب البرلمان مثني وكتبت مرة: افتتح الملك البرلمان ؟ ..

فقال زهران:

- طبعًا حكمه حكم المثني .. هل هو اسم علم كعثمان وعفان ؟ قلت لك يا أسطى رفاعي لا تتدخل في النحو .. هذا باب كبير عليك ..

وأتى الشاي، فنظر زهران إلى عبد الجليل وقال:
- اتفضل يا شيخ عبد الجليل.. اتفضل.. اتفضل روق دماغك قليلاً..
ثم رفع كم الجاكتة وتناول كوبه الشاي وتمتم: «بسم الله»، ثم رشف
رشفة تجاوبت أصداؤها في جوانب المكان، وقال له:
- لم تقل لي.. ماذا تعمل في القاهرة؟..
وكان عبد الجليل ينتظر هذا السؤال من زمن، ليدخل في الموضوع،
فقال:

- والله يا شيخ زهران، أنت أخي ولا سر بيننا، أتيت لأمر خطير..
- خطير؟.. أعوذ بالله.. وما هو؟ كفى الله الشر..
- شوف يا سيدي.. أنت تعرف أنني وكيل عمدة..
- وكيل عمدة؟.. أين؟...
- في بلدنا.. كفر سهيل..
- آه.. صحيح قلت لي ذلك.. لا بد أن الله فتح عليك، وأصبحت من
ذوي الأطيان؟..
- الحمد لله.. الأشياء معدن والله الحمد..
- لا بد أنك تملك أرضاً كثيرة؟..
- اسمع بس.. لعلك سمعت أن جلالة الملك سيزور بلدنا؟..
- لا، لم أسمع.. كيف؟.. ولماذا سيزور الملك بلدكم من دون سائر
البلاد؟..

- لا أدري.. ولكنك تعلم أن جلالته سيقوم برحلة يزور فيها نواحي الصعيد..

فابتسم الشيخ زهران ابتسامة كلها سخرية وقال:

- أجل يا سيدي.. الزيارة الملكية، الزيارة الميمونة، لنا أسبوع لا نكتب في هذه الجريدة إلا عن الزيارة. وحضرته.. الأستاذ الكبير الذي يسهر الليالي ليمدح الملك كأنه يمدح رسول الله ﷺ.. لا يخاف الله ويكتب قائلاً إنه بسلامته، صاحب الرذالة، قرر أن يعيد عهد عمر بن الخطاب وهارون الرشيد.. يريد أن يتعسس ليتعرف أحوال الرعية.. تأمل الكفر والضلال.. ملك أرناؤوطي لا يتكلم كلمتين عربي ولم يركعها في حياته يصبح عمر الخطاب!.. انظر وتأمل!.

- بس اسمع يا شيخ زهران.. ليس هذا هو المهم.. المهم أنهم أبلغونا أن الملك يريد أن ينزل بقرية واحدة من قرى الصعيد ليتعرف أحوال الناس.. وقد وقع اختياره على بلدنا.

فقال الشيخ زهران، وقد تغضن وجهه وأخذ يحرك يديه كأنه أمام معضلة عويصة:

- لماذا؟ لماذا بلدكم بالذات؟.. أريد أن أفهم..

- والله لا أدري، ولا العمدة يدري.. ولا المدير.. هذا شيء يظهر أنه صدر عن الملك نفسه. أبلغونا ذلك، ونريد أن نعرف جلية الأمر.. العمدة خائف..

- عنده حق.. هذا الملك لا يفكر في أمر إلا إذا كانت له فيه مصلحة..
- وأنا خائف..

- عندك حق.. هذه المسألة تخيف.. هذا الرجل لا يفكر إلا في الأرض
والأطيان.. لا بد أنهم دلوه على عزبة أوقاف أو أملاك ميري في
بلدكم..

- لا أدري.. ولكني أريد أن أعرف الموضوع..

- والله لا أعرف بماذا أشير عليك يا عبد الجليل يا أخي.

- ألم تسمع أبدًا أن الملك سيزور كفر سهيل مركز قوص؟..

- ولا سمعت أنه سيزور قوص نفسها. ولكن اسمع.. لا بد أن
الأستاذ عنده خبر إذا كان الموضوع صحيحًا.. أتحب أن أسأل
الأستاذ؟..

- أي أستاذ؟..

- صاحبنا الذي فوق، الذي جعل الملك عمر بن الخطاب..

- وهل يعرف مثل ذلك الموضوع؟..

- طبعًا.. إنه كاتبهم، كاتب الحزب، كاتب السراي.

- هل تستطيع أن تسأله؟..

- أستطيع.. ولكن الوقت متأخر.. انتظر..

ثم نهض واقفًا، وتناول الطربوش ووضع على رأسه، وأحكم أزرار
الجاكته، ثم مضى، وعاد بعد بضع دقائق وهو يبتسم ويقول:

- شيء غريب.. تعال.. تعال.. تعال كلم الأستاذ..

ومضيا معًا، فصعدا سلمًا أفضى بهما إلى الدور الأول، وسارا في دهليز حتى وصلا إلى غرفة على بابها لافتة: «رئيس التحرير» ونقر الشيخ زهران على الباب، ثم فتحه ودخل وهو يقول:

- تفضل يا شيخ عبد الجليل.. تعال..

ثم قال للأستاذ:

- الشيخ عبد الجليل يا سعادة البك، وكيل عمدة كفر سهيل.

وتقدم عبد الجليل، ومد يده فصافح أصابع الأستاذ الكبير الذي استقبله جالسًا وأذن له بالجلوس، ومضى يكتب في ورق أمامه. ونظر عبد الجليل فإذا هو أمام مكتب كبير أنيق لم ير مثله في حياته، وعليه أوراق وكوم من الصحف والمجلات، وطقم مكتب من البلور يتألق تحت مصباح مكتب يشع إشعاعًا باهرًا. وجلس عبد الجليل يتأمل هذا الأستاذ. كان أصلع الرأس تلمع بصلعته تحت ضوء المصباح وهو جالس يكتب، وكان يحيط بصلعته هلال من الشعر الأسود المتناثر من حولها كسحنة شيطان من تلك السحن التي يخيفون بها الأطفال في الريف، وزاد المنظر بشاعة أنه كان يضع على عينيه نظارة سوداء الإطار غليظة اليدين كأنهما عريش عربة. وكانت بشرته سمراء صفراء كأنها جلد حذاء قديم، ولأمر ما بدا له وكأن شيئًا من الزيت يلمع على أنفه الضخم الذي كاد يمس الورق الذي أمامه، وكان يرتدي بذلة سوداء جعلت منظره كله يبدو إبليسًا حقًا، فاستعاذ بالله في سره. لقد رأى قبل ذلك خلقًا هي نماذج من القبح والبشاعة، بل هو في بلده يعيش بين ناس معظمهم يذكره

بقفص القرودة في حديقة الحيوان، ولكن القبح الذي اعتاده في الريف كان قبحاً أبله، قبحاً ينفر ولكنه لا يخيف.. الناس في القرية كل قبحهم في وجوههم، أما قلوبهم فيبيضاء، حتى من يسمونهم هناك أشراراً، لا يخشى بأسهم. يهولك منظر الواحد منهم، فإذا اتصلت به تبينت أنه طفل. طفل شقي، عرييد، طفل يلعب بالنار، ولكنهم ليسوا أبالسة. إذا قتلوا إنساناً عرف الناس جميعاً أنهم هم الذين قتلوه، ولماذا قتلوه. أما هذه السحنة التي أمامه فسحنة إبليس، تقتل دون نار، وتؤذي دون سلاح..

وظل عبد الجليل يدير بصره في المكان، كانت الغرفة مؤتنة تأثيثاً طيباً يدل على أن هذا «الأستاذ» شيء مهم. على الحائط، فوق رأس الأستاذ صورة كبيرة للملك، بطربوشه الممشوق وشاربيه القائمين وبذلته الرسمية وعليها زينة من القصب، وقد وضع يده على مقبض سيفه. شعر بالخوف وهو يتأمل الصورة، خيل إليه أن الملك ينظر إليه، ولم يتصور ماذا يفعل عندما يصل الملك إلى بلدهم، ويقف هو أمامه وجهًا لوجه.

ثم رفع الأستاذ رأسه، ونظر إليه من خلال نظارة سميكة الزجاج، ولكنها لا تخفي عينيه الجاحظتين، ثم قال وهو يضحك:

- خذ يا شيخ زهران.. هذه هي الافتتاحية.. مسألة الأستاذ عبد الرؤوف خروف مهمة.. لقد انضم إلى حزبنا.. نصر جديد!

وتناول الشيخ زهران الافتتاحية، ووقف، ونظر الأستاذ إلى الشيخ عبد الجليل وقال:

- أهلاً وسهلاً شيخ العرب.. أهلاً وسهلاً.. كيف الحال عندكم؟..

- عال يا سعادة البك..
 - الأمن مستتب وحاجة عال.. أليس الحال الآن أحسن من الفوضى أيام الوفد؟..
 - أحسن بكثير يا سعادة البك..
 - المدير عندكم رجل تمام.. إداري صحيح، إنه من رجالنا. ما اسمه؟..
 - رشدي باشا درة يا سعادة البك.
 - آه.. رشدي باشا درة.. إنه صديقي.
 - أنعم وأكرم يا سعادة البك.
 - ما حكاية زيارة جلالة مولانا لبلدكم؟.. من الذي أبلغكم الخبر؟..
 - إخطار من المديرية يا سعادة البك، إشارة رسمية، وقد أتينا إلى سعادتك لكي نعرف شيئاً من التفاصيل..
 - أي تفاصيل؟..
 - يعني، نريد أن نعرف الموعد بالضبط، وماذا نعمل لاستقبال جلالته، سعادتك تعرف أننا ناس فلاحون لا نعرف شيئاً..
 - فقال الأستاذ في لهجة بهلوانية حرك لها يديه جميعاً:
 - هذا هو الذي يريده جلالة مولانا.. إنه رجل متواضع ديمقراطي يحب الشعب.. إنه يكره الديهاجوجية⁽¹⁾ والرعاع الذين يريدون
-
- 1- الديهاجوجية: الغوغائية.

أن يكونوا زعماء من دماء الشعب.. جلالة الملك مولانا رجل
تقي مخلص وطني يريد أن يحصل لبلاده على الاستقلال بطريقته
الخاصة. إنه دبلوماسي عظيم، والإنجليز يحسبون له ألف حساب،
ولكن الرعاع يعكرون الجو ويترامون على أعتاب الإنجليز،
ليعيدوهم إلى الحكم، ونحن مصممون على وضع حد لهذا
التهريج السياسي.. ها أنت ترى أن الملك يريد أن يتعرف على
الشعب، وأنا متأكد أن الشعب عندما يعرف مولانا كما نعرفه نحن
فسينصرف عن أولئك الرعاع.. وها أنت ترى بنفسك كيف أنه
حفظه الله يريد أن يزور القرى ليرى الفلاحين، أصحاب المصالح
الحقيقية..

ثم نظر إلى الشيخ زهران وقال:

- ما رأيك في أن أكتب في هذا الموضوع؟.. إنه موضوع عظيم..
يصلح افتتاحية.. أو بروازاً في الصفحة الخامسة.. «ديمقراطية
المليك».. انتظر.. سأكتب الخبر الليلة..

فقال الشيخ زهران متوسلاً:

- يا سعادة البك حرام عليك أن ترهق نفسك إلى هذا الحد.. الساعة
الآن الثانية بعد نصف الليل. صحتك غالية يا أستاذ وليس لديهم
غيرك، وللجهاد حدود..

- لا بأس.. كله في سبيل الوطن.. المعركة عنيفة بيننا وبين خصومنا،

والسراي تعلق علينا آمالاً كباراً.. أريد أن أفاجئ الوفديين بالخبر..
اذهب انت بالافتتاحية ليجمعوها، وسأرسل إليك الإطار.. قل
للأسطى رفاعي أن يرفع شيئاً من الصفحة الخامسة.

- يا سعادة البك نحن الآن وش صبح، والعمال يريدون أن يذهبوا
إلى بيوتهم..

فقال الأستاذ محتداً:

- قلت لك ألف مرة لا تتدخل في عملي.. اتفضل على المطبعة.. هيا..
ثم نظر إلى عبد الجليل، وقال وهو ينظر إلى الباب الذي اختفى منه
زهران:

- هذا الرجل حمار.. والله لولا أن له أولاداً يجري عليهم لطرده..
إنه لا يفهم شيئاً، ويخطئ في اللغة العربية، ثم يقول إنه أزهرى..
ثم أشعل سيجارة وأمسك القلم وأخذ ورقة، وقال لعبد الجليل:

- ما اسم بلدكم؟

- كفر سهيل مركز قوص..

- والعمدة؟.. من العمدة؟..؟..

- الشيخ صادق مندور أبو الشوارب..

- إنها أسرة كبيرة.. بيت أبي الشوارب.. كل البلد تعرفه.. إنه رجل
غني جداً..

- ليس غنياً جداً.. ولكنه مبسوط..

- مبسوط.. يعني عنده.. مثلاً.. خمسمائة فدان؟
قالها وهو ينظر إليه نظرة لم يفهم معناها، ولكنها أقلقته، فانتظر لحظة
ثم قال:
- أقل من هذا بكثير، هذه المئات لا يملكها من أهل الصعيد إلا
القليلون.. عمدتنا رجل في حاله، لا صلة له بالإنجليز، فمن أين
تأتيه هذه المئات؟
- قصدي يعني.. مائتان.. ثلاثمائة؟..
- شيء من ذلك، لا أدري كم يملك بالضبط، ولكنه حوالى ذلك
القدر.. فيما أظن..
- فهز الكاتب الكبير رأسه الأصلع الضخم وقال وكأنه يخاطب نفسه:
- إذن.. لماذا يزوره الملك؟..
- وسكت عبد الجليل، لأن هذه العبارة الأخيرة أفزعته فظل صامتاً،
ينظر إلى السحنة الشيطانية التي أمامه، ثم ابتسم الأستاذ وقال:
- طيب.. أظن أنه ينبغي قبل كل شيء أن تروا رفيقي باشا سكرتير
عام الحزب.. إنه سيقراً الخبر غداً في الجريدة، وسأتصل به صباحاً
لأبلغه.. هل العمدة هنا؟..
- أجل.. إنه في الفندق..
- طيب.. سأقول له أن العمدة سيزوره غداً بعد الظهر.. قل للعمدة

ذلك، وكونا في دار رفيقي باشا حوالي الخامسة بعد الظهر.. إن الشيخ زهران يعرف البيت.. قل له أن يصحبكما إلى هناك.. أنا سعيد جدًا بهذا الخبر.. ويسرني أن أرى العمدة.. لقد أوحشتنا تحف الريف والعمد منذ زمن.. أوحشنا الدجاج والأوز والبط والفطير إياه..

ثم ضحك ضحكًا عاليًا وهو يقف ليصافح عبد الجليل.. وصافحه هذا وانحنى وهو يشد على يده انحناءً عظيمة.. ثم توجه إلى الباب، ومضى إلى المطبعة فوجد الشيخ زهران ينتظره قلقًا، ولم يكد يجلس حتى قال له:

- ماذا أخرجك هذا الوقت كله مع الأستاذ؟..

- كلام كثير..

- لا بد أنه كلمك عن الدجاج..

- أي دجاج؟..

- الدجاج.. ألا تعرف الدجاج؟ إن صاحبنا الأديب الكبير مغرم بالدجاج، يأكله ويربيه ويتاجر فيه.. إن لديه مزرعة دجاج هائلة فيها دجاج إنجليزي وفرنسي وألماني وكل صنف.. عنده دجاج في حجم البط ودجاج في حجم النعام، وهو يربي ويستفرخ ويبيع.. لقد كون ثروة هائلة.. هؤلاء هم الأساتذة الكبار في أيامنا هذه.. تجار دواجن، تجار مبادئ، تجار كلام، تجار كل شيء.. هل سمعت بمثل هذا؟..

ثم أفرغ بقية كوب الشاي في فمه ومضى يقول:

- هيه؟.. ماذا قال لك عن الدجاج؟..

- يبدو أنه يظن أن العمدة أتى معه ببضعة أقفاص من الدجاج ليوزع منها شيئاً لا ويمينا..

- ليتها ترسو على الدجاج ليجس النبض.. ألم تحضروا معكم شيئاً؟..
- لا..

- وهل هذا كلام؟.. عمدة يأتي من الريف دون أن يشحن معه عربة دجاج وعربة أوز وعربة بط.. ليوزعها على الناس كأنها ترمس؟..
- من أين يا شيخ زهران؟.. لا دجاج عندنا ولا كتاكت.. من قال أن مديرية قنا كلها تعرف الدجاج؟.. إن الدجاجة عندنا تظل كتكوتاً عمرها كله، أرجلها ورقبتها فقط تطول، أما جسمها فيظل جسم كتكوت، فإذا رأيته حسبت أنها نعامة صغيرة.. وذلك كله من الجوع.. دجاج الدنيا كله يعيش على ما يلتقطه من الأرض، والأرض عندنا تراب وحصى..

- إذن.. من أين يأتي الفلاحون عندكم بما يحملونه معهم من الدجاج إذا أتوا إلى القاهرة؟..

- يشترونه في الطريق.. من المنيا وبني سويف والجيزة.. وربما من القاهرة أيضاً..

- إذن فلا بد أن تشتروا غداً قفص دجاج للأستاذ..

- سأقول للعمدة.. إنه لا يعرف هذه المسائل..
- وماذا قال لك الأستاذ غير ذلك؟..
- قال إننا ينبغي أن نقابل رفقي باشا وكيل الحزب!..
- فهز الشيخ زهران رأسه هزة أعادت إلى ذهن عبد الجليل ذكرى الحياة المريرة مع المجاورين:
- الله أكبر.. عال!.. رفقي باشا.. دخلنا في الجد.. لقد وقعتم في الفخ يا قمر!..
- أي فخ؟..
- فخ الحزب وخزنة الحزب ودخول الحزب.. أمال!.. إنهم لا يلعبون يا ولد عمى.. إنهم يأكلونها وهي طائرة، وهي والعة..
- الاسم سياسة والحقيقة هبش ونبش وكبش.. أمال!..
- فهز عبد الجليل رأسه وقال:
- فسر يا شيخ زهران.. إنني لا أفهم..
- ولن تفهم، ولا أحد يفهم.. إنها شركة، شلة حرامية!.. واحد يسلمك لواحد.. لقد حدثك عن الدجاج وضمن لنفسه شيئاً، والآن يسلمك لرفقي باشا ليأخذ منكم نصيبه.. وبعد ذلك يجيء دور الملك!..
- وما العمل يا شيخ زهران؟.. يبدو أن المسألة خازوق!..
- ليتها تقف عند الخازوق.. إنها خازوق ومصيدة.. المهم أن تفتحوا

عيونكم. هؤلاء الباشوات والأساتذة العظام والمجاهدون الكبار كلهم شحاذو عذب، متسولون يقفون على باب ولي من أولياء الشيطان يسمى مولانا.. نصيحتي أن تتظاهروا بالفقر وأن تمسكوا يديكم جيداً.. لا تدفعوا إلا رسم عضوية الحزب..

- وكم يبلغ هذا الرسم؟..

- المفروض أنه خمسة جنيهاً، ولكن لا بأس من أن تدفعوا عشرة، وإذا طلبوا إليكم أكثر لا تزيدوا عن العشرة جنيهاً شيئاً.. هؤلاء الناس جبناء، يخشون العين الحمراء..

- على أي الأحوال، أنت الذي ستقودنا إلى الحزب، قال لي الأستاذ ذلك.

فانكمش الشيخ زهران، ونظر إليه في فزع وقال:

- أنا؟.. ولماذا أنا بالذات؟..

- لا أدري، الأستاذ نفسه قال ذلك..

- ولماذا لا تذهبون أنتم؟..

وهنا أقبل غلام ويده ورقة وضعها أمام الشيخ زهران ومضى.. فنظر إليها زهران، ثم رفع رأسه إلى عبد الجليل وقال:

- هذا هو الخبر.. كتبه الأستاذ بأسلوبه المضحك، انتظر حتى أعيد كتابته..

ثم أمسك بالقلم ومضى يشطب ويثبت ويكتب، ثم نظر إلى عبد

الجليل وقال:

- اسمع يا سيدي.. هذا هو الخبر، لقد شخلعه الأستاذ وندشه:
«ديمقراطية المليك».. يا عيني يا عيني على المليك!.. يعني «الملك»
فقط لا تكفي؟.. لا بد من «المليك»؟.. ما علينا.. «فضل جديد من
أفضال مولانا حفظه الله نسجله على صفحات التاريخ بحروف
من نور، حروف تتألق وتعلن أن جلالة الجالس على عرش مصر،
المتربع على أريكة الدوحة العلوية الطاهرة..».

وكان يقرأ الكلام ويمد به فمه مدًا، وينغم الألفاظ تنغيًا يختلط
فيه الإعجاب بالسخر، الإعجاب بهذه القعقة اللفظي التي تعزف
على الوتر الأزهري من نفسه، والسخر من هذه التهاويل التي تخدش
إحساسه كإنسان. وكان الأسطى رفاعي واقفًا عند آلة الطباعة ينتظر أن
يفرغ الأستاذ من هذا التثني والتأود.. ثم لم يطق صبرًا، فقد كانت الساعة
قد أوفت على الثانية والنصف، ولم تطبع الجريدة بعد.. فتقدم واختطف
الورقة من يد الأستاذ وهو يقول:

- يا شيخ زهران حرام عليك، الصبح شقشق وأنت تتغنى وتتأنق؟..
هل آتيك بعود تغنيها عليه؟.. نريد أن نفرغ ونعود إلى بيوتنا..

فالتفت إليه زهران غاضبًا وقال:

- يا أسطى رفاعي قلت لك ألف مرة لا تفعل معي ذلك.. إنني أنا
المسئول أمام الأستاذ لا أنت..

فقال الأسطى رفاعي في غير اكتراث، وهو يوزع «الكلمة» على العمال:

- مسئول إيه وبتاع إيه؟.. هل هذا هو البخاري؟.. كله كلام فارغ لا يقرأه أحد.. بالله العظيم هذه الجريدة لا يقرأها إلا عمال المطبعة.. لم أر في حياتي إنساناً يقرأها.. حتى الذين يفرض عليهم اشتراكها لا يقرءونها.. تطبع ثلاثين ألفاً وتعود إلينا ثلاثين ألفاً وزيادة! المرتجع أكثر من المطبوع.. ألا تعرف ذلك؟ قم يا أستاذ زهران وتوكل على الله وعد إلى بيتك.. بيتك أولى بك من هذا الهراء..

فنظر إليه زهران طويلاً ثم ابتسم، ووضع الطربوش على رأسه وهم يريد الذهاب والابتسامة لا زالت على وجهه. كانت عبارة «ثلاثين ألفاً» لا تزال ترن في أذنه. لأن المطبوع كان لا يتجاوز ثلاثة آلاف، ولكنه يقيد في الدفاتر ثلاثين ألفاً، ويشترى الورق لهذا القدر الكبير ويبيع معظمه للصحف الأخرى، ويتسلم المتعهد ثلاثة آلاف ويوقع باستلام ثلاثين ألفاً، ثم يرد في الغد ألفين أو أكثر مرتجعات.. والأرباح تقسم حصصاً بين الأستاذ والشيخ زهران والأسطى رفاعي والمتعهد..

ونفض عبد الجليل وسار مع الشيخ زهران، حتى إذا كانا بالبواب هتف الأسطى رفاعي:

- يا شيخ زهران.. الماكينة توقفت..

فالتفت الشيخ زهران وقال:

- تاني!.. قلت لكم ألف مرة إن هذه الآلة لا تنفع.. في كل يوم تتعطل

مرتين.. انظروا في حل.. هذا حال لا يدوم.. لعن الله العمل إذا
كان على هذه الصورة..

- والعمل يا شيخ زهران؟ لابد من حل..

- ما الذي تعطل فيها؟..

- أولاً نريد لترّاً من البترول..

فضرب الشيخ زهران كفّاً بكف وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!.. من أجل لتر بترول ثمنه ستة مليات

تتعطل الآلة؟.. أليس عيباً يا أسطى رفاعي أن تقول شيئاً كهذا؟..

ألا تستطيع أن تدفع من جييك ستة مليات؟..

- ولماذا أدفعها؟.. لقد دفعتها أمس وأول أمس، ولو أستمّر الأمر

على ذلك لضاع مرتبي في شراء بترول للماكينة..

فنقد صبر زهران وصاح:

- يضيع مرتبك؟!.. أما تستحي يا رجل؟ تأخذ 15 جنيهاً في الشهر

ثم تقول إن مرتبك سينفذ من ستة مليات؟..

ثم اقترب منه وقال:

- اللي استحوّ ماتوا يا سي رفاعي.. لا لزوم لدفعها من مرتبك..

ادفعها من مكاسبك من الورق.. ادفعها من المئات التي كسبتها

من شراء هذه الآلة..

فقال رفاعي متحديًا:

- ولماذا لا تدفع أنت من مكاسب الورق؟.. لماذا أتحمل أنا وحدي
وغيري يأكلها حلالًا زلاً؟..

فضاق صدر عبد الجليل وقال:

- يا ناس.. حرام عليكم.. هذه ثلاثة قروش تشترون بها بترولاً
لخمسة أيام..

ثم وضع القروش على مكتب الشيخ زهران، وأراد أن يمضي، فقال
رفاعي:

- وليس هناك حبر أحمر للمانشيت..

فقال زهران:

- حبر أحمر؟.. حبر أحمر؟.. كل يوم حبر أحمر؟!.. هل أنتم
تشربونه؟.. ألم أعطكم أمس خمسة قروش؟..
- طبعنا به عناوين أمس..

- وهبني أعطيتك الثمن الآن، فمن أين تشتري حبراً أحمر في
الفجر؟..

- الولد عفيفي عنده صفيحة.. نحن نشترى منه..

فضحك زهران ضحكاً مرّاً وقال:

- الله.. الله.. عفيفي صفاف الحروف يشتري صفيحة حبر أحمر لبيع

منها للمطبعة كل يوم بخمسة قروش.. ومن أين حصل على
الخبر؟.. سرقة من المطبعة!.. أطباعون أنتم أم تجار أم لصوص؟..
فقفز عفيفي من مكانه خلف الماكينة، وانتصب واقفاً أمام زهران
ونظر إليه وقال:

- أحفظ لسانك يا شيخ زهران.. إنني رجل تقي مصل أعرف ربنا
جيداً..

ونظر إليه زهران في احتقار بالغ.. كان قزماً صغيراً لا يزيد طوله على
التر والنصف، وكان يضع على رأسه عمامة ذات عدبة تتدلى على قفاه
الطويل، وكان قد أطلق لحيته البخيلة فاستدارت حول وجهه كأنها بقايا
شعر فرشاة بلاط متآكلة. وكان ذا عين واحدة، ولم يكن يلبس إلا فانلة
فوقها صديري بلدي، وتحتها سروال واسع ينتهي عند ركبتيه، وفي قدميه
قبقاب كبير..

- حتى أنت يا سني أصبحت إنساناً؟.. تقسم بالطلاق أن هذا الذي
تبيعه لي حبر المطبعة؟.. والله إن لم تعطنا الخبر الساعة لأخرجن ما
تحفيه في عمامة النحس هذه وأسلمك لنيابة المخدرات!..

وبدلاً من أن يطبق عفيفي في رقبتة، كما كان منتظراً، تلفت حوله
وقال:

- أتشهدون عليه؟ أسمعتم ما قال لي؟.. قلت لك أمض من هنا قبل
أن يصيبك الشر..

وأسرع رفاعي فتدخل، ووقف بين الشيخين قائلاً لعفيفي:

- يا سني حرام عليك.. لا تكن عصيًا.. تعال.. تعال..

ثم نظر إلى زهران وقال:

- اذهب أنت يا شيخ زهران.. سيعطينا الخبر.. إنه رجل طيب.. هيا

يا سني.. حقك على..

فقال عفيفي:

- لن أعطيكم حتى آخذ القروش الخمسة..

- ستأخذ القروش الخمسة.. هيا.. ها هي.. دعنا ننفق على هذا

الحزب من مالنا والأمر لله!.. هيا..

وخرج زهران وعبد الجليل إلى الشارع، فاستقبلتهما نسبات الفجر وشعرا بشيء من الانتعاش.. وسارا معًا وقد سبح كل منهما في واد.. عبد الجليل يتعجب من أمر أولئك الناس، إن أسرارهم على ألسنتهم، وملابسهم تغسل أمام الناس وتنتشر على الجبال فيراها كل ذي عين دون مشقة. في ساعتين من زمان عرف أسرار الحزب ورجاله.. من السكرتير العام إلى عامل المطبعة. كلهم يسرقون وينهبون. من أين يأتي هذا المال الذي يتناهبونه ويتوزعونه بالئات أحيانًا وبالقروش أحيانًا. لا بد أن هناك ضحية ضخمة يشرب هذا الجمع من دمها ليل نهار.. ورأى إلى جوانب الحوائط ناسًا نائمين على الأرض، بعضهم يتوسد ذراعه وبعضهم رأسه في التراب.. أيقنون هؤلاء هم الضحايا؟.. ثم قفز ذهنه إلى القرية الحزينة التي بارحها اليوم.. إن الناس هناك جلد على عظم، لا دم ولا لحم، يسرون في الطرقات وعيونهم زائغة، وأفواههم جافة مفتوحة كأنهم كلاب لاهثة.. إنهم يعملون طول النهار دون جدوى،

يعيشون فقراء ويموتون معدمين، أين تذهب ثمرة أعمالهم؟ أين القمح، وأين القصب، وأين القطن؟ أين هذا الذهب الذي تخرجه الأرض كل عام؟ إن أصحابه لا يستمتعون به، فلا بد أن هناك آخرين يحصلون عليه. ما دام الذين يشقون لا يجنون الثمر، فلا بد أن آخرين يجنونه. ما دام هناك ناس يعيشون دون تعب، فلا بد أن هناك من يتعبون ولا يعيشون..

وكان الشيخ زهران شيخاً في كل شيء، برغم البذلة التي يرتديها. كانت الجاكتة تتدلى على كتفيه كأنها «كاكولة»، وكان يحب⁽¹⁾ في البنطلون بركبته خبا كما تعود خلال السنوات الطويلة التي قضاها في القفاطين، وكان منذ خرج من الجريدة قد ركبته الهموم المزمنة التي تنتظره في البيت، هموم زوجته السمينية الطويلة اللسان وأولاده الستة. كان يتأهب للمعركة اليومية بينه وبين زوجته يؤيدها أبنائه الأربعة وبتاه. وكان يجتهد في أن يتأخر في الجريدة قدر المستطاع، ولكن شيخ الخفر - وهكذا كان يسمى حرمة المصون - كانت تصحو في اللحظة التي يضع فيها المفتاح في ثقب الباب، وكانت لا تنساه أبداً، ولا تضع ليلة دون أن تستقبله بها لذ وطاب من ألوان الشتائم وصنوف السباب..

ونظر إلى الشيخ عبد الجليل وقال:

- أين تسكن؟..

- في لوكاندة سبلنديد..

- لوكاندة؟.. كيف؟.. أليس لك أقارب هنا؟..

- لي، ولكنني فضلت الفندق.. قل لي.. أين نلقاتك غداً لنذهب إلى

الحزب؟..

1- يحب: يسرع بهرولة.

- ألا زلت ترغب في الذهاب؟..
- طبعًا.. لابد أن نسلّك كل طريق، العمدة يريد ذلك ولا أستطيع صرفه عما قرر..
- هل حدد لكم الأستاذ موعدًا مع رفيقي باشا؟..
- قال إننا ينبغي أن نكون هناك في الساعة السادسة مساءً..
- نلتقي الساعة الخامسة، أتعرف قهوة القزاز؟..
- لا..
- هي في العتبة الخضراء، وهي مشهورة. سل عنها تجد ألفًا يدلونك عليها، تجدونني في انتظاركم هناك الساعة الخامسة..
- أرجو ألا تنسى.. تصبح بخير..
- وصافحه عبد الجليل، وقد ثقل جفناه وفتر جسمه وبدأ ضباب النعاس يهبط على ذهنه المكدود، حتى لقد شعر أنه ينعس وهو يشتد في خطاه وأمامه هذا الطريق الطويل، ولكنه كان كدجاج الصعيد: طويل الساقين خفيف الجسم، إذا سار أغد⁽¹⁾ وإذا أسرع عدا.. وكانت تباشير الفجر قد بانت وبدأ النور الرباني الرقيق يضيء السماء ويوقظ الديكة فتنادى من دار إلى دار، وكان لابد لصاحبنا من أن ينال شيئًا من النوم قبل أن يطلع النهار!..

1- أغد: أسرع.

العمدة والباشوات

كانت الساعة التاسعة عندما انجابت غمرات النوم عن عبد الجليل. أيقظته الضجة المتصاعدة من الطريق، فالترام يشق الشارع الضيق محدثاً صوتاً يفزع الأبالسة في مخابئها في الأرض السابعة. والترام في شارع كلوت بك لا يسير إلا على وقع الجرس ذي الرنين المعدني، الذي يضعونه تحت قدم السائق لينبه به أولئك الذين لا يلذ لهم السير إلا على شريط الترام، وليشتف آذانه بصوته إذا لم يكن على الشريط أحد، فقدمه لا تنفك هابطة صاعدة تعزف لحناً طويلاً لا يسكت أبداً.. وعلاوة على الترام كانت هناك عربات الكارو تجري على عجل ذي إطار حديدي يكركر على بلاط الشارع فيحدث دويًا مزعجًا، والسائق سائر إلى جانب الحمار، أو جالس خلفه على مقدمة العربة وهو لا ينفك يصيح: «شيه.. حاه!»، وقد سئم الحمار هذا التنبيه المستمر فلم يعد يحفل له، ومن ناحية أخرى فقد احترامه لهذا السيد الذي لا يمتاز عنه إلا بأنه يمشي على قدمين، فصار لا يكثرث لشيء: لا النداء يحمله على الإسراع في سيره، ولا العصا تجعله يغير رأيه.. إنها هو يفعل ما يحلو له تاركاً هذا الحمار الآدمي من ورائه يصرخ كيف شاء..

صحبا عبد الجليل وهو يشعر بصداع شديد، فهو لم ينم إلا ساعات قلائل، وكانت حوادث الأمس، نهاره وليله، قد تسارعت على صورة

أرهقت ذهنه الذي لم يعتد هذه السرعة في الأحداث، أو ذلك التعقيد، وبينما كان رأسه نهباً موزعاً بين أمواج النوم وضجة الطريق، أخذت حوادث الأمس تتوالى أمام ذهنه في سرعة خاطفة. لقد ساقته المقادير إلى حيث كان يريدون كبير مشقة، حتى خيل إليه أن ميدان السياسة هذا سوق مفتحة الأبواب لا يعسر على أحد دخله، وأن أسرارها كلا مباح يرعاه من يريد، فها هو بعد ساعات من وصوله القاهرة قد حصل على تذكرة المرور وعرف كل شيء، ولم يعد ينقصه، ليصبح من أهل السياسة، إلا شيء من المال، شيء كثير من المال يعطي منه العابثين والمتسولين في دنيا السياسة من الخادم إلى الباشا العظيم..

وقفز من سريره، ومضى فأفرغ من الأبريق شيئاً من الماء وغسل وجهه ورأسه، وشعر وهو يغتسل بالماء البارد بسعادة كبرى تملأ نفسه لما أدركه من توفيق، وفاض فؤاده بالشكر لله فقرر أن يصلي، فأكمل الاغتسال وضوءاً، ثم أخذ جلبابه وخرج إلى السطح فطرح الجلباب على الأرض واتخذ سجادة صلاة، وتعوذ وبسمل ورفع يديه إلى أذنيه ونوى الصلاة وأخذ يتلو الفاتحة.

وبينا هو في صلاته إذا صوت العمدة يجلجل:

- عبد الجليل.. يا واد يا عبد الجليل..

فرجع عبد الجليل صوته بشيء مما كان يقرأ تنبيهاً للعمدة إلى مكانه، وإذا العمدة واقف بباب السطح ينظر إليه ويقول:

- ما شاء الله!.. تصلي؟.. منذ متى؟.. ماذا جرى لك؟..

ثم مضى يتمشى في السطح وينظر إلى المساكن وإلى الطريق حتى يفرغ عبد الجليل من صلاته.. ووقع بصره على الزير في ركن السطح، فأسرع إليه كأنه لم يشرب ماء منذ أيام. إن في غرفته صنبور ماء، ولكنه لا يحرك فيه العطش.. أما الزير!.. إنه الماء، إنه الري، ولا ماء ولا ري بغير زير على غطاءه كوز في قاعه بقع من الصدأ.. ومد يده بالكوز فغاص ذراعه إلى منتصفه في الماء ومس الكوز قاع الزير، ثم أخرجه مترعاً⁽¹⁾ فأفرغه في جوفه كأنه وطاب⁽²⁾ ساقيه يفرغ في قناة..

وفرغ عبد الجليل من صلاته.. وكأنه أراد أن يستثير العمدة فمضى يسبح، ونفذ صبر هذا فأنفجر يقول:

- وتسبح أيضاً؟.. ماذا جرى لك؟.. قلنا إنك تصلي في البلد من أجل أهل البلد.. وهنا؟.. لمن تصلي هنا، ولا أهل بلد ولا فلاحون؟..

نهض عبد الجليل، ومضى يقول كالمعتذر:

- لله يا عمدة.. لله.. أصلي لله ليكتب لنا التوفيق..

- طيب أسرع الآن: فوراءنا أشياء كثيرة نعملها.. هيا..

- حاضر.. حاضر..

- قدمت من الجوع..

وأسرع عبد الجليل إلى غرفته ليعد نفسه، ولحق به العمدة ومضى يقول:

- نريد أن نفطري يا عبد الجليل.. أريد أن أكل فولاً مدمساً بالسمن من

1- مترعاً: ممتلئاً.

2- وطاب: ساقى.

فوقه قيراطين بعيش خاص وكثير من الطرشي والفلفل، ثم نحلي ببسبوسة.. أسرع.. فلي شهوّر اشتهي هذه الأكلة..

ولبس عبد الجليل ومضى مع العمدة إلى الطريق، وسار إلى جانبه مستأخراً قليلاً، والعمدة يتلفت يمنة ويسره، ويتأمل الدكاكين الصغيرة المترامية على جانبي الشارع تحت البواكي، وينظر إلى ما فيها من البضائع ما بين جلابيب صوف وكوفيات وطواق وأقمشة، وتمتلى نفسه إعجاباً بكل ما يرى ويتمنى لو اشترى منها أحماًلاً.. وانتهيا آخر الأمر إلى مطعم فول يقف فيه رجل أرمني خلف القدرة النحاسية يتصاعد منها البخار، وسال لعاب العمدة، واندفع إليه كأنها جذبه مغناطيس، ودخل من خلفه عبد الجليل، وأقبل الخادم، فأبلغه عبد الجليل رغبة العمدة: الفول وعليه السمن قيراطين وأرغفة الخبز الخاص وكثير من الطرشي والفلفل. وأقبل ذلك كله، وامتلاأت المنضدة الرخامية المتواضعة بالأطباق، وبدأت عملية الالتهام والفتك، وصمت الاثنان، فقد استغرقتهم لذة الطعام استغراقاً كاملاً..

وفرغ الفول وملحقاته، وطلبوا البسبوسة، ومضى الخادم يحضرها. وانتهز عبد الجليل الفرصة وقال:

- لدينا موعد اليوم الساعة الخامسة يا حضرة العمدة..

فقال العمدة وفي صوته شك واستنكار:

- موعد؟.. أي موعد؟.. وصلنا أمس من القطار إلى السرير، وها نحن في البكور..

- لا والله يا حضرة العمدة.. أنت لا تدري ماذا حدث بالأمس.
عندما دخلت لأنام شعرت بجوع شديد، واستحييت أن أقلقك
لأخذ شيئاً من السفط، فنزلت إلى الطريق وبحثت حتى وجدت
مطعماً، وأرادت المصادفة الطيبة أن ألقى هناك رجلاً من قدماء
معارفي، الشيخ عبد الحميد زهران.. وأخذنا نتحدث..

فقاطعه العمدة قائلاً:

- عساك أن يكون لسانك قد خانك وقلت له شيئاً..
- لا يا حضرة العمدة.. أنت تعرف أنني حريص..
- أيوه يا عبد الجليل.. أنت تعرف الناس، ولا تريد أن تكشف السر
لأحد..

- أي سر؟

- ألم أقل أنك عبيط؟.. سر زيارة الملك..

ثم تلفت حواليه وقال:

- أخفض صوتك.. الحوائط لها آذان..

فقال عبد الجليل هامساً:

- يا عمدة خبر الزيارة معروف، والجرائد تكتب فيه كل يوم..

- الجرائد تكتب في الموضوع؟..

- ألم أقل لك أنني قرأته؟..

فقال العمدة في لهجة تنم عن إنكار واستخفاف:

- جرائد إيه يا عبد الجليل؟.. والله ما صدقت من كلامك شيئاً، وقد أتيت بنفسى اتحقق..

- ثلاثة بالله العظيم يا عمدة قرأته، والشيخ زهران قال لي إن الجرائد تكتب فيه كل يوم.. وقال لي أن جريدة الشعب المصري قد تكتب اليوم.. ثم نظر إلى العمدة كمن تذكر شيئاً هاماً.. ثم نهض واقفاً وقال:

- عن إذنك يا عمدة.. سألتمس الجريدة لأبحث فيها..

وانطلق خارجاً. وشيعة العمدة بنظره وهو لا يشك في أنه قد أصيب بلوثة من ساعة حل القاهرة، فهو حيناً يتحدث عن موعد، وحيناً يخترع شيئاً اسمه الشيخ زهران، وها هو الآن يجري كالمجنون..

وأتت البسبوسة تسبح في سمنها، وتساعد أرجها⁽¹⁾ فملاً خياشيم العمدة، فانبسطت أساريه ونسى كل شيء ما عداها. ومد يده فأزاح الشوكة جانباً وأمسك بقطعة من البسبوسة وألقى بها في فمه، فذابت تحت أضراسه وأحس بنشوة بالغة، وما زال يمد يده إلى الطبق ويلقي في «الهاوية» حتى نفدت البسبوسة وهو مستغرق في اللذة، لم يشعر بعودة عبد الجليل، وجلس هذا وقال مهتاجاً:

- اسمع يا جناب العمدة اسمع.. اسمع ما كتبه الصحف اليوم.. هذه بشرى خير.. والله ربنا نصرك نصرة لم يرها أحد غيرك..

وأفاق العمدة من نشوته ونظر إليه واجماً، وأخذ عبد الجليل يقرأ:

«ديمقراطية المليك..»

1- أرجها: رائحتها.

فقال العمدة هامسًا:

- أخفض صوتك.. أخفض صوتك..

- يا حضرة العمدة هذا شيء في الجرائد.. هل هذا سر؟..

- معلهش.. أخفض صوتك برضه.. إن الحوائط لها آذان، وأولاد
الحرام كثيرون.

واقرب رأسهما، وأخذ عبد الجليل يتلو من الجريدة بصوت هو أقرب
إلى الهمس:

«ديمقراطية المليك»..

فنظر العمدة إليه متسائلًا:

- ماذا يعني؟..

ففكر عبد الجليل قليلًا ثم قال:

- دعني أقرأ قليلًا ثم أقول لك..

- كيف تقول لي؟.. يقولون أن الكتاب يقرأ من عنوانه، وأنت لا
تفهم عنوانه، فكيف ستفهم الباقي؟..

- أقصد أن الكاتب متفلسف كبير، وله عبارات لا تفهم إلا إذا عرف
الإنسان المضمون..

- كيف؟.. أليس هذا كلامًا عرييًا؟..

- أجل..

- إذن فكيف لا تفهمه؟..

- دعني أقرأ يا عمدة.. وبعد ذلك يحلها ربنا..

فهز العمدة رأسه ويديه ثم قال:

- طيب اقرأ..

ومضى عبد الجليل يقرأ:

«فضل جديد من أفضال مولانا حفظه الله نسجله على صفحات التاريخ بحروف من نور، حروف تتألق وتعلن أن جلالة الجالس على عرش مصر، المترع على أريكة الدوحة العلوية، المشرف بطلعته البهية على ربي الوادي..

وقاطعه العمدة في صوت المستسلم اليائس:

- وبعدين؟ لا أفهم شيئاً حتى الآن..

- أصل.. هذه هي الديباجة..

- يعني إيه الديباجة؟..

- يعني المدخل.. قصدي «فتح نفس»..

- هذا الكلام الرومي كله.. «فتح نفس؟.. والله لقد سد نفسي وما

عدت أفهم شيئاً..

- ستفهم حالاً.. دعني أستمّر..

فهز يديه ورأسه وقال:

- قل.. سنرى..

وعاد عبد الجليل يقرأ:

- المشرف بطلعته البهية على ربي الوادي رجل ديمقراطي أصيل..

فعاد العمدة يقاطعه:

- أليست هذه هي الكلمة التي وردت في العنوان؟..

- تقريباً..

- طيب.. هل فهمتها؟..

- سنفهمها عندما نصل إلى النهاية..

- يا عبد الجليل الجرنال كبير يحتاج إلى ثلاثة أيام قراءة.. ستظل تقرأ
ثلاثة أيام؟..

ثم عاد يهرز رأسه ويقول:

- اقرأ.. إنها حكاية «مش باينة» من أولها..

واعتدل عبد الجليل ومضى يقرأ:

رجل ديمقراطي أصيل..

فوضع العمدة يده على يد عبد الجليل وقال:

- فهمتها! حضرتك تقرأها خطأ.. اقرأ العنوان مرة أخرى..

- «ديمقراطية الملك»..

- لا يا سيدي.. إنها ليست كما تقرأها أنت.. استهجاها..

- أهى يا حضرة العمدة: دي.. مو.. قرا.. طية..

- لا يا سيدي.. أراهنك على أنها أرناو طية المليك.. كل الناس

يعرفون أن الملك أرناو طي.. والجرنال نفسه يقول بعد ذلك أن

الملك رجل أرناء وطي أصيل.. حاجة واضحة.. وحضرتك تقول
ديباجة ومش ديباجة.. هات أقرأ أنا..

وتناول الجريدة ونظر فيها فراغ بصره.. ووضع له عبد الجليل سبابته
على موضع الخبر، فمضى يقرأ في صعوبة، ويصر على الشرح:

.. رجل أرناء وطي أصيل، يحب شعبه (يعني شعب الأرناء ووط طبعًا،
أليس أصله؟) ويصر على أن يتعرف أحواله بنفسه، ويأكله برعايته
(مضبوط.. من الأكل) ويقف على أحواله كما هي حتى يعالج أدوا..
أدوا.. وياسو.. وياسو..

ثم نظر إلى عبد الجليل في منتهى اليأس وقال:

- أقول لك.. خذ أقرأ أنت، ثم قل لي على المضمون إذا فهمت شيئًا..
أصل الجرائد لا بد أن يتعلم الإنسان قراءتها.. إنها لا تكتب لنا، بل
لناس مخصوصين.. أليس هذا هو الجرنال الذي أخذ منا الباشا
المدير اشتراكه خمسة جنيهات؟.. ما اسمه؟

- الشعب المصري..

- هو بعينه.. أخذوا منا الاشتراك وأرسلوه لنا بضعة أيام ثم قطعوه،
وحسنا فعلوا، إنه جرنال لا يفهمه إلا المديرون فصاعدًا.. قم
أبحث لنا عن جريدة حقيقية، جريدة تنشر أخبارًا وحوادث
أقاليم.. قم أبحث لنا عن الأهرام أو المقطم.. قم ودعنا من هذه
الجريدة التي لا تفهم ويقولون فيها أن الملك أرناء وطي أصيل..

أهذا كلام؟.. وما لنا نحن والأرناء ووط؟.. هل هذا كلام يكتب
في الصحف؟..

فقال عبد الجليل وهو يمسك الجريدة:

- إذن دعني أكمل قراءة هذه السطور ثم نبحت عن جرائد أخرى
بعد ذلك..

فهز العمدة رأسه وقال:

- اقرأ، سأطلب أنا طبقاً آخر من البسبوسة، فهي أحسن بكثير من
هذا الكلام..

ثم صفق، فأقبل الخادم، وطلب منه طبقاً كالأول، ومضى ينظر إلى
عبد الجليل وهو يجاهد ليفهم شيئاً مما يقرأ. وأتت البسبوسة، فمد يده
وأخذ شيئاً منها وضعه في فمه، وقبل أن يحرك فكه تهلل وجه عبد الجليل
وقال:

- هذا هو الخبر يا عمدة.. صدق الشيخ زهران.. اسمع اسمع..
إنهم يكتبونك باسمك.. اسمع.. اسمع.. وقد اختار جلالته أن
يكون التقاؤه بشعب الصعيد في قرية متواضعة من هذه الآلاف
من القرى الساجية⁽¹⁾ التي يسكنها شعبه النبل، قرية كفر سهيل
مركز قوص مديرية قنا، ورأى أن يقف بها ركبته السامي ليرى
شعبه وليراه شعبه، وليرى بعينه الكريمتين سعادة الشعب في
ظله ورخاءه في حكمه، بعد أن أبعدت عن الحكم عناصر الغوغاء

1- الساجية: الساكنة.

والرعاع، وترجع في دسته المخلصون الأوفياء من رجال حزب الشعب المصري. ولم يكد الخبر السعيد يصل إلى القرية السعيدة حتى هب أهلها وقد دب فيهم الفرح، وشعروا أن الله قد أنعم عليهم بنعمة لا يقابلونها بأقل من الشكر الصادق يزجي إلى أعتاب لأمليك. وخف عمدة البلد السيد الحسيب النسيب الشيخ صادق مندور أبو الشوارب إلى العاصمة ليعبر عن شكره وشكر أهل قريته، وليعلن انضمامه إلى حزب ذوي المصالح الحقيقية في البلاد، حزب الشعب المصري الملتف حول سدة المليك الشريفة الذي يعيد أيام هارون الرشيد، وليؤكد ولاءه للعرش وصاحب العرش المفدي. وما هذه إلا الخطوة الأولى من خطوات المليك في سبيل إنقاذ برنامجه الإصلاحية العظيم. وقد كان خصوم الشعب من رجال أحزاب الدهماء يحاولون الحيلولة بين المليك وشعبه، زاعمين أنهم يمثلون الشعب والشعب منهم بريء.

وفرغ عبد الجليل من القراءة، ونظر إلى العمدة فوجده ينظر «ليه في إمعان شديد ويقول:

- عجيبة يا عبد الجليل.. إذن فالمسألة جد ونحن لا ندري!.. تصدق بالله؟.. كنت أحسب الأمر هزلاً دبره المدير ليسخر منا، أو مكيدة من أولاد سلامة.. اقرأ.. اقرأ.. مرة أخرى.

وأمسك عبد الجليل بالجريدة ومضى يقرأ:

- «ديمقراطية المليك»..

فقال العمدة مستنكرًا:

- لا.. لا.. دع هذا الكلام الفارغ وادخل في الجد.

فمضى عبد الجليل يجري بصره في السطور حتى بلغ الجزء المنشود،
فأخذ يقرأ:

- «.. وقد اختار جلالته أن يكون التقاؤه بشعب الصعيد..»

واستمر يقرأ حتى وصل إلى:

«.. وخف عمدة البلد الحسيب النسيب الشيخ صادق مندور أبو
الشوارب إلى العاصمة ليعبر عن شكره وشكر أهل قريته».

- تمهل قليلًا..

وضغط عبد الجليل على الكلمات لكي يتلذذ العمدة بوقعها، ثم تمهل
في القراءة شيئًا فشيئًا حتى توقف، إذا رأى العمدة يهز رأسه هز المستمع
الطروب، ويتسم إبتسامة عريضة ويقول:

- ويعرفون أنني حسيب نسيب؟.. حقًا إن الجرائد تعرف كل شيء..

ترى من الذي أعطاه هذه المعلومات الدقيقة عني؟..

- لا بد أنه الملك نفسه.. ألم تقل الجريدة أن الملك اختار بنفسه بلدنا؟..

لا بد أنه يعرف.. وإلا فكيف يكون ملكًا؟..

- عندك حق يا عبد الجليل.. الناس تحسبه لا يعرف شيئًا وهو يعرف
كل شيء..

- إنه يخدع الناس، يتظاهر بأنه لا يعرف شيئًا، وهو يعرف كل شيء..

- آمال!.. هذه هي الملوكية والرياسة.. والملوك والعمد يتشابهون..
فالعمدة أيضًا يعرف كل شيء دون أن يبدو عليه أنه يعرف،
فيحسب الناس أنه غفل. قسماً بالله العظيم إنني لأعرف ما يدور
داخل كل بيت من بيوت بلدنا دون أن يعلم أحد بذلك، ودون
أن أقول شيئاً.. هل سبق أن قلت لأحد على ظهر الأرض أنني
أعرف حكاية أم سليمان امرأة أبو جعفر مع أبو اليزيد سويلم؟
هل قلت لأحد أن سليمان ابنها وابنه هو ابن سويلم؟ هل قلت
لأحد أنها تذهب إلى قنا بحجة زيارة المشايخ لتقابل سويلم وتبيت
عنده؟.. هل سمعتني أذكر الكنز الذي وجده أبو الروس وباع
ما فيه للخوارج؟.. هل سمعتني أحد أذكر كيف وجدوا بنت
قناوي جرادة حبلي قبل أن تتزوج، ثم لزقوها لعبد الواحد المغفل
وأعطوه فدانين ليسكت؟.. هل سمعتني أحد أذكر شيئاً من
ذلك؟.. والله لو قتلوني ما أفضيت أسرار الناس!.. هذه أسرار
وقد أمر الله بسترها، والعمدة الصحيح يعرف كيف يستر على
الناس.. لا بد أن يبدو وكأنه لا يعرف.. وكذلك الملك، يعرف البر
كله ورجاله واحداً واحداً ومن منهم حسيب نسيب.. ومن منهم
هلفوت شحات.. ولكنه لا يقول إلا عند اللزوم، وهأت رأيت
كيف أنه يعرفني، ولم يقرر زيارة بلدنا إلا بعد أن تأكد من أننا نبيت
حسب ونسب.. آمال! هكذا الملوك.. أنعم وأكرم!..

وانتظر عبد الجليل حتى فرغ العمدة من ذلك المونولوج الطويل، ثم قال:

- البسبوسة يا حضرة العمدة.. خلص البسبوسة..
فقال العمدة في تكرم عظيم:

- لقد بردت وتجمد السمن عليها.. كلها أنت..
وأقبل عبد الجليل يلتهم بقية الطبق، فقد كان جائعاً، واشعل العمدة
سيجارة ونفخ دخانها في الهواء وسبح مع الخيال وهو يقتل شاربته..
وقال عبد الجليل:

- لم أكمل كلامي يا عمدة.. قلت لك أن الشيخ زهران قابطني أمس،
وعلمت لحسن الحظ أنه متصل بحزب الشعب المصري، حزب
الملك أقصد، وقد اتفقت معه على أن يقدمنا اليوم لرفقي باشا
سكرتير الحزب..

- وماذا نعمل مع هذا الباشا؟!..

- إنه أقرب الناس إلى الملك، ونستطيع أن نعرف منه كل شيء،
ونتفاهم معه على مسألة الزيارة..

- بس يا عبد الجليل يا ابني هؤلاء الباشوات جميعاً أنت تعرفهم.. لا
يجبونا ولا نحبههم، لا يعرفوننا إلا إذا كان هناك شيء يأخذونه منا،
وقلبي غير مطمئن..

- لماذا يا حضرة العمدة؟.. ماذا يخيفك منهم؟.. أنت أكبر وأحسن
من أي باشا.. وكم من باشا أتى إلى قريتنا وجلس إلى جانبك
كالقط..

- يا عبد الجليل هذا في البلد، وأنا في بلدي وبين أهلي وعصيتي،
ولكن هنا، ونحن بين هؤلاء جميعاً.. أنا وأنت فقط..

وشعر عبد الجليل أن العمدة يتهيب الموقف وأن شجاعته تخونه،
وخيل إليه وهو ينظر إليه أن شواربه تتدلى، بينما هي في القرية منتصبه
كالرماح. قوته كلها في بلده وأهله، فإذا غادرها وتركهم شعر كأنه غلام
ضاح من أبويه في الطريق.. وأحس أن العمدة يقترب منه بنفسه وقلبه،
فهو يخاطبه الآن باسمه مجرداً ويقول له يا ابني، وشعر - وهو الصعلوك
الشريد الذي لم يعرف لنفسه بيتاً أو كياناً في يوم من الأيام - إنه أقوى من
ذلك العمدة الهائل وأصلب عوداً..

وروعه العمدة عندما قال:

- اسمع يا عبد الجليل، قم ندق تلغرافاً لإخوتي ليأتوا ومعهم نفر من
أهل البلد..

- ليه يا عمدة؟.. ليه؟..

- يا ابني أنت ترانا وحدنا وسط أولئك الناس.. نريد أن نريهم أننا
أصحاب عصية وعزوة.. لا نريد أن نتركهم يستضعفوننا أو
يتصورون أننا وقعنا في أيديهم.. قم يا ابن الحلال، نريد أن نشد
ظهرنا..

- على أي الأحوال نحن سنقابل رفقي باشا الساعة الخامسة وسنرى
ما يكون، وبعد ذلك نتصرف.

فقال العمدة متضجراً:

- ومالي أنا ولهذا الباشا؟.. ماذا أريد منه، وماذا يريد مني؟.. ماذا

أقول له، وماذا يقول لي؟.. لا يا سيدي.. لن أقابله.. لن أذهب!..

- يا حضرة العمدة هذا لا يصح.. ماذا يخيفك من «حتة» باشا كهذا لا يساوي إلى جانبك شيئاً؟.. نستطيع أن نسلم عليه ونتحدث معه بضع دقائق ثم ننصرف..

- ولماذا؟.. ما الفائدة من مقابلته؟.. إن الذي سيزور بلدنا هو الملك لا هذا الباشا، فلنعد إلى بلدنا وننتظر حتى يجيء..

- إذن لماذا اتعبنا أنفسنا بالمجيء؟..

- هذه كانت مشورتك. أنت طلعت علينا بهذه الفكرة «المهيبة» ولا أدري كيف ضحك على الشيطان فأطعتك..

وأحس عبد الجليل أن التيار يتحول، ولم يأمن العاقبة، فسكت لحظة ثم قال:

- يا حضرة العمدة هذه فرصة وجاءت حتى بابك، باب رزق وخير فتحه الله عند قدميك.. نستطيع أن نعود إلى القرية ثم يأتي الملك ويمضي عنا وكأنه لم يجيء، وقد يسوء منا أننا لم نحفل له فيؤذينا. قسماً برب العزة إن كل عمد البلد يحسدونك الآن.. خمسة آلاف، ستة آلاف عمدة قرأوا الجريدة اليوم وكل منهم يتمنى أن يكون صادق أبو الشوارب.. أولاد سلامة وكل خصومنا في البلد تأكل النار قلوبهم..

وهنا انتفض العمدة وقال:

- اشتر يا عبد الجليل نحو 100 نسخة من هذه الجريدة وابعث بها إلى القرية. هيه، ماذا كنت تقول؟..

- أيوه يا حضرة العمدة، هذه فرصة من ذهب، فرصة ونصرة من الله.. تصور جلالة الملك يأتي إلى بلدنا ويضع يده في يدك!.. هذه فيها الباشوية.. قسماً بالله العظيم ما فيها أقل من الباشوية!.. وبعدها تصبح عمدة العمد وشخصية من هذه التي يتحدث الناس عنها كل يوم، وتدخل البرلمان وصوتك يجلجل، ويصبح المدير والمأمور وخلافه تحت أمرك.. هذا سعد انكتب لك، وهل يفر أحد من سعد أراد الله له؟..

وكان العمدة يصغي إلى ذلك الكلام وكأنه مريض استسلم لساحر يرقيه وينفخ في كيانه الحياة، فأخذ وجهه يشرق رويداً رويداً ووجهه يبتسم حتى صار كله ابتسامة واحدة من أذن لأذن.. وتشجع عبد الجليل فاسترسل يقول:

- قم يا حضرة العمدة نزور الحسين ونصلي الظهر وندعو الله أن ينصرنا على من يعاديننا، ثم نعود فنمر على الخلاق ونرجع إلى الفندق لنستعد لمقابلة رفيقي باشا وربنا يسهل..

- بس يا عبد الجليل.. ماذا أقول له؟..

- كيف تسأل هذا السؤال يا حضرة العمدة؟.. إنك بحمد الله فصيح بليغ ورجل ملء ثيابك، وما يكاد يراك حتى تمتلئ عينه هبة، وتتكلم فيعرف من أنت.. إن كلامك كله درر وحكم، صلي على النبي يا عمدة وقم نصلي في مقام الحسين..

- وإذا طلب منا نقوداً؟..

- نعطيه.. كل قرش ندفعه اليوم نسترده غدًا أضعافًا مضاعفة نعمل كالنواب، يصرفون على الانتخابات ألفًا ثم يحصلونها عشرة آلاف. إن الناس يشترون الباشوية بالآلوف، ونحن سنأخذها بالقليل، ندفع رسم عضوية الحزب..

- كم؟.. كم يبلغ هذا الرسم؟..

- قليل، من خمسة جنيهات وأنت طالع.. بحسب المقام..

- هذه هي المشكلة، مسألة المقام!.. لو دفعنا ما نستطيعه لتصوروا أن مقامنا هزيل، ولو دفعنا كثيرًا انخرب بيتنا، وهؤلاء الباشوات لا يرضيهم إلا الكثير..

- شوف يا حضرة العمدة، أنت تعرف أنني أخدمك ولا أرجو إلا أن يعلي الله مقامك حتى تبلغ المعالي.. ومن رأيي أن نعمل حساب ما سنعطيه حتى لا تتعدها..

- أصل المسألة إننا لا نريد أن نكون مغفلين يضحك على عقولنا أولئك الناس، المال عزيز ونحن نتعب في الحصول عليه، وحرام أن نلقيه للكلاب، لا نريد أن نعطي شيئًا دون أن نكون واثقين من إننا سنكسب ما يساويه أو أكثر منه إذا أمكن..

- ولهذا أقول لك إننا ينبغي أن نعمل مقدمًا حساب ما سنعطيه حتى نعرف المدى الذي لا تتعدها، فإذا كسبنا كان خيرًا وبركة، وإذا لم نكسب كانت الخسارة خفيفة والعوض على الله..

- فما رأيك؟ على كم نستطيع أن نعمل حسابنا؟..

- شوف يا حضرة العمدة.. رسم عضوية الحزب رسميًا خمسة جنيهات..
- طيب.. نعطيهم عشرة..
- إنهم ينتظرون أكثر من ذلك. بيني وبينك، إنهم ينفقون على الحزب من هذا الإيراد.. إذا دفعنا رسم العضوية خمسة كان لابد أن نعمل حسابنا على تبرع آخر لخزانة الحزب.
- نحن لا يهمننا الحزب، نحن يهمننا الملك.. هل سيعلم الملك بمقدار ما نتبرع به؟..
- لا أدري..
- إذن نعطي التبرع للملك مباشرة..
- يا نهار أسود!.. نعطيه للملك في يده؟..
- لا.. نسلمه في السراية، بل لماذا لا نعطيه للملك نفسه؟.. ما هو الملك؟.. أليس عمدة كبيرًا؟.. والعمد جميعًا يتقبلون الهدايا، مالا وغير مال.. ثم إننا سنكرم الملك في بلدنا، وسنتفق بسخاء العرب، فيرى بنفسه كيف إننا لا نضن⁽¹⁾ بشيء في سبيله..
- والله فكرة عظيمة يا حضرة العمدة.. ندفع رسم العضوية في الحزب، ثم نتوجه إلى السراي ونسلم تبرعنا للحزب هناك..
- أليس كذلك؟ المهم أن تكون عيوننا مفتحة أمام أولئك الناس، لا نريد أن يضحكوا علينا!..

1- نضن: ندخر.

- على بركة الله..
- وكم تظننا ندفع تبرعاً؟..
- هذا شيء تقدره أنت يا عمدة.. أنت عمدة وتفهم هذه المسائل أكثر مني..
- خمسون كفاية؟..
- كفاية جداً..
- عال.. هيا إلى الحسين إذن..
- بس.. هناك مسألة صغيرة يا حضرة العمدة لا أدري هل أقولها لك أم لا..
- قل.. قل يا عبد الجليل..
- أنت كلك نظر يا حضرة العمدة.. وقد خرجت معك من البلد وليس معي إلا قروش قليلة، ونحن في القاهرة، ولا يخلو الأمر أن أحتاج إلى قرشين في جيبى، لعلني أركب تراماً أو أجلس مع إنسان في مقهى.. الأمر لا يخلو..
- ففكر العمدة قليلاً ثم قال:
- طيب يا عبد الجليل.. سأنظر لك في جنيته أو نحوه، ولو أنني واثق من أنك لن تحتاج إلى شيء..
- فقال عبد الجليل وهما ينهضان:
- الله يبارك فيك ويطول عمرك يا عمدة..

وأقبل الخادم فطلب اثني عشر قرشاً ونصفاً.. فنظر إليه العمدة وقد
فغر فاه من الدهشة: أثنا عشر قرشاً ونصف في شيء من الفول وبعد
أرغفة الخبز وقطعتين من البسبوسة؟.. وأحس الخادم بما يدور في نفسه
فقال:

- ثلاثة قروش فول؟.. لماذا؟.. بكم القدح؟..

- يا حضرة نحن لا نبيع الفول بالقدح، بل بالطبق. طبق الفول
بالسمن بقرش ونصف.

فنظر العمدة إلى عبد الجليل كالمستغيث، ثم قال:

- أهذا كلام يا ناس؟.. قدح الفول بقرشين، ورطل السمن بأربعة،
فلو عملتم هذا بذاك لكان المجموع ستة قروش.. فهل أكلنا نصف
قدح فول بنصف رطل سمن؟..

فقال الخادم متضجراً:

يا سيدنا الشيخ لا تتعب قلبي.. الحساب للخواجه لاي.. تريد أن
تملاً بطنيكما فولاً وبسبوسة بأقل من هذا المبلغ؟.. ما دام الواحد منكم
مفلساً فلماذا يصبر على أن يأكل؟.. وإذا كنتم لستم أهلاً للمطاعم البريمو
فلماذا تدخلونها؟.. هات المبلغ وإلا ناديت الشاويش..

وكادت المعركة تحتدم، لولا أن تدخل عبد الجليل وظل يستعطف
العمدة حتى دفع الاثنى عشر قرشاً ونصفاً، ومضيا وعبد الجليل في
عجب من أمر هذا الرجل الذي يطمع في الباشوية ولا يريد أن يدفع
ثمن إفطاره. إن أعسر شيء على الفلاح هو دفع المال، خذ منه ما تريد
ودع له العملة.. خذ منه كيلة قمح ولا تأخذ منه قرشاً.. إن عبد الجليل

يعرف ذلك جيداً، فهو يعيش على هامش أولئك القرويين، ولم يعسر عليه شئ كما عسر الحصول على المال. الناس يعطونه كل شيء: القمح والذرة والقصب والبلح واللبن والجبن، بل هناك من لا يتردد في تزويجه من بنته دون مهر، أما الحصول على نقود من ورق أو فضة أو حتى من البرونز أو النيكل أو النحاس فذلك شيء مستحيل.. وها هو العمدة قد وعده بإعطائه جنيهاً «مصرف جيب» وهو واثق من أنه لن يعطيه إياه، سيسمح له بأن يأكل معه ويركب معه ولكنه لن يعطيه قرشاً واحداً في يده.

وسارا في الطريق إلى «المشهد الحسيني» تقدم العمدة بجسمه المبسوط ورأسه الكبير يزينه الشاربان العظيمان، وإلى جانبه، متأخراً قليلاً، سار ذلك الطفيلي المسكين عبد الجليل يفكر في أمر نفسه، وتصور نفسه شجرة لبلاب متسلقة على ذلك الحائط الضخم الذي يسمى صادق أبو الشوارب عمدة كفر سهيل مركز قوص مديرية قنا.. سار العمدة ومن خلفه دليله، وكلما انتهيا من شارع التفت وسأل: من أين يا عبد الجليل؟ فيشير بيده: من هنا يا حضرة العمدة، من هنا يا جناب العمدة، من هنا يا عمدة، حتى خرجا من شارع ضيق فوجدا نفسيهما أمام «المشهد الحسيني» الجليل، وتمتمت شفاههما بالفاتحة دون وعي..

ودلفا⁽¹⁾ إلى فناء الجامع وملأت أنفيهما عطور المسك والند المتأرجحة من عشرات المباخر يسعى بها كثير من المتسولين يلبسون خرقة وعمائم خضراء، وتقدم إليهما حشد من أصحاب القرب يصبون منها الماء

1- دلفا: دخلا.

في كاسات نحاسية تلمع وهم يقولون: «مِية الحسين يا من تصلي على النبي.. مِية طاهرة يا من تصلي على ابن بنت الي يشفع فيك.. مدد يا حسين.. مدد يا ابن بنت النبي..» وأحس العمدة بخشوع عظيم وهو يمر بين هذا الجمع من الطفيليات التي تعيش حول المسجد وفيه وكأنها ذباب يتطاير ويحط ويشيل، حتى إذا بلغا باب المسجد خلعا حذاءيهما ودخلا يمشيان على البسط والسجاجيد السميكة تغوص أقدامهما فيها غوصًا، ومن سقف المسجد تدلت ثريات تتألق في صمت جليل يملأ النفس رهبة، ويتصاعد دخان المباخر وينعقد حول الثريات سحبًا شفافة يقول الناس إنها وسائد يسجد فوقها الملائكة الذين يحرسون مشهد عترة أهل البيت وريحانة الجنة الذي زلزل دمه الشهيد عروش الجبابرة ذوي التيجان، وشعر العمدة وكأن روحه تخلق إلى الملاء الأعلى في ذلك الجو الملائكي الساحر، وترامت إلى أذنيه نغمات قارئ يرتل القرآن ترتيلًا، ويرسل الكلم الإلهي الساحر يترقق في فضاء المسجد كأنه أمواج أنهار الفردوس، ويسرى في القلوب فيعصرها عصرًا وتفيض الأعين بالدموع ويشعر الإنسان بقشعريرة خفيفة تسرى في جسده كله حتى يحس بشعره شعرة شعرة!..

وأدركا عتبة المقام فملكهما الخشوع، ونظر العمدة إلى العتبة النحاسية فإذا الناس تنحني وتقبلها، فسجد وقبلها وقرأ الفاتحة ساجدًا، ثم نهض فدخل المحراب واحتواه ذلك الضوء الخفيف المنبعث من سراج كهربائي صغير قائم في السقف يهتز اهتزازًا رقيقًا كأنه يسبح بحمد الله، واتجه نحو

المقام ووضع يده على نحاسه المشغول المتشابك كأنه قطعة من الدنتلا وأخذ يقرأ الفاتحة، فإذا هو في أولها إذا راعه صوت عابث يعكر جلال المكان ويقول في صوت بغيض لا جمال فيه: «أنا محسوبك!.. أنا حبيبك.. شيء الله يا حبيبي.. شيء الله يا حبيب الصالحين.. يا أمير المؤمنين..» ونظر العمدة فإذا بمسخ هو أقرب إلى المهرجين وحواه سوق الخميس منه إلى أهل الحشمة والتقى، على رأسه عمامة خضراء تدور على طربوش أصفر، وقد تدثر بجلباب من كل لون، رقع حمراء وخضراء وصفراء وبيضاء.. وقد علق في رقبته مسبحة طولها متر، وأحاط خصره بحزام تمتد منه حمالة من الجلد إلى الكتف كأنه جندي ميدان، وهو يتمايل ويتراقص كأنه مهووس أو مأخوذ، مرددًا غزله السخيف كأنه يهذي.. وتأمل العمدة وجهه البشع، تزيده بشاعة لحية لا هيئة لها ولا نظام، وشارب تافه كأنه ريشة دجاج متتوف، فاستعاذ بالله.. وكلما شرع يقرأ الفاتحة أفسد القراءة عليه ذلك المسخ العابث، حتى ضاق صدره من طول ما بدأ وأعاد، وما شعر إلا وهو يتجه نحو هذا المخلوق ويمسك به من قفاه بكل قوته فصرخ الرجل، ومضى العمدة به حتى الباب فدفعه دفعة ألقت به خارجًا، وإذا بأصوات تصيح: «حرام عليك يا رجل!.. هذا محسوب الحسين.. هذا ولي من أولياء الله.. هذا حمالة المقام.. هذا حارس الحسين!..».

وأقبل حمالة المقام يتطلع كأنه غراب أعرج، وصاح في صوت مسرحي: «مدد يا حسين!.. على الظالم يا حسين.. أنا حبيبك يا حسين!» فلما صار أمام العمدة قال وكأنه كاهن من كهان دلف: «جمعة.. مافيش غير جمعة..»

حضر الكفن يا اللي ما تصلي على النبي ولا يشفع فيك الحسين!..» وهتف بعض الناس: «حرام عليك يا شيخ إدريس.. حرام عليك ده فلاح ما يفهمش.. حرام عليك توديه النار!..» واستطرد «الكاهن» يقول:

«جمعة.. جمعة وبعدها دمعة.. على الظالم يا حسين.. على الظالم يا باع!..» وأخذ يدور ويتموج وهو يردد هذا الكلام.. حتى كاد العمدة أن ينقض عليه مرة أخرى، لولا أنه خرج وهو لا يزال يهتز ويتمايد وقد سال الزيد على جوانب فمه..

وأخذ العمدة يقرأ الفاتحة، حتى إذا انتهى منها أخذ يدعو ويبتهل، ويرجو الله أن يسدد خطاه في هذه المحنة التي هو فيها، ثم سجد إلى الأرض وقبلها وظل لحظات في شبه غيبوبة، ثم نهض وخرج وعبد الجليل من خلفه، وكان الناس قد أخذوا يتراصون صفوفًا لصلاة الظهر، فأخذ مكانه بينهم، وهمس عبد الجليل في أذنه:

- لم نتوضأ بعد..

فتنبه، ثم سار خلف عبد الجليل حتى أفضيا إلى الفناء ووضعوا حذاءيهما على الأرض، ولبسهما، واتجه إلى الميضأة، فوجداهما وكأنهما بحر لكثرة ما نثره الناس حولهم من الماء.. وخلع عمامته وحذاءه وأقبل يتوضأ على عجل، وفرغ فناوله عبد الجليل أشياء، وخلع عمامته وحذاءه، ووضع العمامة فوق الحذاء، والعمدة ينظر إليه ويتعجله، ثم مضيا مسرعين فأدركا الصلاة في منتصفها، فنظر العمدة إلى عبد الجليل وفعل مثله، فنوى الصلاة وصلى ركعة ثم ختم الإمام، فمضى يختم الصلاة، فنبهه

عبد الجليل بيده فانتبه ومضى يفعل مثله، ثم ختما ونهضا، ومضيا إلى ركن من أركان الصحن وجلسا متربعين، وعبد الجليل يسبح والعمدة يتمتم بشفتيه دون أن يقول شيئا، ثم قرأ الفاتحة، وجلسا يتهاامسان!..

وكانت عصافير بطن عبد الجليل قد أخذت تترقق، وذكر محل كباب طالما تمنى لو أكل فيه مرة، وأراد أن يوجه العمدة نحوه من طرف خفي، لأنه يعلم أنه لو اقترح ذلك صراحة لا تهمة العمدة بالطمع في ماله، وربما فقد الأكلة المشتهاة، فنظر إلى العمدة وقال:

- نعود الآن إلى الفندق لنستعد..

فقال العمدة:

- لدينا وقت يا عبد الجليل.. ثم إننا نريد أن نتغدى وإلا هلكنا من الجوع بعد ذلك..

- والله أمرك يا حضرة العمدة.. تعال نخرج نتمشى لعلنا نجد مطعمًا نأكل فيه..

وخرجا، فسار عبد الجليل في مضيق خان الخليلي حتى أفضيا إلى شارع الصاغة ثم انحرفا في شارع القصاصين، ولم يكد العمدة يسير خطوات حتى هبت عليه روائح الكباب وملأت أنفه وصدره وحركت لواعج شهيته، فنظر فإذا مطعم حقير الهيئة لا يدل منظره على شيء، فنظر إلى عبد الجليل وقال:

- أتعرف هذا المطعم؟..

- والله لا أظن.. أحسب أنه حاتي..

- يأكلون فيه الكباب والكفتة وسلطة الطحينة؟..

- أظن يا حضرة العمدة..

ودخل العمدة ومن خلفه عبد الجليل. وقد اطمأن قلب العمدة إذ وجد مطعمًا متواضعًا يدل على أن الأكل فيه رخيص، وزاده تأكيدًا من ذلك منظر الخدم، فقد كانت ملابسهم قذرة وعلى صدورهم فوطة رمادية اللون من طول شوقها إلى الماء والصابون.

وجلسا فأسرع إليهما الخدم بأطباق السلطة والخبز، وطب العمدة رطلين من الكباب وشيئًا من الأرز، وأخذتا يتسليان بالسلطات والخبز حتى أتيا على رغيفين ومسحاما في الأطباق، وكلما انقضى ربع ساعة هتفا بالخدام فلا يسمعان إلا كلمة «حاضر.. أيوه جاي».. في صوت منغم آلي يصدر كأنه رجع النداء.. وطال بهما الانتظار حتى أدركهما الملل، وامتدت أيديهما إلى الخبز من جديد يمسحان به ما بقى في أركان أطباق السلطة، وبدأ يحسان بالشبع، ثم أتى اللحم فطلبوا سلطة أخرى، وتجددت الشهية ومضى العمدة يملأ شذقيه وعبد الجليل يتصنع القناعة ويغافل العمدة ليحشو فمه.. وانتهى الطعام وجلسا صامتين كأنهما أخذتا مخدرًا، وأحس العمدة بجسده يفتربجفنيه يثقلان، فأخرج سيجارة وأشعلها ومضى يدخن وقد استولى عليه خدر من رأسه إلى قدميه.. أما عبد الجليل فقد كان في شغل عن النوم بما كان يفكر فيه من شيء من الكنافة أو البقلاوة يختم به هذه الوجبة الفردوسية التي طالما تمنّاها على الله، وتحرك فيه

طبع المجاور الأصيل الذي لا ينفك عن التفكير في هموم البطن بالليل والنهار..

وأقبل الخادم يسأل إن كانا يريدان شيئاً، فنظر عبد الجليل إلى العمدة، فقال هذا إنه لا يريد شيئاً، وخاب أمل المسكين، وأخذ يتطلع إلى العمدة وهو يخرج حافظة نقوده الضخمة ويدفع منها، ومن عجب أنه لم يحتاج هذه المرة، بل دفع صاغراً وتفضل فترك للخادم قرشاً إعلناً عن رضاه!.. وخرجا سيران الهوينى وقد ثقل جسم العمدة حتى أحس أن قدميه لا تحملاه، ومرا بموقف عربات قد اصطفت فيه خيول هزيلة جامدة لا تتحرك من الإعياء، وقد ارتبط بكل منها عربة حنطور تقادم بها العهد حتى بدت وكأنها ستنهار قطعاً لو مسها إنسان.. وعلى مقدمة كل عربة جلس هيكل عظمي متهالك على رأسه طربوش حائل اللون تحته منديل، فساووا أحدهم علي أن يحملها بخمسة قروش، وما زالا في أخذ ورد حتى تضايق الحصان ولوى عنقه ليرى هذين الإنسانين اللذين سيبتليه الله بهما. وانتهت المفاوضة على ستة قروش، فتحامل العمدة وبذل جهداً عظيماً حتى ارتقى سلم العربة، وألقى بنفسه تحت الكبوت فارتجت العربة وسقط قلب الحصان.. وصعد عبد الجليل وجلس قبالة العمدة، ومضت بهما العربة تكرر وكل جزء فيها يحدث صوتاً كأنها تتمزق، وترحرح بدن العمدة على المقعد فألقى رأسه خلفه ونام..

كانت الساعة تقترب من الرابعة عندما أهلا على «قهوة القزاز». كانت شبه خالية لأن الناس لا يذهبون إليها في ذلك الوقت. زوارها جميعًا مستسلمون لأحضان النوم في هذه الساعة من النهار، ولا يستيقظون إلا مع السادسة مساءً، وقد تجدد نشاطهم وتأهبوا لجهاد المقهى، من حديث يصدع الرءوس، إلى لعب طاولة يكثر فيه الضرب والحبس، وألوان من الطعام يمر بها عشرات الباعة، يقدمون للناس ما لذ وطاب، وزحم المعدة والوطاب..

وجلسا في ركن، وأسند العمدة ظهره إلى الحائط.. وأسرع إليهما الخادم فطلب العمدة قهوة وعلى وجهه علائم الاستياء، وتمتم وكأنه يخاطب نفسه: «شيء يفلق! كلما دخلنا مكانًا همّ علينا عفريت يسأل: ماذا تطلبون؟ هل حرام أن نجلس مرة في مكان دون أن ندفع نقودًا؟ أما أن يدفع الإنسان نقودًا أو يظل واقفًا؟ بلاوي والله بلاوي!..». وكان المكان هادئًا لا يشوب صفوه إلا حركة صغيرة تنبعث من رجل جالس على الأرض وأمامه صف من النارجيلات وهو يصلحها ويسلك خراطيمها وينظفها. كان يعمل في هدوء ويدندن دندنة لطيفة ارتاح لها العمدة، فمضى ينظر إلى هذا الرجل المسن الذي بدا وكأنه بعيد عن ذلك العالم. وأقبل الخادم بالقهوة، ثم نظر إلى الرجل الجالس على الأرض وقال:

- هل أحضر لك القهوة يا عم إسماعيل؟

فسأله العمدة:

- ما هذا؟..

قال الخادم:

- شوكشي يصلح الجوزة والنارجيلة.. إنه فن عظيم.. خسارة،
الشوكشية ينقرضون.. ليس في القاهرة إلا أربعة، هذا أحسنهم..
وانتهز عبد الجليل الفرصة، فاستأذن ليقف خارج القهوة ينتظر
الشيخ زهران. ووقف بضع دقائق ثم رآه مقبلاً، فأسرع إليه، وأخذه
جانباً ثم قال:

- لا تقل للعمدة إنني كنت عندك في الجريدة أمس، لا أريد أن يفهم
إننا دبرنا شيئاً. قلت له إنني قابلتك صدفة في مطعم.
ففكر زهران طويلاً ثم قال:

- آه.. فهمت.. هذا أحسن، ولكن لماذا لا تريد أن يعرف الخدمات
التي تقدمها له؟..

- ليس ضرورياً.. هكذا أحسن.

- ولكنني أريد أن يعرف الخدمات التي أؤديها له أنا.. أنتما أقارب
وبلديات والحساب بينكما طويل. ولكن أنا، أنا رجل على باب الله
وأعيش من ذلك، على فكرة.. ما رأيك في الكلمة التي نشرتها الجريدة؟..
- مدهشة..

- أعجبته؟..

- طبعاً..

- إذن ماذا ينتظر؟.. هذه كلمة يدفع فيها جنيهاً، والأستاذ سألني

عن قفص الدجاج.. إنه رجل فارغ العين، وأرجو ألا ينجلنا مع الأستاذ..

- مسألة قفص الدجاج هذه قل له أنت عليها. أفهمه أن الأستاذ كتب الخبر عن نفسه لأنه يعرف أن العمدة رجل عظيم، حسيب نسيب!..

- طيب.. وعليك أنت مسألتي..

ومضيا إلى العمدة، فنهض وسلم على الشيخ زهران الذي قدم نفسه «محرراً بجريدة الشعب المصري»، ثم جلس وأخذ يحكي العمدة في عبارات فضفاضة منتقاة:

- والله مصر نورت يا أبو الشوارب بك.. حلت البركة وزارنا النبي، وأشرقت الأنوار.. البلد مقلوبة على رجل، ولا حديث لها إلا سعادة أبو الشوارب بك الذي اختار الملك أن ينزل في ضيافته من دون عمد القطر كله.. تصدق بالله يا سعادة العمدة؟.. والله لقد تلقت الجريدة اليوم نحو خمسين تليفوناً تسأل عن سعادة أبو الشوارب بك، ورفقي باشا تكلم مع الأستاذ رئيس التحرير وسأل عن سعادتك.. والله يا حضرة العمدة لقد انفتحت لك أبواب السماء..

ونظر عبد الجليل إلى وجه العمدة فإذا به قد أشرق بالسرور، لقد أطربته هذه التحيات وتلك المبالغات ومست أكثر من وتر حساس في نفسه، وأقبل على الشيخ زهران بكل نفسه ومضى ينصت إليه.. وأدرك

هذا أنه عرف الطريق إلى قلب هذا الثري الريفي، فمضى يطنب ويسرف في المديح:

- والأستاذ .. إنه أكبر صحفي في البلد، يسمونه الكاتب الأنيق وابن باريس، فقد تعلم فيها ووضع نفسه وقلمه في خدمة الملك، والملك يحبه ويقرأ مقالاته بنفسه ..

فقال العمدة:

- يعني جلالة الملك قرأ ما كتب عني اليوم؟ ..
- طبعاً .. وما أظن إلا أنه ينتظر أن تمر بالسراي وتقيد أسمك في دفتر التشريفات وترفع إليه فروض الشكر على التفضيل بالزيارة ..
- دفتر التشريفات؟ .. وما هذا؟ ..

- دفتر عظيم مذهب، يقيد فيه ضيوف الملك أسماءهم، لا تجد فيه إلا بشوات وبكوات، ومن لم يكن باشا أو بيكاً يعملون حسابه في الرتب والألقاب القادمة، فلا يمر العام إلا وقد حصل على لقب ..
- إذن هيا نمر وتقيد أسماءنا ..

- بعد زيارة الحزب ..

ثم أخرج الشيخ زهران من جيب صديريته ساعة ضخمة فنظر فيها وقال:

- لقد أزف الوقت ورفقي باشا ينتظر .. هيا!! ..

ونفضوا فركبوا سيارة أجرة حملتهم إلى دار الحزب، وهو في نفس

الوقت بيت رفقي باشا.. ودخلوا قصرًا عظيمًا ذا حديقة بهيجة وارفة الظلال في حي جاردن سيتي، ومال بهما الشيخ زهران إلى مبنى جانبي هو سكرتارية الحزب، فدخلوا ردهة واسعة أرضها من الخشب المصقول تغطيه «مشايات» سميكة، ثم دخلوا قاعة استقبال فاخرة الأثاث والرياش، خيل للعمدة أنها كلها حرير في حرير: فالأقدام تغوص في سجاد الأرض والجسم يغوص في المقاعد، وبهت العمدة وهو يتأمل ما حوله وينظر إلى صور الحوائط وإلى المقاعد الكبيرة والصغيرة وقد وضعت في نظام جميل.

وكان رفقي باشا جالسًا في مكتبه الأنيق يتحدث مع الكاتب الكبير أحمد الحاوي رئيس تحرير جريدة الشعب المصري عندما أنبأه الخادم بوصول العمدة وصاحبيه. كان رجلًا صغير الحجم كل ما فيه دقيق صغير. وكان يداري صغره بأناقة مبالغ فيها وعناية واضحة بهندامه. كان يرتدي بذلة سوداء محكمة الصنع تبرز منها ياقة طويلة بيضاء منشأة تحيط برقبة رفيعة طويلة كأنها عنق زجاجة، وحول الياقة الطويلة يدور رباط رقبة أسود ينساب بعد ذلك على صدره الصغير ليتوارى في الصديري الأسود الذي تزينه سلسلة الساعة الذهبية، وفوق عنق الزجاجة وجهه الصغير الأحمر كأنه قطعة جزر. وعلى أنفه المنحني كمنقار الببغاء ترتكز نظارة ذهبية، ورأسه فيما يلي ذلك أصلع يحيط به من الجانبين بقايا طيبة من شعر كستنائي يبدو بوضوح أنه مخضوب⁽¹⁾ بلون شاربه الهزيل الذي لا تكف أصابعه عن قتله وإرهاق طرفيه!..

1- مخضوب: مصبوغ.

كان الباشا يصغي إلى الكاتب الكبير وهو يتحدث بأسلوبه البهلواني
محرّكاً يديه ورجليه ورأسه وكل جارحة فيه. قال الأستاذ:

- هذا هو الرأي السليم.. هذه هي الحكمة السياسية، صدقني يا
معالي الباشا إنك تذكرني بريمون بوانكاريه.. كان أيضاً حمامة
سلام مثل معاليك، وكان يقول: السياسة هي فن إقرار السلام..
وهذه بالضبط هي سياستك أنت، أنت رجل السلام، ولو ترك
لك أولئك الديماجوجيون الفرصة لعرفت كيف توحد الصفوف
وتقودها في طريق الدبلوماسية الرشيدة!!..

فقال حمامة السلام:

- بإذن الله نقضي عليهم وننظف الميدان منهم، وندع جلاله مولانا
يسير في طريقه الرشيد.. آه.. لو أطلقوا يدي!!.. إذن لعرفت
كيف أدخلهم الشقوق، ولما أبقيت لهم من أثر، أولئك المجرمون
الجهلاء.. ولكن صبراً!!..

- هذه هي الحكمة.. بالصبر يأتي كل شيء، إن الحزب يسير من حسن
إلى أحسن، وقد بدأت صفوف الوفدين تتفكك.. هل قرأتم ما
كتبته عن انفصال الأستاذ عبد الرؤوف خروف عنهم وانضمامه
لنا؟.. هل قرأت البيان الذي نشرناه له عن أسباب انصرافه
عنهم؟.. لقد قتلهم قتلاً، ولن يستطيع أحد منهم أن يرفع رأسه
بعد الآن.. لا حديث للمجالس إلا هذه الضربة التي أصابت
ذلك الحزب ورئيسه الطاغية.. ثم الزيارة الملكية للأقاليم.. إنها

ضربة معلم.. لا تتصور يا معالي الباشا كيف يزداد إعجابي بمولانا يوماً بعد يوم!..

- آه.. ذكرتني.. هنا عمدة.. نسيت اسم البلد التي هو عمدتها.. إنها بلد من بلاد الصعيد التي قلت في الجريدة أن جلالة الملك سيزورها.. من أين بلغكم ذلك الخبر؟.. كنت أول أمس مع معالي رئيس الديوان ولم يقل لي شيئاً.. أما كان الأولى أن تتأكدوا من الخبر قبل نشره؟..

- يا معالي الباشا نشر هذا الخبر، أيا كان نصيبه من الصحة، يفيد من كل الوجوه.. فإذا كان جلالة الملك سيزور القرية كان بها، وإذا لم يكن فهي دعاية طيبة لجلالته، ولن يسأله أحد بعد ذلك عن الموضوع!..

- إنك صحفي بارع يا أستاذ حاوي.. أنتم الصحفيين شياطين.. كل شيء عندكم حلال ما دام يخدم أغراض الدعاية..

- آمال يا سيدي.. نحن هنا لهذا الغرض.. مهمتنا الدعاية لهذا الحزب.. إنني مؤمن به تماماً.. مؤمن بالمبادئ والأساليب ويأذن الله سأحول الرأي العام.. قررنا أن نزيد المطبوع من الجريدة عشرة آلاف نسخة.. إن المطبوع الآن ينفد بمجرد خروجه إلى السوق.. الناس يكتبون إلينا بأنهم لا يجدون الجريدة.

فابتسم رفقي باشا، ومد يده يداعب الدبوس الماسي الذي يزين ربطة رقبته، وقال:

- وكيف تنفذ وأنتم كل يوم تقولون أن المراجع 20 ألفاً أو 25 ألفاً؟..
- كان هذا من المتعهد.. اتضح لنا أنه وفدي، وأن الوفدين يعطونه نقوداً لكي يحجز الجريدة عن السوق ولا يوزعها.. الآن عهدنا في توزيعها إلى متعهد جديد.. أريد أن تكلم المسؤولين لكي يزيّدوا لنا الاعتمادات لزيادة المطبوع.. لقد تحدثت بالأمس مع وكيل عمدة تلك القرية التي سيزورها مولانا، فقال لي أن الناس في الأرياف كلها يتهافتون على الجريدة.. إنهم يعتبرونها جريدتهم.. جريدة الفلاحين، جريدة أصحاب الجلابيب الزرقاء..
- هل اتصل بك ذلك العمدة؟..
- لا، ولكن زارني وكيله أمس في الجريدة..
- هل هو رجل مهم؟..
- مهم؟ إنه العمدة، هذا كفاية..
- أقصد هل هو غني؟..
- لا بد.. كل العمد أغنياء.. عمدة يعني غني..
- لا يا أستاذ.. هناك عمد كثيرون فقراء..
- ولكن هذا غني.. فهمت من وكيله أنه يملك فوق الثلاثمائة فدان..
- يعني يمكنه أن يدفع تبرعاً طيباً للحزب..
- هذا لا شك فيه.. هذا متروك لدبلوماسيتك..
- طيب، سنرى.. هؤلاء الناس يبدون في بعض الأحيان أمكر بكثير مما نظن.. على أي حال سنرى..

ثم ضغط جرسًا صغيرًا على مكتبه، فتردد له صوت موسيقى لطيف، وأقبل الخادم النوبي، فأمره بأن يدخل العمدة.. فذهب الخادم وفتح الباب ودعا العمدة للدخول.. فأقبل هذا بهيئته الفخمة الضخمة، ومن ورائه عبد الجليل وزهران. ووقف رفقي باشا بقامته الصغيرة ومد يده فصافح العمدة وعبد الجليل، وقبضها عن زهران وقال له:

- انتظر أنت خارجًا يا شيخ زهران..

وانصرف الأستاذ الكبير، وخلا الباشا بالعمدة وعبد الجليل، فابتسم وقال:

- أهلاً وسهلاً.. أهلاً بأعيان الصعيد.. هيه؟.. كيف الحال عندكم؟..

- بخير يا سعادة الباشا، بخير..

- حزبنا مهتم اهتمامًا خاصًا بشؤون الريف وأهل الريف. هذا توجيه جلالة الملك. إنه يوصينا دائماً بالفلاحين..

فقال العمدة:

- ربنا يخلي سعادة الملك ويبارك لنا فيه..

فابتسم رفقي باشا وقال:

- إنه هو نفسه يعد نفسه فلاحًا، وهو لا يهتم بشيء اهتمامه بالأرض والزراعة.. ورئيس الحزب دولة حلمي باشا، إنه فلاح كبير، وقد تولى وزارة الزراعة ثلاث مرات ويعرف أرض مصر شبرًا شبرًا..

لابد أنكم لاحظتم ارتفاع أسعار القطن هذ العام، لم يكثر المال في
الريف كما كثر الآن.. رخاء عظيم..

- عظيم جدًا يا سعادة الباشا..

وبإذن الله بعد الزيارة الملكية ستتحسن الأحوال أكثر وأكثر.. هل في
بلدكم وفديون؟..

فسارع عبد الجليل يقول:

- ولا واحد يا سعادة الباشا.. كلنا شعبيون..

ومضى العمدة يقول:

- وإذا سمعنا عن واحد منهم لا يصبح عليه الصبح وهو حي.

فقال الباشا:

- تمام.. عفارم عليكم.. هذا ما ينبغي أن يفعله كل الناس.. بهذا
نستريح منهم..

فقال العمدة:

- ولكن فيه عندنا ناس كانوا وفدين أيام الوفد، والآن يتظاهرون
بأنهم شعبيون، وعندما يأتي الوفد يعودون وفدين كما كانوا.. إنهم
كالخرباء يا سعادة الباشا، وقد حيرنا أمرهم..

- وهل هم أقوياء؟

- لا.. ولكنهم مجرمون لا يترددون في ارتكاب أي جريمة..

- يا سلام! وأين المدير؟.. أين الإدارة؟..

- لا يستطيع أحد معهم شيئاً يا سعادة الباشا، ونحن نخشى أن يعملوا شيئاً يخل بالنظام أثناء الزيارة الملكية..
- هل قالوا لكم متى ستكون الزيارة؟..
- لا.. ولكن فهمنا أنها ستكون أثناء زيارة الملك للصعيد.
- زيارة الصعيد تبدأ يوم 11 يناير، ولم يوضع برنامجها النهائي بعد.
- على أي الأحوال عندكم وقت، نحو أربعين يوماً.. نريد أن تصنعوا شيئاً عظيماً في بلدكم حتى يعرف جلالته أن الشعب ملتف من حوله.. نريد أن نعطيه فكرة عن قوة الحزب في الريف.. إنه مهتم جداً بهذا الموضوع ودائماً يقول لدولة حلمي باشا أن الحزب إذا سيطر على الأرياف استطاع أن يقضي على البقية الباقية من أتباع الوفد في المدن!..
- بإذن الله ورسوله يا سعادة لباشا نقضي عليهم في الريف والمدن..
- هل أنت عضو في الحزب يا عمدة؟..
- أنا من الحزب ولكنني لم أنضم بعد. لم أكن أعرف أن الانضمام الرسمي ضروري..
- لا.. لا.. ضروري جداً، جلالة الملك يطلب كشف المنضمين إلى الحزب يوماً بيوم.. نريد أن نقدم اسمك إلى جلالته لعلك تحظى بالثول بين يديه ليطمئن بنفسه على أحوال بلدكم قبل زيارتها..
- هذا يكون فضلاً عظيماً يا سعادة الباشا..

- اعتمد على الله وعلى.. لقد سمعت عنك كثيرًا.. هل أنتم من أقارب بيت أبو الشوارب في بليس؟..

- قرابة بعيدة يا سعادة الباشا.. نحن الأصل وهم الفرع.. ولكن كلنا من عرب أولاد هلال..

- الله يرحمه المغفور له أبي كان يحب العرب جدًا، خصوصًا الخيل العربي.. ولما السلطان عبد العزيز زار مصر أهدها حصانين كانت اسطمبول كلها تتفرج عليهما..

- عندنا أيضًا خيل تعجبك،، سترها سعادتك يوم الزيارة تجري وترقص وتلعب البرجاس.. وكل شيء.. وإذا كان جلالة الملك يحب الخيل نقدم له زوجًا ليس لهما في مصر مثيل..

- لا.. أظن أن جلالة الملك يحب فقط كل ما يحرق ويدر اللبن ويتوالد ويكثر.. هل عندكم بقر وجاموس؟..

- لا صنف البقر قليل عندنا، والجاموس صغير بسبب الجفاف وقلة البرسيم الأخضر.. الجاموس الطيب لا يكون إلا حيث الماء كثير والخضرة دائمة.. البرنس اللي جوارنا عنده جاموس محترم..

- ولماذا البرنس فقط؟..

- لأنه يأخذ كل الماء لري أرضه، مزارعه كلها ترع وماء وخير..

- ده رجل عظيم.. إنه يعمل كثيرًا لرفي الزراعة في مصر.. القصب

عنده لا مثيل له في الدنيا ومواشيه أخذت جائزة المعرض الزراعي
في بروكسل..

- وفالحينه الله أعلم بحالهم..

- إيه؟.. هل يشكون من شيء؟..

- لا يا سعادة الباشا، إنهم يمدون الله..

- قولوا، لأن البرنس صاحبي، إذا كان هناك شيء كلمته فيه..

- لا يا سعادة الباشا، نحن في عرضك، لا تكلمه ولا يكلمنا..

- ألا تحبونه؟..

- من بعيد لبعيد.. هكذا أحسن.. ما لنا نحن والبرنسات؟ هم في

حالهم ونحن في حالنا، والله يسهل له..

- ومتى ستتضم إلى الحزب يا عمدة؟..

- كما تريد يا سعادة الباشا.. الآن إذا أردت..

- ممكن.. بعد قليل يأتي الموظفون وتستطيعان قيد اسميكم..

- ألا يكفي أن أنضم أنا؟.. إن الشيخ عبد الجليل تبعي..

- ما معنى تبعك؟.. إنه وكيلك، أليس كذلك؟..

فضحك العمدة ضحكة تافهة لا معنى لها وقال:

- إذا كان سعادتك تحب أن يكون وكيل عمدة بإذن الله يكون..

لكن بس أصل العادة جرت في بلدنا أن تكون العمودية والوكالة

من بيت واحد، والشيخ عبد الجليل معرفتنا، ورجل متنور، يقرأ

ويكتب وحاصل على البكالوريا..

فضحك الباشا وقال:

- شيخ وحاصل على البكالوريا؟.. هذا شيء لطيف جدًا.. هل تعرف إنجليزي يا أستاذ؟..

- قليلًا يا سعادة الباشا.. أنا محسوبك ومحسوب الحزب..

- باين عليك رجل نبيه.. لتكن مع العمدة دائمًا حتى تتم الزيارة..

- أنا خادم العمدة وبيت العمدة..

- يبدو أنكم ناس طيبون.. نحن نعز بأمثالكم، سأحدث إلى جلالة

الملك في شأنك يا عمدة.. غدًا تسجل أسمك في دفتر التشريرات

وتكتب في الدفتر أنك عضو في الحزب، ويستحسن إذا أمكن أن

تبرع للحزب بشيء، حتى أستطيع أن أطلب إلى جلالة الملك أن

يشرفك بالمقابلة.. هذا شرف عظيم يضمن لك كرسياً في البرلمان

فيما بعد..

فأشرق وجه العمدة، وفاضت عليه ابتسامة عريضة تألقت لها عيناه،

وأخذ يتطلع كالأبله، وقد سبح خياله في ذلك العالم الذي فتحه أمام

عينيه ذلك الساحر الصغير الذي غاص في الكرسي خلف مكتبه الكبير

وأخذ يدخن سيجاراً ضخماً. وأحس هذا أنه يستولي على لب العمدة

شيئاً فشيئاً، فمضى يقول في تودة وهذوء:

- هذه كلها مسائل بسيطة علينا.. لقد سئم جلالة الملك لعب أولئك

الأوغاد وقرر ألا يعطي الحكم إلا للمخلصين من رجال حزبنا،

ولذلك فسنظل فيه عشر سنوات متوالية على الأقل: ننظف وننظم

ونرتب.. سنأخذ الأراضي من الذين اغتصبوها أيام «الهيصة» و«يحيى الوفد» ونعطيها لأنصارنا.. لا بد أن تذكرني غداً باسم ذلك الرجل الذي ينتمي إلى الوفد في بلدكم.. لا بد أن نفقره بأي طريق.. لا بد أن نقضي عليه حتى لا يبقى في البلد إلا أنصارنا..

وزاد وجه العمدة إشراقاً ورقص قلبه طرباً، وهو يصغي إلى ذلك الذي سيحقق له أعز أحلامه: القضاء على خصمه الألد في البلد، الانتقام من بيت آل سلامة الذين أذاقوه الويل أيام الوفدين.. وانتظر الباشا حتى يسرى مفعول هذه الكلمات في بدنه ثم قال، وهو يتصنع عدم الاكتراث: - أظن أن الموظفين وصلوا الآن..

ثم ضغط الجرس، وأقبل الخادم، فسأله عما إذا كان الموظفون قد وصلوا، فأجاب بالنفي، فصرفه ثم قال:

- على أي الأحوال، دعوا هنا رسم الاشتراك في الحزب والتبرع، وغداً يقوم الموظفون بتسجيلها..

فقال العمدة:

- نحن في الخدمة.. بكم تأمر؟..

- رسم العضوية بسيط.. خمسة جنيهاً لكل واحد، أما التبرع فمتروك لك.. أنت وما تريد.. هذه المسألة تعطيك أهمية في الحزب..

ثم نهض وهو يقول:

- عندي موعد في السراي.. أريد أن أذهب الآن..

ودق جرس التليفون، فتناول لسماعة وقال:

- أفندم.. أهلاً وسهلاً معالي رئيس الديوان.. سآتي حالاً.. مسافة الطريق فقط.. عندي بعض أعضاء الحزب من الصعيد.. حاضر... حاضر.. حالاً يا أنور باشا..

ثم وضع السماعة، ونظر إلى العمدة، وهو يهيم بالذهاب، فقال العمدة في صوت من يرجو شيئاً:

- لو نعلم فقط يا سعادة الباشا ما هو قدر التبرع المناسب..

- انظر يا عمدة.. هذه مسألة لا أستطيع أن أشير عليك فيها.. المهم أن تدفع ما تستطيع..

- والله ما معنا إلا مائتا جنيه أتينا بها من البلد، لم نكن نعلم شيئاً عن هذه المسألة..

- ليس معكم غيرها؟.. إذن لا داعي.. المسألة ليست مسألة إرهاب، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

فأسرع العمدة يقول وكأنه ينفي عن نفسه تهمة:

- لا يا سعادة الباشا.. نترك هذه ونرسل في طلب نقود من البلد.. الحال طيب والحمد لله.. وخير الله كثير..

ثم وضع يده في صدره وأخرج محفظة أخذ منها أوراقاً مالية ووضعها على المكتب، فنظر إليها الباشا وقال:

- يستحسن أن أضعها في ظرف واكتب عليه اسمك حتى يعرف الموظفون..

وجلس إلى المكتب وأخرج ظرفاً وضع فيه الأوراق المالية، ثم قال للعمدة:

- أظن اسمك..

- محسوبك صادق أبو الشوارب عمدة كفر سهيل مركز قوص مديرية قنا..

وكتب الباشا ذلك على الظرف ثم أغلقه ووضع في الدرج، ثم نادى الخادم وقال له:

- عندما يأتي ناشد افندي والموظفون قل لهم يسجلوا ما في هذا الظرف ويضيفوه للخزنة ويعدوا استمارتي عضوية باسم صادق بك عمدة كفر سهيل ووكيله الشيخ عبد الجليل..

ثم نظر إلى العمدة وقال:

- أين تنزلان؟..

- في لوكاندة سبلنديد..

- طيب، مع السلامة إذن.. غداً تمران بالسكرتارية صباحاً لكي تتما عملية العضوية..

وصافحه الإثنان وخرجا، ووقف الباشا يفتل شاربه وبدأ بقامته القصيرة وملابسه المنسجمة الأنيقة كأنه نموذج مصغر لهذه الدمي التي توضع في نوافذ المحلات التجارية، ووضع يديه في جيبي بنطلونه، وشد ساقيه ليرى «الجتر» الذي يغطي حذاءه، ثم اتجه إلى المكتب وأخرج

الظرف وأخذ منه النقود، ودسها في حافظة نقوده، ثم أمسك التليفون وأدار رقماً، فردت عليه خادم فطلب «الهانم» فلما أقبلت قال:

- منيرة.. نستطيع أن نعمل برتينة صغيرة هذه الليلة..

- ماذا حدث؟.. هل أتتك نقود؟..

- شيء بسيط.. مائتا جنيه..

- من أين؟..

- واحد عمدة من إياهم..

- غني؟..

- لديه شيء..

- إذن فلماذا لا يأتي معك الليلة؟..

- إنه لا يعرف لعب الورق، ولكن من الممكن أن نستفيد منه بصورة أخرى..

- إذن فادعه للعشاء غداً..

- فكرة.. سأ اتصل به.. اسمعي.. سأمر على الجريدة قليلاً ثم آتي..

اتصلي بأصدقائنا.. سأعود حوالي العاشرة..

كان الشيخ زهران قد انصرف عندما خرج العمدة وعبد الجليل، فسارا جنباً إلى جنب في ممر الحديقة الطويل في طريقهما إلى الباب، وقد لفهما الصمت وشغلها الفكر. كان عبد الجليل يفكر في أمر هذا الرجل

الذي يقيم الدنيا ويقعدها من أجل قروش في مطعم، ويخل عليه بجنيه واحد، ثم تجود يده بمائتي جنيه دفعة واحدة دون مناقشة. كان العمدة طول اليوم يدقق ويحقق مخافة أن يفلت منه قرش في غير موضعه، وقد أجهد عبد الجليل معه في تحديد ما سيعطيه للحزب فلا يتعداه، ثم لا يكاد يجلس إلى هذا الباشا المصغر حتى تنحل عقدة كيسه وتسخر يده.. إنه لم يشهد العمدة يسخر قبل ذلك إلا في معارك القرية، كان يسخر بالرصاص وبالمال الذي يشتري به الرصاص..

أما العمدة فكان مشغولاً بالتفكير في الانتقام الذي أتاحت له فرصته على نحو لم يكن يحلم به. غداً تصل الصحف إلى القرية ويعلم الناس من هو، ثم يعلمون بعد ذلك كيف انضم إلى حزب الملك، وكيف رحب به الحزب كما رحب بانضمام الأستاذ خروف، وبعد قليل يقابل الملك ويصبح من رجاله المقربين، ثم يعود إلى القرية وقد سبقته الأوامر الملكية إلى المديرين والمأمورين بأن يكونوا في خدمته، ويأخذ في الاستعداد لاستقبال الملك، فيطلب إلى المدير أن يخرب بيت آل خليل سلامة الذين ينوون أن يعكروا الأمن أثناء الزيارة الملكية، ثم يطلب تشريدهم من البلد لأنهم من أعداء الملك، ويضع يده على أملاكهم الواسعة، وتصفو له الدنيا، ثم تسعى إليه الباشوية فترفعه عن الناس درجات، ويتربع فوق عرش كفر سهيل كأنه سلطان زمانه وصاحب القول الفصل في الكون وشأنه..

ومضت هذه الأحلام تتراقص في خياله، وهو يمضي وإلى جانبه

تابعه في منحرجات جاردن سيتي وتلافيها، دون أن يعرفا كيف يخرجان من هذه المتاهة التي يستدير فيها كل شيء وتتقاطع فيها الشوارع كأنها «بيت جحا» حتى أفضيا آخر الأمر إلى شارع قصر العيني، فكأنهما خرجا من الصمت إلى الضجيج، وانقضت عليهما أصوات الترام المجلجل وضجيج العربات المقلقل، فأفاقا مما كانا فيه، وأحس العمدة وكأنه خرج إلى الدنيا من جديد..

وتلفت العمدة يبحث عن الطريق، ثم وجد عبد الجليل يسير فتبعه حتى انتهى إلى محطة الترام. ووقفا ينتظران، وأتى ذلك الصندوق السيء الصنع المحمل بالآدميين يهز الأرض هزًا حتى وقف أمامهما، فصعدا وجلسا جنبًا إلى جنب على مقعد من هذه المقاعد الخشبية التي يتراص الناس عليها كأنهم قُلل على رف الفخار، ومضى بهما الترام يخلع قلبيهما ويشيلهما ثم يهوى بهما كأنهما هما في سفينة فوق الأمواج، وانتهى بهما المطاف إلى قريب من الفندق فنزلا وسارا صامتين. ودخل العمدة وعبد الجليل من خلفه، وأخذا مفتاحيهما وصعدا، وسار العمدة إلى غرفته وعبد الجليل من خلفه، ثم أغلقا الباب، كأنهما كان كل منهما في حاجة إلى أن يفضي إلى الآخر بشيء.. وجلس العمدة على كرسي وخلع حذاءه ووضع جانبه وتنفس الصعداء، كأنهما خلص من هم ثقيل. وفعل مثله عبد الجليل، وجر قطعة صغيرة من السجاد كانت إلى جانب السرير فقعد عليها أمام العمدة، ونظر إليه كأنه تمثال الكاتب المصري الذي جلس القرفصاء منذ ثلاثة آلاف سنة ولن يزال جالسًا إلى ما شاء الله.. ونظر

إليه العمدة وتثائب ثم قال:

- أعطني شيئاً من الماء يا عبد الجليل..

فقام ليناوله كوباً، ولكن العمدة قال:

- لا.. من الزير الذي في السطح.. ناولني كوزاً..

وخرج عبد الجليل حافياً، وأشعل العمدة سيجارة، ثم دس يده في جيب الصديرية وأخرج مظروفاً صغيراً فيه أوراق مالية كثيرة وأخذ يعدها، ثم وضع المظروف مكانه عندما سمع وقع أقدام عبد الجليل تقترب..

وشرب العمدة من الكوز وهو يمص الماء مصّاً يسمع له صوت منشار يقطع خشباً.. ثم ناول الكوز لعبد الجليل وتثائب ثلاث مرات أو أربعاً تتأوفاً عميقاً طويلاً، ثم أسند رأسه إلى مسند المقعد، وبدا عليه أنه متعب. وكان عبد الجليل منهوك القوى فهو لم ينم بالأمس إلا قليلاً، وما كاد يرى العمدة يغلق عينيه وينعس قليلاً حتى نعس هو الآخر جالساً مترع الساقين كما هو، وقد مال رأسه على صدره، ولم يشعر بالعمامة تسقط في حجره.. واستيقظ العمدة بعد نحو نصف الساعة، فمضى يتثائب من جديد ويفرك عينيه، ثم نادى عبد الجليل، فصحا ولبس العمامة، وطلب إليه العمدة أن يطلب له فنجان قهوة، فمضى وطلبه، وأتت القهوة، فنظر العمدة إلى الخادم وقال:

- هات قهوة ثانية..

ثم انتظر حتى خرج الخادم وقال:

- ما رأيك الآن يا عبد الجليل؟ ألم نعمل عملاً عظيماً؟.. في أقل من

أربع وعشرين ساعة وصلنا إلى الوزراء والباشوات، وعرفنا مسألة الزيادة.. أليس «عفارم» عليّ أن استطعت أن أحقق ذلك كله؟..

- والله يا حضرة العمدة إنك فقت الأولين والآخرين.. حقيقة إنك عمدة ابن عمدة ابن عمدة. أنا أقول دائماً إنه من رحمة الله بكفر سهيل إنك أنت عمدتها، وهي قليلة عليك.. ألم أقل لحضرتك أن السكة مفتوحة أمامك، وأن سعداً عظيماً ينتظرك؟

- يبدو عليه أنه رجل طيب ذلك الباشا.. ومركزه عظيم، لقد سمعته يتحدث مع السراي، إنهم يتعجلونه، لابد أنه الآن في القصر يتحدث عنا..

فقال عبد الجليل وهو يرفع يده إلى رأسه:

- آه.. الآن فهمت.. لهذا أنت تبرعت بمائتي جنيه مرة واحدة.. يا لك من سياسي عظيم، حقيقة أنك أبو الشوارب على سن ورمح.. والله ما فهمتها يا حضرة العمدة، وظللت أسأل نفسي: كيف يا ولد يا عبد الجليل أخرج العمدة مائتين دفعة واحدة، مع أننا كنا اتفقنا على خمسين؟..

- آمال يا عبد الجليل، المواقف لها رجال. وقد عرفت عندما بدأت اتحدث مع الباشا أن المسألة دخلت في الجد، وأنها فرصة العمر أتاحت لنا، فقلت «أعميه بالفلوس».. وفعلاً لاحظت أثرها في نفسه، لقد أخذ اسم الفندق الذي ننزل فيه.. سأطلب منه في المقابلة التالية أن يتصل بالمديرية لكي يعرفوا أننا متصلون

بالرءوس الكبيرة. أما سمعته يقول إن أولاد سلامة لا بد أن يقضي عليهم: تصادر أملاكهم ويخرب بيوتهم وينفوا من البلد؟.. وأنت القهوة فصمتا، وخرج الخادم فقال عبد الجليل وهو يضحك ضحكاً ساخراً قصيراً جافاً:

- أولاد سلامة؟.. لقد راحت عليهم ويرحمهم الله.. اقرأ الفاتحة عليهم وعلى الذين أنجبوهم، هذا جزاؤهم على ما اقترفوا من ظلم العباد، كما قتلوا وكم سرقوا وكم نهبوا.. هذا انتقام إلهي يجريه الله على يديك يا سيدنا العمدة..

ثم شرب شيئاً من القهوة، وأبرقت عيناه وقال:

- الله يا حضرة العمدة.. لقد رأيت لك رؤيا بيضاء.. رأيتها بالأمس، ونسيت أن أقصها عليك، وما هي قد فسرت.. رأيتك تلبس أخضر في أخضر.. العمامة خضراء والجبة خضراء.. على حصان أبيض، داخلًا البندر وفي يدك عصا بيضاء تضيء كأنها كهرباء، والناس على الصفيين آفاقاً، ويبد كل منهم كوز، وأنت تصب من العصا في كيزانهم لبناً.. أي والله.. هذه هي الرؤيا كما رأيتها، كلها خير في خير: الأخضر خير والحصان الأبيض خير.. واللبن خير.. والله لينصرتك الله وليعلن مراتبك.. العصا المنيرة يا حضرة العمدة هي الباشوية.

- والحصان الأبيض؟..

- لازم الملك يا حضرة العمدة.. ستدخل البندر بعزه وجاهه ونصره..

فضحك العمدة وبدا في وجهه السرور الشديد، وقال وهو يتخلل أصابع قدمه بأصابع يده:

- والله لو تحققت هذه الرؤيا لرأيت مني خيراً كثيراً..

- أنا لا أريد شيئاً يا حضرة العمدة إلا أن أكون خادمك.. أكون إلى جنبك كما أنا الآن، ويفضلك بإذن الله يكون لي فدان أرض وأكبر المدرسة وأجعلها ابتدائية.

- بإذن الله يا عبد الجليل.. عسى حكاية الملك هذه أن تمر على خير، وبعد ذلك نفتح لك المدرسة..

- ونسميها مدرسة فؤاد الأول..

- أظن يا عبد الجليل فيه مدرسة اسمها فؤاد الأول.. تسمى مدرستك فؤاد الثاني.. على فكرة، ما معنى حكاية الأول والثاني والثالث التي تذكر مع الملوك؟ أتذكر أنك قرأت لنا خبراً عن ملك الإنجليز ويسمونه جورج الخامس؟.. والولد ابن مرصفي افندي كان يسمع الدرس لأبيه أمامي ويقول نابليون الثالث.

- هذا شيء خاص بملوك النصارى يا حضرة العمدة، الملوك عندهم نمر، أما الملوك عندنا فرجال.. وعندما عمل الإنجليز فؤاد هذا ملكاً قالوا له لا بد أن تأخذ نمرة مثل ملوكنا، فأخذ نمرة واحدة، لكن السلطان حسين لم يرض، فدسوا له السم وقتلوه، وعباس حلمي أطلقوا عليه اسم عباس الثاني فغضب، وظل يسمى نفسه عباس حلمي فعزلوه.. وكل الملوك الذين يوليهم الإنجليز لا بد أن

يكونوا نمرًا ولهم نمر.. وملك الإنجليز لا يخاطبهم إلا بنمرهم، ويقول: هاتولي الملك نمرة واحدة أو نمرة اثنين.. إنهم ملوك علينا فقط، أما عند الإنجليز فهم أرقام، وكل واحد منهم يحمل رقمه في أسمه، مثل الغفر عندنا يحملون أرقامهم على رؤوسهم..

وكان العمدة قد كف عن الإصغاء إليه.. كان مشغولاً بحك جلده في كل موضع من جسمه كأنها هاجمه جيش كامل من البراغيث، ففار دمه كله دفعة واحدة، وأخذ يتلوى ويحك على قدر ما تصل يده كأنه كلب شوارع يصطلي في الشمس.. ثم أقبل الخادم ينقر على الباب ويقول أن العمدة مطلوب على التليفون.

وقفز العمدة من مكانه، لقد روعه ذكر التليفون كأنها هو لا يزال في القرية، وسأل الخادم في اهتمام ظاهر:

- من؟.. من الذي يطلبني؟..

- لا أدري.. أرجو أن تنزل حالاً.. وإلا قفلت السكة..

فقال العمدة وهو يسرع بلبس الحذاء:

- أما تسأل من؟.. أي نوع من الخدم أنت؟..

ثم خرج يهرول، وخلت الحجرة لعبد الجليل، فجلس واجماً يفكر في ذلك الطارئ الذي روعهما عبر سلك التليفون، ثم حانت منه نظرة إلى جوار الكرسي الذي كان العمدة جالساً عليه، فرأى شيئاً يشبه أن يكون ورقة مالية، فمد يده وتناولها، فإذا بها ورقة ذات عشرة جنيهاً، وتسارعت دقات قلبه.. عشرة جنيهاً! لا بد أنها سقطت من العمدة

دون أن يلحظ.. ايردها إليه؟ ولم؟.. لقد جف ريقه وهو يطلب العمدة بجنيه، وما هو بمعطيه إياه أبداً، ثم يجود بالمئات دون حساب في لحظات. لوردها إلى العمدة الآن لأنفقها في الشيطان الرجيم دون مبالاة بينما هي بالنسبة لعبد الجليل كنز.. رأس مال.. وبينما هذا الصراع محتدم في نفسه إذا سمع وقع خطوات العمدة مقبلاً، فدهسها في جيب صدريته دسها محكماً، وظل جالساً حتى إذا فتح العمدة لباب تصنع أنه فوجيء فهب واقفاً وهو يقول:

- خير.. خير يا حضرة العمدة؟..

فقال العمدة وكأنه لا يصدق نفسه:

- والله لا أدري يا عبد الجليل.. إنه بيت الباشا، رفيقي باشا.. تكلم رجل من هناك وقال إن الباشا يدعونا للعشاء عنده غداً.. ما هي الحكاية؟.. حلم هذا أم علم؟.. لماذا يدعونا للعشاء؟..

خير يا حضرة العمدة والله.. لا بد أن الملك هو الذي أمره بذلك.. ألم تقل حضرتك إنه خرج الآن إلى السراي؟.. لا بد أنهم قالوا له إنه لا بد أن يحتفي بك وطلبوا إليه أن يدعوك إلى العشاء..

- صحيح يا عبد الجليل.. أنت ولد تفهم! لقد فعلت المائتا جنيه فعلها.. عندما سمع الملك بتبرعي بالمائتي جنيه أدرك أننا لسنا لعبة..

ثم سكت لحظة، ونظر إلى عبد الجليل وقال في سذاجة:

- ألا نكون يا واد يا عبد الجليل أهم مما تتصور؟..

- كيف لا يا حضرة العمدة؟.. بالله العظيم إنك لهمم.. ثلاثة بالله العظيم إنك لهمم.. رجل سيزوره الملك في قريته ألا يكون مهماً؟.. لقد باضت لك في القفص يا سيدي العمدة.

ووقف العمدة ساهم البصر وقد استولى عليه فرح شديد حتى أراد أن يرقص لولا خجله من عبد الجليل. أما عبد الجليل فكان فرحه أشد، لا بهذه الدعوة، بل بسبب هذه الجنيحات العشرة التي في جيبه، وهي عنده تساوي الدنيا وما عليها..

ثم هتف به العمدة:

- نريد أن نخرج يا عبد الجليل.. أريد أن أخرج وأتمشى وأتفرج على الناس والنور، ونجلس في قهوة.. إن اليوم يوم عيد..

ثم ذهب يبحث في أشياءه باحثاً عن أشياء يتهيا بها للخروج، ووقعت عينه على السفط، فرفع غطاءه وقال:

- لا زال معنا دجاج من الأمس يا عبد الجليل.. تعال نأكل قبل أن نخرج..

وأخذ السفط، وبسط على الأرض منديلاً، وأخرج دجاجتين وخبزاً وجبناً، وخلع جبته وقفطانه وعمامته وجلس على البلاط في مواجهة عبد الجليل.. أنسته الفرحة والدجاج المحمر هيبة العمودية، ولم تخلف منه إلا رجلاً جائعاً يطلب الطعام.. وتناول كل منهما دجاجة ومزقها بأصابعه، وحمي الوطيس. فإذا هما في عنفوان المعركة إذ نقر الباب، وإذا صوت يقول:

- أنا يا حضرة العمدة.. السلام عليكم.. أنا زهران..

ثم فتح الباب دون انتظار رد، وبرز فيه الشيخ عبد الحميد زهران، دخل متهللاً كأنها هو صديق قديم وقال:

- بسم الله.. دستوركم.. ما علمت أنكم تأكلون.. يا عيني على دجاج الريف وخير الريف.. لا تؤاخذوني، ما دفعني إلى المجيء إلا خبر سعيد أحييت أن أزفه إلى حضرة العمدة..

وكان العمدة جالساً وبصره إلى الأرض وهو في خجل شديد وقد غلا دمه غضباً على ذلك الواغل الذي اقتحم عليهما المكان في هذه اللحظة وهو بهذه الهياة.. فرفع رأسه وقال:

- يا شيخ زهران.. أما كنت تنتظر حتى نلبس شيئاً؟.. هكذا تقتحم الأبواب دون أحرم أو دستور؟..

فضحك عبد الحميد زهران وقال:

- لا والله يا حضرة لعمدة، ألف لا مؤاخذة.. ولكنني وجدت هذا الخبر فطرت به إليكم.. اسمع يا حضرة العمدة ما نشره «المقطم» بعد ظهر هذا اليوم.

ثم فتح الجريدة ومضى يقرأ:

- فرحة الصعيد بالزيارة الملكية

ما كاد يعرف نبأ اعتزام حضرة الجلالة الملك زيارة الصعيد حتى شملت الفرحة أهالي مصر العليا من أقصاها لأقصاها، وبدأ أصحاب

السعادة والعزة المديرون يعقدون اجتماعات مع الأهالى لترتيب ما يليق بهذه الزيارة التاريخية. وقد نشرت زميلتنا «الشعب المصري» صباح اليوم نبأ يدل دلالة أكيدة على ما يضمه جلاله الملك من الحب لشعبه والرغبة في الاتصال برعاياه المخلصين، ومفاد الخبر أن جلاله الملك قد أمر بأن يقف ركب السامي في قرية من قرى الصعيد، هي قرية كفر سهيل مركز قوص مديرية قنا. وقد اتصل مندوبنا الخاص بالجهات المسئولة ليستجلى حقيقة الحال فيها. وقد اتصلنا بمندوبنا في قنا السيد يواقيم مراحل زيارته الميمونة سرًا حتى يفاجيء البنادر بنفسه ويقف على حقيقة الحال فيها. وقد اتصلنا بمندوبنا في قنا السيد يواقيم أصفر قنصل فرنسا الفخري في قنا سابقاً فذكر أن سعادة رشدي باشا درة مدير قنا مهتم بالموضوع اهتماماً خاصاً. والمقطم لا يسعه إزاء هذه الروح الديمقراطية النبيلة التي أبدتها جلاله الجالس على عرش مصر، إلا أن يحمي شخص المليك المحبوب ويدعو له بالتوفيق والإقبال، رافقته السلامة في الحل والترحال. وقد علم مندوبنا المتجول في الدواوين أن السيد الوجيه الأمثل صادق مندور أبو الشوارب عمدة القرية المذكورة قد خف إلى القاهرة للتفاهم مع المسئولين على ترتيبات الاستقبال الملكي..

ثم أنزل الشيخ عبد الحميد زهران الجريدة ونظر إلى «الوجيه الأمثل»، الجالس على الأرض بالصديرية والسروال وشدقاه منتفخان بالطعام وفي يده ورك فرخة، وقال:

- مبروك يا حضرة العمدة.. ألف مبروك.. عن أذنكم، سأنتظركم في
ردهة الفندق حتى تفرغوا من الطعام!..
وخرج وأغلق الباب..

وظل العمدة مكانه لا يعرف ماذا يصنع، فقد فوجيء بهذا الخبر الذي
نشره «المقطم». وما دام المقطم قد نشره فهو صحيح.. لقد تبدد آخر ظل
للسك في نفسه، ولكنه من ناحية أخرى كان يشعر بخجل أن رآه هذا
الطارئ الوقح على هذه الصورة، وهو رجل طويل اللسان لا بد متحدث
بما رأي إلى الناس. وأحس عبد الجليل بحرج صدره فقال وهو ينهض
واقفاً:

- أكمل طعامك يا حضرة العمدة ولا يثقل عليك الأمر، سأنزل إليه
وأفهمه ألا يقول شيئاً.. أكمل طعامك ودع الأمر لي..

ثم لبس حذاءه، ووضع عمامته على رأسه وخرج، وقام العمدة فأغلق
الباب بالترباس، وأخذ يحرك فمه يمضغ ما فيه، ثم جلس يتم طعامه وقد
تشتت ذهنه. شعر أنه أصبح فجأة شخصية هامة تتحدث عنها الصحف
وخاصة جريدة المقطم، ويدعوه الباشوات إلى موائدهم. ولم يصبر على
المضي في الأكل طويلاً، فنهض وغسل يديه، ثم أخذ يرتدي ملابسه
ويصلح هندامه، ثم تناول الجريدة، وأخذ يبحث عن الخبر الذي قرأه
الشيخ زهران، ثم أخذ يجاهد ليقراه بنفسه..

أما عبد الجليل فقد وجد الشيخ زهران جالساً على كرسي في الردهة،
ولم يكد يراه حتى هب يصافحه ويقول:

- ما رأيك؟ أليس خبراً عظيماً؟ والله ما أعطاه للمقطم إلا محسوبك!
ألم أقل لك أنني سأخذ الأمر على عاتقي وأملأ الدنيا كلها باسم
حضرة العمدة واسمك؟..

- والله إنك لابن حلال يا شيخ زهران. لقد سر العمدة سروراً عظيماً،
ولكنني أحب ألا تقول إنك وجدته يأكل على هذه الصورة..

- أي صورة؟ ألم يكن يأكل فراخاً؟ هذا هو المهم، يأكلها جالساً على
الأرض أو جالساً إلى مائدة عظيمة.. الفراخ هي الفراخ.. شارة
الحسب والنسب.. يفطر ويتغدى ويتعشى فراخاً؟ والله لأقولن
ذلك للناس جميعاً حتى يعلم الناس من هو حضرة العمدة.. والله
لقد ملأت رائحتها خياشيمي واشتقت إلى ورك منها.. تصدق
بالله؟.. لي شهر لم أسمع بالدجاج، فضلاً عن أكله! أين ياسي عبد
الجليل أفقاص الدجاج؟.. هل أتيتم بها معكم لتأكلوها وحدكم
بين أربعة جدران؟..

- اسمع يا شيخ زهران.. سنعطيك دجاجاً.. ولكن أرجو أن تفهم
العمدة.. هذا رجل كبير ويعرف ما ينبغي وما لا ينبغي، وأنت
صديقي ولا تحب أن يغضب مني أو من أصحابي..

- يغضب منك ومن أصحابك؟.. ما هذا الكلام يا عبد الجليل؟..
من هذا الذي يغضب منا؟.. أليس «حتة» عمدة لا يساوي شيئاً؟..
ماذا يساوي من غيرك؟.. ماذا جرى لك يا شيخ أبو قتب؟..
ضحك عليك وجعلك وكيلاً له ليشرب من دمك؟.. من الذي

فعل له ذلك كله؟.. أليس أنت وأنا؟.. أما أتيتني في نصف الليل فسهرت معك وقدمتك للأستاذ وكتبت الخبر؟.. ماذا أخذت منكم لقاء ذلك؟.. أهذا جزائي؟.. أجيء إليكم فرحاً بما تقوله الصحف فيتأفف العمدة من استقبالي؟.. والله لأقولن للأستاذ كل شيء.. إنني أريد أتعابي.. أفهموها هكذا.. أنا صحفي وكل من في الجرائد أصحابي.

فقال عبد الجليل، وقد فوجيء بكلام زهران:

- خفض صوتك يا شيخ زهران.. إننا إخوان، ولا يليق هذا بنا.. لم ينكر أحد فضلك، ولكن العمدة رجل مجنون، وإذا صنعت معه شيئاً جن جنونه، وإذا استولى عليه الجنون لا يدري ماذا يفعل.. أريد أن تكون سياسياً لتنال شيئاً، إن العمدة رجل كريم وقد أعجبتك أنت في المقابلة الأولى.. هل عرفته بالأمس لتأخذ منه شيئاً اليوم؟.. هل هي بضاعة، تسليم وتسلم؟..

فلانت قناة الشيخ زهران بعض الشيء وقال:

- ماذا أعمل يا شيخ عبد الجليل؟.. إنني أشقى واتعب والناس تأكل حقوقي، حتى هذا العمدة لا يريد أن يستقبلني ويريد أن يعمل على عمدة؟.. اسمع يا أخي.. أنا خادمكم، ولكن ليكن عندكم نظر.. أنا صديق الباشوات والوزراء.. واستطيع أن أعمل لكم كثيراً.. والله إن رفيقي باشا لا يحلو له السهر إلا بحضوري، وامراته «نظرات» هانم تبعث في طلبي..

- أنا أعرف يا شيخ زهران.. وأنت تستطيع أن تحصل على كل شيء من العمدة بالذوق واللف، بينك وبينه.

فأبرقت أسارير وجه زهران ببريق شيطاني وقال:

- اسمع يا عبد الجليل.. ماذا تفعلان الليلة؟.. ما رأيكم في أن نسهر معاً؟.. نذهب إلى تياترو ألف ليلة ليرى العمدة شيئاً لم يره في حياته؟..

- لا مانع عندي، ولكن قل له أنت ذلك.. سأقول له أنك فهمت ما يريد ولن تقول شيئاً.. ثم استدعيك، وعليك الباقي..

وصعد عبد الجليل فوجد العمدة في انتظاره، فأبلغه أن الشيخ زهران يعتذر إليه ويرجو أن يصفح عما بدر منه، ويرجو أن يستدعيه ليسلم عليه وينصرف، فقال العمدة بكل كبرياء:

- هاته!..

وأقبل زهران، فصافح العمدة وانحني على يده يقبلها وقال:

- يا حضرة العمدة والله لا تؤاخذني. إنها فرحتي بالخبر جعلتني أدخل عليكم على هذه الصورة، لأنني أحبكم كثيراً، والشيخ عبد الجليل أخونا من زمان..

- لا عليك يا شيخ زهران، حصل خير..

- أنا عندي فكرة يا حضرة العمدة.. ما رأيك في أن نسهر الليلة في تياترو ألف ليلة عند الست نعيمة؟.. يا سلام يا حضرة العمدة..

إنها رقاصة ساحرة.. بياض وسمن وجمال وخفة دم.. تعالوا،
تعالوا.. لقد نصركم الله ونريد أن نحتفل بهذا النصر..
فابتسم العمدة وقال:

- بكره بإذن الله يا شيخ زهران، إنني متعب هذه الليلة وأريد أن أنام..
- ولماذا بكره؟.. الليلة أحسن، وغداً نذهب إلى مكان آخر.. حضرتك
هنا لبضعة أيام ونريد أن نريك القاهرة.. والله يا حضرة العمدة إذا
رأيت «الست نعيمة» لشعرت أنك في السماء السابعة.. إن الناس
يجنون بها جنوناً، وهي ست «ملعب» ولكنها شريفة طاهرة، ولا
تسمح لأحد بأن يمد يده عليها، حتى سموها «نعيمة احترم
نفسك».. ورقصها.. موج على موج.. لبن حليب كريستال..
قم.. قم يا جناب العمدة. ولديها رقاصة أخرى اسمها «بهية عمد»
لأنها رقاصة العمد.. ليس في القطر عمدة لم يجلس مع بهية.. يا
سلام على ست بهية.. سمار خمري وورد بلدي..

- بكره.. بكره.. إنني متعب الليلة.. بكره بإذن الله تأتي ونخرج معاً..
فقال زهران يداري خجله:

- بكره بكره.. بكره بإذن الله أمر عليكم الساعة الثامنة مساءً ونذهب
معاً.. سلام عليكم..

وخرج.. وتنفس العمدة الصعداء وقال لعبد الجليل:

- ما هذا الرجل؟.. ماذا يريد منا؟..

- لا أدري يا حضرة العمدة.. ولكنه محرر في جريدة الشعب المصري،
ويظهر أنه هو الذي كتب الخبر الذي نشر صباح اليوم، أمره
الأستاذ أن يكتبه.. ومثل هذا الرجل تسد فمه بقرشين..

- لا.. سأشكوه لرفقي باشا..

- لا لزوم لقطع عيشه.. كلها جنية أو جنيهان وينصرف عنا.. إنه
مثل الأستاذ صالح صاحب جريدة «النبا الأخير» عندنا، يرتزق
بهذه الوسيلة.. ومثل هؤلاء الناس نداريهم بشيء.. إنه يستطيع أن
يكتب عنك كثيراً..

- لا أريد.. هذا الرجل وأمثاله قطاع طرق.. أنت تذكر ماذا فعل أبي
بصاحب جريدة «النبا الأخير» عندما نشر عنه خبراً صغيراً ليبتز
منه مالاً.. بعث إليه من ضربوه علقه ساخنة وهو عائد إلى بيته
بالليل، ومن يومها لم يفتح فمه..

ثم نهض العمدة وقال:

- لقد ضايقني هذا الرجل.. تعال نخرج قليلاً..

وخرجوا إلى الطريق. كانت الساعة تقارب التاسعة، فأنحدروا في شارع
كلوت بك حتى بلغا ميدان الخازندار، ثم سارا بحذاء سور الحديقة
صامتين، ثم نظر العمدة فإذا أنوار متلائة في شارع إلى اليمين فقال:

- ترى ما هذا يا عبد الجليل؟..

- والله لا أدري يا حضرة العمدة.. تعالي نرى..

وانتجها نحو الضوء. كان كلام الشيخ زهران، وما ذكره عن «الست نعيمة احترم نفسك».. والست «بهية عمد» قد ملأ رأسيهما، وتاقت نفسيهما إلى رؤية هذه التي وصفها الشيخ زهران بأنها موج على موج.. لبن حليب كريستال.. والأخرى التي قال عنها أنها سمار خمري ووردي بدري.. ولكن كليهما كان لا يريد أن يصارع الآخر، العمدة كبرياء وعبد الجليل خجلًا.. ولهذا فقد انتجها إلى نور الليل وكلاهما يتصنع أنه فراشة لا تدري ما هو ضوء الليل..

ووصلنا. كان بالفعل ملهى كتب عليه «تياترو شانتكلير»، وعلى أحد الجانبين صورة سيدة بدينة بيضاء كتب تحتها «معبودة الجماهير ملك حمدي» وعلى الجانب الآخر صورة لامرأة أخرى لا تقل عنها سمعة وقد كتب فوقها: «سلطانة الرقص»، وتحتها «فهيمة تانجو»، وعلى باب الملهى حشد من المتسكعين يروحون ويحيئون، تقدم بعضهم وأخذوا يقولون: «اتفضلوا.. أحسن بروجرام في مصر، الست ملك والست فهيمة.. شيء مدهش.. ادخلوا.. لن تدفعوا شيئًا.. إذا لم يعجبكم أخرجوا» وحاصرهما أولئك الرعاع حتى لم يبق إلا أن يأخذوا بخناقهما ويجروهما جراً كأنهما كبشان.. ونفر العمدة من ذلك نفورًا شديدًا، وأحس أن في الأمر شرًا، ونزع إلى الهرب بنفسه من ذلك المأزق، حدثه إلى ذلك حاسته الريفية، وسارا على غير هدى، فاخرقا شارعين أو ثلاث، ثم أفضيا إلى شارع كثير الأنوار، فهم عبد الجليل أنه لابد أن يكون شارع عماد الدين، وسأل أحد المارة، فقال له إنه هو، ثم سأله عن «تياترو ألف ليلة» فدلها

عليه. واشترى العمدة تذكرتين، ولم يتفرجا على الصور التي في مدخل المسرح مخافة أن يحاصرها جيش جديد من شوارد الطرقات وبعوض أبواب المسارح..

وجلسا إلى منضدة في جنب من الصالة، وكان الناس كثيرون، جلس معظمهم على الكراسي صفوفًا في مواجهة المسرح، ولم ينفرد على المناضد إلا نفر من رواد هذا النوع من الملاهي. وكان هناك نساء كثيرات في ملابس بارقة الألوان، تكشف عن صدورهن وأذرعهن، وجعل العمدة يتأملهن غاديات رائحات وقد زاغ منه البصر، فقد كان فيهن يضاوات ذوات أجساد مليئة قاعدة، وكانت هذه الأثقال التي يحملنها على أبدانهن تسترعى نظره وتستهوِي فؤاده، فكان ينظر فيطيل النظر، ولا يكاد يرد بصره إلا خجلًا من عيون البقر التي تنظر إليه في جرأة وسط وجه متكور كأنه صحن حساء. وأقبل الخادم يسأل عما يشربان، فطلبًا كازوزة، ولكن الخادم سخر من الطلب، ومضى يضحك ويقول إن الكازوزة شراب الأطفال، وأنهم يضعونها في البزازات، وأخذ يلح في أن يأتيهما بشيء من النبيذ، وضاق صدر العمدة فقال لعبد الجليل:

- دعه يا أخي يحضره ولا نشربه.. ما يريد إلا أن يأخذ منه قرشين زيادة، والأمر كله خسارة في خسارة..

ومضى الرجل فأتى بدورق صغير مليء بالنبيذ الأحمر، وطلب خمسين قرشًا دفعها العمدة ومضى عنه هذا المخلوق الثقيل..

ودوت ثلاث طرقات على خشبة المسرح، ثم ارتفع الستار، فإذا

بصف من الرجال يجلسون على الكراسي في نصف دائرة أوسطهم شاب نحيل يتنى ويتأود، وضع على رأسه طربوشاً أماله على حاجبه الأيمن ميلاً شديداً، وقد احتضن عوداً وانحنى عليه، وبسط على وجهه مسحة من الحزن تأهباً للأغنية التي سينشدها، وإلى يمينه جلس رجل أمامه القانون، ثم عازف على الرق ثم إنسان لا يقر له قرار في يده طبله. وعلى اليسار اثنان بيد كل منهما قيثارة، ثم رجل طويل عريض يمسك قطعة حديد مثلثة الشكل يدق عليها بقطعة حديد أخرى كأنه طفل يلعب..

وبدا المغني يغني، وأخذ ينادي الليل ويكي على العين ويمد رقبتة ويرفع حاجبيه ويغضن وجهه الرقيق.. ووجد العمدة لانشاده حلاوة استراح لها فؤاده، ثم نظر إلى «البنورة» الراقدة أمامه وقال لعبد الجليل:

- ألم تشرب هذا السم أبداً يا عبد الجليل؟..

- أبداً والله يا حضرة للعمدة..

- كذاب.. والله ما أظن إلا أنك عبيت منه عباً أيام دراستك..

- لا والله يا حضرة العمدة، ما ذقت له طعماً.. ما كنا، يعلم الله، إلا

مجاورين لا نجد الماء فما بالك بالنبيذ؟..

- ترى ماذا يعجب محجوب السري في الخمر؟ إنه لا يفيق من السكر

كما تعلم..

- إنه مسكين، دعت عليه أمه بالشقاء من يوم ميلاده، اللهم احفظنا..

- اللهم آمين.. لكن يعني.. ماذا فيها يجذب الناس إليها؟

- والله لا أدري..

- يقولون أن الإنسان إذا ذاقها مرة لم يقلع عنها بعد ذلك أبدًا.. إنها كالسيجارة، لعن الله شجرتها..

- إنها ألعن بكثير، حفظنا الله منها..

- والأدهى من ذلك أن ثمنها غال.. هذا الإناء الصغير ثمنه خمسون قرشًا.. موت وخراب ديار..

وكانت يد العمدة تعبت طوال الوقت بأبريق الخمر البلوري الذي يتألق تحت بصره، لقد ذاقها وشربها قبل ذلك مرارًا، ولكن عبد الجليل لا يعرف، وتلك هي المشكلة.. إنه يلف ويدور ويتساذج ويتعاطب حتى يبدو الأمر وكأنه طبيعي، وهو لا يعلم أن عبد الجليل يعرف أنه يشرب مع أخوته بين الحين والحين، لقد أخبره بذلك متبولي شيخ الخفر، وهو الذي يأتيهم بالخمر في أبريق ماء من قنا.. أبلغه ذلك، ثم رآه بنفسه، بل أذاقه متبولي منه شيئًا، والعمدة لا يدري..

ثم عاد العمدة يقول:

- من يراها يحسب أنها شربات ورد..

- تمام.. والله تمام يا حضرة العمدة..

- طيب.. ألا يمكن أن تكون شربات ورد؟..

- كيف يا حضرة العمدة؟.. إن الرجل أحضرها وقال بعظمة لسانه إنها نبيذ..

- ألا يمكن أن يكون كاذبًا؟.. أنت تعرف أن التجار يكذبون دائماً
ليبيعوا بضاعتهم، يقولون صوفًا وهو قطن، فما الذي يمنع هذا من
أن يحضر شرباتًا أحمر ويقول إنه نبيذ؟..

- صحيح والله يا حضرة العمدة.. ولكن، ماذا يهمنا نحن ما دمننا
لن نشربه؟ ليكن شرباتًا.. ليكن عفريتًا أزرق.. المسألة بالنسبة لنا
سيان..

- طبعًا يا عبد الجليل.. ولكننا لا ندعه يغشنا.. ماذا تريد؟.. يظن أننا
بهائم؟..

- والعمل؟..

- نزوقه.. نذوق قليلًا منه لتأكد، فإذا لم يكن نبيذًا جعلنا واقعته
سوداء..

- طيب.. أذوقه أنا يا حضرة العمدة، ثم أقول لك..

- هيا.. وسرى إن كان هذا الكلب يحسبنا مغفلين..

وتناول عبد الجليل الأبريق، وملاً الكأس الذي أمامه إلى حافتها،
فنظر إليه العمدة وقال:

- هذا كله لمجرد الذوق؟ أفرغت الأبريق، ثم تقول إنك ستذوق ثم
تقول لي؟

- والله يا حضرة العمدة لقد انسكب رغماً عني..

- طيب.. هيا!..

ورفع عبد الجليل الكوب إلى شفتيه، وجرع جرعة استنفدت ربعه،
وابتلعها والعمدة ينظر إليه، ثم زم عينيه وقال:

- يا سا.. لا... م!.. إنها وحشة جدًا يا حضرة العمدة.

- وحشة إزاي؟ أرني.. لا بد أنه ضحك عينا..

ثم تناول الأبريق وملاً كوبه، وتمتم بالبسملة بحكم العادة، ورفع
الكوب إلى شفتيه وجرع جرعة أنت على ثلثه، ثم ابتلعها على مهل..
وقال:

- لا وحشة ولا حاجة.. أتدري ما الذي جعلك تحس بها كذلك؟

- ماذا؟..

- ليست معها مزة.. هذا اللص أتى بها بدون مزة.. قل له يحضر لنا
شيئاً منها.. أنظر إلى المنضدة المجاورة لنا، انظر.. إن أمامهم أطباء
فيها كفتة ولحم وخيار وجبن وترمس.. كيف يتركنا هذا اللعين
دون أن يأتينا بمثل ذلك؟.. ناده، قل له ذلك لا ينبغي أن يستغلنا
هذا الشرير..

وكان المغني قد انتهى. لم يسمعه أحد، كان الناس مشغولين بالحديث
وتبادل النكات فيما بينهم. ونزل الستار وتنفس الناس الصعداء عندما
اختفى «مطرب الشباب» من إنشاده. ومر الخادم، فناداه عبد الجليل
ونبهه إلى ضرورة إحضار المزة، فذهب ثم أقبل بأطباق رصها على المائدة،
وامتدت يد العمدة فتناولت منها شيئاً أكله ثم شرب شيئاً من الكوب
وقال:

- ذق الآن.. سترى لها طعماً آخر.. هذا الشيء لا يحلو إلا بالمزة..

وارتفعت يد كل منهما بكوبه وراحا يشربان في صمت، لقد عرفا كي يزيلان الحجاب بينهما وبين الأبريق دون أن يصارح أحدهما الآخر بأنه قد رفع القناع. واستطابا طعم «شربات الورد» وتوالت الأيدي على الأبريق..

ثم رفع الستار وأضاءت الأنوار من جديد، وصلصل من داخل المسرح رنين «الساجات»، وتراص رجال التخت وجلسوا في وقار كأنهم أقارب ميت يتلقون العزاء. وحنأ صاحب العود منهم على عوده واحتضنه وأخذ يدندن. وعلى صوت دندنته أخذ أصحاب الكمنجات يجرون الأقواس على الأوتر محاولين إخراج نفس النغم، وعبثت يد الرقاق بأقراص الرق «فشخللت»، ومضى صاحب القانون يمش أوتاره فتمتعت، وانبرى صاحب الطبلية بدوره ينقر ويتلوى كأنه يضبط جلد طبلته، ومد عنقاً طويلاً داخل المسرح، ثم استعاد رأسه وعنقه، وأقبلت على أثر ذلك الست «نعيمة» تصلصل بصاجاتها، ووقفت الصالة على رجل، وتهاتف المعجبون: «ما شاء الله يا ست الكل!.. اتمخطري يا قالب زبدة!..» وتمخطر قالب الزبدة على وقع عزف التخت الذي حميت دماء أفراد. وتعالى الهتاف والتصفيق، و«قالب الزبدة يخطو شمالاً ويميناً ويرج المسرح رجاً تحت وزنه الثقيل. لم تكن «قالب الزبدة»، بل قناير كاملة من السمن البلدي تهتز وتترجرج. كان جسمها ناصع البياض، وكانت المساحة البادية للعين منه واسعة راحت عين العمدة

فيها وجاءت، وسحره ذراعها الأبيض الذي يشبه عمودًا من الرخام، فمضى يتأمله وهو زائغ البصر لاهث النفس، وعلى غير وعي منه امتدت يده فأفرغت ما بقى في الأبريق، ثم صبه في فمه وأتبعه بقطعة جبن ومضى يتأمل وقد طالت رقبتة وجحظت عيناه. وتحسس عبد الجليل صدره وأحس بالورقة المستورة فيه، فزاد طربه. وأخذ العجل الذهبي يتثنى ويتأود، وعبدة الأوثان يرتلون عبارات النشوة والهيام. وكان وجهها العريض الأبيض لا يفتر عن الابتسام دون أن تتحرك فيه جارحة، كأنها خلقت هكذا، بهذه الابتسامة التي لا تتغير كأنها تمثال من تماثيل «مايول» الحجرية الضخمة التي روعت عالم الفن بجلافة تفاصيلها وجعلت لذلك الفنان مكانًا بين أهل النحت أوائل هذا القرن. وما هو إلا قيل حتى شعشت الخمر في الرءوس وولى الوقار هاربًا، وانبرى نفر من النظارة يصفق على وقع الأقدام الثقيلة معينا الراقصة على التزام الوحدة.. وصفق العمدة معهم وهتف مثلهم، واستولت عليه النشوة وتقاذفته أمواج الشوق والهيام..

وانتهت الرقصة وهبط الستار عليها بين التصفيق والهتاف وطلبات الإعادة. ولكن قلب الغانية لم يرق لهؤلاء الولهانيين، وأضاءت الأنوار، ونظر عبد الجليل إلى وجه العمدة فإذا هو ضحك كله، سرور كله.. خفة كله.. وقال لعبد الجليل:

- حاجة هوس.. يا سلام يا واد يا عبد الجليل.. والله إننا لمدفونون بالحياة في كفر البلا الذي نحن فيه! يا سلام!.. إن أهل مصر في

جنة وهم لا يشعرون.. لابد أن تأتي هنا كل ليلة يا ولد.. ما اسم هذا التياترو؟.. اكتبه عندك.. اكتبه.. أخرج ورقة وقلماً واكتب.. ثم نظر إلى الأبريق الفارغ وقال:

- وقل له يأتينا بأبريق آخر.. إنها ليلة العمر.. دعنا نطرب وننسى كفر سهيل وبلاوي أهلها.. قل له.. سنظل هنا إلى الصباح.. أنت فاهم؟.. وتلفت عبد الجليل يبحث عن الخادم، فلما وجدته ناداه وأمره أن يأتي بأبريق آخر، فأتى به. وارتفع الستار فخرج شاب غريب الهيئة فمضى يقفز ويلقي أغنية لا معنى لها ولا رأس ولا ذنب، وإنما هي عبارات متشابهة النغم، يلقي العبارة منها، ثم تعزف الموسيقى، فيروح يقفز ذات اليمين وذات الشمال ويدور مقلداً القرد مرة والحمار أخرى.. وتضايق العمدة من هذا التهريج الذي لا معنى له، وصرخ في عبد الجليل، كأنه هو المهرج:

- ما هذا؟.. ألا يستطيعون أن ينزلوا هذا العيل من هناك؟..

- لا أدري، أظن أنه ابن الست..

- وابن الست يدعونه هكذا «يمسخر» أمه؟..

- إنه يلعب إلى أن تأتي أمه..

- والله ظاهر عليه أنه ابن حرام.. حقيقة أن أمه راقصة.. لا حياء عنده بالمرّة..

وكان الخادم واقفاً إلى جانبهما، فمال على العمدة وقال وهو يضحك:

- إنه ليس ابن الست، إنه زوجها، إنه المنولوجست المشهور الأستاذ
«سيد حمامة»..

- هذا أستاذ؟.. هذا الشكل أستاذ؟.. هل هو محام؟..
- لا..

- إذن كيف يكون أستاذًا؟.. الأستاذ عندنا وفي الدنيا كلها هو
المحامي..

- إنه أستاذ في المنولوجست..

- وماذا تكون المنولوجست؟..

- هي ما تراه.. أغان مضحكة تلقى بطريقة مضحكة..

- هذا نسميه في بلدنا «أراجوز».. أراجوز» ينصب عدته في السوق
ويلتف حوله الصبيان ليمسح نفسه أمامهم ثم يعطونه ما فيه
القسمة.. خيارة، قرن فلفل، شقة عيش، قطعة من الجبن..

- لكنه هنا أستاذ محترم يأخذ جنيهاً.. ويتزوج الست..

- لا بد أنها ست هلس!..

- هل قالوا لك أنها حاجة؟.. إنها راقصة وهو بهلوان.. هي تليق له
وهو يليق لها..

- لا لا.. لا.. هذا الهلس لا يجوز في مصر.. مصر أما الدنيا وكل ما
فيها ينبغي أن يكون موزونًا..

وانتهى المهرج من تهريجه، وعزفت الموسيقى وصلصلت الصاجات

إعلاناً عن رقصة جديدة، وانصرف العمدة عن الخادم الذي كان يخاطبه انصرافاً مفاجئاً كأنه طفل سمع الموسيقى في الطريق.. وكان الأبريق المليء قد استقر على المنضدة، فامتدت يد العمدة وملأت الكوب وعيناه مثبتتان في المسرح وأذناه صاغيتان إلى صلصلة الصاجات.. ثم خطرت الراقصة.. لم تكن «نعيمة احترم نفسك» بل «بهية عمد»، وتصايح الناس: «عمد!.. أيوه يا عمد!.. هنا يا عمدة!..» وطار عقل العمدة وهو يسمع الناس ينادونه من كل ناحية، فأخذ يتلفت كالمجنون حتى ريع عبد الجليل ومس يد العمدة وهمس في أذنه:

- لا يقصدونك أنت يا حضرة العمدة.. إنهم يقصدون الراقصة..

فضرب العمدة كفاً بكف وقال:

- هذا شيء يجن العقل يا أخي.. يأتون بأراجوز ويسمونهم أستاذًا، ويأتون بغزية ويسمونهم عمدة؟!..

- هذه هي التي قال لنا عنها الشيخ زهران أنها محبوبة العمد.. لهذا يسمونها «بهية عمد»..

وأطال العمدة النظر، واستهواه رقص الجاموس الأسمر الذي كان يهتز على وقع الموسيقى. لم تكن بيضاء كالأولى، وإنما سمراء بيضت وجهها ورقبتها بشيء يشبه الجير كانت لا تقل عن صاحبها وزنًا، وكانت حركاتها أرشق وأخف، ولكنها لم تستهو العمدة كثيرًا.. هذا الجلد الأسمر لا يعجبه كثيرًا. إن الجمال عنده هو البياض.. البياض أولاً وآخرًا.. وشرب العمدة كوبًا ثم أتبعه بكوب آخر، وتساعد بخار الخمر

إلى رأسه، وأخذت السمراء تبيض في عينيه، وبهر عينه لآ «البدلة» التي كانت الراقصة تستر بها بعض أنحاء جسمها العريض، فضرب عبد الجليل على ظهره ضربة أطارت زيتونة لم تكن قد استقرت بعد بين أسنانه وقال:

- هذه جنية، جنية بحر تضوي و«تزغلل».. من أين يأتون بهذا الصنف؟ إن كانت هذه نساء فماذا تكون اللائي عندنا؟..
- نساء أيضاً..

- أعوذ بالله.. بالله العظيم ما هن حريم.. قل إنهن سحالي، تماسيح..
سلاحف..

- حرام يا حضرة العمدة، هؤلاء غواز، ونساؤنا أشراف.
وسكت العمدة وأخذ يتابع الرقص وهو يردد كأنها يناجي نفسه:
- أشراف.. الأشراف لابد أن يكن سحالي أو تماسيح، وغير الأشراف
يكن هكذا؟.. قوالب زبدة؟.. جنيات مصورات؟.. سنيرات
ملعبات؟..

وانتهى الرقص، وشيع المتفرجون الراقصة بما يناسب مكانها في عالم الإغراء والفتنة والفن.. وأضيئت الأنوار، وأشعل العمدة سيجارة، وقد خف رأسه وأحس بهجة تملأ نفسه، وكان يتأمل الغانيات الرائحات الغاديات وهو يتلذذ ريقه كأنه كلب شم رائحة طعام.. فإذا هو في ذلك، إذا قالب الزبدة يتبختر نحوه، ثم يقف أمامه ويقول:

- مساء النور يا عمدة..

فنظر إليها طويلاً، ثم نهض ومد يده يصافحها، فوضعت يدها فيها، فشدها عليها شدة آلمتها.. ثم دعاها إلى الجلوس، وكادت أن تجلس لولا أن أقبل خادم يريد أن يقول لها شيئاً، فسارت إليه خطوات وأخذ يهمس في أذنها، وانتهز عبد الجليل الفرصة فقال للعمدة في صوت خفيض:

- خذ بالك يا حضرة العمدة.. هؤلاء شياطين، هذه ما أنت إلا لتسليك شيئاً.. حاذر لنفسك..

فنظر إليه العمدة طويلاً ثم قال:

- لا تخف.. إذا كانت هي جنية فأنا شيطان..

وبعد لحظة قال هامساً:

- أسمع يا عبد الجليل.. معي 300 جنية وأنا خائف عليها.. سأعطيك إياها لتحملها..

- لا يا حضرة العمدة.. أنا لا أحمل هذا المبلغ الكبير، قد يسرق مني فأذهب في داهية.. نحن وسط لصوص.. وإنما أقصر أنت مع هذه الملعونة وحاذر لنفسك.. أو أقول لك.. هيا بنا نمضي ونخزي الشيطان..

- لا تخف.. أنا محترس لنفسي..

ثم عادت الغانية تهتز وتموج، وجلست إلى العمدة وهي تقول:

- بماذا كتبتما تهماًسان؟.. ليس بننا أسرار.. نحن حاييب..

وضحكت، ثم قالت دون اكتراث:

- إنني عطشى..

فتلفت العمدة حواليه وقال:

- ماء.. ماء يا ولد.. هات ماء يا ولد..

فزادت ضحكاً وقالت:

- ماء؟.. أي ماء؟.. ماء ورد أم ماء كولونيا؟..

- ما تطلبينه..

فأدارات رأسها، وخف إليها الخادم، فقالت:

- كأس ويسكي يا سيد!..

وجعل العمدة ينظر إليها وقد جلست إلى جواره وأصبح ذراعها الأبيض، عمود النور، تحت أنفه، وملأت أنفه رائحة عطر خفيف، ومن فوق ذراعها خطا نظره إلى صدرها العظيم، واستغرقه التأمل وزاغ بصره وقبض على لسانه في حلقة، ولم يجسر على النظر إلى وجهها، فقد كانت عيناها الواسعتان تتأملان وجهه الشديد السمرة المحمر، وكان إطار الكحل العريض قد أخف من أجفانها إلى جوانب عينيها وأنحدر بعضه على كرسي خدها المرهل.. ومن بعيد جلس عبد الجليل ينظر خلصة كأنه

كلب يبصص بذنبه حتى يجود عليه سيده بكسرة.. ولحظت الغانية
الحرج الذي يعانيه العمدة، فقالت في دلال من وزنها:

- سيجارة يا عمدة..

وأسرع يفتش في جيوبه، وأخرج علبة الماتوسيان وفتحها لها، فقالت:
- لا.. هذا لا أشربه.. أريد بحاري..

وفي أسرع من لمح البصر كان الخادم قد أحضر السجائر المطلوبة،
فطلبت إلى العمدة أن يشعل لها، فأسرع بذلك وهو لا يزال زائغ البصر،
ثم قالت له:

- عمدة ماذا أنت؟..

- عمدة كفر سهيل مركز قوص مديرية قنا..

- إذن فنحن بلديات..

- حضرتك من كفر سهيل؟..

- لأ.. ولكن زوجي الأول كان من قنا..

- كان رجلاً طيباً؟..

- كان حماراً بعيداً عنك.. كان يموت على قرش، اشتريت فستاناً
بعشرة جنيهات فجئن جنونه، وأراد أن يجبسنني في بيته وأخذ
المفتاح، وكان يضربني.. أيرضيك أن يضربني؟..

فقال وهو يمد يده ويمس ذراعها:

- وهل هذا كلام؟ هل يجوز ضرب هذا الزبد؟..

فسحبت يدها في عنف، وقالت:

- احترم نفسك يا عمدة..

وكانت الراقصة الأخرى قد أخذت مجلسها مع صديقة لها إلى مائدة مجاورة، فقالت وهي تضحك:

- أيوة.. احترم نفسك.. دي نعيمة احترم نفسك والأجر على الله..
شيل أيدك من على الزبدة..

والتفتت إليها الست نعيمة وانقلبت سحتتها، وتطاير شرر الغضب من عينيها وقالت:

- ومالك أنت ولهذا؟.. كيف تحشرين نفسك في شئوني؟..

فنهضت الأخرى ووضعت يديها في خصرها وصاحت:

- نعم؟ أما يكفيك أن اعتديت على عميلي؟.. مالك أنت والعمد؟..
مصر كلها تعرف أن العمدة «بتوعى»..

ثم نظرت إلى العمدة وصرخت فيه:

- أنت عمدة يا رجل أم لا؟..

- أيوه عمدة..

- يبقى بتاعي.. هكذا يا جماعة أم لا؟..

وأقبل رجل يلبس جلباباً فوقه معطف وعلى رأسه لاسة وقال:

- صحيح يا ست نعيمة.. العمدة بتوع ست بهية عمدة، والبهوات
بتوعك..

ثم نظر إلى العمدة وقال:

- أنت بيك يا عمدة؟..

- أيوه..

فطوح الرجل بذراعيه وانصرف وهو يقول:

- إذن فهو لكما أنتما الأثنتان.. كل واحدة تأخذ نصفًا.. حاجة تفلق..

ناس لا تفهم.. يلعن أبوكي لأبوها.. نسوان لا تستحي..

وما شعر العمدة إلا وقد تماسكت الحوريتان، وتعالى الصياح وتزاحم

الناس، وريع الرجل روغًا شديدًا، فنظر إلى عبد الجليل وقال:

- هيا يا عبد الجليل.. أسرع..

ونفضًا، فما كاد يجر كان أقدامهما حتى وثب الخادم فكان أمامهما وقال:

- الحساب يا حضرة..

- أما دفعنا لك ثمن ما أخذناه؟..

- والويسكي الذي طلبته الست؟..

- لم يأت ولم تشربه..

- ها هو.. خذ أشربه..

- لا أريد..

- تدفع الثمن..

فقال عبد الجليل:

- أعطه يا عمدة.. دعنا نخلص..

وقال الخادم:

- ثلاثين قرشاً..

وبدا على العمدة أنه يريد أن يعترض، فأخرج عبد الجليل النقود وناولها للخادم، وقال:

- هيا..

فنظر العمدة إلى الكأس وقال:

- ما دمنا قد دفعنا، نشربه..

وأمسك الكوب فأقامها على شفثيه، ثم ردها وقال:

- هذا شاي!.. هذا شاي يا حرامي!..

فقال الخادم:

- أحفظ لسانك يا حضرة، هذا عندنا اسمه ويسكي، يعجبك أو لا يعجبك؟..

ومد عبد الجليل يده فأخذ بيد العمدة وجره، وأسرع يطلبان الباب.

كان الليل قد استأخر، وأطفئت معظم الأضواء وخلا الطريق من المارة، فسارا يطلبان الفندق كأنهما شبحان يسريان في الظلام لا يكادان يهتديان إلى شيء، ولقيا شرطياً يهوم في مدخل شارع مغلق، فسألاه، فاستيقظ ونهرهما وعاد إلى نومه، فمضى عبد الجليل يقود العمدة على قدر اجتهاده.. وكان التعب قد استولى عليه فسار يجر رجله جراً وإلى جانبه العمدة يقاوم بقية من أثر النبذ في رأسه. ووصلا آخر الأمر، ومضى

كل منهما إلى غرفته، فأما العمدة فخلع حذاءه وجبته واندس بين أغطية السرير، وبينما كان جفناه يثقلان كان الذراع العاجي يترأى له ويفتح له باب أحلام وردية أكمل بها خلال الساعات الباقية من الليل قصته مع الغاية السميئة.. وأما عبد الجليل فلم يكذب يغلق الباب وراءه حتى أخرج الورقة المالية ومضى يتأملها بعيني شاب يقرأ أول خطاب غرام تلقاه.. ثم بسطها في عناية ورفق تحت الوسادة، ثم وضع رأسه واستغرق في النوم تهدده أحلام الغني والمستقبل المشرق السعيد..

كانت الضجة في الطريق قد غلبت أقصاها عندما استيقظ عبد الجليل، ولم يكن يملك ساعة يعرف بها الوقت، ففتح النافذة، وأدرك لأول وهلة أن ساعات كثيرة من النهار قد مضت، فأسرع وبلبل وجهه بالماء ثم نشفه، ووضع رجله في الحذاء وهياً نفسه على عجل ومضى ينقر على باب العمدة، ولم يتنبه هذا فطرق الباب طرْقاً متوالياً حتى استيقظ، وسمع صوت قدميه الخافيتين تتجهن نحو الباب، ثم فتح له فدخل وهو يقول:

- صباح الخير يا عمدة..

فنظر إليه العمدة غاضباً وقال:

- أما تدعونني أرتاح أبداً؟.. ماذا جرى؟..

- نحن الظاهر يا حضرة العمدة، ووراءنا أشياء كثيرة نعملها هذا الصباح..

ومضى العمدة فأخرج ساعته من تحت الوسادة ونظر فيها ثم هزها ووضعها على أذنه وأنصت لدقاتها، ثم نظر فيها مرة أخرى وقال:

- يا نهر أسود.. الساعة الثانية عشرة ونصف؟..

- ضاع اليوم يا حضرة العمدة..

- ماذا كان وراءنا؟..

- كنا نريد أن نعيد اسمك في دفتر التشريفات ونتمم مسألة عضوية الحزب..

- صحيح.. هل لدينا وقت لذلك يا ترى؟..

- لا أدري.. أسرع حضرتك فربما أدركنا شيئاً..

ولم يسرع العمدة، وإنما جلس على حافة لسير وفرك عينيه، ثم تحسس رأسه وقال:

- رأسي تؤلمني.. إنها ثقيلة يا عبد الجليل.. ماذا جرى؟.. لم أحس بوجع الرأس قبل اليوم أبداً.. كانت ليلة سوداء..

- مرت على خير يا حضرة العمدة.. ربنا أنقذنا من الست التي جلست إليك..

فنظر العمدة إلى عبد الجليل وقال:

- شوف يا عبد الجليل.. لا يسمعن أحد بما حدث بالأمس أبداً..
إنني أنذرك.. إن سمعت لذلك خبراً ليكونن لي معك شأن، لقد آخيتك ووثقت بك فعساك لا تضيع هذه الثقة..

فتقدم عبد الجليل من العمدة وجلس أمامه وقال:

- يا حضرة العمدة أنا خادمك ورجلك، رقبتي فداؤك، فلماذا تشك في؟.. لي عشر سنوات معك الآن، فهل رأيت مني شيئاً؟..

فوضع العمدة يده على كتف عبد الجليل وقال:

- لا والله يا عبد الجليل.. أنت دائماً رجل ابن حلال ولكننا لم نعرف قدرك.. بإذن الله عندما تنتهي هذه الزيارة أعرف كيف أكافئك..

- عشت يا عمدة، كلنا لك.. المهم أن تعرف أن عبد الجليل مستعد أن يريق دمه في سبيلك..

فابتسم العمدة وقال:

- أنت كنت طلبت مني جنيهاً.. أعطيك إياه الساعة..

- الله يخليك وبيارك في عمرك يا حضرة العمدة.. ومن غير الجنيه أنا أيضاً خادمك.. أسرع الآن حتى ندرك مكتب الحزب قبل أن ينصرف الموظفون..

قال ذلك، ثم جمد جسمه وأحس بقلبه وكأنه سقط بين قدميه.. لقد تذكر أنه نسي الجنيهات العشرة تحت الوسادة.

فقال للعمدة:

- ألبس ملابسك وسأعود إليك بعد دقائق..

ثم عدا نحو حجرته، واندفع إلى السرير ورفع الوسادة فوجد الورقة راقدة حيث كانت، فصعد قلبه إلى مكانه وأخذ يدق دقاً سريعاً.. ثم رفع

جلبابه وتحسس حزامًا يدور بوسطه على لحمه، وأداره حتى بلغ موضع كيس. كان ذلك هو مستودع إدخار العمر كله، فأفرغ ما فيه على السرير: أربعة جنيهاً ورقاً وجنيهن وأربعون قرشاً قطعاً فضية.. هذه ثروة رجل في الرابعة والثلاثين من عمره.. جمعها قرشاً قرشاً.. ثم انضافت إليه دفعة واحدة عشرة جنيهاً سرقة لحظة زادت على ضعف إدخار عمر طويل! الآن فهم سر الآلاف التي يملكها العمدة وأمثاله، وفهم أيضاً لماذا لا يعملون، ولماذا يتعبون أنفسهم وسرقات في لحظات توتي أضعاف ما تؤتيه سنوات من الجهد في جحر صغير كهذا الذي يعيشون فيه؟..

ربط الكيس جيداً، ثم تأكد من وضع الحزام، وأسرع يمين نفسه، ثم انحدر، فوجد العمدة ينتظره، ومضياً فسألاً كاتب الفندق عن عنوان دار الحزب، فقال لهما الرجل:

- خذا تكسيًا.. كل السائقين يعرفون هذا الموضع..

وحانت من العمدة نظرة فرأى «الست» زوجة صاحب الفندق جالسة إلى جانب الخزانة. ورأى وجهها الأبيض العريض، فذكر غانية الأمس، وعادت إلى ذاكرته صورتها تخطر على المسرح ذاهبة عائدة، فهفت نفسه إلى معاودة تلك السهرة، وبينما كان التاكسي يمضي به إلى دار الحزب، كان يتخيل في نفسه ما سيعمله إذا عاد إلى «التياترو» مرة أخرى. ودخلا دار الحزب متهيئين، فقد كان هناك جمع غفير من الناس، معظمهم يبدو عليهم أنهم متسكعون يحومون في دار الحزب كما تحوم طيور

البحر على مائة لعل سمكة تقترب من السطح. وكان هناك شبان كثيرون يبدو أنهم طلاب مدارس، وكان واحد منهم يروح ويحيى ويتحدث في صوت عال وفي يده لفة كبيرة من الصحف، وعرفا بعد ذلك أنه «زعيم الطلبة الشعبين»، وأنه شخصية يحسب لها في عالم السياسة ألف حساب. وإلى جانبي باب السكرتارية كانت هناك دكتان ذكرتا العمدة بمسطبة داره، فقد جلس عليهما نفر من المتسكعين، بعضهم نائم يهيم وبعضهم يتحدث، والكل يدخنون، قد انعقدت فوق رؤوسهم سحب الدخان..

وفي قاعة السكرتارية وجدا السكرتير ناشد أفندي جالسًا وأمامه رجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره، يبدو على هيأته أنه يشعر أنه رجل مهم، فقد وضع ساقًا على ساق، ومضى يتحدث حديث المدل بنفسه الواثق من كبر مركزه، وكان ناشد أفندي يصغي إليه وعلى شفته ابتسامة يعسر فهم ما وراءها، ابتسامة تعلمها ذلك الرجل خلال عشرين سنة في أعمال شبيهة بما يعمله الآن: وكيل دائرة، كاتب محام، مدير حسابات جريدة، والآن كاتب حزب الشعب المصري، أعمال كلها تعلم صاحبها كيف يمشي على الحبل وكيف يطفو على الماء وكيف يأكل النار.. وبينما العمدة وصاحبه جالسان ينتظران أن يخرج الأستاذ، إذ فتح الباب ودخل زعيم الطلبة وخلفه نحو عشرة من الغلمان هيأتهم أقرب إلى هيأت الداخلين إلى إصلاحية، ووقف الزعيم وسط الحجرة وأخذ الغلمان من حوله يصفقون، ثم هتف:

- يحى المجاهد الكبير.. يحى الرجل الحر.. يحى رجل المبادئ..
يحى الأستاذ عبد الرؤوف خروف..

وكلما فرغ من هتاف رده أتباعه، ثم انتهى الهتاف فصفقوا لأنفسهم
تصفيقاً شديداً متواصلًا، وتحرك الأستاذ الكبير، فوقف، ثم دار حتى
صار خلف كرسيه واعتمد على مسنده، وانحنى كأنه يفكر، ثم قال:
- إخواني..

ثم حنى رأسه مرة أخرى، كأنها ضاع منه ما كان يريد أن يقوله فذهب
يلتمسه في جوانب رأسه، وقال:

- يا شباب الوادي.. إنه ليسعدني.. ويطربني.. ويبهجني أن أجد..
أن أجد.. أن أشعر أن شباب هذه الأمة بخير، وأن هذا الوطن..
الكريم.. يعرف كيف يقدر رجاله المخلصين..

ثم رفع رأسه، وصفق الحاضرون، ثم هتف زعيم الطلبة:
- يحى رجاله المخلصين..

ثم ساد الصمت، ومضى الأستاذ خروف يقول:

- لقد ضحينا في سبيل هذا البلد، لقد جاهدنا في سبيل الحرية، وثبتنا
رغم الاضطهاد، وتمسكنا مبادئنا، وما عاش رجل لا يتمسك
بمبادئه (تصفيق) حتى.. حتى.. بدا لنا أن هذه الطغمة الباغية،
تجار الوطنية وأعداء الحرية، أولئك المضللين الذين يتهاكون على
كراسي الحكم، ولا يحفزهم في أعمالهم شعور أو كرامة أو تقدير

لمسئولية، أولئك.. أولئك، الذين أصون لساني من أن أهبط إلى
الدرك السحيق الذي هبطت إليه صحافتهم، فليس من أخلاقي
أن أقابل الوقاحة بالوقاحة، وإذا كانوا هم رقعاء حقراء مجرمين
أثمين خائنين، فلنكن نحن على خلق وعفة لسان.. (تصفيق) لقد
أرادونا على أن نخالف ضمائرنا، وزعموا أننا كنا نلتمس منهم
مغفماً، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، أن يقولون إلا كذباً..
(تصفيق) ولكننا أئينا، واعتزنا بكفاحنا عن أن ندنسه، واعتصمنا
بحبل الله، وتمسكنا براية المليك المفدي (تصفيق وهتاف: يحى
المليك المفدي!..) ولا عاصم لهذا البلد من التردى في الهوة إلا
الملك ورجاله.. وسينصرنا الله، إن الله سميع مجيب..

وصفق الحاضرون وهتفوا، وهجم زعيم الشباب والنفر الذين كانوا
معه على الرجل، ونفذ واحد منهم برأسه بين رجلي الأستاذ خروف، ثم
نهض به، ووجد الأستاذ نفسه على الأكتاف ومن حوله أولئك الغلمان
يهتفون، ولم يكن مطمئناً تماماً في مكانه، فبدأ في وجهه الهلع، ثم عاد
فتماسك، وتصنع ابتساماً غريباً مروعاً، وأخذ يرفع يده يميني، ونظر
العمدة إلى عبد الجليل وهمس:

- ماذا فعل حتى يحملوه ويلقوا به في الخارج؟..

وقال عبد الجليل:

- لقد تكلم كلاماً فارغاً. لا بد أن كلامه لم يعجبهم..

- صحيح.. ظاهر عليه أنه مغفل. لم أفهم شيئاً ما قاله. مصيبة أولئك الناس أنهم لا يتكلمون بالعربية..

وأراد عبد الجليل أن يقول شيئاً، ولكن ناشد أفندي لم يعطه الفرصة، فقد نظر إليهما وقال:

- يا شيخ أنت وهو.. ماذا تريدان؟..

وأسرع عبد الجليل فقال للرجل:

- هذا هو الشيخ صادق أبو الشوارب عمدة كفر سهيل مركز قوص.. ولم يكذ ناشد أفندي يسمع الاسم حتى هب واقفًا وقال:

- أهلاً وسهلاً حضرة العمدة.. أهلاً وسهلاً عين أعيان الصعيد، أهلاً وسهلاً.. شرفت، سعادة الباشا أمر بأن نعد لك أوراق العضوية.. ها هي.. يا ألف نهار أبيض..

ودهش العمدة، فقد فوجيء بهذا الترحيب الذي جاوز الحد، وتلفت حوله خوفاً من أن يكون المقصود إنساناً غيره، ثم تقدم في تردد، ومد يده فصافح ناشد أفندي ثم جلس، وقدم له الاستمارة، وأشار بأصبعه إلى موضع الإمضاء، وأمسك العمدة بالقلم ووضع سنه يريد أن يوقع، ولكنه خاف.. أمسكه خوف تقليدي من الأوراق والتوقيع، أراد أن يقرأ ما في الورقة فلم يفهم كثيراً، وأدركه الخجل، فوقع وكأنه يقفز في هاوية. وأخرج ناشد أفندي ورقة أخرى وناولها لعبد الجليل.. فوقعها دون أن يقرأ ما فيها، فقال له ناشد أفندي في احتقار:

- املاً الخانات يا أستاذ..

وعاد ليملاً الخانات. وتحير، بماذا يملأ خانة «الوظيفة»؟.. إن الناس كلهم يعرفون أنه وكيل عمدة، لكنه لا يستطيع أن يكتب ذلك في ورقة ظنها رسمية، فكتب «مدرس» وأعاد الورقة إلى ناشد أفندي، فقرأها ثم نظر إليه بمزيد من الاحتقار، وعاد إلى العمدة يرحب به ويعظم من شأنه، وطلب لهما قهوة ثم همس في أذن العمدة:

- حضرتك لا تنس العشاء الليلة في بيت الباشا.. لقد طلب مني أن أذكرك مخافة أن تنسى..

وسمع عبد الجليل ذلك، فحز في نفسه أن لم يدعه أحد. هؤلاء الناس لا يحترمون إلا العمدة.. تمنى لو نهض فصفع ناشد أفندي على وجهه. ثم وجد هذا يضحك ويقول للعمدة:

- والله لقد أوحشتنا طرائف الريف.. لنا مدة لم يتحفنا أحد من العمد أو الأعيان بشيء من الدجاج.. يا سلام على دجاج الريف.. أليس كذلك يا حضرة العمدة؟..

ولم يقل العمدة شيئاً، بل اكتفى بالنظر إلى عبد الجليل الذي ظل جامداً، ومضى ناشد أفندي يقول:

- هل أرسل معكم الفراش؟..

- لماذا؟..

- يعني.. قصدي.. ليأتينا بكم زوج فراخ..

- لا.. غداً إذا أردت..

- في الصباح.. حوالي الساعة.. الحادية عشرة؟..

- أجل.. الحادية عشرة.. الثانية عشرة..

- في فندق الكونتنتال؟..

- لأ.. فندق.. فندق..

وأسرع عبد الجليل يقول:

- اسبلنديد.. لوكاندة اسبلنديد..

فقال ناشد:

- إنه فندق عظيم جداً.. فندق الأعيان.. ألف شكر يا حضرة

العمدة.. بكره الصبح الساعة 11.. ولا تنس موعد العشاء هذه

الليلة.. الباشا ساكن هنا..

ثم أشار إلى مبنى فخم في الحديقة وقال:

- هنا.. في هذا المبنى.. نحن هنا في السلامك.. إنها دار واسعة جداً..

العشاء الساعة الثامنة والنصف، ولكن يستحسن أن تكون هنا

قبل ذلك. ما رأيك في أن تأتي الساعة السادسة، ونحدث هنا.. أو

في أحد الصالونات هناك قليلاً.. حتى يحين موعد العشاء؟.. لقد

أوصاني الباشا بك، وقال إنني يجب أن أضع نفسي في خدمتك،

وأنا في خدمتك..

ثم نهض العمدة يريد الانصراف، فقال ناشد هامسًا:

-.. قصدي.. رسم الاشتراك..

فقال عبد الجليل:

- دفعناه أمس..

وضحك ناشد أفندي وقال:

- صحيح؟.. لم أكن أدري.. لا مؤاخذه.. إن الباشا لم يقل لي شيئًا..

لا مؤاخذه.. مع السلامة.. مع ألف سلامة.

وأوصلهما إلى الباب وعاد..

وسار العمدة ومن خلفه عبد الجليل.. كان العمدة في حيرة من أمره..

اختلط في ذهنه كل شيء بكل شيء. كلما ظن أنه فهم شيئًا عاد الأمر

فتعقد من جديد. ما هذه «الفراخ» التي يتحدث عنها الأستاذ الكبير

وناشد أفندي وكل الناس؟.. ألا يأكلون دجاجًا إلا إذا أتاها به أحد

من الناس؟.. هل منظر العمدة يذكرهم بالدجاج؟.. ما وجه الشبه؟..

لماذا لا يذكرهم بمنظر الديكة؟.. ورفع العمدة يده ومضى يفتل شاربه.

وسارا في شارع القصر العيني صامتين. كانا يبحثان عن شيء واحد:

مطعم.. تفاهما على ذلك بلغة البطون. ثم انحذرا إلى ميدان السيدة في

سير طويل صامت ممل.. مرا بمطعم فول، فدخلوا دون تردد، كأنهما

حماران وصلا البيت عائدين من الحقل. وجلسا وطلبا فولًا وطعمية.

وبدأ العمدة بالماء فملاً بطنه، ثم قال:

- أين نحن يا عبد الجليل؟.. أين رمينا أنفسنا؟.. ما لأمثالنا وهذه المصيبة؟.. لقد ألقينا أنفسنا في بحر لا ساحل له.. بحر كله حيتان وتماسيح، لا ندرى من منها يأكلنا أولاً.. رأسي يدور.. أشعر بأنني في دوامة.. نحن الفلاحين سمك، إذا خرجنا من مائتنا اختنقنا، لا مع الرجال سالكون ولا مع النساء ناجون. أزعمجتنا بالأمس امرأة لا تساوي شيئاً، والآن يلعب علينا أفندي «هايف» مثل هذا.. أما الباشا فقد أكلنا أكلاً.. مائتنا جنية ضاعت في الشيطان الرجيم. ترى كم يأخذ منا الملك؟!.. إنني خائف يا عبد الجليل. خائف من أولئك الناس. مصيبة ورمينا أنفسنا فيها. ما لنا نحن والسياسة؟.. هؤلاء ناس يلعبون بالبيضة والحجر. إنهم حواة موالد ونحن أطفال نتفرج. الحاوي يعمل كل ما يستطيع لكي يستخرج المليم من يد الولد. هؤلاء أيضاً يريدون النقود والفراخ. على هذا القياس سيطلبنا الملك بالعجول والجاموس.. ماذا نعمل؟.. ماذا نعمل؟.. قل شيئاً، مالك صامت هكذا؟..

وكان الفول قد أتى، فقال عبد الجليل:

- لنأكل أولاً..

ومضيا يأكلان. واستغرقتهما نشوة هذا البقل الذي أنضجته نار الفرن على مهل، فطاب وانبعث له عطر زكي ينفذ إلى القلب ويبعث في الكيان شعوراً عميقاً من الاطمئنان والسعادة. غرقا في هذه النشوة التي تستولي على الملايين في طول الوادي وعرضه وتشعرهم بامتلاء سعيد يصرفهم

عن الدنيا وما فيها. مليات قليلة تهبيء للملايين هذا الشعب الكامل الذي يهبط بقيمة الجهد والكفاح. مليات تملأ البطن وتغني عن ركوب المخاطر ومغالبة الأيام، وتهبط بالجفون في نعاس لذيق يجعل صاحبه ينظر إلى كل لون من ألوان الكفاح على أنه سخف لا معنى له. مليات قليلة تملأ البطن وتغذي الجسد وتجعل الفقير المعدم شعبان ريان كصاحب الألوف. إنه مخدر لطيف رحيم نافع، يأكله الحصان فيشعر أنه حصان، ويأكله الإنسان فيشعر أنه حمار، وليس في الدنيا أسعد حالاً ولا أقعد عن سعي ولا أغرق في النوم من حمار ملئ البطن بالفول..

أكلا هنيئاً وشرباً مريئاً، ونعس كل منهما لحظات سعيدة، ثم فرك العمدة عينيه وقال:

- إن رأسي يدور.. لا أدري أين أنا؟.. هذه الدنيا التي دخلنا فيها تذكرني بالسيرك الذي يأتي إلى قنا بين الحين والحين، أطفال وبهلوانات، وأنت لا تدري من يضحك على الآخر: هل الطفل هو الذي يضحك على البهلوان، أم البهلوان هو الذي يضحك على الطفل؟.. دنيا من الأنوار والموسيقى والألوان.. ناس تقفز في الهواء، وناس تمشي على الحبال، وفيلة ترقص رقص البطن، ونمور تترقق كالغواني، وكلاب تتكلم، وناس تنبح، ونساء يحملن رجالاً، ورجال يصبغون وجوههم كالنساء ليضحكوا الصبيان.. والصبيان على مقاعدهم لا يفهمون شيئاً بل يضحكون وآباؤهم يدفعون.. هذا ما نحن فيه هنا.. باشا كأنه دمية في فترينة سمعان،

وامرأة تشتري العمد، ومتسول يزعم أنه صحفي، وأحزاب تدعى أنها تصلح ورجالها يستجدون القروش، أغنياء هم أقرب إلى المحتالين، ومعدمون ينامون على الأرصفة، قصور على الجانبين يتمسح بحوائطها نمل يزعم أنه ناس، أولياء ترفض حتى جهنم أن تستضيفهم، وكفار يزعمون أنهم بالكفر يخدمون الله.. دنيا تموج بمن فيها، كل من فيها يجري إلى غير غاية.. أين نحن؟..
فنهض عبد الجليل وقال، وكأنه لم يسمع من كلام العمدة إلا العبارة الأخيرة:

- في القاهرة....
- ثم شرب كوب ماء وقال:
- هيا نذهب إلى الفندق لتستريح قليلاً قبل العشاء..
- أأنت آتياً معي؟..
- لست مدعوّاً.. إنه يريدك أنت..
- لا يمكن أن أذهب وحدي يا عبد الجليل، ماذا أصنع مع هؤلاء الناس؟..
- والله يا عمدة.. الرجل لم يدعني.. كيف أذهب؟..
- قالوا لنا أن نذهب قبل الموعد بساعة.. ألا تذكر ما قاله ناشد أفندي؟.. تعال معي ثم انصرف عندما يقترب وقت الطعام..

كانا في مقر الحزب، في غرفة ناشد أفندي بعد السادسة والنصف بقليل، ولم يجدها في حجرته، وإنما أخذها الخادم إلى قاعة فاخرة واسعة في الدور الأول من القصر الجميل، مسكن صاحب السعادة رفقي باشا.. استقبلهما ناشد أفندي مادًا ذراعيه وهو يضحك ويديه قدح، قال لهما: - اتفضل.. اتفضل يا عمدة.. تعال خذ معنا كأسًا من الويسكي، ليس هنا غريب، هنا نفر من أصدقاء البيت: الشيخ دسوقي والمستر بلية والأستاذ أحمد الخاوي رئيس تحرير جريدة الشعب المصري، والدكتورة بدرية رئيسة اللجنة النسائية.. كلهم أهل حظ.. اتفضل.. اتفضل.. خذ كأس ويسكي..

ووقف العمدة واجمًا يتأمل الناس، بينما مضى ناشد أفندي يقدمه لهم. واستقرت عينه على الشيخ دسوقي ويده كأس الويسكي. وأحس الشيخ أنه ينظر إليه فقال وهو يضحك:

- اتفضل يا شيخ العمدة!.. اتفضل ويانا.. هذا ويسكي وليس خمرًا.. إنني أشربه إذ لم ينزل فيه نص.. يقولون: ما يسكر كثيره فقليله حرام.. وهذا قليله يسكر.. فما حكمه؟.. تعال تعال..

ودخل، ومن خلفه عبد الجليل، وجلسا، ومضى ناشد أفندي يهرج، واقترب الشيخ دسوقي من العمدة وقال:

- هذه أول مرة تدخل دنيا؟..

وضحك الجميع، وقال العمدة:

- ادخل دنيا؟.. كيف؟.. إنني متزوج من اثنتين وعندي تسعة من الأولاد..

- متزوج من اثنتين؟ إذن فقد دخلت الآخرة لا الدنيا.. تعال سل همومك.. هذه الدنيا يا حضرة العمدة لا تساوي خردلة، ونحن لهذا نغرقها في النار.. هذه النار..

وأشار إلى كأسه، وكان الخادم قد أتى العمدة وعبد الجليل بكأسين. ونظر العمدة إلى السائل الذهبي في الكأس التي قدمت له وبدأ الحرج يزايله، بينما كان الشيخ دسوقي يوالي نكاته ودعابته.. لقد خف على نفسه.. إنه إنسان طويل عريض يرسل لحية لطيفة تدور مع وجهه، وكانت ملابسه نظيفة لا تخلو من أناقة، وكان كلامه، رغم كثرة سقطه، مهذباً لا يخلو من فطنة وذكاء..

وقد عرف العمدة بعد ذلك أن المستر بلية مدرس اللغة الإنجليزية في إحدى المدارس الثانوية، وإنه يحب المصريين و«يعطف عليهم» ويعيش معهم.. وكان أول تعارفه بالباشا أن حرمه السيدة «نظرات» هانم كانت تزور حرم المندوب السامي، وكانت تتكلم معها بالفرنسية، فاقترحت عليها أن تتعلم الإنجليزية، وتبرعت باختيار هذا المدرس لها، وقدمته إليها، فلم يلبث أن احتل من نفسها، ومن نفس الباشا تبعاً لذلك، مكاناً طيباً. كان شاباً لطيفاً مؤدباً اسمه ادوارد بايلي، فسماه خدام الباشا وأصدقائه هؤلاء بلية، وكان يتحدث العربية المصرية في طلاقة كأنه أحد

أبناء القاهرة، وقد فطن الباشا إلى أنه يمكنه أن يستخدمه لمعرفة أخبار دار المندوب السامي، وأخذ يقربه ويغريه ويخلطه بنفسه حتى أصبح فردًا من أفراد العائلة. وقد أنست به حرم الباشا أنسا عظيمًا وأصبح صديقها الشخصي، وسر الباشا لهذا سرورًا عظيمًا، واعتبره مهارة من حرمه، وصار يدعها معًا في البيت وفي الطريق، فكان يرافقها إلى حلبة السباق وإلى السينما، وكان أستاذًا في البريدج، وكان لا يخفى عنه سرًا من أسرار زوجها أو أسرار الحزب، وكلما بدا للباشا أن يعترض أسرع فأفضى إليه بـ «سر» مكذوب يسرع به إلى رجال حزبه، زاعمًا أنه من الواصلين إلى المندوب السامي العارفين ببواطن الأمور..

وكان يطيل النظر إلى العمدة، وأحس هذا فبدأ الخرج يستولي عليه، وزاد عندما تقدم منه بلية، وجلس إليه وقال وهو يشير إلى كوب الويسكي: - لا تخف منه، إنه مشروب نظيف، نظيف جدًا.. إنه أخف بكثير من النبيذ والكونياك وما إليهما، إنه مخلوط بالماء.. إنني أنا شخصيًا أفضله، لأنه لا يؤثر على الدماغ، إنه كالسيجارة، كالسيجارة تمامًا.. ثم سكت لحظة وهمس:

- لا بد أن بلدكم بلد عظيم.. سمعت ذلك من كل الناس. قال لي الباشا أن الداخلية تقول أنك عمدة مثالي والأمن عندكم مستتب والفلاحون سعداء، وهم يحبونك..

وسر العمدة بكلامه سرورًا عظيمًا، ولم يجد ما يرد به على هذا الأطراء إلا أن يرفع الكوب ويرشف منه شيئًا. وقد وجد له طعمًا غريبًا ولكنه

ليس كريهاً. وأعجبه طعم الصودا، فشرب مرة أخرى بينما كان بلية يهمس:

- هذه الزيارة.. هل طلبتموها أنتم؟..

- لا والله..

- عجيبة، هل عندكم أرض أوقاف أو أرض أميرية؟..

- عندي من هذه وتلك. أرض الأوقاف قليلة ولكن أرض الميري كثيرة.. نحو 700 فدان في زمام، وفي الزمام المجاور نحو ألف..

- قريبة من النيل؟..

- على شاطئ النيل.. ولكنها لا تغل كثيرًا.. الموظفون ينهبونها..

- ألم تسألك الداخلية عن هذه الأرض؟..

- لا.. إنها تبع تفتيش قنا.. آه.. أذكر الآن أنهم طلبوا إلينا منذ نحو خمسة شهور أن نعين الأرض ونكتب لهم عن حالتها..

- وهل كتبتم؟..

- لا.. لأن مدير التفتيش عندما قلت له ذلك قال إنه سيكتب هو..

فhez بلية رأسه، ثم نظر إلى العمدة وقال:

- اشرب يا عمدة..

وشرب العمدة، ومضى بلية يقول:

- عندكم فيما أظن تفتيش كبير لأحد الأمراء؟..

- ليس عندنا.. إنه بعيد عنا والحمد لله..

- هل هو يضايقكم؟..
- لا نروي أرضنا إلا إذا روى هو.. الفلاحون جميعًا ينتظرون حتى يسقي البرنس أرضه، ثم يسمح لنا المأمور بفتح ترعنا..
- وأرض الميري؟..
- حاول البرنس أن يشتريها، وكاد ذلك يتم له، لولا أن الداخلية أمرت رجاله بتركها فتركوها..
- وأرض الأوقاف؟..
- 200 فدان، وقف سيدي عبد الرحيم، لا تغل شيئًا..
- كم إيرادها؟..
- شيء مضحك.. إيراد الفدان لا يزيد على خمسين قرشًا..
- يا سلام!..
- ألم أقل لك أنها أرض أوقاف؟..
- فهز بلية رأسه متعجبًا، ثم قال:
- ولم تسأل المدير عن سبب هذه الزيارة؟..
- أبدًا.. أبلغتنا المديرية، فأتينا إلى القاهرة لتعرف الأمر،..
- وماذا صنعتكم في القاهرة؟..
- لا شيء.. انضممنا إلى حزب الشعب..
- كنت وفديًا قبل ذلك؟..

- لا.. أنا لا أحب الوفديين. لهم في ناحيتنا رجل لص يسمى «خليل سلامة»، كان عمدة في أيامهم، ثم عزل..
- وهل لهم أنصار كثيرون في بلدكم؟..
- عندما تأتي وزارة الوفد تصبح البلد كلها وفدية.. وعندما تذهب ينسى الناس أنهم وفديون. الناس عندنا مساكين. معظمهم لا يعرف الأحزاب، ومن ينضم إليها منهم يفعل ذلك ليحمي نفسه..
- وهل أنت مؤمن بحزب الشعب المصري؟..
- آهي كلها أحزاب!.. كلها يشبه بعضه بعضًا.. ليس فيها خيار أو فقوس. كلهم يقولون نفس الكلام ويعملون نفس الأعمال. وما يصيب الإنسان من الانضمام إليها إلا الضرر.. ما يكسبه الإنسان في الأيام التي تحكم فيها وزارة حزب يخسره عندما تأتي وزارة الحزب الآخر.. نحن فلاحون في زراعتنا ولا شأن لنا بالسياسة..
- أنت رجل عاقل وذكي، وسياستك أحسن سياسة، ولكن يبدو أن حزب الملك هذا له مستقبل. في النية أن يظل في الحكم عشر سنوات قابلة للتجديد!..
- لا تصدق يا خواجه. الوزارة عندنا كفاكهة الصيف.. سريعة الفساد، إذا لم يقلبها الإنجليز قلبها الملك، وإذا لم يقلبها هذا أو هؤلاء قلبها الناس. وإذا لم يحدث هذا أو ذاك فسدت من تلقاء نفسها كما يفسد البطيخ إذا ترك. يختلف رجالها بعضهم مع بعض أو يسرفون في النهب حتى يصبح من المستحيل بقاؤهم.. وزارة

لعشر سنوات!.. هذا لا يكون إلا في المنام، الوزارات كالعصافير،
إذا حطت لم تلبث أن تشيل. سياسة! تقول لي اشتغل بالسياسة!..
إنها ضياع وقت ومال ومروءة.. وتقول لي وزارة حزب الشعب
المصري!.. من قال لك أن وزارة ما تستطيع البقاء؟.. ولماذا تبقى
عشر سنوات؟ أليس هناك غيرهم يريدون النهب والهبش؟..

- أقول لك أن كل شيء سيتغير.. الإنجليز يريدون ذلك..

- الإنجليز؟ وماذا يريد الإنجليز؟..

- يريدون استقرار الأمور..

- لماذا؟..

- لكي يرتاح الفلاحون ويتخلصوا من السياسيين الطفيليين،
ويصبح خيرهم لهم..

- وحزب الملك يريد هذا؟.. يريد الراحة والخير للفلاحين؟..

- يقولون ذلك..

- من الذين يقولون ذلك؟.. ألم تقل لي أن الإنجليز يريدون ذلك؟..

- طبعاً..

- إذن لماذا لا يفعلونه؟..

- الإنجليز لا دخل لهم في شئونكم الداخلية..

- ألم تقل لي أن الإنجليز يريدون ذلك؟..

- قلت.. أقصد أنهم يريدون ويحاولون إقناع الملك ورجاله..

- كيف يحاولون إقناعهم؟.. من الذي صنعهم؟.. اسمع يا خواجه..
نحن المصريين نعتقد أن الملك والإنجليز واحد. ولو كنتم تريدون
صلاحه لاستطعتم إصلاحه.. ولكن من مصلحتكم أن يظل
هكذا.. وانتم تحبونه وتساعدونه.

ثم سكت نحو دقيقة وعاد يقول:

- على فكرة يا خواجه.. لماذا أنتم في هذا البلد؟.. ما الذي يضطركم
إلى البقاء في بلد كل أهلها يشتمونكم ويطالبونكم بالخروج؟..
- مصلحة البلد..

- أي بلد؟..

- مصر.. لو خرجنا لأكل بعضكم بعضاً..

- وهل نحن لا يأكل بعضنا بعضاً الآن؟..

- إذا خرجنا أكل بعضكم بعضاً أكثر وأكثر؟..

- وما يضيركم في ذلك؟.. ليأكل بعضنا بعضاً فننتهي وتستريحوا
منا..

- كيف تترككم يأكل بعضكم بعضاً، ونحن مسئولون عنكم؟..

- أمام من؟.. من الذي يسألكم عنا؟..

- الضمير العالمي..

- ماذا يكون الضمير العالمي؟..

- أقصد الرأي العام العالمي..

- وما هذا أيضًا؟..
- أقصد الدول .. إيطاليا، ألمانيا، أمريكا..
- هذه الدول تطالبكم بأن ترعوا شؤوننا؟..
- لا.. ولكننا تعهدنا لهم بذلك..
- وهل هم رؤسائكم حتى تتعهدوا لهم؟..
- لا.. ولكننا نحن الأوروبيين اتفقنا على أن نرتقي بالعالم، فأخذ كل منا مجموعة شعوب ليرتقي بها..
- وهل ارتقيتم بنا؟..
- بعض الشيء..
- كيف؟..
- أنشأنا لكم مدارس ومستشفيات.. وطرقاً..
- من مالكم؟.. هل تنفقون على مصر كل سنة كذا مليوناً؟..
- لا.. ولكننا نقدم لكم المدرسين والمهندسين والأطباء..
- دون مقابل؟..
- طبعاً أنتم تدفعون مرتباتهم.
- إذن فنحن نشترى منكم هذا الرقي بهالنا.. نحن نشترى كل شيء، الأشياء والرجال.. ألا يمكن أن نشترى منكم هذه الأشياء وأنتم بعيدون عنا؟.. إننا نشترى من الألمان والفرنسيين والأمريكيين، وهم بعيدون عنا..

- ثم إننا نحميكم..
- من ماذا؟..
- نحميكم من أن يستولي على بلادكم الألمان والإيطاليون مثلاً..
- أليس هؤلاء هم الذين تقول أنكم اتفقتم معهم على أن ترتقوا بنا؟..
- نعم، ولكنهم يريدون أن يكونوا هنا ليقطعوا مواصلاتنا..
- إذن فأنتم هنا لتحموا مواصلاتكم؟..
- .. أيضاً..
- وما هي مواصلاتكم هذه؟..
- أنت تعرف أن لنا مستعمرات..
- ماذا تعني بمستعمرات؟.. لقد سمعت هذه الكلمة كثيراً دون أن أفهمها..
- يعني ممتلكات..
- بيوت وأراض كهذه التي أملكها أنا مثلاً؟..
- لا.. بلاد..
- بلاد بأسرها تملكونها؟.. أليس لها أهل؟..
- لا.. فيها ناس، ولكنهم متأخرون..
- ماذا تعني بمتأخرين؟.. متأخرين عن ماذا؟..

- متأخرون.. يعني.. قصر.. لم يبلغوا بعد من الحضارة ما يمكنهم من العناية بشؤونهم..
- ولأنهم قصر تأخذون أراضيتهم؟.. المروءة والدين يقضيان بالمحافظة على مال اليتيم والقاصر!..
- هذا ما نفعله.. نحافظ على أموال الشعوب القاصرة..
- كيف تحافظون عليها إذا كنتم قد تملكتموها؟..
- إلى أن يبلغوا سن الرشد..
- لا مؤاخذه يا خواجه.. إذا كنت أسأل كثيرًا، ولكنني كما ترى فلاح أريد أن أفهم.. إنني أفهم أن يكون إنسان قاصرًا ولكن كيف يكون شعب قاصرًا؟.. هل كله أطفال؟..
- لا.. فيهم رجال.. ولكن الشعب كله لا يعرف الصناعات ولا المدارس.. ولا وسائل الحياة.
- كيف يمكن أن يكون هناك شعب لا يملك وسائل الحياة؟ ألا يعرفون كيف يأكلون ويشربون؟.. أليست لهم بيوت يعيشون فيها؟..
- لهم.. ولكن كل ما لديهم قديم لا ينفع..
- ألم يكن يكفيهم؟.. ألم يكونوا قانعين به قبل أن يعرفوكم؟..
- لكننا نريد لهم أحسن..

- ولماذا لا يريدون هم؟.. هل طلبوا إليكم أن تستولوا على أرضهم لتأتوا بهذه الأشياء الأحسن؟..

- لم يطلبوا.. قلت لك أننا اتفقنا على ذلك..

- آه.. اتفقتم مع أعدائكم.. تصدق بالله يا خواجة؟ لم أفهم شيئاً..

فضحك الإنجليزي طويلاً وقال:

- ولا أنا.. أشرب الويسكي يا عمدة..

- وهذا أيضاً من الأشياء «الأحسن» التي قررت أن ترقوها الشعوب القاصرة؟..

وكان الشيخ دسوقي يصغي إلى هذه المناقشة من بعيد ويلحظ العمدة من طرف خفي، فلما أحس أن المسألة قد تعقدت أقبل عليهما وهو يضحك بملء فمه الواسع وقال:

- الله!.. ما هذا؟.. هل تحسبون أنفسكم في البرلمان؟.. دع حضرة العمدة يا خواجة.. مالك وماله؟.. إنه رجل طيب من الريف.. هل فتحت معه تحقيقاً؟..

فقال «بلية» وهو يضع يده على ذراع العمدة:

- ابعد أنت يا شيخ دسوقي.. هذا رجل يعجبني.. إنه يفهم كل شيء أحسن منا جميعاً.. أليس كذلك يا عمدة؟..

- العفو يا خواجة.. أنت سيد العارفين.. إنني أريد فقط أن أتور..

فأدار دسوقي مسبحته حول سبابته في الهواء وقال:

- تتنور؟.. كان غيرك أشطر.. وهل الذي يريد أن يتنور يأتي إلى هنا؟.. بين منكر ونكير؟.. الله يفتح عليك.. أتعرف حكاية الديك والغراب؟..

وكان الأستاذ أحمد الحاوي مشغولاً بالحديث مع الدكتورة بدرية زعيمة النهضة النسائية والمصلحة الاجتماعية، فتنبه عندما سمع ذلك وقال:

- ما حكاية الديك والغراب هذه يا شيخ دسوقي؟..

فقال دسوقي وهو يضحك:

- هي حكايتي وحكايتك.. أنا طبعاً الديك..

- ولماذا لا تكون الغراب؟..

- لأن الديك في هذه الحكاية هو المغفل.. أتحب أن تكون الديك؟..

ثم نظر إليه طويلاً وقال:

- لكنك لا تصلح أن تكون ديكاً.. أنت الغراب.. الغراب النوحى..

شعرك نوحى وبذلتك نوحى ونظارتك نوحى..

أنت الغراب تمشي تعرج الناس كلها تضحك منك

ألست شعراً؟.. والله لولا سوء البخت لكنت أمير الشعراء.. اه يا

أستاذ لو تكتب عني كلمتين في عمودك!! ولكنك غراب، لا يجيء منك

خير..

- هكذا يا شيخ دسوقي؟.. هذه هي كلمة الشكر التي أسمعها منك؟..

فأسرع نحوه وقبل صلعته وقال:

- لا والله يا سيد الأساتذة.. أنت سيدنا وتاج رأسنا.. نحن خدمك وطوع بنائك.. أنت الكاتب الرشيق.. أنت الشاب الأنيق.. أنت والله الزعيم.. أتدري؟.. والله لقد رأيت لك منامًا عجيبًا. صليت في مقام سيدي العتر ودعوت لك ونمت.. فرأيتك بالبدلة القصب.. أي والله.. أنا محسوبك.. أنا محسوب الأمراء الذين هم مثلك.. ومحسوب الدكتوراة بدرية..

وكانت «بدرية» شابة في نحو الثامنة والثلاثين من عمرها، مسخت وجهها مسخًا حتى بدت وكأنها طفلة عجوز، أزالَت حاجبيها ورسمت مكانها حاجبين عاليين تحسب أنها بذلك تعود إلى هيئة بنات العشرين، وأسرفت في تنحيف نفسها حتى أصبحت كالبوصة، وتأنقت في ملابسها على هيئة مبالغ فيها، فبدت وكأنها عارضة أزياء تخلفت عن ركب لعارضات، وكانت لا تتحدث مع الأستاذ الحاوي إلا بالفرنسية كأنها لا تعرف العربية، وكان هو يتجاوب معها ويرى في حديثها معه إرضاء للجانب الفرنسي من تربيته كما يقول، فقد كان صاحبنا مصريًا خالصًا في كل شيء وأرادت له المقادير أن يقضي في باريس ردحًا من الزمن، فعاد وكأنه ولد في ذلك البلد. وكان العمدة يتأمل الزعيمة وهو في عجب من أمرها، إذ لم يفهم أولًا كيف تكون امرأة ودكتوراة، ولم يفهم ثانيًا لماذا

تصنع بنفسها ذلك كأنها موكلة بإضحاك الناس من أمرها..

وقال الأستاذ الحاوي يخاطب الشيخ دسوقي:

- لم تقل لنا حكاية الديك والغراب..

- آه.. اسمع يا سيدي، اكتشف الديك يومًا أنه جاهل لا يعلم شيئًا،

ووجد الغراب ذكيًا يفهم كل شيء ويتحدث بالألسن السبعة..

فطلب إليه أن يفتح له ذهنه بعض الشيء، أن يعلمه شيئًا، فقال

له الغراب: وماذا تعطيني؟ قال: ما تريد.. قال: بماذا تريد أن

نبدأ؟.. قال الديك: أريد أن أتعلم الإنجليزية!.. قال الغراب:

الإنجليزية دفعة واحدة؟!.. إنها صعبة جدًا، ولن تتعلمها إلا

إذا تعلمت العربية أولاً.. فقال الديك: العربية أعرفها وها أنا

أتكلم بها!.. فضحك الغراب وقال: أهى لغة عربية هذه التي

تتكلم بها؟.. آنست.. إنك تتكلم بالبلدية.. وهي تكفيك، لأنك

تعيش مع دجاج وفلاحين، وليس فيهم من يتكلم الإنجليزية..

فقال الديك: أريد أن أتكلم مع الديكة الإنجليزية.. فصاح

الغراب: حذار من الديكة الإنجليزية.. سينتفون ريشك ويسرقون

عرفك وتصبح دجاجة.. فقال الديك: إذن ماذا أتعلم؟.. قال:

شيئًا ينفعك.. سأعلمك كيف تبيض!.. فصاح الديك غاضبًا:

أبيض؟.. أنا الديك أبيض؟.. تريد أن يحسبني الناس دجاجة؟..

لا.. لا.. البيض من عمل الدجاج.. أريد شيئًا يليق بالديكة..

قال: حسنًا.. سأعلمك الغناء!.. فصاح الديك: الغناء؟.. تريد أن

تجعلني عصفور كناريا؟.. أنا الديك أصبح عصفورًا؟.. قال: لقد حيرتني.. ماذا تريد أن تتعلم؟.. فوضع الديك طرف جناحه في منقاره وفكر قليلاً ثم قال: أريد أن تعلمني الطيران.. نعم، أريد أن أطيروا وأحلق في الهواء مثلك!.. فقال الغراب: هذا شيء بسيط.. سأعد لك شراباً تشرب منه كل يوم ملعقة، وعندما تبلغ الملاعق ثلاثين ستصعد إلى سطح البيت وتطير!.. ففرح الديك وقال: طيب.. هات الدواء!.. فقال الغراب: وما أجرى؟.. قال: ما تريد.. قال: تعطيني كل يوم بيضة.. إن نساءك كثيرات وهن يضعن كل يوم بيضاً.. فقال الديك: بيضة في اليوم؟.. هذا شيء بسيط.. من غد نبدأ.. ومضت الأيام: في كل يوم يعطي الديك للغراب بيضة ويأخذ منه في مقابلها ملعقة دواء.. ولاحظ صاحب الديك أن البيض ينقص، ومضى يتعجب.. وفي اليوم التاسع والعشرين ذهب الغراب إلى صاحب الديك وقال له: أتدري من الذي يسرق البيض؟.. إنه الديك.. إنه يأكله ليتغذى به ويتقوى على الطيران وأظنه سيطيروا.. راقبه غداً إذا صعد إلى سطح البيت!!.. وراقب الرجل ديكه، فرآه فعلاً يصعد إلى سطح البيت ويقف على حافته، ويقفز فيرفرف ثم يهوى إلى الأرض.. فانكسرت رجله، وقبض عليه الرجل وأخذه ليذبحه.. ورأى الديك الغراب بينما كان الرجل يحمله من قدميه فصاح به: هكذا يا غراب؟.. فقال:

يا أخى تستحق ما جرى لك.. لم يكفك أن تكون ديكًا وأردت أن تكون غرابًا..

ثم سكت دسوقي قليلًا وجلس على الأرض أمام العمدة وقال للأستاذ:

- لتظل كما أنت.. هذا أحسن.. أنت ديك، فماذا تريد أن تتعلم من الغربان؟..

وضحك المستر بلية وقال:

- يا شيخ دسوقي حرام عليك..

فنهض دسوقي وقبل رأس بلية وقال:

- لا والله ما تغضب على يا بلية.. أنت بركتنا وزيتنا.. على فكرة يا عمدة.. هذا الرجل اسمه إنجليزي وقلبه مصري.. إنه يحبنا جدًّا، ويكره الاحتلال والاستعمار، لقد سمعت المناقشة بينك وبينه.. إنه يداعبك فقط، ولكنه يقول للمندوب السامي في وجهه: اخرجوا من مصر.. المصريون إخواننا ويحبوننا.. وقد نشر مقالات من نار ضد الاحتلال في الصحف الإنجليزية، والأستاذ ترجم بعضها.. إنه مستشار الحزب والإنجليز يكرهونه، وقد حاولوا إخراجهم من مصر.. لقد تزوج مصرية ويسكن في حي القلعة، وهو يلبس الجلباب البلدي واللاسة ويشد التعميرة ويجلس في قهوة إمام.. إنه رجل مبروك.. معالي الباشا يحبه.. وحرم معالي الباشا تأخذ منه درسًا..

وانصرف عنهما إلى الأستاذ والدكتورة بدرية، ومال بلية على العمدة وقال له:

- هل قابلتم جلالة الملك؟..
- لا.. ولكننا سنقيد أسماءنا في دفتر التشريفات..
- ولماذا لا تطلب مقابلة الملك؟..
- وهل يقابل الملك أمثالنا؟..
- طبعاً، إنه رجل بسيط جداً.. اطلبوا المقابلة، إنه يحب الفلاحين والعمد..
- كيف أطلب المقابلة؟..
- أسمع.. سأبحث أنا الموضوع.. تعال غداً إلى هنا حوالي العاشرة صباحاً، وسأذهب معك إلى السراي..
- ثم دخل خادم نوبي أنيق وقال:
- معالي الباشا وصل.. يتفضل العمدة والأستاذ والدكتورة والمستر بلية..
- فخرجوا، وبقي الشيخ دسوقي وعبد الجليل ينظر أحدهما إلى الآخر..
- ونظر دسوقي إلى صاحبه وقال:
- نحن الذين وقعنا من قعر القفة.. تعال.. ما للمشايخ إلا المشايخ، إذا لم يكن لديك شيء، صلينا العشاء في جامع السيدة، ثم نذهب لتعشى عند رجل أعرفه.. ونسهر سهرة تعجبك..

دخل العمدة ومن معه غرفة الطعام. كانت غرفة أنيقة الرياش لم ير العمدة في حياته مثلها، تتوسطها مائدة طويلة عريضة عليها مفرش أبيض مشغول كأنه حرير خالص، رصت عليه أطباق مذهبة وأكواب وكؤوس من البلور، وفي ناحية منها «بوفيه» جميل عليه رخام أحمر بعروق بيضاء، وفوقه مرآة عريضة، وعلى الحوائط لوحات جميلة، والنوافذ مزينة بستر غاية في الحسن والجمال..

ثم دخلت الهانم.. خيل للعمدة أنها قطعة كبيرة من القشدة مدثرة بحرير أزرق يأخذ بالأبصار، كان الثوب يضم جسدها المنبسطة بعض الشيء ضمًا شديدًا حتى تبدو تفاصيله، وكانت فتحة الصدر واسعة والذراعان عاريتين، ووقف العمدة ذاهلاً، لم ير في حياته مثل هذا المزاج من القشدة والألوان. وكانت السيدة مرحة تضحك باستمرار، كانت تداعب العمدة والمستربلية والأستاذ، أما معالي الباشا فقد جلس وقورًا يحاول أن يتصنع الرزانة. كان أنيقاً على عادته، كل شيء في كيانه الصغير مهياً بحساب. وكان يبدو أنه معجب بحرمة المصون. فهو يدع لها كل شيء، ويجلس صامتاً منصرفاً إلى الطعام..

وكان الطعام في نظر العمدة سحرًا خالصًا، وإن كان قد عانى من الشوكة والسكين كثيرًا. ولكن الفطائر كانت تذوب في الفم، ولحم الديكة يتضوع مسكًا، والأرز خليط من العنبر والجوز واللوز. وكان الخدم يمرون في رفق وخفة، ويخدمون في أدب، ثم صبوا في كؤوس طويلة الأعناق واسعة الأفواه سائلًا ذهبيًا يعلوه زبد، وقالت الهانم:

- هذه شمبانيا يا عمدة.. إنها لطيفة جدًا، سنشربها في صحتك..

ثم تناولت كأسها وقالت:

- في صحة العمدة..

وشربوا وشرب العمدة، وانحدر السائل الذهبي في حلقة فأحس له بطعم غريب فيه ملح وليمون.. حسبها مشروبًا خاصًا بالحكام والناس العظام.. ثم أحس بها تشعشع في رأسه، فلم يلق بالآ.. وأحب أن يصب منها قدرًا آخر، ومروا مرة أخرى فشرب، وثالثة فشرب، وأحس خفة في دماغه وبهجة في روحه، وكانت الهانم إلى جانبه، يطل على صدرها ويشم لها عطرًا نفاذًا جميلًا، ودار رأسه.

ثم قاموا فقام، وأحس أنه غير متوازن ولكنه تماسك، ودخلوا إلى غرفة لطيفة فيها مائدة خضراء صغيرة، وجلست الهانم ودعت العمدة إلى الجلوس بجانبها، وجلس الأستاذ والمستر بلية، وجلس الباشا في ركن على مقعد وثير إلى جانبه مصباح ليقرا الصحف، وجلست إلى جانبه الدكتورة بدرية، ثم لم تلبث أن استأذنت وانصرفت.. وقالت الهانم:

- سنلعب كوتشينة.. لعبة بسيطة يا حضرة العمدة.. ستحبها جدًا، سأعلمك.. افعل مثلي..

فقال الأستاذ، وكان جالسًا أمام العمدة:

- البريدج بسيط.. بسيط جدًا.. أنا دائمًا أكسب فيه..

فقلت الهانم:

- اسمع يا أستاذ.. كن رفيقاً بنا هذه المرة.. إن شريكك العمدة.. وهو ليس في حاجة إلى نقود..

وفهم العمدة أن في المسألة خفوقاً، ولكن ذهنه كان مشتتاً، وكان رأسه يدور، ثم زادوا فوضعوا أكواب الويسكي، وأخذوا يشربون ويلعبون، والعمدة لا يفهم شيئاً.. الهانم تقول له أفعل كذا فيفعل.. ومن الغريب أنه كسب.. كسب جنيهين في دقائق.. فشعر بفرح عظيم، ثم كسب مرة أخرى، وقالت الهانم:

- وبعدين يا عمدة؟.. تريد أن «تفلسنا» هذه الليلة؟..

فقال الأستاذ:

- اللعب لعب.. دي مسألة رياضة، والعمدة وجهه خير على.. ألعب يا عمدة.. إن وجهك فل..

ومضى العمدة يلعب.. وكسب مرتين آخرين، وزاد طرباً.. ثم بدأت الدفة تنقلب.. وأخذ يخسر.. وتعبت يده من إخراج المحفظة وإدخالها.. وتأخر الليل، ولم يدر كم خسر.. ولكن الهانم عرفت أنه خسر مائة وخمسة وثمانين جنيهاً، وكانت تخالس المستر بلية النظر ثم تبتسم، وتميل على العمدة ميلاً شديداً، وصاحبنا في دوار من منظر صدرها وذراعيها وعطرها وبخار الويسكي الذي ملأ دماغه..

وانتهى اللعب، وهبطوا السلم وهو لا يدري أصاعد هو أم هابط، وأوصله المستر بلية إلى فندقه بسيارته الصغيرة، وقال له وهو يودعه:

- لا تنس.. إنني منتظرك في بيت الباشا غدًا حوالي العاشرة..
ودخل العمدة حجرته، وأقفل بابها وارتمى على فراشه ونام كما هو..

صحا العمدة بصداع شديد، وتأمل هيئته التي نام بها تعجب، ثم نهض يعدل ثيابه، واتجه نحو الحوض ليشرب شيئًا من الماء، ونظر في المرأة، فريع مما رأى.. كان شعره أشعث ووجهه أغبر وقد ارتسمت فيه خطوط، وخيل إليه أن وجهه منتفخ بعض الشيء، ثم عاد فجلس على حافة السرير ورفع رجلًا وثناها إلى جانبه، وأخرج حافظة نقوده وعد ما فيها وأحس برعدة تسري في جسده، فقد كان الناقص - على حسابه - نحو مائتي جنيه. كاد قلبه يقف. ماذا صنع به أولئك الناس؟.. لم يتعود أن يأخذ منه أحد شيئًا بهذه السهولة. كان لا يدفع القرش إلا بمعركة. تاريخ حياته إلى الآن أخذ كله، ليس فيه عطاء أبدًا. ما الذي جرى له منذ وصل إلى القاهرة؟ أحس بهزيمة شديدة، وبأنه ينحدر على مائل وسيظل يتدحرج حتى يصل إلى القاع. أحس بخوف شديد. كل ما في القاهرة يسرقه وينهبه. شعر أنه طفل صغير في حاجة إلى من يحميه. تاقت نفسه إلى القرية، إلى حصنه المنيع ليحتمي بأهله وعصبيته. تأكد الساعة أن مثله لا ينبغي أن يخرج من قريته أبدًا.. أنه كالسمكة التي لا تعيش إلا في مائها. ثم ذكر عبد الجليل، فتلفت حوله كالباحث عنه. أحس أنه في حاجة إلى حمايته. هؤلاء الناس أبعدوه عنه ليسرقوه. أين عبد الجليل؟..

ولم يطل انتظاره، فقد سمع وقع خطوات ثم نقرأ على الباب، وسمع صوت عبد الجليل يستأذن في الدخول، ودخل.. ونظر إليه العمدة كطفل وجد أمه وقال:

- اسمع يا عبد الجليل.. نريد أن نعود إلى القرية. طال غيابنا..
- أي والله يا حضرة العمدة.. أطلنا الغيبة وأدينا ما علينا. عرفنا الآن أن الملك آت عندنا ما في ذلك شك. خرجت بالأمس مع الشيخ دسوقي، وصلينا في السيدة زينب، ثم تعشنا وسهرنا عند رجل من أصحابه يسمى «الشيخ مبروك». إنه شيخ طريقة، عندهم الليلة ذكر وفتة.. إذا بقينا في القاهرة نذهب إليه، إنهم ناس طيبون جدًا..

- وماذا قال لك هذا الشيخ مبروك؟..
- قال كلامًا كثيرًا.. إنه رجل طيب يحبنا. قال لي إننا ينبغي أن نحترس من أولئك الناس..
- بعد خراب البصرة!..
- لماذا؟.. ماذا حدث؟!..
- لا شيء.. ولكننا لسنا مثلهم، ولا عيش لنا معهم.. نريد أن نهرب منهم.. إذا استطعنا أن نسافر الليلة سافرنا..
ثم أخرج ساعته ونظر فيها وقال:

- وهذا المستر بلية أين هو؟.. آه.. لقد ذكرت.. كان ينبغي أن أذهب للقاءه في بيت الباشا لنذهب إلى السراي. لن أذهب. لن أضع قدمي في هذا البيت.. إذا دخلته مرة أخرى فلن أخرج بهدومي.

كل العز الذي هم فيه من أموال الناس. عندهم طاحونة خضراء
تعصر الإنسان إلى آخر قطرة..

- وهل رأيت الهانم؟..

فابتسم العمدة وقال:

- رأيتها يا عبد الجليل يا ولدي.. لم أر في حياتي شيئاً كهذا. الماس،
بلور، قشدة.. بلور في حرير.. لو رأيتها يا عبد الجليل لطار عقلك
من دماغك.. هذه المرأة في حاجة إلى رجل يا عبد الجليل.. إن
زوجها لا يملأ عيني قطرة.. رجل هايف كخيال المائة.. بوصة
ولابسة عروسة.. يجلس على كرسي ويتفرج عليها كالأطرش في
الزفة.. آه يا عبد الجليل، صحيح يعطي الحلق للذي بلا آذان..
ليس في مصر غيرها.. هي العاصمة..

- ألم تقل لك شيئاً؟..

- كانت إلى جانبي يا عبد الجليل وذراعها البلوري في ذراعي.. لقد
سكرت بغير خمر وبخمر أيضاً.. طول الوقت تنظر إلى كأنها لم تر
رجلاً في حياتها أبداً..

- أمال يا عمدة.. إنك تملأ عين الجمل..

- يا سلام يا عبد الجليل.. لو «فردة» كهذه في عموديتنا.. لكن يا
خسارة.. ليس عندنا إلا سحال وقطط عمياء..

- إذن لماذا لا نبقى أياماً؟.. لعل وعسى..

ابتسم ابتسامة مأكرة، فقال العمدة:

- يا ليت يا عبد الجليل.. لكن هذه ماس، والماس غال علينا، الجلسة إلى جنبها تكلف الإنسان عرق جبينه سنة.. وتستحق.. لو أضمن شيئاً أبقي.. ولكني لا أضمن شيئاً.. حوالها زبانية جهنم.. كأنها عبلّة تريد عنترًا والسيف في يده ليقطع الرقاب ويفوز بها في النهاية.. وصوتها يا عبد الجليل.. تقول موسيقى، جرس فضة، مزمار بلدي.. وشعرها.. ذهب، سبايك ذهب.. الله يخرب بيت جوزها.. بهيم نايم على سرير حرير.. حرير يا عبد الجليل..

وسمعاً دقاً على الباب، ثم دخل الخادم وقال:

- هنا خواجه يسمى المستر باليلي يسأل عن حضرة العمدة..
وخرج، وهب العمدة واقفاً وقال:

- إنه المستر بلية.. ها هو قد أتى، ترى ماذا يريد هذا الرجل؟..

- لعله يريد أن يذهب بك إلى السراي..

- أي سراي؟.. ولماذا يهمله الأمر إلى هذا الحد؟.. ما الذي يجعله يأتي إلى هنا؟..

- ألم يقل لك الشيخ دسوقي إنه رجل طيب؟..

- طيب أو غير طيب.. ماذا يريد؟..

- على أي الأحوال ننزل ونقابله ثم نرى..

ونزلاً. وجداه يتحدث مع «السنيرة» الجالسة إلى جانب الخزنة.

كانت تضحك معه وتحاول أن تكلمه بالإنجليزية للمرة الأولى ابتسمت للعمدة عندما علمت أن له صديقًا إنجليزيًا، استقبل العمدة ضاحكًا وهو يقول:

- ماذا جرى يا عمدة؟.. أدركت أن النوم لا بد أن يكون قد أخذك..
أسرع، إنهم ينتظروننا في السراي..
فهمس العمدة:

- يا خبر أسود.. سنقابل الملك؟.. لا، ولكن صديقًا لي هناك..
رجل من التشريفاتية.. تعال، ربما سمعنا منه شيئًا..

وركبوا في السيارة الصغيرة ومضت بهم إلى السراي، ودخلوا قصر عابدين من باب التشريفات، وساروا في دهليز طويل مفروش بالأبسطة الحمراء. لم ير العمدة شيئًا، فقد كان في شغل بتخمين ما سيحدث، وكان قلبه غير مطمئن. أما عبد الجليل فجعل يتأمل هذا المزاج من الرخام والذهب والأرجوان وهو مذهول.. ثم دخلوا حجرة استقبال صغيرة كل ما فيها من القטיפات الحمراء: الأرض والكراسي والحوائط، ثم أقبل رجل أنيق يلبس بذلة رمادية طويلة الذيل، وسلم على المستر بلية بحرارة، وصافح العمدة وعبد الجليل، ورفع ذيل جاكته وجلس يتحدث إلى بلية بالإنجليزية. وتذكر العمدة حكاية الديك الذي كان يريد أن يتعلم الإنجليزية وشعر أنه كان على حق، ففي عالم خيوطه كلها بيد الإنجليز لا يستغني الإنسان عن لسانهم ليعرف كيف يجذب الخيوط، ثم التفت بلية إلى العمدة وقال:

- يبدو أن الملك سيزور بلدكم يا عمدة.. سعادة اليك يقول إنه سمع شيئاً..

- ماذا سمع؟..

- أنت تعرف أن رجال السراي لا يتكلمون. المهم أنه يقول أنك ينبغي أن تستعد.. جلالة الملك رجل صموت، يحتفظ بتفاصيل الرحلة لنفسه.. لن يعلن عنها إلا قبلها بيوم، إنه يريد مفاجأة سارة لشعب.. المهم أن تستعد..

- والموعد.. ألا نعلم ولو فكرة تقريبية عن الموعد؟..
فقال سعادة اليك:

- هذا شيء متوقف على إرادة مولانا.. على أي الأحوال ستبدأ زيارة الصعيد يوم 11 يناير.. يعني لابد أن تستعدوا من الآن..

- طيب.. عندنا شهر.. هل يكفي شهر؟..

- يكفي.. إذا بدأتم من الآن..

- وماذا نعمل؟.. كيف نستعد؟..

- يعني.. تنظفون البلد وتضعون نظاماً لهذا اليوم بالذات، وتلبسون الغفر ملابس جديدة، وتحفظون الأولاد نشيد الملك..

- كيف تفعل ذلك؟..

- قل للمدير يستدعي مدرس أناشيد.. لا تنسوا أن تزينوا البلد بالأعلام.... إن مولانا وطني جداً..

- يا سعادة البك.. إننا قوم فلاحون ولا نعرف كيف نفعل مع الملوك.. هل نسلم على مولانا باليد؟..

- على أي الأحوال سيأتي رجل من رجال التشريفات قبل وصول جلالة مولانا بيوم ليعطيكم التعليلات.. ثم المدير.. ستكون لديه التعليلات.. من مديركم؟..

- سعادة رشدي باشا درة..

- آه.. إنه رجل لا بأس به.. سنعطيه التعليلات عندما نتأكد من الزيارة والموعد.

ثم عاد بلية يتحدث مع التشريفاتي بالإنجليزية، ثم نهضوا وسلموا على البك وخرجوا. ومروا في طريقهم بالغرفة التي فيها دفتر التشريفات. ودخلوا، فوجدوا رجلاً جالساً على مكتب مهمته النظر إلى الدفتر، كأنه كاهن في معبد بوذي، سلموا عليه وقصوا عليه الخبر، فقادهم إلى منضدة يرتفع فوقها حامل عليه دفتر عظيم مفتوح. تصور عبد الجليل أن اللوح المحفوظ لا بد أن يكون هكذا. تناول العمدة القلم ويبحث عن الخبر، فقالوا له أنه يكتب دون دواة.. وأشار الرجل إلى موضع الإمضاء، فكتب العمدة اسمه بخط أعرج، ثم أملاه الرجل ما يكتبه في خانة سبب الزيارة، فلم يعرف كيف يكتب، فتناول عبد الجليل القلم وكتب والرجل يملئ: «عبد مولانا وخادمه عمدة كفر سهيل مركز قوص، يرفع إلى الأعتاب الملكية السامية آيات الطاعة والشكر والولاء».

وفعل مثل ذلك عبد الجليل، فكتب اسمه، وأمامه «مدرس يقبل الأعتاب الملكية الطاهرة»، ووقع المستر بلية أيضاً بالإنجليزية.. خرجوا..

وقال «بلية»:

- إلى أين؟..

- إلى الفندق..

- أما تشرب فنجان قهوة؟..

ومضوا إلى مقهي في ميدان الأزهار، وانتحوا جانبًا، وأتت القهوة،
وقال بلية:

- إن جلالة الملك عجيب.. إنه صموت جدًّا..

فقال عبد الجليل:

- إنه يعمل بالحديث الشريف..

فقال بلية:

- استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتان..

وبهت العمدة وقال:

- وتعرف الأحاديث أيضًا؟..

- طبعًا.. إن قلبي مسلم.. سأعلن إسلامي قريبًا.. إنني أحب

الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم..

ثم قال:

- اسمع يا عمدة.. هل المدير هو الذي بلغك هذا الخبر بنفسه؟..

- لا.. المأمور.. إشارة تليفونية رسمية مثبتة في دفتر الإشارات..

- على أي الأحوال، استعينوا أنتم أيضًا بالكتان.. كل عمد المديرية

- سيحاولون إفساد الزيارة.. خذ عنواني، ها هو، اكتب لي بانتظام
عن كل شيء.. اكتب لي بكل خبر. أنت تعرف أنني صديقكم.. ربما
أتيت إلى بلدكم قبل الزيارة بأيام لكي أساعدكم..
- الله يخليك يا خوجة.. صحيح إن قلبك مسلم..
- عندكم في البلد وفديون؟..
- الأشرار فقط وفديون، شيخهم يسمى خليل سلامة، إنه مجرم
كبير..
- أليست هناك طريقة لإبعاده عن البلد أثناء الزيارة؟..
- ليس هناك إلا السجن..
- لا لزوم للسجن..
- ليس هناك إلا هذا.. الأشرار في بلدنا كالضباع.. إما أن تقتلها أو
تضعها في القفص.. اسمع يا خوجة بلية، ما دمت رجلاً طيباً ألا
تساعدنا في الحصول على كم بندقية؟..
فضحك بلية وقال:
- كل شيء إلا الرصاص يا عمدة.. إن أيدي الناس عندكم تجري
على الزناد بسهولة.. لا يمكن أن يرى أحدهم زناد بندقية دون
أن يحركه. إنها تسلية ريفية غالية الثمن، الرصاص الواحدة
تستتبع عشرين، ويتردد صداها في الأجيال.. استعن بكل شيء إلا
الرصاص..

- إنني في حاجة إليها للمحافظة على الأمن..
- والمديرية لا تعطيكم؟..
- تعطينا نبايت تسميها بنادق.
- النبايت كفاية.. إنها تقتل كالرصاصة.. ولكني أعطيك عنوان رجل في القاهرة يستطيع أن يبيعكم بنادق طيبة، إنه أرمني يسمي ملكيان.. في شارع المناخ أمام محل جروبي..
- فقال العمدة لعبد الجليل:
- اكتب اسمه وعنوانه يا عبد الجليل..
- وقال بلية للعمدة:
- ألن تأتي إلى بيت الباشا الليلة؟.. هناك سهرة لطيفة..
- إنني مسافر الليلة.. سأعود بعد أيام..
- وودعهما الرجل وانصرف، ولبثا واجمين، ثم قال العمدة:
- نسافر الليلة يا عبد الجليل.. عملنا ما علينا، أماننا شهر، نريد أن نسافر بالليل لندخل البلد بالنهار.. أنت تعرف أن الليل عندنا غير مأمون..
- صحيح الليل غير مأمون.. لكننا نريد أن نصل خفية.. لو دخلنا بالنهار لعرف الناس أننا سافرنا.. والمسألة إلى الآن سر..
- سر؟.. بعد أن كتبت الصحف وامتلاأت البلد؟.. نسافر الليلة وندخل البلد ساعة الظهر..

- أمرك يا عمدة..

- هيا نهيم أنفسنا ونشتري بضعة أشياء.. نريد أن نشترى ثوب جوخ و ثوب شاهي، نريد ملابس جديد لي ولأخوتي.. هيا..

ومضيا إلى السكة الجديدة، فاشتريا ما أرادا، وعادا إلى الفندق محملين، ودفعا الحساب، وأوى كل منهما إلى حجرتة يعد متاعه، واتفقا على مبارحة الفندق في الساعة السادسة ليأخذا قطار الصعيد..

وفرغ عبد الجليل من إعداد أشياءه دون مشقة، ثم جلس على السرير في غرفته. ثم دق الباب، وإذا بالشيخ دسوقي يدخل متهللاً يقول:

- أين أنت يا شيخ عبد الجليل؟.. إنني أبحث عنك طول النهار.. لقد أحبك الشيخ مبروك ودعا لك، وهو ينتظرك الليلة. حدثته عن مشروع المدرسة الابتدائية التي تريد أن تنشئها فكلم لك عبد السلام بك وهو من كبار رجال الوزارة، فوعد بإعطائه إعانة.. قلت له إنك تريد أن يفتتحها جلالة الملك أثناء الزيارة. اتفقا على أن تسميها مدرسة التاج، وأعطيته الطلب الذي أعطيتني إياه. سر سرورًا عظيمًا من الفكرة، وعرض الأمر اليوم على الوزير فوافق على أن يعطيك إعانة، لا أعرف مبلغها، ولكنها لن تقل عن 300 أو 400 جنيه.. شيء عظيم. كل ذلك ببركة شيخنا الشيخ مبروك.. سيرسلون الأمر إلى المديرية، وستبعت المديرية مفتشًا يعاين المدرسة ويشير عليك بما تعمله.. لقد حفيت اليوم بين المكاتب..

- وطار عقل عبد الجليل وهو يسمع هذا الكلام. لم يصدق منه حرفاً، فليس من المعقول أن يتم ذلك كله في ضحوة نهار، ونظار المدارس يحفون أعواماً ليحصلوا على إعانة، وأحس الشيخ دسوقي أنه لا يصدق فقال:
- شوف يا عبد الجليل.. اسم الملك في الموضوع كأنه كلمة سحرية. ما تقول لهم اسم الملك حتى يفتحوا الخزائن ويعطوك وكذلك بركة سيدنا الشيخ مبروك.. لابد أن تشكره الليلة..
- والله لا أدري ماذا أعمل يا شيخ دسوقي.. العمدة يريد أن يسافر الليلة.. أتتنا أخبار سيئة من البلد..
- فليسافر العمدة..
- لابد أن أسافر معه.. أنت تعرف أنه لا يستطيع التحرك وحده..
- وبعدين؟.. ماذا نفعل؟..
- سأعود إلى القاهرة بعد عشرة أيام.. سأعود لأقبل يده وأخذ العهد عليه.. إنه شيخ مبروك حقاً.
- ألا تستطيع أن تنتظر إلى الغد؟..
- لا أستطيع.. أنا تبع العمدة..
- حسناً.. هذه الإعانة لنا فيها نصيب.. لابد من هدية عظيمة للشيخ مبروك.. هدية بجنيهاً، ومثلها لعبد السلام بك.. إنها شيء عظيم لم تكن تحلم به..
- لك على يا شيخ دسوقي أن تحققت أن أقدم للشيخ هدية لا تقل قيمتها عن عشرين جنيهاً وكذلك لعبد السلام بك، إنه رجل صالح وقد خدمنا..

- والعبد لله؟..
- أي والله.. وأنت أيضًا يا شيخ دسوقي..
- اسمع يا عبد الجليل.. إذا وصلت تعطيني خمسين جنيهاً وأنا أوزع..
- إذا كانت 400 جنية حقيقة..
- لا تخف.. عبد السلام بك رجل طيب ولكنه يعجبك.. لن تصرف الإعانة إلا إذا أخذت منك المبلغ.. أحلف على مصحف الشيخ مبروك..
- وأخرج من جيبه مصحفاً صغيراً وقال:
- هذا مصحف الشيخ.. إنه مفتاح الأسرار.. ببركته يتم كل شيء..
- أحلف..
- ووضع عبد الجليل يده على المصحف وأقسم أن يعطي الشيخ دسوقي خمسين جنيهاً عندما يتسلم الإعانة..
- وقال الشيخ دسوقي:
- أتعرف ما يصيبك إذا حثت بهذا اليمين؟ العمى.. تعمى وتسير بعكاز.. ها أنا قد أنذرتك..
- ثم ودعه وانصرف..

موكب العمدة

كان العمدة وعبد الجليل غارقين في التفكير عندما اقترب القطار من محطة قنا.. كان كل منهما يغني على ليله. العمدة مستسلم لعرائس الأحلام تداعبه بالآمال فيما يصير إليه بعد أن وفق هذا التوفيق. كان يفكر فيما سيعمل في القرية عندما يعود. لقد بارحها مجرد عمدة وعاد إليها عضواً في الحزب الحاكم، وقد قابل الحكام والناس العظام ودخل السراي وأثبت اسمه في لوحها المحفوظ. غادرها وهو يحسب أن الناس تسخر منه، وعاد إليها وهو يسخر من الناس..

أما عبد الجليل فكان يحلم بمدرسته التي سيفتحها بإعانة الوزارة، وبلقب الناظر الذي سيكتبه على لافتة نحاسية على باب حجرة فاخرة مطهمة فيها مكتب عليه تليفون وفيه كراسي جلدية وثير وعلى أرضه سجادة، وكان يتخيل يوم مجيء الملك لزيارة المدرسة وماذا سيلقي بين يده، شعراً أو نثراً.. بل كان مطلع قصيدة الاستقبال قد بدأ يرسم في ذهنه: «أهلاً وسهلاً بالملك المجد»، وأبى شيطان الشعر أن يكمل المطلع، ففتح عينيه، ورأى وجه العمدة وعليه ابتسامة الظفر، وأحس نحوه بحقد عظيم، فقد أنكر هذا الرجل فضله كله، وغدا ينسب الفضل كله لنفسه وذكائه وقدرته، ونسى أن عبد الجليل هو الذي عرفه بالحزب

ونشر الخبر في الصحف وأقام القيامة، وغنى لو نهض فصفع هذا الوجه المتضخم صفة تطير عينيه. ولكن العمدة لم يكذب ينظر إليه حتى ابتسم وعادت ملامح الذلة والخضوع فارتسمت على وجهه، وقال له العمدة:
- مالك مبلم هكذا؟.. وقف القطار ولم تنهض بعد.. أسرع بإنزال الحقائق حتى نخرج من المحطة قبل أن يرانا أحد..

وبينما كان عبد الجليل ينزل الحقيقتين كان العمدة يمسح عرقه. كانا قد اتفقا على أن ينزلا في محطة قنا، ومن هناك يأخذان سيارة تسرع بهما إلى البلد دون أن يدري بهما أحد..

ونزلا من القطار، وأعطينا الحقيقتين لرجل من المتسكعين على رصيف المحطة ليحملهما إلى الخارج، ولم يكاد يسيران خطوات حتى سمعا صوتاً يهتف:

- شيخ عبد الجليل.. شيخ عبد الجليل..

ونظرًا.. كان شرارة.. كان قد نزل من الدرجة الثالثة وزحف يحمل أثقاله من الأقمشة حتى أدركهما، وجعل يقول بصوته المعدني المزعج:
- أهلاً وسهلاً سيد العمدة.. أهلاً سهلاً.. نورت البلد والله.. الدنيا كلها تسأل عنك والجرائد تكتب ليل نهار.. الأهرام.. والمقطم والبلاغ.. وسعادة المدير يسأل عنك.. لا بد أن تقابله.. كنت عنده في المكتب في مسألة أصواف فسمعتة يقول في التليفون: هاتوالي أبو الشوارب بك من تحت الأرض.. قلت له إنني قابلتك في الطريق

إلى القاهرة، فأمرني أن أبلغك ضرورة مقابلتك له في المديرية.. أنت تعرف أنني محسوب أولئك الباشوات جميعاً.. كلهم عملائي.. مبروك يا حضرة العمدة، بإذن الله منصور.. منصور والله!..

وتجمع بعض الناس، وشعر العمدة بالخرج، ولم يتخلص من هذا الطفيل إلا بشق النفس. وخرج ومن خلفه عبد الجليل، وأخذاً عربة يجرها حصان لا يمكن أن يتصور الإنسان حيواناً أشد هزاً منه. وسارت بهما العربة تقطع المسافة القصيرة بين المحطة والمديرية. وخيل لعبد الجليل أن وجه العمدة يصفر شيئاً فشيئاً، ولونه يشحب وهو في طريقه لمقابلة المدير كأنه مقبل على حساب الملكين، ثم نظر إلى عبد الجليل وقال:

- خير إن شاء الله.. ترى ماذا يريد منا؟..

- خير بإذن الله يا حضرة العمدة.. لا بد أن الأخبار قد وصلته وقرأ الجرائد.. وعرف أنك قابلت الوزراء والأمراء..

- والله إني لحائف يا عبد الجليل، ولا يدري العمدة منا ماذا يريد المديرين منه..

- لا تحف يا حضرة العمدة.. أنت الآن ظهر كقوي.. قابله وكلمه بكل شجاعة ولا تحش شيئاً، تأكد يا عمدة أنه الآن يحسب لك ألف حساب..

- ها هو الذي أخشاه.. لا أريد أن يحسب لي حساباً.. نرى هل ساءه أنني لم أستاذنه قبل السفر؟..

- لا أظن.. ثم إنك ذهبت إلى أسياده.. ماذا تخشى؟.. سأنتظرك بهذه الأشياء في إحدى غرف مبنى المديرية بالدور الأول، وتصعد حضرتك وقابله..
فصرخ العمدة قائلاً:

- ماذا؟.. أتركني أقابله وحدي؟.. والله ما أقابله إلا وأنت معي..
- يا حضرة العمدة أخشى أن يطردني.. هذا مدير وأنا رجل لا حيية لي..

- حقيقة لا حيية لك.. ولكن لتكن معي.. لنذع هذه الأشياء عند عبد الجواد أفندي الكاتب، فهو رجل صاحبنا، ثم نصعد للمدير سوياً..

- كما تريد حضرتك..

ووصلا، وتركوا الأشياء عند صاحبهما عبد الجواد أفندي، ثم صعدا، ودخلا عند سكرتير المدير، فلم يكذب يعلنان إليه بمجيء العمدة حتى أذن له بالدخول.. ودخل العمدة على المدير وقد جمع كل ما في كيانه من شجاعة هاربة.. وألقى عليه التحية، فإذا بالمدير ينهض ويصافحه وهو يقول:

- أين أنت يا حاج أبو الشوارب؟.. أين أنت؟ سألت عنك في بلدك فقيل لي أنك في القاهرة، واتصلت بوزارة الداخلية، فلم يستدلوا على مكانك، ثم اتصل بي رفيقي باشا سكرتير عام حزب الشعب يوصيني بك، واتصلت بي الداخلية تقول أن السراي اتصلت بها..
ما الحكاية؟..

- حكاية زيارة مولانا..
- مالها زيارة مولانا؟..
- يعني.. أردنا أن نعرف الحقيقة.. ونتصل بالمسؤولين لنعرف ما
ينبغي عمله ..
- وبمن اتصلتم؟..
- اتصلنا برفقي باشا وبالسراي..
- فنهض المدير من مكانه متزعجاً بعض الشيء وقال:
- بالسراي؟.. اتصلتم بالسراي؟..
- والله اتصلنا.. وقابلنا أحد كبار رجال القصر فقال لنا أن المسألة
صحيحة، وأنهم سيرسلون التعليقات إلى المديرية..
- بمن اتصلتم في السراي؟..
- والله قابلنا شاباً لطيفاً ربع القوام أحمر الوجه له شارب أصفر
صغير.. لا نذكر اسمه..
- آه.. هذا صديقي «سامح بك حب الرمان»..
- أظن ذلك..
- إنه مقرب جداً.. وأظن أنه يعرف كل شيء، وماذا قال لكم؟..
- طلب إلينا الاستعداد. قال إنه سمع شيئاً عن اعتزام جلالة الملك
زيارة قريتنا، ولكن جلالة الملك محتفظ بتفاصيل الزيارة ولن
يذيعها إلا قبيل بدئها في 11 يناير..

- أرى أن لديكم معلومات دقيقة جدًا.. يبدو أنكم عرفتم كيف تتصرفون في القاهرة..
- والله يا سعادة المدير لقد شقينا في هذه القاهرة شقاء لا يمكن تصويره، نزلنا في بحر لا ساحل له، ولكن الله كان معنا وفتح لنا قلوب أولئك الناس. وقد أثنوا جميعًا على سعادتك أطيب الثناء..
- إذن.. فقد تحدثتم عني؟..
- والله يا سعادة المدير لا تتصور مكانتك عندهم.. يقولون هكذا المديرين وإلا فلا..
- من؟.. من قال ذلك؟..
- رفيقي باشا ورماني بك..
- رمان بك؟.. آه.. تقصد حب الرمان؟.. هذا جدع ابن حلال. يا سلام! إنه رجل الغد.. رئيس وزراء المستقبل.. إنه حبيبي وابن حبيبي..
- أنعم وأكرم يا سعادة الباشا.. لقد طالت رقبتنا وشددنا ظهرنا بكم وعدنا لكم بالبشرى الطيبة..
- والله عفارم عليكم.. لقد عرفت كيف تتصرف يا عمدة وأعجبني..
- العفو يا سعادة الباشا المدير.. كلنا خدامون ورقبتنا فداؤك، ونريد بإذن الله أن تكون هذه الزيارة فاتحة خير على سعادتكم وعلينا..
- بإذن الله يا عمدة..

ثم تلفت حوله وقال:

- كيف؟.. ألم تأخذ قهوة إلى الآن؟..

ودق الجرس، وأمر بالقهوة، ثم مضى يتحدث إلى العمدة حديث الصديق الأنيس، والعمدة في دهشة من أمره، فإن هذا الرجل لم يكن يستقبله إلا عابثًا، ولم يصادفه مرة إلا جالسًا، بل لم يتنازل بالحديث معه بالتليفون مرة واحدة: كان يصدر أوامره إلى الحكمدار، والحكمدار إلى المأمير فالمعاونين، فضباط النقط.. وهؤلاء هم الذين يبلغون العمدة.. ولا بد أن انقلابًا خطيرًا في أحوال الدنيا قد حدث، حتى تحدث المدير رأسًا إلى العمدة، وجلس يساجله الكلام ويبادل الضحك ويطلب له القهوة..

وأمن العمدة على نفسه فأخذ يستعيد حجمه الطبيعي ويتنفخ شيئًا فشيئًا، ثم انتهز فرصة صمت المدير بضع ثوان فقال:

- وماذا نعمل يا سعادة الباشا المدير في بضعة الأشرار الذين لدينا؟..
إنني أخشى أن يفعلوا شيئًا يعكر صفو الزيارة..
- من تقصد؟..

- أولاد سلامة ومن حولهم..

فقال المدير مستخفًا:

- لا.. هؤلاء راحت عليهم.. أليسوا هؤلاء الذين يتصنعون الوفدية كلما عاد الوفد إلى الحكم؟..

- هم يعينهم يا سعادة الباشا، إنهم في غاية الخطورة..
- يا عمدة لا تبالغ.. هؤلاء مساكين، يكفي أن «نشخط» فيهم شخطة، فيدخلوا الشقوق..
- إنهم دائماً في الشقوق يا سعادة المدير، كالثعابين تماماً، فإذا اطمأنوا إلى أنك سهوت عنهم خرجوا والعياذ بالله..
- أنتشاهم إلى هذا الحد يا عمدة؟..
- لا والله ما أخشى أحداً في البلد، ولكن أخشى أن يحدث يعكر الزيارة الملكية..
- هل تظن أنهم يجرون على شيء في هذا الظرف الخطير؟..
- طبعاً.. إنهم أنذال.. والأنذال لا يظهرون إلا في مثل هذه الظروف..
- إذن لا بد من عمل شيء!..
- هذا ما أقوله..
- همتك!.. أبحث لي عن شيء يذهب بهم في داهية..
- مثلاً؟..
- والله لا أدري، أنت عمدة وتعرف عملك. هل هذا كلام؟.. بضعة رجال لا هنا ولا هناك لا تستطيع أن تبعدهم عن زمامك شهراً أو شهرين.. ما أعجبك من عمدة!..
- فابتسم العمدة ابتسامة السعيد الراضي، وقال وهو يهز يده: حلمك عليّ يا سعادة المدير نحن عمد مساكين نريد أن نفهم.. أردت فقط أن أعرف ألا مانع عند سعادتك..

- ماذا تريد أن تعمل؟؟؟..

ففتح الرجل فمه في شبه ابتسامة بلهاء خبيثة، ومضى يقول:

- قصدي.. قصدي.. يعني، نبعدهم قليلاً..

فقال المدير في حزم:

- آه.. نبعدهم فقط.. ولمدة الزيارة.. أكثر من هذا لا نريد.. لا نريد

إجراماً.. هل تفهم؟؟..

- لا تخف يا سعادة المدير.. لا تخف.. سعادتك تعرف أنني رجل

طيب ولا أعمل هذه الأشياء.. كل غرضي أن أسكت أفواههم

حتى تنتهي الزيارة..

ففكر المدير قليلاً ثم قال:

- كم يبلغون؟؟..

- قليلاً.. الرجل وأولاده ستة، وأخوته الأربعة، وأولادهم نحو 25،

وأولاد عمه ثمانية، وأولادهم نحو 50، و....

- ما هذا يا رجل؟؟ نصف البلد؟؟..

- لا أبداً.. حسبة 200 نفر..

- ما شاء الله.. وماذا كنت تريد أن تفعل بهؤلاء؟؟..

- أبداً وحياة سعادتك.. هم صغيرة من النوع الجاري.. أحرار

سلاح بدون رخصة، إحرار مخدرات، تجاوز زمام، إهمال في تنقية

الدودة.. سعادتك عارف..

- اسمع يا عمدة.. لا بد من الحذر.. هؤلاء قوم عتاة، ولا تنفع معهم هذه المسائل. وأنت لن تقدر عليهم.. سأدبر أنا لك أمرهم.. توكل على الله..

ونهض العمدة وحيا المدير بكل تجلّة واحترام، ثم قال وهو في الطريق إلى الباب وخلفه عبد الجليل:

- سعادة الباشا المدير.. هناك رجاء أرجو ألا تردني عنه خائبًا.. إنني ذاهب الآن إلى البلد بعد غيبة خمسة أيام، والناس عندنا تقوم بالإشاعات وتقعّد بالإشاعات، ولو شملتني بإكرام يسير لكان لذلك أثر بعيد..

- ماذا تريد؟..

- سيارة من المديرية وشاويشين أدخل بها القرية فتنكسر نفوس الأعداء وتعلو هيتنا.. والناس عندنا جبناء يا سعادة المدير..

- يعني حضرتك تريد أن تدخل البلد في موكب؟..

- لا والله.. في ظل سعادتك فقط.. هل يرضيك أن أدخل البلد بعد هذه الغيبة كأنني قط يتمسح بالجدران؟..

فنظر المدير إلى السقف ثم قال:

- طيب..

ونادى سكرتيره وأمره بأن يعد سيارة «بوكس» لتتنقل العمدة إلى بلده ومعه ثلاثة جاويشية أو أربعة..

وانحنى العمدة على يد المدير يقبلها، فلما خطا من الباب وصار في الردهة ارتفع رأسه وانتفخ صدره وسار في خطوات وثيدة، كأنه «الملك شهرمان» ومن خلفه عبد الجليل كأنه وزيره «هم الزمان»، ونزلا السلم وجندي يعدو أمامهما، ثم أخذ متاعهما واستقرا في السيارة الحكومية، وإلى جانب السائق جلس جنديان وخلفهما جنديان آخران تزين أذرعهما الشرائط الحمراء، وقبل أن تقلع السيارة قال العمدة لعبد الجليل:

- قم يا عبد الجليل بلغ البلد أنني آت الن..

ثم همس في أذنه:

- صف لهم موكبنا..

وقفز عبد الجليل ومضى، فغاب بضع دقائق ثم عاد فجلس ومال على أذن العمدة وقال والسيارة تنطلق:

- كانت كأنها قبلة.. لقد سمعت الزغاريد بنفسي..

وبينما كان عبد الجليل «يؤلف» التفاصيل، كان العمدة يقتل شاربهِ الأصيل..

ترامت إلى العمدة أصوات الزغاريد قبل أن يصل إلى كفر سهيل بمسافة طويلة. كانت الساعة تقارب الثالثة بعد الظهر، وقد ملأت أشعة الشمس الحقول والهواء دفئا، وانتشر الفلاحون في حقولهم جماعات يتسامرون بها ألفوه من حديث المساطب، وكله كلام عن الناس أو في

الناس. وكانت السيارة الرسمية وفي مقدمتها ومؤخرتها الجاويشية تستلفت انتباه بعضهم، فيخرج إلى الجسر وينظر ثم ينادي غيره ويتساءل، وتبدأ سلسلة جديدة من لغو الريف. وكان العمدة يتلفت ليرى تجمعاتهم، ويمتليء فؤاده سرّباً وهو يرى موكبه يستلفت لأنظار ويثير في الريفين التطلع والفضول. وكم تمنى لو أنه أمسك في هذه المناسبة علماً كبيراً ورفعته يرفرف في الهواء فوق موكبه العظيم فقد سمع أن كثيراً من الزعماء عادوا على هذه الصورة إلى أرض الوطن.. وتزايدت أصوات الزغاريد عندما أهدت السيارة على القرية من ناحية محطة سكة الحديد. وعندما وصلت السيارة إلى «الوسعاية» ما بين المحطة والبلد، شاهد العمدة الناس وقد تجمعوا لاستقباله، فعرف أن الإشارة التليفونية فعلت فعلها العجيب. وأنه على الرغم من أن الإشارة وصلت في وقت انتشر فيه الناس كلهم في الحقول إلا أن «الوسعاية» امتلأت بالناس. ورقص قلب العمدة طرباً حينما سمع صوت مزمار وطبلة.. لقد أقبلت فرقة القرية الموسيقية لتستقبله، وهي فرقة متواضعة تتألف من زمار وطبال ونافخ غاب، ويكمل الجمهور لحنها بالتصفيق. ووسط هالة كبيرة من الناس، كان هناك حصان مسكين عجوز أخرجه الناس إذا ألبسوه زينة البرجاس على عجل، وأتوا به على عجل، ليعرض عليهم من فنونه ألواناً، وكان عهد الحصان بالمشي فضلاً عن البرجاس قد تقادم، ولكنه أمام إلحاح الجماهير مضى يرفع قادمة ويضع قادمة في غير مراعاة لنغم أو وقع، كأنها كان من رأيهِ أن مثل هذا الجمهور لا يستحق أكثر من ذلك..

ومرت السيارة في شىء من البطء بين جماعات الناس التي جعلت تحيي العمدة وتهتف: «سلامات، حمد الله والفين سلامات» والعمدة في أشد حالات الطرب يتلفت يمنه ويسره محاولاً - دون جدوى - التعود على هذا الإحساس المفاجيء بالأهمية البالغة..

وعندما اقتحمت السيارة المضيق الطويل المؤدي إلى بيت العمدة، توقفت عن السير، فقد كان الناس كثيرين جداً، ثم ظهر أخوه العمدة وكبار أقاربه وأعيان البلد، ولم يكن له بد من أن ينزل ليجيهم. فنزل وأخذ يرتقي في أحضانهم واحداً بعد واحد. وكلما عانق واحداً ضرب يديه على ظهره ضربات عنيفة بعض الشيء، وردها له صاحبه بمثلها. وتجمع الأطفال والمتسكعون يتأملون هذا المشهد، ويتأملون العساكر الأربعة وسيارة الميري.. وقال بعضهم: «لقد أخذ العمدة الباشوية».. وتلقفتها الأذان وبعثت بها إلى الألسن، وما هي إلا دقائق حتى كان الخبر قد لف القرية سبع لفات، ثم ارتقى مجهداً في أذن العمدة، فحسبه خبر أتى من القاهرة في غيبته، ولم يكن في حالة تمكنه من تفكير أو تدبير، فبدأ على وجهه فرح شديد، ومضى يعانق الناس ويقبلهم دون وعي، وما درى إلا والماء والسكر يسقي للناس بالكيزان، فلم يشك في أنه باشا، وأحمر وجهه إحمراراً شديداً ومضى يضحك!..

أما عبد الجليل فقد ضاع بين الأرجل، لم يلتفت إليه إلا بعض الغلمان نادوه باسمه في لهجة أقرب إلى هزء الصبيان، فنزل من السيارة ودعا الجاوشية والسائق إلى دخول دار العمدة ليسترجحوا، ثم دخل العمدة

والموكب من حوله فرآهم وأقسم عليهم أن يمكثوا ليصيبوا طعامًا، ولكن السائق قال إنه لا بد أن يعود إلى المديرية لتوّه، وأشار إشارة فهم العمدة منها أنه يكفي وأصحابه بشيء من «الجودة»، فأعطى كلًا منهم خمسين قرشًا، فنظر إليه السائق وقال:

- يا حضرة العمدة هذه باشوية، وتعطينا خمسين قرشًا فقط؟..

فقال العمدة وكأنه حصل على الباشوية حقًا:

- لا والله ما تغضبون.. خذوا.. هذا جنيّه آخر تقاسموه فيما بينكم،
ووالله لادفعت بعد ذلك شيئًا..

فوضع السائق النقود في جيبه وقال:

- طيب.. سنتنظر لنصيب شيئًا من الطعام.. أظن أن لدينا بعض الوقت..

ونظر إلى الجاويشة، فقرأ الرضا على وجوههم. واستقر العمدة في المنظرة الواسعة، جلس على كنبه في الصدر، وإلى جانبه بعض إخوته، وجلس على الأرض عند قدميه نفر من الحواشي، وغصت القاعة بالناس، كلما خرجت جماعة دخلت جماعة، وصاحبنا يحيي الناس على قدر مقاماتهم، فمنهم من يعتنق اعتناقًا، ومنهم من يكتفي في إظهار الحب له بقول: «كيف حالك يا ولد؟.. كيف حال أبيك؟..» وبدا العمدة في هذه الهيئة وكأنه حاج عائد من الأراضي المقدسة بعد أداء الفريضة. ولم يكن شيء يشغل باله قدر لقب الباشوية الذي سمعه يتردد على أفواه الناس جميعًا كأنه حقيقة واقعة، وكان يستشعر حرًا من أن يسأل الناس

عنه مخافة أن يرى الناس أنه لا يعلم أنه باشا، فسأل عن عبد الجليل مرارًا وتكرارًا، حتى عثر عليه، فمال على أذنه وقال:

- ما حكاية هذه الباشوية؟.. ألم يقولون لنا في القاهرة أن تسجيل الاسم في دفتر التشريفات معناه القيد في سجل الباشوات؟.. أيمكن الأمر كذلك؟..

- ليس بعيدًا يا حضرة العمدة.. ومع كل فالباشوية ليست كثيرة عليك..

- أما نسأل ونستعلم عن الأمر؟..

- والله يا حضرة العمدة لا أجد وجهًا للسؤال.. دع المسألة كما هي، فإذا كان الناس يرون أنك باشا فأنت باشا.. لماذا نسأل ونشككهم في الموضوع وأعداؤنا كثيرون كما تعرف حضرتك؟..

وكان عبد الجليل متعبًا منهوكًا من سهر الليل وتعب النهار، وتاقت نفسه إلى أن يلم ببيته ليستريح وليأنس بأشياءه القليلة التي يملكها. وكان مشوقًا كذلك إلى الحاجة زاهية وعجلها محروس. لم يكن في بيته المزعوم شيء يشوق النفس، فهو حوائط مهدمة حول فناء، وفي ناحية غرفتان لا تطمئن إلى منظرهما النفس، وفي الطرف الآخر الغرفة الواسعة التي كانت تقيم فيها زاهية ومحروس العزيز، وكان منظر هذه الطاحونة القديمة أقرب إلى الخراب منه إلى العمار، ولكنها كانت بيته ومكانه الذي يطمئن إليه في هذا الكون الفسيح، ولهذا كان مشوقًا إليه اشتياق الضيع إلى وجارها المظلم الجافي..

وصل إلى بيته وقد مالت الشمس نحو المغيب، وترامت أطراف من أشعتها الباهت على الجدران الحائلة على صورة تبعث في النفس شيئاً من الحزن. ولكنه كان سعيداً مبهتجاً بالوصول، وكان يحمل على كتفه سفته الذي يضم أشياء القليلة. وكان قد اشترى للحاجة كل الطرف المتواضعة التي طلبت إليه أن يأتيها بها من القاهرة: شال صوفي تضعه على كتفيها وبشكير تجفف به وجهها وسجادة صلاة. وكانت قد أعطته جنيهاً ليشتري لها منه ذلك كله، ولكنه، بعد أن رزقه الله بالجنيهاً العشرة التي ساقها إليه الحظ عفواً، قرر أن يعيد إليها الجنيه ويقدم لها الأشياء هدية من عنده. ودق الباب فلم يفتح له أحد، فجلس على عتبة الدار ينتظر وقد سبحت به الأحلام. فهذه الطاحونة ستصبح في القريب مدرسة ابتدائية «تحت إشراف وزارة المعارف العمومية»، وسيصبح هو ناظرًا «قد الدنيا».. وجعل يتصور كيف ينشيء من أطلال الطاحونة مدرسة، فلم يجد في ذلك صعوبة ما، وليس هناك شيء يعسر على الخيال الجامح تصوره..

وما هو إلا قليل حتى أهلت الحاجة زاهية من بعيد، وقد رآها مقبلة تحمل على ظهرها كثيراً من البرسيم لعجلها، فلم تكد تراه حتى ألقت حملها وأسرعت نحوه تعانقه في شوق الأم إلى ولدها، وكانت العشرة الطويلة قد جعلتها تأنس إليه وتحله في أوسع مكان من فراغ قلبها الذي لم يسعد بالأمومة..

وفتحت له ودخل، فرأى العجل وسط الفناء وقد انتصبت قامتة

وشد قوائمه ونظر إلى الباب في عزة لا يعرفها غيره من العجول.. وبدا عليه وكأنه عرفه، فتهادى نحوه في تؤدة وخيلاء ومسح رأسه في ملابسه حتى أحس نحوه بحنين، فوضع يديه حول عنقه الضخم وضمه إليه، ثم تركه يمضي إلى برسيمه، وقالت الحاجة:

- كدا يا عبد الجليل يا بني؟.. تتركنا وحدنا وتمضي؟..

- ماذا أعمل؟.. نحن في خدمة العمدة..

- وهل زرت الأولياء؟..

- جميعاً..

- قرأت لي الفاتحة عند الحسين والسيدة؟..

- قرأت لك فواتح وفواتح..

فعانقته العجوز ودعت له بطول العمر وقالت:

- والله إنك لابن حلال يا عبد الجليل.. ابن حلال مصفي ولكن

الناس لا يعرفون قدرك. لا يحبك في هذا الكون إلا أنا ومحروس..

هل أكلت؟..

- لا والله.. شغلنا بأمر العمدة.. فنسيت نفسي..

- لكنهم ذبحوا وطبخوا وأطعموا الخلق.. كيف لم تصب شيئاً؟..

- هذا والله الحق أقوله لك..

- إذن فاسمع.. إنني أعرف أنك أخيب الناس في هذه المسائل، دائماً

تهمل نفسك، ولهذا فقد تسللت إلى المطبخ وسرقت دجاجتين

محمريتين.. لقد ذبحوا أكثر من مائتين.. لم أسرقهما، ولكنني أخذتهما،
إنهما حقك..

ثم ضحكت عن فم لا أسنان فيه وقالت:

- وسرقت لمحروس أيضًا..

- فراخًا؟..

- لا.. برسيًا.. إنه يحب برسيم غيط جنيدي، فانتهزت فرصة اشتغاله

بالسلام على العمدة مع أولاده وكبشت من الغيط أكل محروس

ثلاثة أيام..

- يا ولية يقتلونك.. أما تعرفين أنهم قتلة سفاكون، يقتلون على عود

الحطب وورقة العنب وكوز الذرة؟..

- لا يستطيعون قتلي.. إنني آخذ لمحروس، ومحروس حارس لورفع

أحدهم بندقيته ليضربني لأنشلت يده قبل أن يضرب.. اذهب

أنت إلى غرفتك وسأتيك بطعامك..

واتجه عبد الجليل نحو ما سمته غرفته، وهو يفكر في أمرها وأمر

عجلها. فقد كان العجل محروسًا حقًا، لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء،

ولقد حاول الكثيرون سرقة فلم يستطيعوا، لم يحاول أحد من اللصوص

وضع يده على الباب ليدفعه إلا أحس بالشلل يسري في جسمه كله. وقفز

لص ذات مرة إلى الفناء ليسرقه، وكان محروس واقفًا وحده، فما كاد ينظر

إليه حتى تحشب اللص مكانه، وظل متخشبًا طول الليل، وفي الصباح

وجدوه ملقى وسط القمامة..

واستقر عبد الجليل في غرفته، وتناول الحصير من الركن وفرشه، فقد كانت الحاجة زاهية قد رفعتة ولفته ووضعته في الركن، وجلس على الحصير قبالة السرير المتواضع، وأسند ظهره إلى الحائط وأحس براحة كبرى في مكانه هذا، ومد يده إلى جيب الصديرية، وأخرج الورقة ذات الجنيهات العشرة، ونظر فيها للمرة المائة كأنها هو يقتبس منها الاطمئنان والسعادة ودفع القلب، ثم أعادها إلى مكانها في رفق، وانطلق خياله يفكر في مدرسته التي وعده بها الشيخ دسوقي، ونهض فوقف بباب الحجرة ونظر إلى الفناء الواسع، وأحس بسرور عظيم، فقد كان الفناء واسعاً يكفي لفسحة ما لا يقل عن 500 تلميذ، واطمأن قلبه كأنها كان أهم شيء هو الفناء الواسع. ثم جعل يتصور الإعانة المقبلة تتهادى، والتي سيبنى بها الفصول وحجرة الناظر وحجرة المدرسين..

وأقبلت الحاجة زاهية تحمل طبلية عليها الدجاجتان والخبز والبصل وطبق فيه أرز وثريد، واتفحت نفسه فجلس وجلست أمامه، وأخذت يأكلان بينما مضت هي تقص عليه أخبار ما جرى في البلد أثناء غيابه. قالت:

- أعوذ بالله من أخوي العمدة محمددين وإسماعيل!.. شياطين!..
أبالسة!.. لقد أهلكا الناس وأسقياهم المر.. انتهز فرصة غياب
أخيها ونهب الناس نهباً ذريعاً..

- كيف هذا؟..

- لا أدري. ولكنهما تقاسما البلد مع النمس الحرامي، فسرق مواشي

الناس وقاسمها بالنصف، ونها الصوامع، وأهانا عالمًا غفيرًا من الناس. وهذا الذي يكسر الله رقبته بإذن الله متبولي شيخ الخفر، لقد حكم في الناس وشارك أخوة العمدة في النهب لا بد أن العمدة سيحزن حزنًا شديدًا عندما يعلم ذلك..

فسكت عبد الجليل لحظة، ثم قال:

- لا دخل لنا بذلك يا حاجة.. هؤلاء أخوة والداخل بينهم غريب. لا تقولي لأحد حرفًا من ذلك إذا أردت أن تعيشي في سلام، وأنا من ناحيتي لم أسمع شيئًا..

فقال الحاجة، وكأنها روعها كلامه:

- أنا أقول لأحد شيئًا؟.. ومالي أنا ولدخول جهنم الحمراء؟.. والله ما قلت إلا لك ولمحروس..

- محروس؟.. ألا تفرغين من الكلام مع هذا العجل؟.. يا حاجة اعقلي..

- والله إنه ليفهم كل ما أقوله له.. إنه عاقل وفهيم ولا ينقصه إلا اللسان.. لقد حكيت له ما يفعله أخوه العمدة وقلت له إنني خائفة عليه، فنظر إلى وتبسم وهز رأسه، فعلمت أنه يقول لي: لا تخافي وتوكلي على الله.. وبالفعل اطمأن قلبي، وبينما كان اللصوص يقتحمون البيوت في كل نواحي البلدة كنا هنا، أنا وهو في أمان، لم يجرؤ أحد على الاقتراب من بابنا..

وفرغا من الطعام، فمضت تلتمس له ماء يغسل يديه، وخرج إلى

الفناء فغسل يديه، ثم اتجهها إلى موضع نبتة صغيرة خضراء وصبت له الماء توضحته فوقها. كانت فسيل نخلة، زرعتهها هذه الحاجة الطيبة وآلت على نفسها ألا تسقيها إلا بماء الوضوء حتى تخرج عامرة بالبركة، وقد نبتت النخلة الصغيرة من باطن الأرض خضراء جميلة منظرها يملأ القلب بهجة كأنها تسقى بماء الكوثر. وأخذت تكبر رويداً، وفي ظل بركتها وبركة محروس عاشت الحاجة وعاش ربيها عبد الجليل.

نامت القرية تلك الليلة في ساعة متأخرة. ظل الناس في صخب وطرب إلى ما بعد منتصف الليل بكثير، فأما ذوو اليسار فقد طعموا وشربوا وتمتعوا وسمروا، وأما سواد أهل القرية فقد ظلوا يتجمعون ويتفرقون حول بيت العمدة وما حوله، ويتشرون في الأزقة وقد وضعوا مصابيح الغاز على أبواب بيوتهم لتبدد بأشعتها الذابلة ما تستطيع تبديده من ظلمات الليل الخالكة. وأمام بعض الدور شب الرجال نيراناً وجلسوا حولها يصطلون ويسمرون ويستمتعون بمنظر النار والإحساس بالنور، فقد كانت متعتهم الكبرى هي الهرب من الليل والظلام. وليس في قرى الصعيد الجواني ما هو أرهب من الليل والظلام، وليس أبهج لأفئدة أهله من رؤية نار أو نور بالليل. وإذا كان أجدادهم القدامى قد أضاءوا ليل الموت والسرمدى بصور مشرقة من الحياة يرسمونها على جدران القبور، فإن هؤلاء لا يملكون اليوم إلا هذه الزبالات يستعينون بها على ظلمات الليالي الطويلة في حياة معظمها ليل..

ولم يكن للناس حديث إلا ما فعل عمدتهم في القاهرة، ولقد ذهب بهم أخيلتهم في ذلك كل مذهب، فقال بعضهم أن الملك اتصل به بالتليفون من «حجرة نومه» في قصره ودعاه إلى زيارته، وأقسم بعضهم أن الملك ناوله الباشوية بيده ملفوفة في «حرير أطلس أخضر» كما قال عم قنديل، وزادهم عم طحاوي أن الملك أعطاه مع الباشوية صرة فيها ألف جنيه مجيدي «ذهب أحمر»، أما الخالة نبوية فقد أكدت أن الملك عرض على العمدة أن يزوجه ابنته الأميرة. وهكذا أخذت الروايات تتوالد أثناء السمر وفي ضوء اللهب والذبالات، وكلما خرج قروي برواية جديدة كانت كالحجر يلقي في ماء ساكن فيحدث دوائر تتسع وتتسع حتى تصل إلى حافة الغدير، ثم ترتد واهنة لتتلاشى في دوائر أخرى أحدثها حجر جديد...

يبد أن فرحة هذا العيد لم تشمل القرية كلها، فقد كانت هناك بيوت في شبه مأتم، بيوت خصوم العمدة وهم كثيرون. بعضهم صرحاء ظاهرون ينافسون بيت أبي الشوارب في الرياسة، مثل أولاد سلامة وحلفائهم أولاد ندا وأولاد ريان، وبعضهم خفيون لا يكشفون عن النيران التي تتلظى في قلوبهم، يمنعهم من ذلك شعور بالصغار والهوان، ولكنهم لا يكفون عن السعي والتدبير. والعمدة يعرف الكثيرين منهم وما في قلوبهم، ولكنه يصانعهم ويحاورهم ويداورهم، ويدبر لهم المصيبة بعد المصيبة، ولا يلقاهم مع ذلك إلا ضاحكاً مرحباً.. سلوك اعتادوه جميعاً هم وآباؤهم منذ مئات السنين، وأصبح بخيره وشره الماء الذي يعيشون

فيه ويطمثون إليه كما يعيش السمك في مائه، فإذا أخرج منه اختنق. وما من قروي منهم غادر قريته إلا اشتاق إلى قريته بكل ما فيها: يشتاق إلى أهله وأصحابه للحب الذي بينه وبينهم، ولا ينسى أعداءه للثأرات التي بينه وبينهم. وقد ينسى أصحابه وأهله، ولكنه لن ينسى أعداءه أبداً.

ومنذ وصل العمدة إلى القرية لم يفكر في شيء بقدر ما فكر في خصومه. إن يده الآن هي العليا ومن ورائه سلطان الدولة وجاه الملك، وهو يستطيع اليوم أن يكيل الضربات القاصمات ليتخلص من أولئك الخصوم وليصفو له أمر القرية بعد ذلك. ولكنه كان يخشى المدير، فهو يعرف أن هواه مع أولاد سلامة، وبينه وبينهم علاقات بعيدة، والشيخ خليل سلامة نفسه شريكه في كثير من الصفقات، فقد اشترى المدير وباع وعقد صفقات طيبة وكسب الألف، كل ذلك بمعاونة خليل سلامة، ولولا أن خليل سلامة أسرف في العمليات التي كان يقوم بها إسرافاً انتشر أمره ولم يستطع المدير كتمانها وأصرت الحكومة على عزله، لولا ذلك لظل عمدة إلى الآن، ولما وصل أبو الشوارب إلى العمودية إلا بعد عمر طويل..

لقد طلب إليه المدير أن يدع له أمر أولاد سلامة، وهذا هو الذي يخيفه، فإن الفرصة ستضيع منه ولا ريب، ولن يفعل المدير شيئاً.. وبعد تفكير طويل استقر رأي العمدة على أن ينتظر يومين، ثم يتصل بالجهات العليا لتجد له مخرجاً..

وعندما صحا العمدة من نومه مع الضحى، سأل عن عبد الجليل، وطلب أن يأتيه به. وكان هذا قد بكر بالاستيقاظ، لأنه ذكر عندما أوى إلى فراشه أنه لم يعط الحاجة أشياءها. فلما صحا ناداها وأعطاهما الشال والبشكير وحصيرة الصلاة، ثم رد إليها الجنيه فكادت تطير من الفرح، ومضت تدعو له من قلبها كله وترجو الله أن يسعده ولا يسوءه، ثم أسرعت تعد له الشاي ووضعت له بيضتين زيادة في الأكرام، فجلس يأكل وهو يشعر بسعادة لم يظفر العمدة نفسه ولو بجزء يسير منها.

وبينما هو يستمتع بهذا الإفطار اللذيذ، وقد جلس على الأرض في الفناء وأمامه الطبلية وإلى جانبه القلة، وغير بعيد منه وقف محروس يأكل برسيمه، إذ الباب قد طرق وصوت يهتف:

- عبد الجليل.. شيخ عبد الجليل.. أنا شرارة.. افتح!

ودهش عبد الجليل من ذلك الرجل الغريب الذي لا يزال منذ عرفه يختفي ثم يظهر في طريقه على غير موعد. وظل واجماً لحظة وهو يفكر في أمره، ثم رأى الحاجة تتجه نحو الباب لتفتح، فهتف بها:

- ادخلي محروس داخل البيت أولاً، هذا الرجل لا أعرفه جيداً، وعينه سيئة..

وأسرفت الحاجة فاستاقت محروساً إلى الداخل، ثم عادت ففتحت الباب، ودخل شرارة بقامته المديدة وأنفه الطويل وبشرته الكالحة، يتحدث بصوت معدني عالي لا جمال فيه، ويتخلل حديثه ضحك

جاف متكلف لا ينم على سرور بقدر ما يكشف عن رغبة في التظرف والتخفف. قال وهو يسرع إلى عبد الجليل ويعانقه:

- ما هذا يا بني؟.. الدنيا مقلوبة وأنت جالس هنا تفطر في هدوء كأن الأمر لا يعينك؟..

- لماذا يا عم شرارة؟.. ماذا حدث؟.. تفضل أولاً كل شيئاً..

- لقد أكلت.. إن كان لديك كوب آخر من الشاي فهاته.. وإذا كانت لديك سيجارة فهاتها.. ها.. ها.. أنت تعرف أن المزاج أهم من الأكل.. اسمع يا سيدي، لدي أخبار سعيدة، ثلاثة بالله العظيم إنني لم أستطع الانتظار إلى الصباح.. كنت أريد أن آتي أمس بالليل لولا خوفي من الطريق، ثم رزقني الله بأنور بك مهندس الري، ركبت معه من الفجر فأوصلني بسيارته إلى هنا.. إنه صديقي وعميلي، في الشهر الماضي بعته قطعتين من الصوف لا نظير لهما في وجه قبلي كله، واحدة سوداء والأخرى كحلية.. لبس السوداء ليلة دخلته على ابنة المعلم مجلي ودعالي..

- وما هي الأخبار التي لديك؟..

- اسمع يا سيدي.. لقد انفتح تحت أقدامكم كنز في هذا البلد..

- كنز؟..

- أي والله.. زيارة الملك.. إنها كنز.. سوف تجنون منها الذهب.. أما قلت لك أمس في قنا؟.. ألم أئنأ لك بمستقبل عظيم في السياسة

عندما قلت لي أنك ستدخل ميدانها وأنت في الطريق إلى القاهرة مع العمدة!..

- والله إنك لشیطان یا عم شرارة..

فاقترب شرارة من عبد الجلیل وقال:

- كنت في المديرية أمس، كنت أقدم قماشاً للبك الحکمدار، إنه صديقي وعميلي، سمعته يصدر أوامر كثيرة في صالحكم، ستسمعون أخباراً عظيمة..

- مثل؟..

- ليس هذا هو المهم.. المهم عندي هو أنت، لقد لاحظت أن الاهتمام كله متجه نحو العمدة، كل الناس في المديرية لا يفكرون إلا في العمدة.. أما عبد الجلیل، حبيبنا عبد الجلیل الذي يعمل كل شيء، فلا يفكر فيه أحد.. على رأي المثل: الاسم لطوبة والفعل لأمشير.. اسمع یا عبد الجلیل یا ابني.. لا أريد أن يفوتك خير هذه المسألة..

- دعني وشأني یا عم شرارة، أنت ترى أننا جميعاً نعيش هنا في حماية حضرة العمدة، وهو رجل طيب معنا، وقد ساعدني كثيراً، وسيساعدني في المستقبل بإذن الله..

- لا تكن ساذجاً یا عبد الجلیل.. هؤلاء الناس لا يساعدون إلا أنفسهم.. أنا أيضاً كنت ضحية مثل هذا التفكير. كم من مرة ضربت وحبست وأوذيت في سبيل ناس لا يستحقون، وعندما

أتى أوان الحصاد لم يعطوني شيئاً، وهأنت تراني بعد العذاب أجرى
وراء لقمة العيش بالمشوار..

- وماذا تريدني أن أعمل؟..

- اسمع.. هؤلاء الناس كلهم أغبياء لا يفهمون من أمور الدنيا شيئاً،
نحن في الواقع نسيرهم دون أن ندري، لو أحكى لك كم عمدة
يسIRON حسب رأيي ومشورتي ما صدقت!.. إنهم يرسلون في
طلبي ويستفتونني في المشاكل السياسية العويصة التي تعترضهم..
وأنت فيما أرى رجل ابن حلال ويعز على أن يكون في إمكانك
أن تستفيد ولا تستفيد.. ثلاثة بالله العظيم إنني لم أكد اسمع في
المديرية ما سمعت حتى قررت أن أسرع إليك لكي أعاونك..
صدقني والله العظيم أنني لا أبغي إلا خيرك أنت..

- عشت يا عم شرارة.. وماذا أفعل؟..

- اسمع يا سيدي، نريد أن نضع نظاماً لهذه الزيارة.. إنني خير بهذه
المسائل. أول شيء ينبغي عمله هو أن تقنع العمدة بضرورة تأليف
لجنة استقبال. لجنة تقوم بكل ما يلزم برياسة شرف سعادة المدير
ورياسة العمدة ونكون نحن فيها أعضاء.. هكذا نجعل لأنفسنا
مكاناً محترماً، ونظهر في هذه المناسبة النادرة.. واحد منا يصبح
سكرتيراً للجنة والثاني أميناً للصندوق.. لقد سمعت الحكمдар
يتحدث بالتليفون، ويقول إنه لابد من اعتماد مبلغ كبير من خزانة

المديرية لهذا الاستقبال، وهذا المبلغ بطبيعة الحال سيسلم للجنة، وسيكون تحت تصرف السكرتير وأمين الصندوق..

ثم ضحك ضحكته الجافة الخشنة، وحسا من الشاي حسوة ثم ضرب ذراع عبد الجليل وقال:

- أفهمت يا أبا عبده؟.. هل رأيت كيف يفكر صاحبك؟.. يا خسارتي!.. والله ما أصلح إلا أن أكون وزيراً أو عضو نواب على الأقل! ولكن أين البخت؟.. لعن الله هذه الأيام التي نعيشها..

وظل عبد الجليل واجماً يفكر. كانت الفكرة التي أتى بها شرارة فكرة عظيمة تدل على أنه رجل لا يستهان به... ولكن ما العمل؟.. لو ذهب إلى العمدة الآن وألقى إليه بالفكرة، لألف اللجنة منه ومن المحروسين أخوته، ولظل هو كما هو دائماً على الهامش.. هذا الرجل لا يفكر إلا في نفسه وأسرته. خارج نطاق الأسرة لا يوجد شيء..

وأفضى عبد الجليل بمخاوفه إلى شرارة فقال له:

- قلت لك دعني لمثل هذه الأمور.. إنني خبير بسياسة العمد.. عليك فقط أن تفتح الموضوع للعمدة، ثم تقول له إنني خبير بهذه المسائل وإنني أضع نفسي في خدمته.. ليس عليك أكثر من هذا، وعلى الباقي..

فقال عبد الجليل في لهجة ظاهرة الجد:

- اسمع يا شرارة. أنت لا تعرف أولئك الناس كما أعرفهم أنا.. لي معهم سنوات طويلة، وأنا أعرف أنهم ليسوا بالبساطة التي

تحسب. إن العمدة رجل عميق و«قراره غويط» وإن كان يبدو لك أنه ساذج بسيط. إنه يعرف أشياء قليلة، ولكن القليل الذي يعرفه يعرفه جيدًا، ومن بين هذا القليل هذه القرية ومن فيها.. وهو كالنمس، ينام وعيناه مفتحتان، بل في معظم الأحيان يتظاهر بأنه نائم. وحوله إخوته كالزنابير لا يفوتهم شيء، يسرون دائمًا وراء أخيهما كالصقور التي تبحث بأعينها الفاحصة عن أي شيء تنقض عليه. وهم بهذا كله يحكمون البلد بالحديد والنار. أقول لك هذا حتى تكون على حذر، فالظاهر إنك تحسب نفسك أذكى منهم، وقد أسرعت إلى هذا البلد لتفوز من الزفة القادمة بأكبر نصيب، وأخشى أن تقع في شر أعمالك ولا يصيبك من ذلك إلا الأذى الشديد. وأنا يا عم شرارة أعيش مع هؤلاء الناس كافيًا خيري شري، لا أصيب منهم كثيرًا، ولكني أجد لديهم المأوى والحياة على أي حال، فإن كنت تريد أن تنهب منهم شيئًا فلست شريكك ولا صلة لي بك، لا أريد أن أخرب بيتي بيدي!..

فنظر إليه شرارة طويلًا، ثم ضحك ضحكته الجافية وقال:

- ماذا ظننت يا عبد الجليل يا ابني؟.. أقول لك شيئًا فتنظن بي شيئًا آخر؟.. والله ما أردت إلا أن نخدم معًا أولئك الناس الطيبين، والله ما كنت أحسب أنك تخاف على لقمة عيشك إلى هذا الحد.. ها.. ها.. يا سلام يا شيخ عبد الجليل!.. وهل ظننت أنني أدعوك إلا إلى الخير؟.. كل ما في الأمر أنني رأيت أن هذه فرصة طيبة لرجل

طيب مثلك من حقه أن يتمتع بشيء من ثمرة تعبهِ، وأنت تعرف أنني أحبك كأخي تمامًا.. ثلاثة بالله العظيم يا شيخ عبد الجليل، إنني من يوم قابلتك في القطار أحسست كأنك أخي.. قلت في نفسي: يا واد يا شرارة.. أخوك عبد الجليل محتاج إليك، أسرع إليه فإن المؤمن للمؤمن..

وأحس أن كلامه بدأ يفعل فعله في نفس عبد اللجيل، فقال:

- ومع ذلك، فما لك روعت خوفاً على هؤلاء الناس كأن أمرك يعينهم في شيء؟.. إنني أعرف أولئك الأعيان ومن حواليتهم، لا يهمهم من أمر الآخرين شيء. حدود العالم عندهم تنتهي عند حدود أسرهم، وما أحسبهم إلا يمتصون دمك. يأكلونك لحماً ثم يرمونك عظماً. وما أردت بما عرضت عليك من فكرة اللجنة إلا صالحك: نكون اللجنة وسترى كيف سنمسك بزمام الأمر كله، ويظهر أمرنا ويعرفنا الناس وتكتب عنا الصحف ويسمع بأمرنا الملك في هذه المناسبة، ماذا يضايقك من ذلك؟..

- خشيت أن تزوغ عينك يا شرارة.. لقد تحدثت عن الأموال وأحسست أن ريقك يجري، وخشيت أن تخرب بيتي..

- أخرج بيتك؟.. وأين هو بيتك الذي تخشى أن أخربه؟.. هأنت يا ولد عمي تعيش في القرافة.. لا حول الله يا ولدي.. أربع حوائط ولا سقف.. علام تخشى وماذا تخاف؟.. إن السجن أحسن من هذا بكثير.. هناك على الأقل يضعونك تحت سقف.. ومع

ذلك.. مالي ولهذا؟.. أنت حر.. المهم لدى أن نعمل معاً في هذا الموضوع.. والله لا تخف مني ولا تخش شيئاً، وأبسط يدك أعاهدك عهد أخوين..

ومد عبد الجليل يده وصافحه، ولكن قلبه لم يطمئن إلى هذا الطفيلي الذي طراً عليه في هذه المناسبة كأنها هو صقر ينقض من السماء ليختطف شيئاً براقاً بدا له على الأرض. وبدا له أن يمضي فيحذر العمدة منه فيطرده ويخلص منه نهائياً، فقد كان وجوده ثقیلاً على نفسه، وأقل الشرور التي تنجم عن وجوده هو منافسته في ذلك المركز الطيب الذي يتمتع به في القرية. واستقر رأيه آخر الأمر على أن يحذر العمدة منه، فهو ليس بحاجة إلى منافس بهذه الخطورة في تلك المناسبة الحاسمة..

وبينما هو مسترسل في ذلك التفكير إذا برسول العمدة قد أقبل يطلبه، فنهض وتباً للخروج، مضى وشرارة يلاحقه ويقول:

- لا تنس ما اتفقنا عليه.. إنها فرصة لا تعوض.. سآتي معك الآن ونكلم العمدة معاً..

فتوقف عبد الجليل عن السير ونظر إلى شرارة وقال في لهجة هي بين العتب والغضب:

- ألم أقل لك لا تتعجل الأمور يا عم شرارة؟.. ألا تدعني أتصرف بحسب معرفتي للأحوال؟..

- طيب.. طيب.. أنت حر، ما أردت إلا خدمتك.. سأذهب الآن إلى بعض عملائي لعلني أبيع شيئاً.. اسمع.. ألا تريد شيئاً؟..

إنك تحتاج إلى جبة جديدة لهذه المناسبة، وعندى قطعة لا تصلح إلا لك.. لونها أسود مفتخر، قماش تكس أهبة.. ثلاثة أمتار ونصف.. على مقاسك، والله إنك لابن حلال. بالأمس كنت على وشك بيعها، ولكنى ضننت بها في آخر لحظة. كنت أشعر أنها من نصيبك..

- حسنًا.. انتظرنى بها في بيتى بعد صلاة العصر..

وانطلق عبد الجليل مسرعًا حتى دخل على العمدة، فاستقبله هذا قائلاً:

- أين أنت يا عبد الجليل؟.. بالأمس لم أرك واليوم لنا ساعات ننتظرك..

- والله يا حضرة العمدة، كنت بالأمس هنا إلى آخر الليل.. ولكن البيت كان أشبه بالمولد..

فسكت العمدة قليلاً ثم عاد يردد:

- مولد!.. عندك حق.. كان البيت كالمولد.. ومن هنا إلى أن تنتهي الزيارة سيظل هذا المولد قائماً.. نريد أن ندبر أنفسنا قليلاً يا عبد الجليل.. إذا استمر الأمر على ذلك خرب بيتنا.. تعال.. تعال.. أجلس نتحدث..

وجلس عبد الجليل قريباً منه، فقال عليه العمدة وقال:

- إن إخوتي يريدون أن يخربوا بيتى.. فرصة أتاحت لهم لينهبوا

القرشين اللذين جمعتها من شقاء العمر.. كل يوم وليمة وذباح..
لا يصبر أحد على ذلك.. من الأمس إلى اليوم لم يضع أقل من
ثلاثين جنيهاً..

- ذلك في الأول فقط يا حضرة العمدة.. إنها فرحة العودة وفرحة
الزيارة والبلد عطشان أفراحاً.. لقد طربوا وفرحوا بما فيه الكفاية،
ومن اليوم ندبر أنفسنا..

- كيف ندبر أمرنا؟.. إنها ساقية دائرة، وكل ساعة يأتي فلان أو علان
أو هم الزمان يريدون أن يأكلوا، وأخي إبراهيم يظن نفسه عمدة..
ولا يزال يقول: اذهبوا.. اطبخوا!! ماذا نعمل ومن هنا إلى موعد
الزيارة كثير؟.. ثلاثون يوماً..

- انظر يا حضرة العمدة.. لقد رأيت الناس يعملون في هذه المناسبات
«لجنة احتفال».

- وما هذا؟..

- أقصد.. يختارون مجموعة من الرجال الذين يثقون فيهم ويؤلفون
منهم «لجنة احتفال». هذه اللجنة تتولى كل شيء، وتجتمع وتناقش
وتعرض قراراتها على حضرتك، فإذا وافقت عليها قاموا بالتنفيذ،
وإلا بحثوا عن شيء.. وتخلص أنت من المسؤولية، تلقيها كلها على
اللجنة.

- فكرة والله.. من علمك هذه الأشياء كلها؟..

- محسوبك يا حضرة العمدة يعرف أشياء كثيرة.. الزمن علمني..
وأنا في خدمتك..

- وكيف نعمل هذه اللجنة؟..

- نجعل المدير رئيس شرف لها..

- ما معنى رئيس شرف هذه؟..

- أي.. رئيسًا بالاسم.. رئيس زينة..

- يعني طرطورًا..

- شيء مثل هذا.. ولكن رئاسة الشرف شيء محترم.. إنها ترضي
الناس الكبار وتحمي الصغار..

- وهل يرضي المدير أن يكون رئيس شرف؟..

- طبعًا.. الناس يحبون الرئاسة أيًا كانت.. شرف أو غير شرف..

- وبعد رئيس الشرف؟..

- انتظر.. هل عندك ورقة وقلم لنكتب؟..

وصفق العمدة فدخل عوض فقال له العمدة:

- ورقة وقلم يا ولد!..

ودهش عوض لهذا الطلب، فإن العمدة طلب منه قبل ذلك كل شيء،
إلا الورقة والقلم. لا بد أن شيئًا خطيرًا قد حدث، وبدلاً من أن يتحرك
ظل مكانه ينظر إلى العمدة في بلاءه، فقال هذا:

- أما تتحرك يا ثور؟..

- ليس في الدار أقلام. القلم الوحيد عند عجايبي ليكتب به الإشارات
التليفونية التي تأتي من المركز، وليس لدينا ورق..

- ليس لدينا ورق؟.. وأين الورق الذي نكتب فهي الخطابات
للمديرية؟..

- هذا ورق «ميري» خاص بالكتابات المديرية..

فصاح العمدة:

- ما معنى «ميري» يا بهيم؟.. وأنا.. ألسنت ميريًا أيضًا؟..

أليس من حق الميري أن يكتب ما يشاء في ورق الميري؟..

- ثم إن الورق عند عجايبي، وضعه في الدرج وأغلق عليه بالمفتاح،
والورق معدود بالواحدة..

- وأين ذهب ذلك الحمار؟..

- قال إنه تعبان وذهب لينام..

فنظر العمدة إلى عبد الجليل وقال:

- انظر يا سي عبد الجليل، هذه هي نتيجة المولد.. ملأوا بطونهم فلا بد

أن يظلوا يومين نيامًا.. قلت ألف مرة لا تطعموا هؤلاء الحمير..

إنهم ككلاب الحراسة، إذا ملأت بطونها دخل اللصوص البيت..

ثم نظر إلى عوض ونهره قائلاً:

- اذهب فأنتي به من تحت الأرض.. اذهب، عليك وعليه لعنة الله..

وخرج عوض، وظل العمدة لحظات لا يستطيع الكلام من شدة

الغضب، فانتظر عبد الجليل شيئاً، ثم انشأ يقول ليصرف الغضب عن صاحبه:

- لا بأس عليك يا حضرة العمدة ولا تغضب، لا لزوم للقلم والورق الآن، نستطيع أن نتحدث في الموضوع حتي يأتي عجائبي.. قلنا لا بد من رئيس شرف. وبعد رئيس الشرف هناك الرئيس..

- رئيس ثان؟..

- أجل.. الرئيس الفعلي..

- آه.. ومن تظنه يكون؟..

- ليس لها إلا حضرتك.. أنت رئيس كل شيء هنا..

- وبعد ذلك؟..

- نريد سكرتيراً..

- ماذا تعني بالسكرتير؟.. السكرتير لا يكون إلا في المديرية..

سكرتير المديرية معوض أفندي عينته وزارة الداخلية، فهل يكون لقرية مثل هذه سكرتير؟..

- لست أقصد سكرتير مديرية.. أقصد سكرتيراً للجنة.. رجل يحور المحاضر..

ففزع العمدة وقال:

- وهل فيها محاضر؟.. ستأتينا هنا برجل يعمل لنا محاضر، وسين وجيم؟.. لا يا سي عبد الجليل.. حد الله..

- يا حضرة العمدة لا أقصد محاضر مخالفات ري أو زراعة لا سمح الله.. أقصد أنه يكتب ما تقررره اللجنة في دفتر ويقوم بعرضه عليك لتثبت ما تشاء وتمحو ما تشاء..
- لا يا عم.. لا أريد محاضر من أي نوع في بيتي.. قطعت المحاضر وأصحابها..
- إذن نسميه كاتبًا يكتب ما تقررره اللجنة..
- لا بأس بهذا.. من يكون؟..
- نريد رجلًا يعرف القراءة والكتابة.. ما رأي حضرتك في أخيك محمد بن؟..
- لا تدخل إخوتي في هذه اللجنة، دعهم بعيدًا عنها أرجوك..
- إذن نجعل عجايبي كاتبًا..
- لا يصلح.. إنه كسلان وغبي.. قم أنت بذلك، أنت تقرأ وتكتب خيرًا منه..
- كما تريد يا حضرة العمدة.. أنا خادمك في كل ما تريد.. الآن نريد أمينًا للصندوق..
- أي صندوق؟!
- صندوق اللجنة.. أنتم ستقررون اتفاق مبلغ معين في هذا الاحتفال.. من صالح حضرتك أن تقرر هذا المبلغ حتى لا يفلت

الأمر من يدنا وتطير النقود دون أن يعلم أحد أين طارت، هانت
قد رأيت كيف ضاعت ثلاثون جنيهاً في ساعات..

- أي أنك تريد أن لجتك هذه تقرر مثلاً أنني ينبغي أن أنفق ألف جنيه
مثلاً، فأعطيها.. أضعها في الصندوق لينفق منها أمين الصندوق
كيف شاء.. اللهم إنه سينهبها كلها ولا نرى لها أثراً.. لا يا عم..
دعك من أمين الصندوق هذا واترك المسألة على الله..

- انظر يا حضرة العمدة.. هذه اللجنة ستقرر مثلاً أن التكاليف ستبلغ
1000 جنيه مثلاً، وستقرر أيضاً ما يدفعه كل واحد من أعيان
البلد.. هذه الزيارة ليست لك وحدك.. وإنما للبلد كلها، وإذن فلا
بد أن يساهم الجميع فيها.. كل الأعيان لا بد أن يدفعوا، ومتى
قررت اللجنة شيئاً ووافقت أنت عليه رفعناه إلى المدير ليوافق عليه
بصفته رئيس الشرف، فإذا وافق عليه أصبح أمراً من المدير.. بهذا
نستخرج منهم جميعاً أكبر جانب من التكاليف..

فتهللت أسارير وجه العمدة وقال:

- يا لك من شيطان بارع يا عبد الجليل!.. والله ما خطر ببالي شيء
من ذلك..

ثم سكت لحظة وتجهم وجهه وقال:

- ولكن هذه الأموال كلها ستكون عند أمين الصندوق وسينهبها
طبعاً..

- تختار رجلاً عنده ذمة..

- ذمة؟.. أي ذمة يا سي عبد الجليل؟.. إنها مئآت الجنيهات، تقول لي ذمة؟..

- ولم لا تكون أنت أمين الصندوق؟..

فنظر إليه طويلاً ثم قال:

- ممكن هذا؟..

- ممكن جداً.. هناك جمعيات كثيرة يكون الرئيس فيها هو أمين الصندوق..

- إذا كان هكذا فلا مانع.. هكذا يطمئن قلبي!..

- حسناً.. بقى أن نختار الأعضاء..

- أي أعضاء؟..

- أعضاء اللجنة.. نريد أن نختار كذا رجلاً من الأعيان يكونون أعضاء في اللجنة.. حتى يشعر الناس جميعاً أن لهم شيئاً.. نريد أن ندخل في اللجنة رجلاً من كل بيت من البيوت الطيبة: أولاد غراب وأبو سريع والتليس والفخراي وأبو تراب. أنت تعرفهم جميعاً..

- دع هذا لي.. أنا أتحدث معهم..

- وبعد أن تشكل اللجنة تجتمعها حضرته ونعمل جلسة ونبدأ العمل..

- طيب يا عبد الجليل.. من اليوم نبدأ..

- على فكرة يا حضرة العمدة.. أتذكر الرجل الذي اسمه شرارة؟..
- من هذا؟..
- تاجر الصوف الذي قابلناه في القطار وأقلقك من نومك ونهرته أنت..
- آه.. لعنة الله على أبيه.. ماله؟..
- هذا الرجل يفهم كثيرًا في هذه المسائل.. إنه ثقیل وشحاذ ولكنه يفهم كثيرًا، وقد أتى إلى البلد الآن، ورأيت أنه ينفعنا في هذا الظرف.. سأجعله مساعدًا لي بعد إذلك..
- إنه لص وغشاش وأنا أعرفه من زمن.. ابتعد عنه..
- إنني أعرف أنه لص وغشاش، ولكنه اشتغل في هذه المسائل ولديه آراء طيبة..
- أنت حر.. وأنت مسئول عنه.. قلت لك أنه رجل هلس.. لا أريد أن يأتيني بعد ذلك ويطلبني بشيء..
- سأنظر، فإذا لاحظت منه شيئًا قلت لك وطرده من البلد.. أظن أن حضرتك تدعو هذه الليلة أو غدًا الأعيان والمشايخ لتعرض عليهم الموضوع وتفرغ من تأليف اللجنة هذا المساء.. لنبدأ العمل غدًا، إن الأيام تجري والوقت ضيق..
- حسنًا، سأفعل ذلك.. وسأدعوهم للعشاء الليلة وتكون معنا بإذن الله.. ومعك قلم وورق..

التأم شمل الاجتماع في المساء في دار العمدة، وحضر معظم من استدعاهم خائفين متوجسين، فقد علمتهم التجارب أن العمدة لا يستدعيهم ويقدم لهم الطعام على هذا النحو إلا إذا كان يريد منهم شيئاً، وتوقع معظمهم شراً وانتظروا أن يطلب العمدة منهم مالا.. وربما كان طرف من الحديث الذي جرى بينه وبين عبد الجليل قد ترمى إلى بعضهم، فهذه القرية لا سر فيها، والهمس يتردد في جنباتها بدوي عظيم. ولو لم تكن مسألة الزيارة وما صاحب أخبارها من ارتفاع اسم العمدة واتصاله بالقصر والجهات العليا، لبحث كل واحد من المدعويين عن تعلة يعتذر بها عن المجيء، أما اليوم فقد أصبح للعمدة شأن أي شأن، ولم يعد أحد يجرؤ على مخالفة أوامره.

وعندما تحدث العمدة عن اللجنة ووظائفها، تنفس الجميع الصعداء وأفرخ روعهم واشربت أعناقهم إلى الوظائف، وكان العمدة لبقاً فبدأ بالوظائف، وأرجأ مسألة التبرعات إلى آخر السهرة.

وكان إلى جانب العمدة عبد الجليل، ومن خلف عبد الجليل جلس شرارة بسحنته المقلوبة، وكان لا ينفك يميل على أذنه ويهمس كأنه شيطان يوسوس. وكانت أذن العمدة صاغية إلى وزيريه هذين اللذين أتى بهما ليستعين بهما على إدراك ما يريد..

ومضى الأمر سهلاً هيناً، فأعجب الناس بفكرة اللجنة وأسعدهم أن يصبحوا أعضاء فيها، وإن كان بعضهم لم يهضم تماماً اختصاص العمدة لنفسه بالرياسة وأمانة الصندوق، ولكن مهارة عبد الجليل وشرارة

كسبت الموقف. وقد تساءل الكثيرون عن شرارة هذا ومن أي داهية أتى، وهمس بعضهم بأنه مندوب المدير، وبدأ بعضهم يتوجس منه شراً، وأحس شرارة بذلك، ومضى يفكر في شيء يستجلب به محبتهم أو حسن ظنهم على الأقل..

ولم يكد عبد الجليل يفرغ من كتابة أسماء الأعضاء وأصحاب المراكز في اللجنة حتى قال شرارة:

- علينا أن نوزع الاختصاصات على الأعضاء من الآن، فإن شئون الاستقبال كثيرة متشعبة.. هناك مسألة الاستقبال نفسه: كيف يتم؟.. كيف نقف وننظم الناس لاستقبال الملك؟.. من يسلم عليه ومن لا يسلم؟.. ماذا يلبس المستقبلون وكيف تقف الجماهير؟.. هناك مسألة المرور: كيف يسير الملك في بلدنا؟.. وبأي الشوارع يمر؟.. وكيف نهيء الطريق لمروره؟.. وفي أي بيت سيرتاح؟.. هناك مسألة الأكل: كيف سنقدم الطعام للملك ومن معه وأهل البلد؟.. وماذا نقدم؟.. وأين؟.. وكيف؟.. هناك مسألة التفریح: الموسيقى، والمزمار، والبرجاس، والتحطيب، وما إلى ذلك.. وهناك مسألة النظام: ماذا نفعل لكي نظمئن إلى أن كل شيء سيجري على ما يرام؟.. هناك مائة مسألة ومسألة، ولا بد من توزيعها على أعضاء اللجنة، فيكون لكل واحد اختصاص يقوم به، حتى لا ترتبك الأمور يوم الزيارة ولا نعرف رأسنا من قدمنا، ويغضب علينا الملك ونروح في داهية.. كل ذلك يجب أن يتقرر من

الآن، وحضرة العمدة لابد أن ينظر في توزيع هذه الاختصاصات،
ويلبغ سعادة المدير حتى يعرف الدور الذي قام به كل من
حضر اتكم ويلبغ الملك.. أليس كذلك يا حضرة العمدة؟..

وكان العمدة ينظر إليه وقد فغر فاه من الدهشة، فقد فاجأه شرارة
بهذا الخاطر العجيب، وأحس بغريزة العمودية المركبة في نفسه أن هذه
الفكرة البارة التي أتى بها شرارة كفيلة بأن تستخرج له من أولئك
الناس ما يريد من المال، فلا شك في أن كل واحد منهم يطمع في عمل
يظهر به أمام العمدة فالمدير فالملك، ولا شك أيضًا في أنه - أي العمدة
- كفيل بمسحهم جميعًا عند اللزوم، وإذا كان آخر الموضوع هو الظهور
أمام الملك، فلن يظهر أمامه بعون الله إلا وجه العمدة الجميل..

وبدا السرور على الوجوه، وتلفت الجميع إلى هذا الدخيل ذي
الصوت المعدني البغيض، وأحسوا أنه على شيء، وأخذ يخف على
قلوبهم.. وتوجس عبد الجليل شرًا، فقد بدأ هذا الواغل يطغى عليه
ويستلقت الأنظار من دونه في صميم اختصاصه. وتنحى العمدة وقال:

- صحيح والله.. هذه مسألة لم تغب عن بالي، وكنت أرجئها إلى ما
بعد، أما وقد أثارها سي شرارة فلا بأس في أن ننظر فيها الساعة..
لننظركم عملاً لدينا، ثم نوزعها على الأعضاء بحيث لا يبقى منا
أحد دون نصيب من المسئولية..

ثم نظر إلى شرارة وقال:

- قل يا شرارة، كم وظيفة عندك؟..

فضحك شرارة ضحكته الجافة وقال:

- لا يا حضرة العمدة، لا مؤاخذه.. هذا غير ممكن الآن، حضرتك سيدنا وتاج راسنا وأمرك مطاع، ولكن لكل شيء أصوله، وهذه مسألة تستدعي أن أجلس إلى حضرتك لكي تملي على تقسيم العمل كما ترى، ثم تجمع حضرات الأعيان المحترمين بعد ذلك التقسيم...

وسر العمدة في نفسه لكلام شرارة، ونظر إلى من حوله وقال:

- الرأي لكم. أنتم أصحاب الأمر. كفى إلى هنا الآن. نجتمع بإذن الله غداً في الليل لنبحث الموضوع.

ثم نهض واقفاً إشارة إلى انتهاء الاجتماع، وهكذا ترك الأمر لهم في ديمقراطية واسعة الحدود ثم بت فيه في لحظة واحدة، وفض الاجتماع، وهو يعتقد أنه أعطاهم حقهم وزيادة.. ونهض الناس فسلموا عليه وخرجوا إلا عبد الجليل وشرارة فقد مكثا، ووفقا بين يديه وهو جالس على الكنبه بعد خروج الضيوف كأنهما كلبان بين يدي سيدهما.. ولم يكذ يشعل سيجارة وينظر إليهما حتى ضحك شرارة وقال:

- يا سلام يا حضرة العمدة.. إنك والله لسياسي عظيم، هكذا العمدة وإلا فلا.. والله لقد جالست وزراء وكبراء، فما وجدت أحداً منهم يعرض الأمور بهذه الحكمة.. الآن فقط فهمت لماذا اختار الملك بلدك ليزوره من بين بلاد القطر كله. صحيح إنه ملك يعرف كيف يختار.. ألف صلاة على النبي..

وسر العمدة هذا الرياء، وبدا كقط مدلل يدغدغه صاحبه ويعبث بأصابعه تحت ذقنه.. وانتظر حتى أفرغ شرارة آخر ما عنده ثم قال يستزيده:

- يعني، عملنا طيبًا بأرجاء الموضوع إلى الغد؟..

- طبعًا يا حضرة العمدة.. وهل في هذا كلام؟.. ضربة معلم.. ستري غدًا كيف يزورك الواحد منهم بعد الآخر ليضمن لنفسه وظيفة من الوظائف، وكل وظيفة بثمانها، وهكذا يعمر الصندوق ونستطيع أن ننفق على الاستقبال عن سعة.. لقد فهمتها حضرتك وهي طائفة.. صحيح أنك عمدة ابن عمدة.. هكذا الفهم، هكذا التدبير..

- انظر يا شرارة أجلس أنت وعبد الجليل واكتبنا لنا الوظائف التي ستقسم على الأعضاء، حتى أقسمها عليهم..

فجلس الرجلان وأخذا يتناقشان، وقد أمسك عبد الجليل بالورق والقلم، وعلا صوتاهما شيئًا فشيئًا، بينما مال رأس العمدة على صدره وأخذ يغط في النوم..

وطالت المناقشة بين الاثنين، وانتهيا إلى قائمة قرأها عبد الجليل قبل تلاوتها على العمدة أنشأ بها الوظائف الآتية: عضو اللجنة للاستقبال - للمرور - للتموين - للفنون - للنظام العام - للخطب والشعر - للسراشق والأعلام والريات - معاون حضرة العمدة (ومهمته الوقوف وراء العمدة يوم الاستقبال) - عضو للتسهيلات (ومهمته انجاز الأشياء، أي

أشياء) - عضو للمواصلات (ومهمته نقل الناس من البلاد المجاورة أو نقلهم من القرية إلى ما يجاورها) - عضو للهتافات والنداءات (ومهمته تنظيم الهتافات بحياة الملك وتعيين الهتافين وتوزيعهم والإشراف عليهم) - عضو خاص لما يستجد من الأعمال - أربعة أعضاء احتياطيون..

ثم أيقظا العمدة في رفق، وقرأ عليه القائمة، فأشار لهما بيده بأن يدعاهما إلى جانبه على الكنبه وينصرفا، فقد كان سلطان النوم قد غلبه، حتى ما عاد يستطيع الكلام. فوضعاها وخرجا، فلما صارا في الردهة قال شرارة: - مع السلامة أنت الآن. سأحاول أن أنام هنا في أي مكان..

فقال عبد الجليل:

- لا، والله لتبيتن عندي في بيتي.. نحن أخوان ولا أدعك تنام خارج بيتي أبدا..

فقال شرارة:

- لا والله ما بيننا فرق يا أخي، حقيقة بيتك بيتي، وأنا آتي وقت أن أريد.. ولكنني سأنام الليلة هنا، فقد استأخر الليل..

فأخذ عبد الجليل بذراعه، وجذبه جذبا وهو يقول:

- والله لا أدعك تنام خارج بيتي.. كيف تتصور ذلك؟.. وهل هذا يليق؟..

وأخذ يشده بكل ما فيه من قوة، فقد كان لا يريد أن يدعه يبيت في بيت العمدة مهما بلغ الأمر. كان عبد الجليل يخشى أن يلزم شرارة العمدة من

الصباح فيسطو على مكانه من نفسه فيستغني عنه.. وكان شرارة فعلاً يريد أن يبقى لهذا الغرض، فقد عرف الكتف ولم يبق إلا أن يأكله. وهذا عبد الجليل يريد أن يحرمه من هذه الفرصة. وطال الشد والجذب بينهما، وعلا صوتهما، وصحا عوض على الضجيج فأقبل ينتهرهما غاضباً:

- ما هذه الشوشرة أنت وهو؟..

- لا شيء يا عم عوض، أنا عبد الجليل..

فقال عوض في منتهى الشراسة والاحتقار:

- عبد الجليل أو غيره.. هيا أخرج أنت وهذا الصعلوك الذي معك..

لماذا تخلفتما عن بقية الناس؟.. هيا أخرجاً..

- يا عم عوض كنا مع حضرة العمدة..

- وماذا جمع صعلوكين مثلكما على حضرة العمدة؟.. هيا أخرجاً..

ثم أمسك بشرارة من كتفه وجذبه بكل امتهان، وتبعه عبد الجليل خائفاً، فقد كان يعرف أن عوض شخصية يحسب لها ألف حساب في هذا البلد. وخرج الإثنين، يجر أحدهما الآخر بعد أن ألقى بهما هذ الخادم العاتي في عرض الطريق. وبعد أن سارا خطوات، نظر شرارة إلى عبد الجليل وضحك متهكماً وقال:

- أين مقامك الذي حدثتني عنه؟.. أين وكالة العمدية التي قلت لي

أنك صاحبها؟ أيطردك خادم كهذا كأنك كلب أجرب؟

- أسكت يا عم شرارة، أنت لا تعرف هذا الرجل. بالليل هو عمدة البلد، والعمدة نفسه لا يستطيع حياله شيئاً.. إنه كالكلب الأرمتي، إذا جاء الليل وأطلقوا سراحه أصبح سيد البيت حتى الصباح، لا يعرف أحداً، ولو اعترضه صاحبه نفسه لمزقه أرباً..

- هكذا؟.. ما ألطف هذا!.. هات سيجارة إذن..

- أنت تعرف أنني لا أعرف ما هو الدخان..

- إذن ماذا تعرف؟..

قالها بازدرء ومرارة. وسكت عبد الجليل على مضض، وسار الاثنان جنباً إلى جنب كأنهما متخاصمان..

وفي اليوم التالي حدث ما توقعه العمدة وشرارة، بكل أعضاء اللجنة يتسللون واحداً واحداً إلى بيت العمدة ليضمن كل واحد منهم لنفسه شيئاً، واستخدم العمدة كل ذخيره من الذكاء القروي في اعتصار أولئك الساذجين واستخراج ما يمكن استخراجه من أموالهم مشاركة له في نفقات الاحتفال. وفي ما بين العصر والمغرب كانت المعركة بين هؤلاء السادة قد أصبحت صراعاً حقيقياً كأنهم يتنافسون على كراسي وزارة، وكل منهم يعتقد أن هذه هي آخر وظائف هذه المناسبة المقترحة، سيجعله من حاشية الملك وسيرشحه من تلقاء نفسه لعظام الأمور. كانوا جميعاً في شوق شديد للظهور، إذ كانت حياتهم في القرية خملاً كلها وصمتاً، كأنها وجود في قبر مظلم، ثم نفذ شعاع من الضوء فتراحوا جميعاً

ليكونوا في موقعه. وقد تباعدوا جميعاً عن الوظائف التي تؤدي إلى انفاق أموال كالتأمين والمواصلات، وتزاحوا على الوظائف التي تصورها أنها تتيح أكبر فرصة للظهور كالاستقبال والخطب والشعر، إذ تصوروا أن عضو اللجنة للاستقبال هو الذي سيقف لاستقبال الملك وسيصافحه ويرافقه وتلتقط له الصور معه، وأن عضو اللجنة للخطب والشعر سيلقي بين يدي الملك خطبة عصماء تنشرها الصحف - مع صورته طبعاً - في صفحتها الأولى..

واشتد التنافس بين رؤساء عائلات حمدان وأبو سريع وغراب والعزائمة وأبو تراب، وأخذ كل منهم يزيد في المبلغ الذي يساهم به. وهؤلاء القرويون الذين يموت الواحد منهم قبل أن يخرج قرشاً، تنحل عقد أكياسهم وتندي أيديهم لمثل هذه الأمور.. وبلغت المزايدات إلى مائة جنيه للوظيفة، وتوزعوها ودفعوا في «أمانة الصندوق» المبالغ المقررة، بعد أن اختصموا ووقعت بين أفراد عائلاتهم مشاجرات استعملت فيها العصي والفؤوس، بل أطلق بعض المتهورين طلقات نارية.. واشتدت المناقشات وتطرقت إلى مناضلات بين المرشحين، وأخذ كل منهم يعدد محاسنه ومحاسن أجداده، واعتز بعضهم بأنهم أشرف والبعض الآخر بأنهم عرب، وأخذوا يتقصصون الآخرين ويقولون أنهم فلاحون. بل أسرف بعضهم في الفخر فزعم أن جده كان مع عمرو ابن العاص عندما فتح مصر، ودحض آخر حجته قائلاً أن أجداده كانوا من لصوص المواشي وادعوا لأنفسهم هذا النسب، بل ذكروا اسم الشيخ الذي صنع

لهم ذلك النسب، وتعالى الأصوات وتبادل السادة الشتائم وكل منهم يذكر من «محاسن» خصمه ما تيسر. وكادت الفتنة أن تعم البلد، لولا أن العمدة استعان بمهارة شرارة، فابتكر له سبع وظائف أخرى بيعت الواحدة منها ببائة جنيه.. وعندما انتهت المناقشات في الليل في بيت العمدة كان صندوقه قد حفل بألف وأربعمائة جنيه، خرجت من جيوب أولئك المساكين وأنهم لا يدرون ما يفعلون، وسجلها عبد الجليل في دفتر خاص، واستمع الجمع إلى المحضر يتلوه عبد الجليل في تأنق عظيم، وأحس كل من أسعده الحظ بإدراج اسمه وكأنه قد سجل على لوحة الشرف والخلود..

وانتهت الفتنة بخير، وفرح كل واحد بما نال، وجلسوا يتسامرون ويهني بعضهم بعضاً.. فلما رأى شرارة أن الجو قد صفا نهض وقال:
- يا حضرة العمدة، الآن وقد أنتهينا من تكوين اللجنة بقى أن يكون لها إشارة تميز الأعضاء عن غيرهم..

فقال الشيخ حمد أبو ركب:

- وما هذا أيضاً؟..

فقال شرارة:

- شيء كالنیشان يضعه أعضاء اللجنة على صدورهم حتى تميزوا عن غيرهم، هكذا يفعلون في الاستقبالات الكبرى.. ولقد تنبهت أنا لهذا الموضوع وأتيتكم معي بكمية من الشارات الجميلة صنعتها عند رجل أرمني في أسيوط.. انظروا..

ثم فتح صندوقاً كان قد أحضره معه وحرص على أن يمسكه بيده طول الجلسة، وأخرج منه شارة جميلة عبارة عن دائرة بيضاء تحيط بها دائرة خضراء، والاثنان من الحرير الأبيض ويتدلى منها شريطان أبيض وأخضر.. وكان منظرها في الواقع جميلاً، وتداولتها أيدي الحاضرين وأظهروا الإعجاب بها، وقال الشيخ عبد المجيد حمدان:

- إنها نيشان.. نيشان مجيدي!..

فصاح شرارة وهو يضحك:

- عليك نور.. لقد صنعت على مثال النيشان المجيدي العظيم، انظروا..

ثم تناولها ووضعها على صدره وأخذ يختال ويعرض صدره لأنظارهم كأنه «مانكان» من باريس، وعلى الرغم من قبح خلخته ورثائه ثيابه فإن منظرها قد راقهم جميعاً، وأخذوا يبدون آيات الاستحسان، وكان العمدة أكثر الناس إعجاباً بها، فلما أيقن شرارة أنهم رغبوا فيها قال:

- لدي منها لحسن الحظ ما يكفي لعدد اللجنة، عندما علمت بخبر الزيارة المباركة قدرت أنكم ستحتاجون إلى شارات، فأسرعت إلى صديقي الأرمني وجعلته يصنع خمسين شارة على مثال النيشان المجيدي الفخيم.. فصنعها لي بسعر خاص جاملني فيه، وهو عميلي ونحن تجار معاً.. صنع لي الواحدة بخمسة قروش، فإذا شاء حضرة العمدة رئيس اللجنة تفضل بالأذن لكي يأخذ كل واحد منكم واحدة..

وفي بضع دقائق كان الأعضاء قد اشتروا الشارات ووضعوها على صدورهم، وجلسوا كأنهم وزراء على صدورهم النياشين. وقال الحاج إسماعيل غراب:

- أليس معك زيادة؟..

- لماذا؟..

- للعيال.. نريد أن نفرح بها العيال..

فقال العمدة:

- يا حاج إسماعيل.. وهل هذه أشياء للعيال؟..

فقال الرجل بسذاجة:

- ولم لا؟.. نريد أن نفرح عيالنا، بعني يرضيك يا حضرة العمدة أن

أولادنا يسرون في البلد بدون شارات كأنهم من طعام الناس؟..

وأمن الجميع على ما قال، واستولت عليهم عصبية الأولاد، فأخذوا

يناقشون العمدة حتى وافق.. وفتح شرارة الصندوق وأخرج الشارات

وأخذ يبيع، حتى لقد تراوح ما اشتراه كل من الحاضرين بين خمس

شارات وعشر، ولم تلبث الشارات أن نفدت وحل محلها مال كثير، إذ أن

الصندوق كان يضم أكثر من الخمسين التي ذكرها شرارة، كان فيه قرابة

المائة وخمسين. وانفض الاجتماع، وخرج كل من السادة وعلى صدره

الشارة وفي جيبه عدد من الشارات دخل بها على أولاده كأنها حمص أو

حلاوة مولد..

وخرج عبد الجليل في صحبة شرارة، وسارا معًا وعبد الجليل في حيرة من أمر هذا الشيطان، وأحس هذا بما يفكر فيه عبد الجليل، فضحك وقال:

- والله كانت فكرة عظيمة.. أدركت أنكم ستحتاجون إليها فصنعتها بعد أن قرأت خبر الزيارة في الصحف، وقد بعثكم إياها بئمنها والله العظيم..

وساد الصمت، ومضى شرارة يهنئ نفسه بهذه الصفقة، فقد كان اشترى صندوق الشارات من التاجر الأرمني بعشرين قرشًا وكانت كاسدة عنده من شهور طويلة، ثم خرج بها هذه المرة لبيعها للأولاد في السوق، الواحدة بخمسة مليات.. وسنحت له هذه الفرصة فباع الشارات كلها بما يزيد على سبعة جنيهاً، صفقة لم تكن تخطر له على بال..

وأحس شرارة بالنقود في جيبه، وبدأ الشيطان يدور في رأسه. كان يريد أن ينفق. لا يمكن أن تجتمع في جيبه نقود دون أن يفكر في انفاقها بأسرع ما يمكن، ولو أنه كان في القاهرة أو أسبوط لعرف كيف يستمتع بوقت طيب ويتخلص منها، ولكن هنا، في هذه القرية الكئيبة، ماذا يفعل؟.. إن النقود في جيبه تؤلمه، إنه يخفى في الحصول على القرش، فلا يكاد يستقر في كفه حتى يجري لانفاقه.. ونظر، فرأى عبد الجليل يسرع في خطوة نحو البيت، فقال له:

- من أين تشترون «الكيف» هنا؟..

- ماذا تقصد؟.. المعسل أم شيئاً آخر؟..

- كليهما..

- المعسل عند عم سعفان البقال، وقد أقفل دكانه الآن، أما الشيء الآخر فلا أعرف من أين يشترونه..

فقال شرارة في لهجة كلها سخرية:

- إذن ماذا تعرف؟..

ولم يرد عبد الجليل ومشى صامتاً، وغاز صمته شرارة، وكان في شدة الحاجة إلى هذا الكيف فقال:

- وأين دكان عم سعفان البقال؟..

- قلت لك إنه أغلق دكانه من زمن..

- وأين يسكن؟..

- تذهب إليه في بيته في هذه الساعة؟..

- ولم لا؟.. هل هو بقال باشا حتى لا يمكن إقلاق راحته بالليل؟..
قل أين بيته..

- سنمر به، وسأدلك عليه..

وبعد دقائق مرّاً بزقاق من هذه الأزقة الصغيرة الرهيبة التي تبدو في الليل وكأنها مداخل قبور. وأشار عبد الجليل إلى بيت في الزقاق بدا في الظلام وكأنه شبح ضخم، وقال:

- هذا هو بيته..

- تعال معي..

- لا يا سيدي.. لم تجر العادة في بلدنا بأن نظرق أبواب الناس في منتصف الليل..

- ماذا تخشى يا عبد الجليل؟.. أنت تدع الناس يركبونك هكذا، لابد لك من شيء من الجرأة.. تعال..

- أنا ذاهب إلى البيت، والحق بي هناك..

وتركه ومضى نحو بيته، ووصل فوجد العجوز تنتظره وقد قلقت لتأخره، فسلم عليها، ودخل وهي من خلفه، وقصص عليها شيئاً مما جرى، فقالت:

- ما هذا الرجل الذي تأتينا به؟.. إن شكله شكل لصوص..

- صدق، ولكن ماذا نعمل؟.. لا نستطيع أن نطرده.. كلها يومان ثم يمضي عنا..

ثم نظرت فإذا الشارة على صدره، فقالت في فرح:

- ما هذا؟.. نيشان؟..

- لا.. ولكنها شارة.. تقليعه أتى بها هذا الملعون شرارة.. سيلبسها يوم الاحتفال أعيان البلد وأولادهم..

- إذن هات واحدة لمحروس..

- يا ولية.. عجل تلبسينه شارة؟..

- ألم تقل الأعيان؟.. هذا عين الأعيان.. والله لتعطيني واحدة أضعها في رقبتك.. إنه يسمع كلامنا فلا تغضبه..

وأخرج عبد الجليل شارة من جيبه وناولها إياها، فمضت بها مسرعة إلى موضع نومها، ودق الباب ودخل شرارة وهو يقول:

- أتيت منه بورقتي معسل، وقطعة لا بأس بها.. إن سعره عندكم رخيص.. أما قلت لك إنك جبان؟.. هيا قل لعجوزك هذه تأتينا بشالية لنوقد النار ونشرب «المزاج»..

وذهب عبد الجليل إلى حيث العجوز وأتى بشالية وبضع قطع من الخشب، وجلس شرارة فأوقد النار، ثم أخرج من جيبه ورقة كبيرة فيها قطع من الفحم، وأخذ يهيئ «الولعة» في عناية وعن معرفة، ثم أخرج «جوزة» صغيرة، وجلس وأسند ظهره إلى الحائط، ومضى يهيئ «الولعة» ويضع «المزاج» في النارجيلة الصغيرة البدائية، وأخذ يدخن، وامتلاً جو الغرفة بالدخان، وأخذ عبد الجليل يسعل، فضحك، فضحك منه شرارة ومضى يقول وكأنها عبث المزاج برأسه:

- إن بلدكم هذا عظيم.. الناس هنا عقولهم «على قدهم» ويستطيع الإنسان أن يجمع الذهب من جيوبهم.. إنه بلد لطيف، حبذا المقام فيه.. أتدري فيم أفكر؟.. أفكر في اتخاذ بيت هنا وزوجه أيضاً.. ليس عندي إلا اثنان.. وكنت في حاجة إلى ثالثة في ركن خفي كبلدكم هذا، أستطيع أن ألجأ إليه بين الحين والحين.. هذه مملكة صغيرة.. والله العظيم لو فكرت في ذلك العصر لكنت الآن

متزوجًا.. ليس في الدنيا أسهل من الزواج، وما من رجل إلا
ويزوجك ابنته دون مناقشة.. يا سلام!.. غدًا بإذن الله أتزوج
واكترى بيتًا أجعل فيه مخزنًا أضع فيه بضائعي.. المهم عندي
أن أجد بنت ناس تستطيع المحافظة على مالي.. يا سلام يا عبد
الجليل!.. أنت في جنة ولا تدري.. أمامك كنوز تستطيع أن تغرف
منها دون حسيب أو رقيب.. أتدري؟.. غدًا أذهب إلى قنا لآتي
بثوبين من الصوف أبيعهما لأهل البلد.. إنهم في حاجة إلى ملابس
جديدة للاستقبال.. أعضاء اللجنة على الأقل.. أليس كذلك؟..
متى يمر قطار قنا؟..

- هناك قطار صغير، «مواصلة»، يخرج في الساعة العاشرة..
- عال.. نذهب في هذا ونعود قبل المساء.. سأحاول العودة قبل
المغرب حتى أستطيع أن أجد ابنة حلال أتزوجها.. أما تستطيع أن
تدلني على بنت حلال؟..
- نم يا عم شرارة.. نم.. أنت متعب وفي حاجة إلى النوم.. وقد أذيت
نفسك بهذا السم الذي تشربه..
- فقاطعته شرارة بضحكته الجافية، زادها «المزاج» قبْحًا، ومضى يقول:
- سم؟!.. من قال لك أنه سم؟.. إنه مزاج وسلطنة وعافية.. يا
سلام يا عبد الجليل لو تشد منها نفسك، تشعر أنك في عالم آخر..
ماذا تريد؟.. الدنيا كما ترى ليس فيها ما يسر.. كلها هموم وبلاوي
وشقاء وتعب.. على الأقل هذا ينسينا ما نحن فيه.. والله لو

تدري ماذا يصنع الناس ليحصلوا على المعسل؟.. هناك من يبيع الصديري ليشتري به ورقة، بل من يبيع الذرة المحمصّة التي سيأكلها عياله.. يأخذها من على بلاطة الفرن ويذهب بها إلى البقال ليعطيه بها ورقتين.. لماذا هذا كله؟.. أليس لأنهم يجدون فيه ما لا يجدونه في الذرة؟.. قل لعجوزك هذه تصنع لنا شايًا.. أريد أن أتسلطن..

- العجوز نامت يا عم شرارة ولا سبيل لاقلاقتها، والشاي ينتظر إلى الصباح..

- الشاي ينتظر إلى الصباح؟.. أمجنون أنت؟.. الشاي.. سلطان المزاج.. ينتظر إلى الصباح؟.. أما إنك والله لمغفل.. والله إنك لو فتحت بيوت أهل بلدكم هذا لوجدت الرجال جميعًا جالسين الآن إلى جانب الشاي وفي أيديهم «جوزة» المعسل وما هو أحسن.. لا داعي لاقلاق العجوز!.. أليس عندك شاي وسكر؟..

- عندي..

- إذن هات كوزا..

وخرج عبد الجليل فأتاه بكوز الزير وهو يلعن الساعة التي عرفه فيها، وصنع الرجل لنفسه شايًا ومضى يشرب ويدخن ويسعل ويقول:

- يا سلام على الشاي.. كيف تنام دون أن تعمر رأسك؟.. أن نصف إيراد وجه قبلي يضيع على الشاي والسكر.. ووجه بحري أيضًا.. إنه يعدل المزاج ويساعد على الهضم ويفرح القلب.. ثروات

بأسرها ضاعت في هذا المزاج.. في أسيوط قرية اسمها «المولد»
أهلها يعيشون على الشاي.. الشاي فقط، يشربونه من الصباح إلى
المساء، يبيعون المحاصيل ويشترون الشاي والسكر..

- ألم تشرب الشاي عند العمدة؟.. أما كفاك هذا؟..

- شاي العمدة؟.. كوبان لكل واحد؟.. ما هذا؟.. إن عمدتكم رجل
بخيل.. العمد الآخرون إذا بدأ الشاي عندهم لا ينتهي، كلما فرغ
الكوب ملأوه من جديد.. إنهم سلاطين.. سلاطين شاي.. ينفق
الواحد منهم ما لا يقل عن أربعة رؤوس سكر في الليلة الواحدة..
هكذا العمد.. إن الشاي هو الذي يصنع العمد..

وكان عبد الجليل قد بدأ يغفو وشرارة يتكلم، ثم غلبه النوم هو الآخر
فأغفى حيث هو، ونهض عبد الجليل فنام في فراشه!.. وما هي إلا ساعات
قليلة حتى طلع الصباح وملاً الضوء حجرة عبد الجليل فصحا، وخرج
من غرفته فوجد هذا المغفل منبطحاً على الأرض كأنه جاموس وقد علا
غطيطه، و«الجوزة» ملقاة جانبه والنار مطفاة في «الشاليه»... وخرج عبد
الجليل واتجه نحو مكان العجوز، فوجدها في انتظاره ومحروس واقف إلى
جانبتها يأكل في هدوء وقد وضعت حول عنقه حبلاً علقت فيه الشارة..
وقدمت إليه خبزاً وجبناً وأعدت له الشاي، فجلس على الأرض وأخذ
يشرب الشاي بينما قالت العجوزة:

- ما هذا الذي أتيتنا به؟.. إنني لا أريد أن أراه هنا، ومحروس غير
مرتاح لوجوده..

- سيتركنا اليوم..

- في داهية..

وأخذ يأكل ويشرب في هدوء، ثم صحا شرارة، وأقبل فجلس وطلب شايًا ومضى يأكل، ثم نظر إلى محروس وضحك وقال:

- الله!.. هل وضعت للعجل شارة؟..

- ولم لا؟.. إنه مبروك.. إنه حارس البلد!..

- عندك حق.. إذا كان الثيران قد لبسوها فكيف تستكثرها على عجل لطيف كهذا؟..

وفرغا من الطعام والشراب وخرجا، فإذا شوارع البلد تتحدث عن «النياشين» التي بعث بها الملك إلى الأعيان ليلبسوها، وبين الحين والحين يمر طفل أو غلام يلبس الشارة، وتنظر إليه العيون باحترام شديد..

بدت القرية طوال اليوم في ثوب جديد. أصبح فيها ناس ممتازون، أعضاء لجنة محترمة يلبسون نياشين جميلة يزعم بعضهم أنها أرسلت من الملك خاصة، وتفاءل الناس خيرًا، وأول الغيث قطر، وترددت إشاعات بأن الملك سيرسل لأهل البلد قمحًا كثيرًا وقماشًا يعم أهلها جميعًا. ولم تجتمع اللجنة الموقرة، إذ كان لابد أن يحتفل الأعضاء يومًا أو يومين بهذا الشرف الذي نالوه، واتصل العمدة بالمركز ليسأل عن الأخبار فلم يجد شيئًا، ولكنهم قالوا له أن يستمر في استعداداته، وطلب إليه المأمور أن

يخف لمقابلته لينظرا معًا في أمور الاستعداد، فترك الدار ومضى يبحث عن سيارة تنقله. ووصل إلى المركز وقابل المأمور، فأبلغه بما تم فسر الرجل بذلك سرورًا عظيمًا، ونقل الأخبار إلى المدير فرضى عنها وأقرها، وقال أن أبا الشوارب عمدة عظيم، فكان لهذه الشهادة وقع الندي على قلبه.. وقال المأمور:

- انظريا عمدة.. أظن أن أول ما تبدون به هو ردم المنخفض الواسع بين جسر السكة الحديد وبين القرية.. إنه مستنقع بشع لا يجوز أن يراه الملك.. ثم.. كيف ينتقل الملك من المحطة إلى البلد؟ هل ينزل من الجسر على قدميه إلى المستنقع؟.. أهذا يليق بالملك؟..

- إن مساحة المنخفض نحو فدانين.. وعمقه نحو مترين وورده يتكلف كثيرًا..

- كيف يتكلف؟.. لا بد من ردمه.. لا بد أن يكون الطريق ممتدًا مستقيمًا من المحطة إلى القرية.. اجمع الأنفار وابدأ من غد.. لا بد من التخلص من هذا المنخفض.. إنه يتحول أيام الفيضان إلى مستنقع كريحه يملأ القرية بعوضًا.. انتهزوا الفرصة وتخلصوا منه..

- حاضر.. ولكننا في حاجة إلى أنفار!..

- لماذا؟.. عندك آلاف الفلاحين لا يصنعون شيئًا الآن، اجمع عددًا منهم وأعطيهم المقاطف وهم يردمون وجه قبلي كله إذا أردت..

- أمرك يا سعادة المأمور.. سأقول للناس إنه أمر من المديرية..

- قل ما تريد.. ولكن ينبغي أن تدفع للناس شيئاً، لقد أفرجها الله عليك والحمد لله..

ولم يكن العمدة قد أبلغ المدير بالمبلغ الذي جمعه كله، كان قد أبلغه أنه جمع نحو 400 جنيه، فبلغ ريقه وقال:

- ولكن المبلغ الذي لدينا لا يكفي..

- وهل تريد ألا تتكلف شيئاً؟.. فضل عظيم كهذا ساقه الله إليك تريد أن تستمتع به دون أن تتكلف شيئاً؟.. بع فداناً أو اثنين وانظر ماذا تفعل.. أفلو تزوج ابنك ما كنت تبيع أرضاً؟.. المسألة لا تحتاج إلى أكثر من ألفي جنيه.. فانظر كيف تدبر شيئاً ولا تدع هذه الفرصة تفوت من يدك..

- نرى بإذن الله يا حضرة المأمور..

وتحدث معه ساعة، ثم انصرف وقد امتلأ قلبه هماً.. خيل إليه أن بئراً قد انفتح تحت قدميه، بئر سيبتلع ثروته وماله.. وشغله الهم الجديد عن كل شيء عداه، ووصل القرية وقد علت وجهه غبرة، وبدا بوضوح أن أمراً ثقیلاً يشغل قلبه، فأصدر إلى عوض أمراً بجمع اللجنة وباستدعاء عبد الجليل وشرارة فوراً..

وأقبل عبد الجليل يجري مليباً طلب العمدة، ودخل عليه وهو يشرب القهوة، وأمامه خادمه عوض ومدبولي شيخ الخفر.. وكان العمدة يلقي تعليماته إلى هذا الأخير بتشديد الحراسة ووجوب «فتح العينين»، وانتظر مدبولي حتى فرغ العمدة من توجيهاته وتعليماته التي لا يصوغها إلا في

قالب الشتائم الدسمة التي لا تختص مدبولي وحده، بل تعم أهله جميعًا وربما شملت ببركاتها آباءه الغر الميامين، وكان مدبولي يؤمن على ذلك كله ويقسم بالله أنه ورجاله لا ينامون لحظة من ليل أو نهار، ثم أضاف:

- يا حضرة العمدة.. نحن نهلك في سبيلكم ونتعرض للأذى من كل جانب ومع ذلك فلا نحظى بشيء، وبالأمر فقط وصلت النياشين الملكية فوزعتموها على الأولاد والبنات، ولم تذكروا خادكم المسكين ورجاله بشيء، واليوم يسير كل «مسخوط» يلعب في التراب وعلى صدره النيشان، بينما مدبولي ورجاله يسرون في الطرق عرايا كأنهم من المغضوب عليهم..

فنظر إليه العمدة في احتقار بالغ وقال:

- ماذا عملت حتى تستحق نيشانًا؟.. لقد طلبت منك مائة مرة أن تأتيني بأخبار خليل سلامة وأصحابه وماذا يدبرون لنا فلم تأت بشيء، وكل ما تأخذه منك طلب المال والنياشين، ويوم وصولنا من القاهرة نزلت أنت ورجالك على الطعام كأنكم جراد، ثم قضيتم بقية الليل ممددين في الطرقات كأنكم تيوس..

وكان مدبولي في نفس الوقت رئيس مخابرات العمدة في القرية، فتلفت شمالًا ويمينًا، ثم اقترب من العمدة، وقال في صوت ظن أنه همس مع أن المارين في الطريق أمام بيت العمدة سمعوه بوضوح:

- لا تسل يا حضرة العمدة عن خليل سلامة وأولاده.. إنهم ميتون في جلودهم من الخوف، وهم لا يتمنون إلا أن يرحمهم العمدة ويسكت عنهم..

- ومن أدراك؟..

- عندي أخبار يا حضرة العمدة.. بلغهم أن سعادة المدير فوض إليك الأمر إذا أردت أن تحبسهم فعلت، فأسرعوا إلى المديرية وقابلوا الحاكمدار ورجوه أن يتوسط لهم لدى سعادة المدير حتى لا يصيبهم شر..

- وماذا قال لهم الحاكمدار؟..

- قال لهم: هذا ليس عملي، الأمر أمر العمدة وهو يفعل ما يريد، إنه مقرب جدًا من جلالة الملك، وقد أمر الملك بأن نضع أنفسنا جميعًا في خدمة العمدة..

فابتسم العمدة سرورًا ونظر إلى مدبولي وقال:

- والله إنك لكذاب يا مدبولي..

- ثلاثة بالله العظيم ما أقول غير الصدق يا حضرة العمدة.. والله العظيم ما عاد خليل سلامة من المديرية إلا ووجهه كالهباب من شدة الغم، وقد كلم الحاج قرني في أن يتوسط بينه وبينك حتى لا تفعل به شيئًا، وحدثني الحاج قرني نفسه في الأمر..

- ولكنه لم يقل لي شيئًا، كان عندي صباح أمس واكتفى بأخذ نيشانين له ولابنه محمود ثم مضى..

- الحاج قرني قال إنه لا يريد أن يحشر نفسه بينك وبين خليل سلامة، وهو يخشى أن تغضب عليه إذا كلمك في الأمر..

- هل قال لك ذلك؟..

- نعم..

- إذن فاذهب إليه حالاً وقل له يتفضل، فإني أريد أن أحدثه في الأمر..

- حاضر يا أفندم..

وظل واقفاً، فصاح فيه العمدة:

- مالك واقف كاللوح لا تتحرك؟..

- النيشان يا حضرة العمدة.. أريد أن تتفضل على بنيشان..

- والله ما عندي..

ثم قال لعوض:

- ادخل وهات نيشان من التي عند الأولاد..

ودخل عوض، ولم يلبث العمدة أن سمع صياحاً شديداً وبكاء أطفال، ثم عاد عوض وقال:

- الأولاد لا يريدون يا حضرة العمدة..

فنظر العمدة إلى عبد الجليل وقال:

- أليس عندك أنت؟..

- ليس عندي إلا هذا الذي ألبسه..

- إذن أعطه لمدبولي، وسأنظر لك في واحد آخر..

وخلع عبد الجليل نيشانه وناوله لمدبولي، فوضعه هذا وقبل يد العمدة

ودعا له ثم خرج، وقال العمدة لعبد الجليل:

- أين شرارة؟..

- ذهب إلى قنا وسيعود في المساء..

- ولماذا ذهب؟..

- قال إن لديه بضعة أثواب من الصوف يريد أن يبيعها لأهل القرية في هذه المناسبة..

- هل هو تاجر حقاً؟..

- لا أدري.. إنه كل شيء..

- إنني غير مرتاح إليه.. يبدو عليه أنه محتال.. ولكنه ذكي نستطيع الاستفادة منه في هذه المناسبة، وبعد ذلك نظرده..

- على أي الأحوال أنا أنصح بالحذر منه. إنه يقيم عندي في البيت ويضايقني، وهو يشرب المحرمات..

- الخمر؟..

- لا.. الحشيش والعياذ بالله..

- لا يهم.. ولكن من أين يأتي به؟..

- لا أدري!.. ثم إنه يريد أن يتزوج ويستقر في البلد..

- يتزوج؟.. ومن يزوج صعلوكاً مثله؟..

- لا أدري، ولكنه يقول إنه يستطيع أن يكسب الذهب في هذه البلدة، وقد عول على الزواج والاستقرار هنا..

- الزواج ممكن.. أما الاستقرار فلا.. ليأخذ بنتًا من بنات المساكين -
وهي كثيرات - ويمض عنا بها.. إني لا أريد هذا الرجل في بلدنا..
قل له ذلك..

- ألا يستحسن أن نقول له ذلك بعد الاحتفال؟..

- سأقول له أنا.. دع هذه المسألة لي..

ثم بدأ الناس يصلون، وصل الشيخ غراب والحاج أبو تراب وعبد
الغفور الفخراي، وأخذ العمدة يحییهم ويرحب بهم، ولم يلبث الشمل
أن اجتمع بحضور بقية الأعضاء، واعتدل العمدة كأنه رئيس وزراء في
مجلسه، وكانوا من حوله سعداء مستبشرين، ثم ألقى إليهم بجلية الخبر
فطار الابتسام عن وجوههم وتجهموا، إذ أحسو أن في الأمر مغرمًا
جديدًا، وبدأ بعضهم يلعن الظروف التي جعلته عضوًا في لجنة المغارم
هذه، وكان الشيخ غراب معروفًا بالصراحة وعدم المبالاة، فقال:

- من قال هذا الكلام يا أبا الشوارب يا عمدة؟.. نردم مساحة لا
تقل عن أربعة فدادين من أجل يوم؟.. تتكلف ألف جنيه ونحن
نستطيع أن نضع سلمًا خشبيًا ينزل عليه الملك ومن معه بكل
راحة؟.. هذا المنخفض موجود من أيام الفراعنة، ولم يستطيعوا
ردمه لا هم ولا السلاطين، ثم نأتي نحن فنردمه.. وفي أيام؟!..

وقال أبو تراب:

- عنده حق الشيخ غراب، ما هذا الكلام الذي يقوله المأمور؟.. إن
كان يريد ردمه حقًا فليبعث بأنفار من عنده، والمديرية غنية وفي
خزائنها المال لا يعرفون ماذا يصنعون به..

وأيد بقية الحاضرين هذا الرأي، وكاد زمام الأمر يفلت من يدي
رئيس المجلس الموقر، ورأى أن مسألة الأخذ والرد هذه وتبادل الآراء
لا جدوى منها، فعول على العودة إلى طريقة العمد الأصلية، فhez رأسه
في أسف وقال:

- وما العمل إذا كان المأمور يقول إن هذا أمر من المدير؟..

فقال الشيخ أبو تراب:

- اسمع يا صادق يا أخي، إنني أعرف هذا المأمور، إنه نمس لا يصدق
له كلام، وهو يتقول على المدير أشياء كثيرة، فلا يهmk أمره..

- كيف لا يهمني أمره؟.. إنه المأمور ورقبتنا في يده بسبب هذه الزيارة..
إن السراي تنصل به كل يوم لتستعلم منه عن سير الأمور، لأن
هذه أول مرة يزور الملك قرية، وهم يخشون أن تفشل، فاسترونا يا
إخواننا.. إننا لن نتكلف كثيرًا، فالصندوق فيه 1200 جنيه..

فأسرع غراب يعارضه كالقنبلة:

- 1400 يا عمدة.. لقد حسبتها بكل دقة، وكتبت ما دفع كل واحد
في ورقة معي، أتحب أن أقرأها عليك؟..

وأخرج ورقة وبدأ يقرأ، فقال العمدة:

- لا لزوم، لا لزوم.. أظنك على حق.. كم المبلغ يا عبد الجليل؟..
إنه عندك في الدفتر..

فقلب عبد الجليل في أوراقه ثم قال:

- 1400 جنيه يا حضرة العمدة.

فرفع العمدة يده إلى رأسه وقال:

- تبقى على حق يا شيخ غراب.. لقد اختلط على الأمر وفي ذهني هذه الأيام آلاف المسائل.. أقول لدينا ما يكفي..

فقال الشيخ الفخراي:

- ولماذا نمس هذه النقود؟ هذه المسألة ماذا تحتاج؟.. عددًا عن الأنفار والمقاطف والفؤوس. الأنفار موجودون، والمقاطف والفؤوس موجودة.. كل واحد منا يرسل نحو خمسين من رجاله الذين لا يصنعون الآن شيئًا، وهؤلاء يأتون بعدتهم ويقومون بالعمل.. إن مساحة «الجورة» لا تزيد على فدان، ومائتا رجل يردمونها في يومين..

فقال العمدة:

- هكذا، دون أن ندفع لهم شيئًا..

فعاد الفخراي يقول:

- ماذا ندفع لهم؟.. إنهم يتسكعون بالآلاف دون أن يجدوا شيئًا يعملونه..

فقال أبو ركب:

- هذه سخرة يا فخراي يا أخي.. وأنت في أرضك تستطيع أن تعمل

ما تريد.. ولكن هؤلاء سيعملون عملاً للحكومة، ولا تستطيع أن تسوقهم بالكرباج..

فقال الفخراي كالمستغيث:

- يا ناس.. يا ناس حرام عليكم، أفسدتم علينا الفلاحين حتى ما عاد الواحد منهم يرفع يدا بتحية إلا إذا أخذ نقوداً.. لقد تبغددوا علينا وأصبح الواحد منهم يتقاضى خمسة قروش كاملة في اليوم، دون أن يؤدي شيئاً..

فقال غراب:

- حرام عليك يا شيخ فخراي.. أنت لا تدفع لرجالك إلا قرشين ونصفاً في اليوم، والبركة في زبانية جهنم الذين تسلطهم على الناس..

- وهل لابد أن أكون عبيطاً مثلك؟.. تدفع للأنفار خمسة قروش كأن النخل يسقط لك نقوداً..

- حقوق الناس يا عم فخراي.. حقوق المساكين أوصى عليها الله سبحانه وتعالى.. أم تنهب المساكين لكي تشتري الفدادين؟..

- على أي الأحوال ليس من رأيي أن ندفع شيئاً..

فقال الشيخ أبو تراب:

- نستطيع أن نوفق بين الأمرين.. نعطيهم خمسة قروش في اليوم، على أن يأتوا بالمقاطف والفتوس من عندهم، ويردم الواحد

منهم مترين في اليوم.. إن مساحة «الجورة» فدان يعني 4000 متر وعمقها في المتوسط متران فالمجموع 8000 متر، فإذا حسبنا المترين بخمسة قروش كان المجموع.. اللهم صل على النبي.. اللهم صل على النبي..

فقال الشيخ فخراي:

- 200 جنيه..

فقال غراب:

- بسم الله ما شاء الله.. يا لك من حسيب..

فقال العمدة:

- هل هذا شيء بالنسبة لما يحسبه الشيخ فخراي كل يوم؟.. قناطير القصب لشركة السكر، وقناطير القطن للبنك، وكله بالألوف..

فقال فخراي غاضبًا:

- انظر يا عمدة.. إن الله لا يحب الخسود، وأنا لم أشارك معكم لكي تحسوا أموالي.. والله ما أنا باق في لجتكم هذه..

وقام خارجًا، وحاول الناس أن يردوه دون جدوى، فقد وجدها فرصة ليفلت من دفع المائة جنيه التي أخرج وتبرع بها أمس، ولم يكن قد دفعها بعد، ومن هنا فقد كان غضبه شديدًا لكرامته التي أهينت، ولو اجتمع البشر كلهم ليردوه إلى مكانه ما استطاعوا، فإنه لم ينم ليلة أمس، وأرسل له العمدة اليوم مرتين ليأخذ المال فاعتذر في المرتين، ثم أتى وفي

نفسه أن يشير مشكلة من هذا النوع تبرر له الغضب بالانسحاب من اللجنة، وقد تم الانسحاب والحمد لله، فمنذ الذي يردده؟..
ولم يتنظم الاجتماع بعد ذلك، لقد زعزع هذا الرجل أركان المجلس وفتح باباً خطراً، ولم يفز العمدة آخر الليل بأكثر من وعد من كل من الحاضرين بأن يبعث في الغد بخمسين رجلاً على أن يقود العملية درويش شيخ أنفار العزايمة، وكان رجلاً عاتياً خبيراً بتشغيل الأنفار وصب العذاب عليهم ليدخلوا أقصى جهدهم، وبعث العمدة إلى درويش واتفق معه أمامهم، وانفض الاجتماع على أن يبدأ العمل من الصباح الباكر على أن تردم الجورة بالحجر الجيري والرمل..

نام العمدة قرابة منتصف الليل، وكان قد أجهد من متاعب النهار فما وضع جنبه على الفراش حتى غرق في النوم. ونامت القرية كلها أيضاً كما نامت كل ليلة، نامت لتصحو في الصباح على صياح ديك عم بيومي!..
غير أن الحوادث لم تشأ أن تنتظر صياح الديك في الصباح، فما تقلب العمدة في فراشه من جنب إلى جنب حتى طرق الباب طرقة عنيقا، فقام إليه عوض يسير الهويني، وفتح الباب ليجد نفسه أمام مدبولي وقد بان في وجهه الفرع وهو يقول:

- قتيل يا عوض.. أيقظ العمدة وقل له في البلد قتيل!..
ولم يكن عوض قد أفاق تماماً، فمضى يحك جلده ورأسه وقد ضاقت عيناه وتجمعت تقاطيع وجهه حتى بدا وكأنه عقدة، وقال وهو يتثاءب:
- قتيل..؟ قتيل إليه؟

فصاح فيه مدبولي:

- قتيل يا طور.. قتيل.. امرأة مقتولة..

وأفاق عوض بعض الشيء وقال:

- من؟.. من القتيل؟..

- أيقظ العمدة يا عوض الكلب وقل له.. أمش..

وتحرك عوض في بطاء شديد، ثم توقف وعاد يقول:

- ألا يستطيع أن ينتظر إلى الصباح؟..

وشد مدبولي شعره وكاد يلطم خديه وصاح:

- يا ليلة أبوك سودة يا ناس!.. يا بني آدم.. أنت مش بني آدم؟..

ووقف عوض في أول الدهليز الطويل المؤدي إلى الجانب الذي ينام فيه العمدة، ثم نادى سكينه الخادمة نحو عشر مرات حتى ردت عليه، وأقبلت شعشاء غبراء غاضبة وهي تلعنه، فطلب إليها أن توقف العمدة وتبلغه أن هناك قتيلاً، فأفاق عندما صك سمعها اللفظ الأخير، وريعت روعاً شديداً، وجعلت تستعيز بالله ثم مضت مسرعة تدق باب العمدة حتى صحا، فصرخت له من وراء الباب، فقفز من فراشه فصار أمامها وقال:

- قتيل؟.. قتيل؟.. من قال ذلك؟.. أين هو؟..

فقال عوض:

- نعم يا حضرة العمدة.. مدبولي جاء بالخبر..

- وأين مدبولي الكلب هذا؟..

وتردد صوت مدبولي:

- أنا يا حضرة العمدة.. أنا مدبولي..

فسار العمدة حتى وقف في وسط الدهليز، وأتت سكينه بمصباح غاز وقفت به خلف العمدة، فبدت هيئته الضخمة وعليها الجلباب كأنه كلة واسعة، ومضى يحك ظهره وينظر لمدبولي بعين وقد أغلق الأخرى وسعل ثم قال:

- إيه؟.. إيه يا مدبولي؟.. قتيل إيه؟..

- وجدناها على شط الترعة يا حضرة العمدة.. يظهر أنها امرأة وجدها الولد عشم الخفير..

- قتيلة إزاي؟..

- بسكينه يا حضرة العمدة.. وجدنا آثار السكاكين في ظهرها..

- بلغت النقطة؟..

- لا يا أفندم.. لا يعلم بالأمر أحد..

- طيب.. احموها بعيداً عن زمامنا.. هل أنا محتاج أن أقول لك ذلك؟..

- سنعمل ذلك يا حضرة العمدة.. أحببت فقط أن أبلغكم..

- وهل هذه مسألة توقظني من أجلها في عز الليل؟.. أما قلت لك ألف مرة أن تعمل اللازم ثم تبلغني في الصباح؟..

- يا حضرة العمدة هذه جناية ومسئولية كبيرة، ولا بد من تبليغ
حضرتك..

- طيب.. هيا اعمل ما قلت لك..

ثم تتأهب واستدار ذاهباً إلى حجرته وهو يحك جلده، ثم التفت إلى
مدبولي وقال:

- مدبولي.. لا يسمع بهذا الخبر أحد.. قل للولد عشم يربط لسانه..

- حاضر يا حضرة العمدة!..

ومضى فدخل حجرته وأغلق بابها، وعادت سكينه بالمصباح فوضعت
على الأرض في آخر الدهليز، ثم ذهبت لتواصل النوم، وأغلق عوض
الباب، ثم أسرع إلى فراشه وقد تمشت في جسده قشعريرة لذكر القتل
والسكاكين، ثم لف نفسه ببطانيته لفاً محكمًا كأنها يخفي نفسه من الأبالسة،
ومضى يقرأ الفواتح وآية الكرسي رجاء أن يبعدها الله عنه.

رقد العمدة في فراشه ولكن النوم لم يزر جفنيه، شغله الحادث وخشى
أن يكون ذلك من تدبير خصومه لكي يسيثوا إلى سمعة القرية ويصرفوا
الملك عن الزيارة، وأخذت مخاوفه تتزايد، فقام وقعد في فراشه، ثم خرج
فاجتاز الدهليز وهو ينادي عوض، ونهض هذا إليه، فأمره بأن يأتيه
بالسجائر. وأشعل واحدة، وجلس على كنبه في الردهة، وكانت الليلة
باردة، فأتاه عوض ببطانية وضعها فوق كتفيه ولف بدنه، وأمر سكينه
أن تصنع له شاياً، ومضى يدخن ويشرب الشاي ويفكر، ونظره متجه إلى
باب الدار.

ومضى مدبولي وهو يلعن الأحياء والأموات جميعًا، القتل من غير القتل، وكان اثنان من مساعديه الخفراء يسيران من خلفه حتى أشرف على شط الترعة حيث وقف عشم وثلاثة خفراء إلى جانب الجثة الممددة على الأرض، فلما وصلهم قال:

- هيا يا رجال.. أمر العمدة بالقائها خارج الزمام.. هيا احملوها وامضوا بها إلى حدود الداوودية..

فقال عشم:

- إنها مسافة عشرة كيلومترات يا أفندم.. كيف نحملها هذه المسافة الطويلة؟.. إننا لن نصل هناك إلا مع الصباح..

- يعني، تريد أن ندعها هنا إلى الصباح؟..

- لا.. ولكن الأحسن أن نرميها في الترعة ويحملها التيار، والتيار سريع..

- وإذا عاد وألقاها على الشاطئ في زمامنا؟..

- نسير في مقابلها على الشاطئ، فإذا اقتربت منه أبعدناها عنه..

- طيب.. هيا احملوها وألقوا بها.. ولكن في وسط الترعة..

وخلع خفيران ملابسهما، وحملا الجثة ونزلا الماء البارد فارتعدت فرائصهما.. حتى إذا بلغا وسط التيار ألقيا بها، ثم عادا إلى الشاطئ..

ولم تكن الليلة حالكة الظلمة، كانت الليلة الثالثة أو الرابعة من الشهر، وقد غمر الكون ضوء خفيف كأنه شبه الظل. وبدت الجثة وسط

التيار كتلة سوداء طفا أqlها وغاص معظمها، ووقف شيخ الخفر ورجاله يراقبونها والتيار يمضي بها رويداً كأنها يحرسونها أو يشيعونها إلى مقرها الأخير.. وقال شيخ الخفر وهو يشعل سيجارة:

- تستحق ما جرى عليها.. لابد أنها أساءت السيرة فتخلص منها أهلها على هذا النحو..

- وما أدرك أنت بالحقيقة يا عم مدبولي؟.. أما يكفيها ما جرى لها؟..
ألا يمكن أن تكون قد قتلت أخذ بالثأر؟..

- أيها الغبي!.. هل يدرك الثأر بقتل امرأة؟.. وهل دم المرأة يطل دماً؟..

- عندما يقتلون المرأة بالمرأة..

- أنتم بحاروة.. أما نحن فصعايدة لا نأخذ الثأر إلا من دم الرجل، ولا نقتل المرأة إلا لغسل عار..

وكانوا يسرون على الشاطئ بحذاء الجثة، وفجأة وجدوها تميل نحو الشاطئ، فهتف عشم:

- يا ليلة سوداء.. إنها عائدة..

- أسرعوا لتبعدها..

ونزل واحد منهم إلى الماء، وأخذ يسير في اتجاه يلتقي فيه بالجثة، ولكنه أخطأها، واتجهت إلى الشاطئ، واستقرت عنده. وصاح الرجل:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. كأنها حية وليست ميتة، لقد أفلتت مني كأنها تعرف أين تريد..

وصاح مدبولي:

- ماذا جرى يا بهيم؟.. هكذا تركها تعود؟..

- وماذا أفعل يا عم مدبولي؟.. إن البرد قارس وعظمي يكاد يتفتت..

- ذلك إنك امرأة.. وأنا أعرفك لا تفlech في شيء.. انتظر مكانك

حتى يأتيك «عشم» ليدفعها معك..

ونزل «عشم»، فدفعها الجثة إلى وسط المجرى وتركها، ثم عادا إلى

الشاطيء، ولم يكادا يرتديان ملابسهما حتى جعلت الجثة تنحرف نحو

الشاطيء من جديد، وصاح أحد الخفراء:

- يا ليلة مهيبة!.. إنها عائدة.. أقسم بالله العظيم ثلاثاً أنها ليست

ميتة.. إنها حية وتحاورنا.. اقرءوا آية الكرسي يا رجال..

وعندما فرغوا من التلاوة كانت الجثة قد استقرت على الشاطيء، وبدا

الغضب في وجه مدبولي ومضى يقول:

- صدق من قال إنها مجرمة بنت مجرمة.. لو أنها حية لعرفت كيف

أخسف الأرض بها، ولكنها ميتة.. وما حيلتنا أمام الأموات؟..

وقال «عشم»:

- نحفر وندفنها!..

- ما أذكاك!.. لعن الله من جعلك خفيراً، لو أن التخلص من الجثث

يتم بدفنها لم تعب أحد!..

- ومن يدري أننا دفناها؟..

- هي تعلن عن نفسها، أن الجثث خبيثة، إنها أخبت من الأحياء!..
تستطيع أن تسجن رجلاً عمره كله دون أن يدري بأمره أحد،
ولكن الجثة لا تسكت، ولو أنك دفنتها في سابع أرض لعرفت
كيف تخرج إلى ظاهر الأرض، وتعلن عن نفسها. لو دفناها الساعة
لأسرع عشرة ذئاب من أطراف المديرية ففتشوا وأخرجوها كأنهم
موظفون في الداخلية.. إنك لا تعرف الجثث وحيلها كما عرفت
أنا.. عشرات الأعوام أصارعها وتصارعني.. وخصوصاً جثث
النساء.. إنها تجتذب الذئاب والكلاب والضباع من عشرات
الكيلومترات.. هيا.. الوقت يفوت والصبح يقترب..

ونظر إليه مساعدوه وقالوا:

- ماذا نعمل؟..

ثم سمعوا وقع أقدام، فجفت دماؤهم، ونظروا في اتجاه الصوت، ولم
تلبث أعواد القصب أن انفجرت وخرج منها شبح إنسان، وكان أصعب
مدبولي على زناد البندقية على أهبة لاطلاق الرصاص، ثم أفرخ روعه
عندما سمع الصوت يقول:

- السلام عليكم..

فقد عرف أنه الشيخ أبو بكر، وهو رجل مسن صالح يعيش على
هامش القرية. كان الصلاح حرفته ومورد رزقه.. كان يطالب الناس
بأن يطعموه ويكسوه ويرعوه لأنه صالح يصلي ويصوم ويقرأ الأوراد
ويعمل الرقي والأحجية، وكان يبدو «عبيطاً» ذاهلاً حتى تكتمل له

صفات الصلاح ومؤهلات الولاية، وحتى يدخل البيوت ويخرج منها دون حرج ويصيب من طيبات الدنيا ما يريد بالعبط حيناً، وبالخبث حيناً.. وكان الناس يحترقون شخصه ولا يقيمون له وزناً، ولكنهم كانوا يخشون دعواته، وفي مجتمع بسيط كمجتمع كفر سهيل كان الشيخ أبو بكر رجلاً فوق القانون، يشتم هذا ويسب ذاك، ويمد يده لياخذ ما يريد، وربما مد يده على الحريم، والناس يضحكون منه ويغفرون له كل شيء، ويرجون الدعوات الصالحات..

ورد مدبولي السلام ووقف جامداً مكانه ومن حوله رجاله، ونظر إليه الشيخ أبو بكر وأمسك بلحيته البيضاء وقال:

- ماذا تعمل يا مدبولي؟.. تدبر جناية أم تضبط جناية؟..

فقال مدبولي في حزم:

- امش لشغلك يا شيخ أبو بكر.. توضأ وامش لصلاتك.. لسنا في موقف هزل..

- لا بد أن هناك جناية..

- قلت لك امش في طريقك يا شيخ..

- ومالك خائفاً هكذا!!.. أتحاف مني يا مدبولي؟.. ألا تعرف أنني كتام الأسرار.. لا أفث فمي إلا لمن خلقني؟..

ثم نظر حوله، ودار ببصره حتى وقع على الجثة الطافية على الماء إلى جانب الشاطئ، ثم قال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. قتيل!..

- أجل.. قتيلة.. عثرنا على جثتها الساعة.. حملها التيار من قبلي..

- أم من بحري؟.. إن تيار مشايخ الخفر يحمل شمالاً ويميناً.. لا تخف
يا مدبولي.. ربنا يغفر لك ولرجالك.. ماذا تعملون؟.. مساكين..
أيديكم في دماء الناس ليل نهار.. لا حول ولا قوة إلا بالله!..

ثم اقترب من الشاطئ، ونظر إلى الجثة وقال:

- قتلوها!.. صدق الله العظيم: وإذا الموءودة سئلت.. بأي ذنب
قتلت..

- هذه ليست موءودة يا شيخ أبو بكر.. إنها امرأة طويلة عريضة كما
ترى..

- كل نسائك موءودات.. مصيرهن من المهل إلى القبر.. تعيش
الواحدة خمسين عامًا أو مائة عام.. ثم تموت كأنها دفنت يوم
ولدت.. الآن تقوم لها الدنيا وتقع لأنها قتلت، لو أنها كانت
على قيد الحياة لما حفل لها أحد.. هنا الحياة مصيبة على أصحابها،
والموت بدء الحياة!..

- هيا يا شيخ.. دعنا!..

واقترب منه مدبولي فأمسك بذراعه وهزه في عنف قائلاً:

- ليس هذا وقت عبط ومشیخة.. هذا الموضوع لا يعلم به إلا أنت..
والله لو تطرق الخبر للناس ليكونن مصيرك مصير هذه المشتومة..

فضحك الشيخ وقال:

- يا ليت!.. إنني أنتظر الموت من سنوات.. لو مت اليوم لأصبحت ولياً ولأقاموا لي ضريحاً وأوقدوا لي الشموع.. المصيبة أنني لا أموت..

ثم سكت لحظة، ونظر إلى مدبولي وقال:

- ومن قبري أخرج لأقبض روحك وروح أهلك.. وأرواح مجرميك هؤلاء.. أحرقكم بالنار.. وألقى بكم في أضيق السجون.. هيا يا ملعون اقتل!..

فتركه مدبولي وهز يديه في ضيق وقال:

- يا شيخ أبو بكر دعنا في شقائنا.. أما كان الأفضل أن تقول لنا ماذا نعمل بهذه المصيبة التي حلت بنا؟.. ناس قتلوا هذه اللعينة وألقوا بجثتها في الماء، وحملها التيار إلينا.. والوقت ليس وقت جثث ولا جنايات.. البلد يستعد للملك.. ولو ظلت هذه مكانها لانقلبت الدنيا، ولو سمع الملك بالأمر لعدل عن الزيارة..

- ليعدل.. وماذا في ذلك؟.. وما هو الملك؟.. أليس ظالماً جباراً من مرده الأرض؟..

- ماذا نعمل يا شيخ؟..

- بلغ النقطة يا رجل!..

- يقتلني العمدة!..

- لن يستطيع.. إنه يريد أن يكتم الموضوع مثلك.. ووكيل النيابة
والمأمور.. كلهم سيعملون عملهم ويكتمون الأمر.. مم تخاف؟..
وكان الانتظار قد طال بالعمدة، وأخذ القلق يساوره، فنادى نفرًا
من المتسكعين الذين ينامون على باب بيته ومضى بهم إلى مكان الحادث،
وسمع مدبولي وقع خطواتهم فراحت روحه وارتعد، ثم سمع صوت
العمدة فأصابه خوف شديد، ثم اتجه إليه وقال:

- والله يا حضرة العمدة أخذناها أكثر من ثلاثة كيلو.. ولكن التيار
أتى بها من جديد..

- لأنك حمار ابن حمار وأنا أعرفك.. لا بد أنك ألقيتها قبلي فأعادها
التيار إليك..

- لا والله بحري.. عند زمام الداودية..

- وما العمل؟..

فقال الشيخ أبو بكر:

- بلغوا الحكومة يا عمدة.. إذا لم تكونوا أنتم القتلة فبلغوا الحكومة..

- وما أدخل الشيخ أبو بكر في الموضوع؟..

- ربنا.. ربنا القادر على كل شيء يا عمدة.. ربنا أوقفني لهذه المسكينة،
فلعلها مظلومة.. بلغوا الحكومة..

- وماذا نحن؟.. ألسنا الحكومة؟..

- لا.. أقصد الحكومة.. خذ نصيحتي.. هل غششتك أبدًا؟.. إذا

كنت أنت القاتل فهذه مسألة أخرى، وإذا لم تكن فافعل ما أقول لك..

- وإذا دفناها؟..

- تدفنها الآن فتخرج للنور قبل صلاة الظهر.. الجثث لها أرواح يا عمدة وأنت تعرف.. لا تخش شيئاً.. المديرية كلها ستكتنم الخبر.. كلهم يخافون من الملك كما تخاف أنت.. توكل على الله..
فهز العمدة رأسه يائساً، وقال لمدبولي:

- أحرسها جيداً يا شيخ البهائم.. سأعود إلى الدار لأبلغ النقطة..
وعاد العمدة، ولم يبق إلا شيخ الخفر وخفيران والشيخ أبو بكر، فقال هذا وهو يضحك ويضرب كفاً بكف وينظر إلى السماء:

- تصاريفك في الكون عجب!.. نصرت القتيلة الغريقة على ألف شنب!.. هذا أول انتصار لهذه التعيسة منذ أن ولدتها أمها.. طول عمرها يدوسها الأحياء بأقدامهم، ثم ودعوها بسكين في ظهرها وقذفوا بها في الماء.. وها هو العمدة وخفر البلد يتراجعون أمامها منهزمين.. تصاريفك في كونك عجب!.. الآن يأتون لها بالطبيب ليكشف عليها، ليكشف عن صحتها!.. عاشت عمرها كله بالأسقام والأمراض فلم تر الطبيب ولا الدواء، فلما ماتت أتوها بالطبيب.. دخلت الدنيا من غير حكيم.. ولكنها لا تدخل القبر إلا بحكيم.. عجب!.. عجب يا أهل النظر!.. يجعل الميت أقوى من الحي وأعظم.. أتعرف يا عم مدبولي سيدي هدهد؟..

هذه العظام التي يقوم عليها ضريح .. إنه أقوى إنسان في البلد..
إنه هو الملك.. أعظم من ملككم الذي تريدون أن تقبلوا الدنيا
لأجله.. لم يصل إلى هذه الكرامة قبل موته. في حياته كانوا يسمونه
الشيخ العبيط، يسخر منه الرجال وتتنذر به النساء ويرميه الأولاد
بالطوب، فلما مات أصبح «سيدي هدهد»، سيدي وسيدك وسيد
العمدة وسيد الملك أيضًا.. حلت به بركة الموت.. إنه الآن يحكم
البلد، لا تتقل قدم عن قدم إلا بإذنه: إذا حبلت امرأة حملت إليه
شمعة وفولاً وخبزاً، وإذا لم تحبل حملت إليه أضعافاً لكي تحبل..
وإذا ولدت غلاماً أوقدت له الشموع، وإن ولدت بنتاً أوقدت له
شموعاً أكثر.. سلطان.. سلطان يعطيه ربك لمن يشاء.. عجب!..
تصاريقه في كونه عجب!.. لو أنه نظر إلى امرأة في حياته قتلوه..
وبعد أن مات يبعث الرجل امرأته لتنام تحت قبة الشيخ لتحمل..
وتحمل!.. ويفرح زوجها ويطعم المساكين شكرًا للشيخ.. في كل
بلد، قبلي وبحري، كبير وصغير، شيخ كهذا يحكم ويأمر وينهي..
هذا البلد يحكمه الأموات.. تريد أن تصبح مديرًا يا مدبولي؟.. إذن
مت! لا يكلفك الأمر إلا أن تموت ويقوم ابنك فيني على عظامك
ضريحًا فتصبح سلطان زمانك وكل زمان.. الموت يا مدبولي أكبر
نعمة في هذا البلد.. إنه بركة.. والله بركة!.. أتريد أن أدعو لك
دعوة تنفعك؟.. إلهي ربنا يقصف رقبتك.. قل إن شاء الله!..
- جنت يا شيخ أبو بكر؟..

- أجل جنتت.. وما له الجنون؟.. الجنون أحسن بكثير من عقل
كعقلك لا يفكر إلا في الطعام والشراب.. كل أهل بلدتنا هؤلاء
عقلاء، بل في منتهى العقل، لا يفكر أحدهم في مغامرة أو مخاطرة.
إنهم يعيشون بعقلية الفأر الحذر الذي لا يخرج رأسه من الشق إلا
بعد أن ينظر ألف مرة ويحسب ألف حساب، ولهذا فهم يعيشون
حياتهم كلها فيرانا في الشقوق.. لو أنهم لم يكونوا عقلاء لصاروا
أسودًا.. لعرفوا طعم الحياة.. هذه الدنيا يا مدبولي بينها المجانين
ويخرجها العقلاء..

ونظر، فإذا مدبولي قد قرفص إلى جانب الجثة وأغفى، أصبح جثة هو
الآخر.. جثة تحرس جثة!.. وكانت أشعة الشمس قد بدأت تمتد في أذرع
طويلة باهتة، فأسرع الشيخ ليتوضأ ويصلي، وبينما هو ينوي الصلاة بعيدًا
عن موضع الجثتين سمع صوت سيارة قادمة، فعرف أن الدنيا قد أقبلت
لتحتفل بهذه التي شاءت أن تزور القرية قبل أن يزورها الملك بأيام..

ورأى الشيخ وهو يصلي الجنود يقفزون من سيارتين وخلفهم ضابط
النقطة ووكيل النيابة والطبيب الشرعي والعمدة والدنيا كلها وختم
صلاته وهو يتأمل أولئك الذين يروحون ويحيثون ويتكلمون في عصبية
كأنهم قد خرجوا من عقولهم، وسمعهم جميعًا يتواصون بالصمت
والكتمان، والعمدة يهدد بالويل كل من يقول حرفًا، وفهم أن هذا الإنذار
له أيضًا. وبالفعل، لا هو تكلم ولا أحد ممن حضروا تكلم. وحملت الجثة
في زكية، لكي تقتل مرة أخرى.. لكي تشرح.. ولتدفن بعد ذلك في محاضر

البوليس والنيابة، فليس من العدالة أن يعرف بخبرها أحد والملك على الأبواب، ولكن خبرها نمت إلى خصوم العمدة، وتلقفه زعيمهم خليل سلامة، ووجد أنه فرصة ليخرج من خوفه وصمته، وبدأ يتحرك.. وكما فعل العمدة من قبل، أسرع فأخذ اثنين من إخوته وشد رحاله مسافراً بهما إلى القاهرة، ليؤدي واجب الحقد والخصومة والانتقام، وهو عنده وعند أمثاله أوجب الواجبات في هذه الدنيا.

تلقى العمدة قبل الظهر من المديرية إشارة تليفونية عجب لأمرها. فقد كانت خاصة بالمدعو «عبد الجليل أبو قتب» ناظر مدرسة كفر سهيل، وقرأ العمدة الإشارة مثني وثلاث، وأنكر أن تأتي إشارة خاصة بعبد الجليل هذا وتسميه ناظر مدرسة، وليس هو ناظراً، بل ليست هناك مدرسة على الإطلاق، ثم إنها تقول إن مفتشاً من وزارة المعارف سيأتي في الصباح ليبحث مع الناظر المزعوم أمر الإعانة التي قررتها وزارة المعارف لمدرسته.

وعجل العمدة فبعث إلى عبد الجليل، فأتاه مسرعاً، فجعل يسأله ويحقق معه كأنه ارتكب جريمة: ما هي هذه المدرسة التي يزعمون أنه ناظرها؟.. ومن أبلغهم ذلك؟.. وكيف لم يبلغ العمدة خبر هذه المدرسة إلا الساعة؟.. ووقف عبد الجليل يدافع عن نفسه كأنه مذنّب، ومضى يشرح للعمدة ما كان من لقائه للشيخ مبروك ليلة ذهب العمدة ليتعشى في بيت رفيقي باشا، وكيف أنه التقى هناك بواحد من كبار موظفي وزارة

المعارف، فقال له أنه من المستحسن أن يفتح الملك شيئاً في القرية أثناء الزيارة، وحذا لو كان هذا الشيء مدرسة، وكيف أخبره عبد الجليل أن لديه كتاباً، فاقترح عليه أن يسميه مدرسة ويطلب لها إعانة، ويصلح بناء الكتاب ويعدده لكي يكون مدرسة جديدة بأن يفتحها الملك، والوزارة مستعدة لتقديم إعانة إكراماً لهذه المناسبة السعيدة..

واعتبر العمدة ذلك كله سعيًا من وراء ظهره، وجعل يسب عبد الجليل ويؤكد له أنه لولا مناسبة الزيارة لعرف كيف يؤدبه على هذا السعي في الخفاء، وما زال عبد الجليل يطيب خاطره ويؤكد له أن ذلك من صالحه وصالح البلد، وأن افتتاح المدرسة سيعتبر من أحسن معالم الزيارة، وأن العمدة سيكون راعي المدرسة، حتى لأن قلبه ورضى عنه وصرفه كما يصرف الخادم، مؤكدًا له أنه غير مسئول عن «لعب العيال» هذا، وأنه إذا لم يجد المدرسة جديدة بأن يراها الملك فسيطلب حذف افتتاحها من البرنامج.

وخرج عبد الجليل يجري والأرض لا تسعه من الفرح، فقد أدرك أمنيته الكبرى وحصل على الإعانة، وبقي عليه أن يجتهد في استقبال هذا المفتش ويكسب وده ويعد البناء الخرب الذي يسكن فيه على هيئة تمكّنه من أن يقدمه إلى المفتش غداً في صورة قريبة من صور المدارس.

ووقف عبد الجليل في فناء البيت وجعل يفكر فيما هو فاعل، وتبين أنه يستطيع أن يجعل من الغرفتين فصلين، ويزعم أن المدرسة لم تفتح إلا في العام الماضي، ولكن منظر البناء كان مؤذياً، فالحوائط متهدمة والغرف

متهالكة، والأمر محتاج إلى عمل كثير، ثم أن المدرسة لا تحت فيها ولا سبورات، والوقت لا يتسع لشرائها، وإذا اتسع الوقت، فمن أين المال؟.. ومن حسن الحظ أن الوقت كان مبكراً، فقد كانت الساعة تناهز الثانية عشرة، فأسرع يعدو في طلب البناء الوحيد في البلد، عم قرني، وجاء به إلى البيت وأخذاً يتدبران الأمر معاً، وما أسرع ما أكد له البناء أنه يستطيع ترميم البناء ودهانه في بياض النهار. ولكن الأمر محتاج إلى مال، ومضياً يتفاوضان في المال، ورضى البناء بأن يعمل العملية كلها بسبعة جنيهاً، ولكنه أقسم ألا يمد يداً إلا إذا قبض نصف المبلغ، فأسرع عبد الجليل إلى غرفته ونبش حتى أخرج الجنيهاً العشرة، وكان قد صرف الورقة وجعلها جنيهاً، فأعطى البناء ثلاثة، ومضى معه إلى حيث اشترى الجير والرمل وما إلى ذلك، وجاء الرجل بعاملين معه قبل صلاة العصر، وبدأ العمل، وخلع عبد الجليل ملابسه ومضى يعمل معهم في البناء.

وجاء المغرب والعمل على قدم وساق، رمت بعض الحوائط وجدران الغرف، وذكر عبد الجليل أن ليس لديه ملابس نظيفة يلقي بها المفتش، فأسرع يبحث عن شرارة، ووجده آخر الأمر في بيت رجل فقير، فدخل عليه ورآه يرفل في جلباب نظيف، واستقبله بضحكته المعهودة، وأنبأه أنه وصل أمس بعد العصر، وكان قد تعرف في القطار بهذا الشيخ، وقال له أنه يريد أن يتزوج ويستقر في القرية، وكان الرجل كثير البنات، فما أسرع ما قبل مصاهرته، وعقد العقد بعد المغرب في صمت، وبات شرارة ليلته

عريسًا سعيدًا، وأعطى نفسه بقية اليوم التالي أجازة ليستمتع بعروسه، وقال إنه كان على نية الذهاب إلى دار العمدة بعد صلاة المغرب..

واستمع عبد الجليل إلى هذا كله وهو ذاهل، ثم تغلب على ذهوله، فلم يكن الوقت يسمح بالدهشة فضلًا عن الذهول، ثم قص عليه خبره وما فتح الله عليه به، فهناه بما رزقه الله، وعرض خدماته.. عرض عليه جبة كان قد اشتراها لنفسه، وطلب إليه عبد الجليل أن يقرضه جلبابه الأبيض فأقرضه إياه، ثم تباحث معه في أمر التخت والسبورات وما إلى ذلك، فسار معه إلى البيت، وتلفت حوله، ثم قدح زناد فكره وقال:

- انظر يا عبد الجليل.. لا داعي لفصلين.. يكفي فصل واحد..

- والغرفة الثانية؟..

- نجعلها غرفة الناظر، غرفة لك، إذ لا يليق أن تكون هناك مدرسة

من غير ناظر، ولا يمكن أن يكون هنا ناظر بدون غرفة ناظر..

- ولكن.. من أين الأثاث؟ لابد من مكتب وسجادة وكراسي..

- نشترها من أي مكان..

- ليس في القرية كلها مكتب، ولا عند العمدة..

- ألا يوجد إلى جانبكم محلج؟..

- أجل.. بيننا وبين الداوودية..

- تعال نستأجر غرفة الكاتب.. هيا معي..

وسارا حتى بلغا المحلج، كان العمل فيه قد انتهى وجلس كاتبه حافظ

أفندي إلى مكتب متواضع يحصي الإيراد ويقيّد في دفاتره. ودخلا، فألقى عليه شرارة السلام ثم جلسا، وقال شرارة:

- والله يا حافظ أفندي أتيناك في خدمة أخوية لا نظنك تبخل علينا بها..

- خير إن شاء الله..

- سمعت بالطبع بخبر الزيارة الملكية لبلدنا..

فقال حافظ أفندي وهو يرفع النظارة عن عينيه:

- صحيح هذا الخبر؟ هل يمكن أن يزور الملك قرية لا قيمة لها مثل هذه القرية؟..

- اللي حصل يا حافظ أفندي.. هؤلاء ملوك ولا يستطيع أحد أن يسأل الملوك عما يفعلون..

- غريبة.. حقيقة أن الذي يعيش يرى كثيراً..

- ربنا يعطيك العمر يا حافظ أفندي لترى أكثر..

- الله يبارك فيك يا سيدي.. خير إن شاء الله..

- أريد أن أقول أن أختانا الأستاذ الشيخ عبد الجليل ناظر مدرسة كفر سهيل..

- مدرسة كفر سهيل؟ فيه مدرسة في كفر سهيل؟..

- جديدة.. مدرسة جديدة أنشأها الشيخ عبد الجليل منذ شهور، وتبينت الوزارة أنها مدرسة من الدرجة الأولى، فقررت منحها إعانة..

- كم؟..

- لا ندري إلى الآن.. سيأتيك الخبر، انتظر قليلاً.. ورأت الوزارة مكافأة له أن يعيد تنظيمها ويهيئها ليفتحها الملك أثناء الزيارة، وغداً يأتي مفتش الوزارة ليرى المدرسة وينظر ما تحتاج إليه، وقد تبينا أن غرفة الشيخ عبد الجليل ليست «قد المقام» وقالوا لنا أن في المحلج عندكم كلياً ومكتباً وكرسياً من الجلد..

- صحيح..

- وقد أتينا نرجوك أن تعيرنا هذه الأشياء إلى غد..

فنظر إليهما حافظ أفندي نظرتة إلى متسولين أو نصابين أو مجنونين، ثم أشاح عنهما بوجهه وقال:

- هذه غرفة صاحب المحلج اسطفانوس بك..

- انظر يا عم حافظ.. نحن إخوان ولا نعرف اسطفانوس أو فانوس.. نحن رجال وكلنا لبعض، ولم نقصدك إلا بعد أن قال لنا الناس أنك شهم ذو مروءة.. ويذن الله بعد الزيارة الشيخ عبد الجليل يدخل أنجالك المدرسة مجاناً..

- عندي ثمانية..

- إن شاء الله يكونون عشرة، كلهم مجاناً..

- ما هذا الكلام الذي تقوله يا حضرة؟.. تريدني أن أختلس أثاث المحلج؟..

- أي اختلاس لا سمح الله؟ أتينا نستعير هذه الأشياء اليوم ونعيدها غداً بعد الظهر، وأنا تاجر أصواف معروف في وجه قبلي كله، والشيخ عبد الجليل ناظر مدرسة، ماذا في ذلك؟.. أليس الناس بعضهم لبعض والفقر للفقر؟.. وماذا يفعل اسطفانوس بك بهذه الغرفة وهو يرتع ويمرح في القاهرة في القصور والسيارات وأنت هنا تحرق دمك وتجمع النقود وتملأ جيبه؟.. ماذا جاءك من الكد والتعب طول العمر؟.. الفقر وثمانية أولاد على أكتافك.. إن عينا نحن الفقراء أننا لا يساعد بعضنا بعضاً، ولكن نجري في خدمة هؤلاء الناس.. ناظر مدرسة مسكين يريد أن يزيد حصته من الإعانة بقطعتين من الأثاث يستعيرهما 24 ساعة من رجل فقير مثله.. ماذا في ذلك؟..

- قلت لك يا عم شرارة إن هذا الأثاث ملك لصاحب العمل، وخروجه من هنا اختلاس..

- أي اختلاس أيها الساذج؟.. وهذا الرجل الذي يشرب دمك ليلاً ونهاراً.. أليس مختلساً؟.. يا رجل دع الخوف، حرام عليك وليكن في قلبك إيمان..

- ألسنت تقول إنك تاجر أصواف؟..

- أشهر تاجر أصواف في وجه قبلي..

- إذن فلماذا لا تعينه على شراء الأثاث؟..

- ليس هناك وقت يا بني آدم.. المفتش قادم غداً صباحاً..

- هل أتيتما لتخربا بيتي؟..
- يا رجل دع الخوف.. نحن رجلان مثلك، والرجل للرجال..
- إذن فأعطني عشرين جنيهاً رهناً..
- يا نهار أسود!.. هل قالوا لك إنني بنك سمعان؟..
- إذن كيف أخرج الأثاث؟.. من يضمن لي عودته؟..
- يعني لا مروءة؟.. الرجل يتبرع بقبول أولادك مجاناً وأنت لا تريد أن تعيره قطعتين من الخشب؟..
- أعطوني ضماناً يا ناس.. شيئاً أضمن به عودة الأثاث..
- فنظر عبد الجليل إلى شرارة وقال له:
- أعطه ثوب صوف ضماناً..
- فدعر شرارة وقال:
- ولماذا؟.. ألسنا رجالاً وكلمتنا تكفي؟.. وستدخل أنت أبناءه مجاناً؟..
- فقال حافظ أفندي:
- لا أريد دخول الأولاد مجاناً، أعطني ثوب الصوف إلى غد، وأجرتي أن أقطع لنفسني منه بذلة.. إذا كنت شهماً حقاً وتريد معاونة صاحبك فلا أقل من هذا..
- وأخرج شرارة، ولم يجد محلاً للتراجع، فنظر إلى عبد الجليل وقال:
- وتعطيني أنت ثمن الأمتار الثلاثة فيما بعد؟.. إن رأس مالي ضعيف..

- اتفقنا..

وأتى حافظ برجلين حملا المكتب، وحمل «الناظر» كرسي الجلد، وحمل شرارة الكليم. ووصلوا المدرسة، وكان الليل قد هبط، والبناء ورجاله يعملون. فوضع الرجلان المكتب وضم إليه عبد الجليل وشررة الكرسي والكليم، ووقف حافظ إلى جانب بضاعته وقال:

- هذه الأشياء لا تدخل إلا إذا استلمت الصوف..

فانقلبت سحنة شرارة ونظر إليه في شر عظيم وقال:

- انظر يا عم حافظ، والله إن لم تغلق فمك لنبلغن صاحب المحلج أنك ساومتنا على بيع الأثاث واتفقت معنا وأخرجته لنا.. وإلا فكيف أخرجته؟..

- يا نصاب.. سأبلغ عنك العمدة..

- ليس من صالحك، سيصل الخبر إلى اسطفانوس بك وأنا أعرفه جيداً.. وخير لك أن تغلق فمك إلى الغد وسنعيد إليك أشياءك.. فإذا لم تسكت ضاع الأثاث وضاعت وظيفتك..

فجن جنون الرجل وصاح:

- يعني إيه؟.. تضحكان على أيها النصابان؟..

- أنت النصاب!.. تبيع أثاث الرجل بقطعة قماش وتريد أن تدخل أولادك المدرسة مجاناً؟..

وطار عقل حافظ أفندي وأدرك أنه تورط، وعرف ألا سبيل له إلا

المصانعة، فقل:

- لقد نصبت على أيها النصاب.. ما كنت أعلم أنك شيطان إلى هذا الحد.. حسبت أنها خدمة إنسانية لرجل طيب كهذا الشيخ الذي معك..

فقال عبد الجليل:

- اقسم لك على المصحف يا عم حافظ، هذه الأشياء ستعود إليك في المحلج غدًا بعد الظهر، وسأخذ اثنين من أولادك مجانًا..

- اقسم لي على المصحف..

وأسرع عبد الجليل فأتى بالمصحف وأقسم عليه بها قال.. واطمأن حافظ أفندي بعض الشيء، وقال شرارة:

- واقسم أنا أيضًا..

فنزح حافظ المصحف وقال:

- لا والله لا تمسه يدك أنت.. أنت رجل نجس..

وأمر حافظ الرجلين اللذين أتى بهما أن يبقيا ليحرسا الأثاث، ثم رأى شرارة ينصرف. فتعوذ بالله وأخذ يستحلف عبد الجليل ويوصيه وينبهه إلى الخطر الذي يتعرض له وإلى التضحية التي قام بها في سبيله، واطمأن بعض الشيء، ثم عاد إلى محلجه وهو يتعجب كيف دخلت عليه هذه الحيلة، ويلعن الساعة التي رأى فيها هذين الوجهين المنحوسين!..

الشيخ أبو بكر والحكمدار وحب الرومان

شمل القرية كلها نشاط عجيب، أصبحت كقبر من قبور الفراعنة ظل صامتًا آلاف السنين، وفجأة انفتح ودخله النور والناس، وخرجت شخوص المصريين القدماء المرسومة على الحوائط إلى النور، ودبت فيها الحياة فأخذت تتحدث عما مضى من أزمانها، ورأى العالم من أمر القبر وما فيه عجبًا. كذلك حدث لقرية كفر سهيل.. انفتح السرداب الطويل الموصل بينها وبين محطة سكة الحديد، وتقاطر الناس إليها أفرادًا وجماعات: تجار ومقاولون وموظفون ورعاع وحواة ورجال موالد وأسواق.. وشمر العمدة عن ساعد الجد فردمت «الجورة» في يومين. ساق إليها مئات العمال والفعلة: ناس يقطعون الصخر، وناس يحملون الرمال، وناس تدك الأرض، ووقف شرارة ينظر مشهد الردم وقال لعبد الجليل:

- يا سلام يا عبد الجليل على أهل الصعيد عندما يعملون: يقلقون الجبال ويردمون البحار. هؤلاء الرجال الذين تراهم أمامك كالنمل هم الذين بنوا القطر كله. معظم أهل بورسعيد والإسكندرية أصلهم من الصعيد، كل قنوات مصر حفرتها سواعد الصعايدة. اسمع إليهم يغنون على نغم واحد: «كام ليلة وكام يوم، ستين ليلة

وستين يوم!» هذا النشيد سمعته في كل نواحي القطر من أسوان إلى البحر.. هذه كانت أغنياتهم التي حفروا بها قناة السويس فأوصلو بحرًا ببحر وربطوا عالمًا بعالم، وحولوا قارة إلى جزيرة.. هذه أغنياتهم التي حفروا بها المحمودية والنوبارية والجعفرية وبحر يوسف والإسماعيلية وكل قناة في هذا البلد. كان جدي مقول أنفار، وكان يقول: «يد الصعيدي بألف مجيدي» وصدق، وأنا أعرفهم جميعًا، أهل كرم وسماحة.. أظل أطوف بالثوب في وجه بحري كله فلا أبيعه إلا في الجيزة..

ولم يكن هناك أعجب من هذا المنظر: مئات يروحون ويحيئون كأنهم خلية نحل تعمل بنظام، صفوف طويلة تحمل الرمل، وأخرى تحمل الحجر، وأذرع من الصلب تصعد وتهبط بالقؤوس، وتذك الأرض دكا، لكي يفوز الواحد منهم بالقروش الخمسة لقاء مترين من الأرض يردمها ويدكهما بيديه ورجليه، فإذا انتهى النهار تجمعوا حول النيران حلقات حلقات، وأخذوا يأكلون ما رزقهم الله من خبز جاف أو تمر، والقروش الخمسة مصرورة بين الجلد واللحم لا تخرج، لأنها زاد العيال، بها يعود الصعيدي إلى أولاده بالخير والبركة. جهد المقل، ولكنها أيضًا جهد الرجال..

وتلاشت الجورة وأصبح مكانها ميدان فسيح ممتد من شريط سكة الحديد إلى الطاحونة المهجورة، التي تحولت إلى مدرسة بيضاء اللون بفضل مائتي جنيه هي إعانة الوزارة التي فاز بها عبد الجليل، وامتدت

فوقها لافتة سوداء كتب عليها بالثلث الجميل: «مدرسة التاج الابتدائية» وتحتها بالفارسي: تحت إشراف وزارة المعارف العمومية.. وفي داخلها بنيت أربعة فصول رصت فيها «التخت»، وجلس عبد الجليل في حجرته على مكتب جديد وإلى جانبه كرسيان من الجلد وتحت قدميه كليم نظيف، وعلى الحوائط آيات قرآنية شريفة كتبت بخط جميل، وبدأ بحق وكأنه ناظر أصيل..

واجتهد كل أهل القرية في العمل، ولم تكف النقود التي جمعها العمدة فباع لأخيه محمد بن فدانين، وأقبل ينفق بسخاء، فبض داره وزينها بالروم ومهد الطريق الممتد منها إلى «الوسعاية»، وهو الاسم الذي أطلق على «الجورة» بعد ردمها. وأقبل رجال السكة الحديد فأصلحوا المحطة وأخذوا ينون فيها غرفاً ورصيفاً، وشرعت وزارة الداخلية في إنشاء بناء جديد لنقطة البوليس، ومضى كل شيء على قدم وساق..

بقيت على اليوم الموعد عشرة أيام، وأتت الأنباء مؤكدة أن الملك سيشرع في رحلته في الحادي عشر من الشهر، وسيكون في المنيا يوم كذا وبني سوف يوم كذا وهكذا، ولكن أحداً لم يطلع على برنامج مكتوب، كلها تعليقات سرية تصدر إلى المديرين والمأمير وينبه عليهم ألا يصرحوا بشيء منها، لأن مقام الملك يستدعي السرية في كل ما يتصل به، ولو كان الأمر يتعلق بلون طربوشه، ولأن الحب العظيم الذي يكنه الشعب للملك يستدعي الاحتياط - كما تقول الصحف - ومن الحب ما قتل، ثم لأن الملك الضرغام، الذي يريد أن يحيى سنن الخلفاء العظام، يجب أن تكون

الزيارة مفاجئة على غير موعد، كما كان هارون الرشيد يجعل أمر المواضع التي يزورها سرًا بينه وبين وزيره جعفر، ولهذا فلم يكن العمدة يعرف يومه السعيد على وجه التحديد، وإنما قال له المدير أن الملك إذا بدأ رحلته في الحادي عشر من يناير، وكان في قنا في الحادي والعشرين، فلا بد أن تكون زيارته لكفر سهيل في الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين، ولا يمكن أن تخرج عن يوم من هذين، وعلى أي حال فليكن كل شيء على الأهبة الكاملة منذ الثامن عشر. فالباقى من الزمن نحو عشرين يومًا ينبغي أن ينتهي فيها كل شيء، وقد أصدر المدير أمره بأن يكون كل شيء كاملاً قبل الزيارة بثلاثة أيام على الأقل، أي أن المهلة الباقية أقل من عشرين يومًا، وكل شيء لا زال في منتصفه، البناءون يعملون في دار العمدة وفي بناء نقطة البوليس والمحطة، وأكوام الرمل والحجارة تنتشر في القرية كلها فتبدو وكأنها بلد نزل به زلزال وتخرب فيه كل شيء، ولا يعلم إلا الله كيف ستزول هذه الكيان وهذه الأكوام وتكتمل المباني ويصلح الطريق، وتبدو القرية في هيئة مساكن الأحياء لا مقابر الأموات..

وللمرة الأولى أحس العمدة ومن حوله بأن هناك شيئاً اسمه الزمن، وأن هذا الزمن يجري كالقدر المحتوم ولا مفر منه، ولقد روعوا جميعاً وهم يرون الأيام تجري وهم عاجزون عن اللحاق بها. فقد كانوا يشكون في الماضي من بطء الزمان، فأصبحوا يذهلون اليوم من سرعته، وكان الواحد منهم يستطيل الصباح ويتعجل الظهر، ثم يقتل ما بعد الظهر في نوم مريح، ثم يجاهد للتخلص من الليل، كانوا يقضون ذلك كله

في كسل وتراخ وسأم، ولو مشي الواحد منهم يومًا مائتي متر لظن أنه قام برحلة إلى القمر.. فأصبحوا الآن يرون الشمس لا تكاد تشرق حتى تنطلق مسرعة إلى سمتها، ولا تكاد تسامت الرءوس حتى تسرع إلى المغيب، وخيل إليهم أن الزمن «تعفرت» وطارت بركته. وعرف أهل القرية جميعًا قيمة ديك عم بيومي، هذا الوقت الذي لا يخل والمؤذن الذي لا يتأخر عن أذانه، وأحس العمدة بالحاجة إلى ساعة، وذكر أن لديه ساعة «معتبرة»، ماركة الترمواي أعطاهها له أبوه يوم زفافه أول مرة، فبحث عنها واستخرجها وملأها ولكن عقاربها لم تتحرك، فبعث بها إلى ساعاتي في قنا. فلما فتحها وجد في داخلها تراب تسعة عشر عامًا، فنظفها ووضع آلتها في البنزين واستخرجها ثم ضم أشلاءها ولكنها لم تتحرك، لقد نسيت الحركة منذ زمن طويل، وانقطعت الصلة بينها وبين الزمان.. ولم يكن هناك بد من شراء ساعة جديدة، ونصحوه بأن يشتري ساعة ذهبية بسلسلة من الذهب حتى يرى الملك أنه من ذوي «الساعات والسلاسل»، فاشتري ساعة فاخرة بسلسلة تزن ربيع رطل من الذهب، أتوه بهما من محل كرامر المشهور في القاهرة، ولم يعد له هم منذ الحصول عليها إلا إخراجها من الحزام والنظر فيها ثم ردها إلى موضعها والعبث بالسلسلة، وعرف من حوله ذلك فأصبحوا يتقربون إليه بسؤاله عن الساعة، وكانوا يؤكدون له أنها أضبط ساعة عرفوها، لأنها من الذهب. وفهم العمدة الغرض البعيد الذي رمى إليه الحكيم الذي قال إن الوقت من ذهب..

بيد أن هذه الساعة زادت مخاوف العمدة، لأنه تبين أنه عاجز عن ملاحقة عقاربها الدقيقة في سيرها المتصل الرهيب، حتى خيل إليه مراراً أن هذه العقارب تغافله وتقفز، لأنه من غير المعقول أن «ينسخط» النهار إلى هذا الحد، وأن تنقضي الأيام كأنها سحببات تعبر السماء والعمل واقف لا يتحرك، وأعضاء اللجنة الموقرون راثحون غادون طول النهار وشطراً من الليل وقد ركبهم شعور بالأهمية، حتى ليحسب كل منهم أنه يحرك الجبال وهو مع ذلك لا يفعل شيئاً، وكل ما هناك أنه يروح ويحيى ويأمر وينهي ولا أحد يسمع أو يستجيب، وضائق صدورهم جميعاً فأصبحوا يسبون ويلعنون طول النهار، وأخيراً لجأ العمدة إلى العنف، فأتى بمقاولي الأنفار واختار أغلظهم هيئات وأكباداً، فتحركت كييان التراب خارج القرية شيئاً فشيئاً، وخلا الشارع المؤدي من الوسعاية إلى بيت العمدة من التراب والأحجار، وتحركت الأبنية فصعدت شيئاً فشيئاً، وقبل الزيارة بستة أيام اطمأن قلب العمدة بعض الشيء، وبدأ له بريق من الأمل في أن تبدو القرية في هيئة مقبولة، واجتهد في حل أصحاب الدور المطلة على هذا الطريق على أن يبيضوا منازلهم، فدهنوها بالجير، فأصبح منظرها كمنظر عجوز راكمت المساحيق على وجهها لتخفي آثار الزمان.. وزاد المنظر بشاعة أنهم تسابقوا في تزيين الحوائط برسوم رديئة لرجال يسرون في مواكب حاملين أعلاماً مصرية، يريدون أن يصوروا أنفسهم بها في طريقهم لاستقبال الملك، كأنها انقلبوا فراعنة يزينون جدران قبورهم بمنابر الحياة. وكانت الرسوم من طراز رسوم

الحجاج، فيها قطارات ومراكب وفرسان على خيل مختلط بعضها ببعض، فبدت كصفحات كراس غلام في الخامسة من عمره يتعلم الرسم. ولقد رسم واحد منهم موكب جمال يجرها رجل، والرجل كبير الهيئة رأسه ضعف حجم جسمه، والجمال من خلفه صغيرة تبدو كأنها قطط تقوست ظهورها من الرعب، والرجل يحمل علماً كبيراً بيد لا يتبين الناظر من أي موضع من جسمه خرجت. أما العلم فقد كان تحفة وحده، فقد شاء تفنن الرسام أن يجعل الهلال من تحت كأنه طبق، والنجوم فوقه كأنها فاكهة غريبة، نجمة بأربعة أذرع، وأخرى بستة، والثالثة كأنها عنكبوت.. ومع ذلك فقد كان المنظر في مجموعه لا بأس به. ينقصه الفن والجمال ولكن لا ينقصه الصدق، فقد كانت هذه هي صورة الحياة كما يحس بها أهل القرية، عالم مختلط مضطرب لا تناسب فيه ولا نسبة ولا ألوان، كانت تصويراً صادقاً لعالم مغمور لا جمال فيه، إذ قد انقطعت الصلة بينه وبين الحياة والجمال والألوان منذ مئات السنين..

ولم يسعد بهذه الحال أحد كما سعد شرارة، ذلك الأفاق الذي يشم رائحة القروش كما تشم الضبع رائحة الموتى تحت التراب والجروح في أبدان المصابين. كان أشبه ببرغوث وقع على بدن، حيثما مد خرطوم شرب. كل يومين أو ثلاثة يذهب إلى قنا، وربما إلى أسبوط، ثم يعود بأشياء يبهز بها عيون أهل القرية ويبيعهم إياها بربح يصل إلى أضعاف أثمانها. لاحظ أن أهل القرية يحبون النياشين، فأتى بعدد من صناديق الشارات من كل صنف ولون، وباعها للكبار والصغار، الرجال والنساء، حتى لم يبق في

البلد أحد إلا حمل على صدره نيشانين أو ثلاثة، ثم أتى بأعلام من الورق وباع منها بضع مئات حتى تغطي البلد بالأعلام، ثم أتى بصور للملك والزعماء قدماء ومحدثين وباعها، بها في ذلك صور الغازي عصمت باشا والغازي أنور باشا والامبراطور غليوم وصفيّة عزيزة وعنترّة بن شداد و«القط بسبس اللي ياكل ملابس»، ثم صور مشاهد مختلفة: من مشهد أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عندما أراد التضحية بابنه إسماعيل فأثاءه الملاك بكبش سمين، إلى صورة حادث اغتيال مدير الأمن العام بدر الدين، وصورة اللبني يقدم الإنذار لسعد زغلول غداة مقتل السير لي ستاك، كل هذه الصور باع منها الرجل مئات، ولكن واحدة منها لم تلق من النجاح ما لقيته صورة «عزيزة ويونس»: عزيزة بوجهها الأبيض السمين كأنه طبق القشدة، وخديها الأحمرين كأنهما طماطمتان، وعينيها السوداوين الواسعتين كعيون البقر، وشعرها الفاحم فوق رأسها طبقات، وهي مزينة في كل موضع بالذهب: أقراطاً وخواتم وأساور وعقوداً موشحة، وإلى جانبها يونس الفاتن لا يفترق عنها إلا بأن له شارباً وأن شعره أقل. كانت هذه الصورة فتنة القرية كلها رجالاً ونساء: عزيزة للرجال ويونس للنساء، وقد حرص بعض المتشددین على أن يقطع صورة يونس قبل أن يدخلها إلى بيته، وحرصت بعض النساء على أن يحتفظن في مكان ما بصورة يونس لينظرن فيها كلما ضاقت صدورهن بهذه الوجوه الكثيرة التي تطالعهن صباح مساء..

ولم يكتف شرارة بذلك، بل تجلبت مهارته وإبداعه في بيع الصوف، ولا

يدري إلا الله كم ثوبًا باعها، ولا يدري إلا الله أيضًا ما هي هذه الأقمشة التي باعها على أنها صوف: باع الخيش والقطن والكتان وربما الحلفاء أيضًا على أنها صوف.. وكان لديه صوف لكل سعر، من عشرين قرشًا للمتر إلى جنيهين، وكان يقول: كله صوف، إنها هناك صوف وصوف: صوف جبل، صوف خروف، صوف عتزة، صوف قط، صوف كلب.. كله صوف!.. وإذا جرؤ إنسان على مناقشته فالويل له، وصاحبنا لا يعجز عن رد مفحم يتبعه بضحكة جافة مخيفة. قال له واحد: «يا عم شرارة حرام عليك، هل القط له صوف؟».. فقال: «يا سلام على النصيحة!.. يا سلام على الفلسفة!.. إذا كان الواحد منكم لا يعرف فلماذا يفتح فمه الواسع؟.. إذا لم يكن هذا الذي على القط صوفًا فماذا يكون؟.. حريرًا؟.. تيلًا؟.. قطنًا؟..» فقال الرجل: «شعر»، فقال شرارة: «شعر»، فقال شرارة: «وما هو الشعر؟.. أليس صوفًا؟.. هذا الشعر الذي فوق رأسك أليس صوفًا؟.. إنه صوف.. ولكنه صوف حلايف!..».

وضحك وضحك الناس معه، ثم قال: «اسمعوا يا إخواننا، كل ما على الحي صوف، كل ما يخرج من الجلد فهو صوف.. وكل ما تنبت الأرض أما قطن أو كتان..».

ولم يكتف بالصوف والصور والنياشين، بل تعدى ذلك إلى الأدوية: باع «القطرة التي تجلو العيون» و«الششم النمساوي الأصلي» و«حبوب الدكتور روس» و«شراب الفيجهورون» و«المانيزيا التي تغسل البطن» و«البودرة التي تخلع الأسنان» و«زيت سفيرة عزيزة للشعر» و«الشرية

التي تخرج الدود»، وأضاف إلى ذلك مقادير من «بودرة العفريت» ومن «اللبان المضحك» إذا مضغه الإنسان أغرق في الضحك دون أن يعرف لماذا، وأشياء أخرى كثيرة ربح منها كثيرًا..

وقد عرف كيف يستخدم عروسه المسكينة، فقد قضت ليالي شهر العسل تعبى المساحيق في أوراق صغيرة، والحبوب في أحقاق، والقطرة في زجاجات، وربما أخطأت فوضعت شيئًا من الزيت في زجاجات قطرة العيون، وعبأت قطرة العيون في زجاجات «الشربة» التي تخرج الدود، ثم اكتشفت خطأها وأرادت أن تصلحه فمنعها شرارة وقال: «وماذا في ذلك؟ كلها صحة وكلها أدوية.. لو وضع الإنسان زيت الدود في عينيه لتسرب إلى أمعائه، وإذا شرب «القطرة التي تجلو العيون» اتجهت إلى عينيه.. حكمة ربنا هكذا.. ألسنا ندخل طعامنا كله من مدخل واحد هو الفم، وتقوم المعدة بتوزيع كل شيء على موضعه: تبعث للعيون بالنور، وللسواعد بالقوة، وللمخ بالفهم؟.. ما الذي يصنع ذلك؟..» وهكذا كان يبيع أي شيء على أنه أي شيء، المهم أن يقبض الثمن، وإذا شكك إليه أحد من أنه لم يشف قال: «يا بني هل أنا أبيع الشفاء أم الدواء؟.. أنا أبيع الدواء، أما الشفاء فمن عند الله وليس في الدنيا طبيب يضمن الشفاء..».

وكانت الزوجة المسكينة تحمل له كل شيء إلى الموضع الذي يقف فيه في جانب من الوسعاية. وكان أبو الزوجة قد اعترض على استخدام شرارة لابنته على هذه الهيئة وذهابها إليه في السوق بالبضاعة، ووقوفها تباع معه، فانتهره شرارة وقال إنه هو الزوج والزوج يفعل بزوجه ما

يشاء. وكان شرارة قد حول البيت الصغير إلى مخزن ومصنع، وكثر الداخلون والخارجون، على «الحريم» كما قال العجوز، ولكن شرارة استبد به وأرهبه، فذهب يشكو للعمدة، وكان العمدة محققاً من هذا الطارئ الدخيل الذي حط على القرية كأنه جرادة منهومة لا تبقى ولا تذر، وقد نمت إليه أنه يدخن الحشيش ويجمع حوله في الليل نفراً من الشبان ويهذى ويعربد، وشكا الناس منه، فقرّر الإيقاع به، ولكنه آثر انتظار الفرصة المناسبة.

وأعطاه شرارة فرصة الإيقاع به، فطغى وتجبر وأصبح يعد نفسه من الأعيان، وزعم أنه هو الذي ألف لجنة الاستقبال وأنه صاحب الفضل في كل شيء، وأن العمدة لا يصنع شيئاً بدونه، وقال أن العمدة لا يحسن القراءة والكتابة، ثم طال لسانه أكثر فأكثر وتعدى على الجميع بما فيهم عبد الجليل، وزعم أنه صديق المدير والحكمدار والمأمور وكل الناس العظام، بل قال إنه صاحب الفضل في زيارة الملك للقرية، فهو صاحب الوزراء ورجال القصر، وهو الذي دهم على كفر سهيل.. وترامى ذلك كله إلى العمدة، فامتلاً صدره غيظاً، وغضب كذلك كل أهل البلد وغدوا ينتظرون الفرصة المناسبة للخلاص من ذلك الإنسان..

وكان شرارة يجمع المال ويخبئه في مكان من البيت، وكان يحسب أن امرأته لا تعرف أين نقوده، ولكنها عرفت ذلك وأسرت به إلى أبيها، وقالت له أن هناك عشرات الجنيهاً، فسأل لعاب الرجل، ولم يعد له هم إلا الإيقاع بصهره، ولكن الشابة كانت متعلقة بزوجها بعض الشيء،

وكانت ترد أبيها عن الأذي، فقال لها العجوز أن هذا الرجل سيحمل ماله يومًا ما ويمضي عنها إلى غير رجعة، وأن الخير كل الخير في الإيقاع به والحصول على ماله قبل أن يفلت به، وما زال بها حتى قلت معارضتها، وحسب أنها ستتركه يفعل بشراة وماله ما يريد..

أما عبد الجليل فكان في شغل بمدرسته. لقد استطاع أن يهيء البناء ويصنع المقاعد والسبورات ويؤثث حجرته، وبقي شيء واحد: التلاميذ.. ولا يمكن أن تكون هناك مدرسة ابتدائية فيها أربعة فصول دون تلاميذ. واذن فلا بد من «صنع» عدد كاف منهم، لتبدو الفصول عامرة بهم يوم الاحتفال العظيم. وكان عبد الجليل يحسب أن هذا أبسط الأشياء، فإذا به يتبين أن أعداد التلاميذ أصعب بكثير من أعداد المقاعد.. وكان قد كذب على المفتش وقال له أن لديه أربعة فصول، في كل فصل 40 تلميذًا، وصدق على كلامه شرارة، ولم يجد المفتش المناسبة لاثقة للتأكد من ذلك كله، فقد أولم له عبد الجليل وليمة زاخرة، وقدم له ديكًا روميًا وأرزًا معمرًا وخروفًا مشويًا وفطيرًا، وزوده عند رحيله بقفص دجاج وزكية من البلح الجاف الفاخر، فرضى عنه المفتش وأوصاه باستكمال الناقص وإعداد دفاتر منظمة بالتلاميذ وما إلى ذلك، وقال له أنه سيمر قبل الزيارة بأيام ليتأكد من أن كل شيء قد تم حسب الأصول..

ووجد عبد الجليل أن أول ما ينبغي عليه هو استخدام اثنين من المدرسين، فقد قال له المفتش أن الإعانة تعطي له على أساس الفصول، وأن القانون ينص بأن يكون عدد المدرسين ضعف عدد الفصول، أي

لابد من ثمانية من المدرسين، فاختصر هو العدد إلى اثنين، وقال في نفسه أنه يستطيع أن يقوم بمهمة الستة الناقصين، وحسب أن ذلك ليس بعسير عليه، فقد كان يقوم وحده بعملية التدريس في الكتاب كله من الصباح إلى ما بعد الظهر، ثم إنه كان يعطي دروسًا خاصة كثيرة، فكيف لا يستطيع القيام بمهمة ستة من المدرسين بالإضافة إلى أعمال الناظر والكتاب وضابط المدرسة والفراش وغير ذلك من المهام؟..

واهتدى آخر الأمر إلى مدرس عبقرى كان يعيش في أسوأ حال في قنا. كان شيخًا يسمى «محبوب عجوة»، يحفظ مقررات المدارس الابتدائية كلها، من لغة عربية إلى جغرافية وتاريخ وحساب، بل كان يقرأ الحروف الأفرنجية وأرقامها، وكان يحفظ إلى جانب ذلك مقررات الجبر والهندسة والحساب الخاصة بالمدارس الثانوية إلى شهادة الكفاءة، ويحفظ جدول اللوغاريتمات عن ظهر قلب، ويقوم بتدريس ذلك كله دون أن يخطئ، فقد كان آية في الحفظ وقوة الذاكرة: كان يحفظ كتاب «ثمار الإنشاء» من الغلاف إلى الغلاف، بما في ذلك من موضوعات إنشائية وقصائد ورسائل إخوانية نموذجية، ويحفظ تمارين الجبر والهندسة بحلولها جميعًا.. ولكنه كان سكيرًا مبتلى بالخمر، حيثما وصل إليه قرش شرب به، فطرد من عمله الحكومي، وأخذ يتعيش من التدريس لأولاد الناس، حتى تصيده عبد الجليل وعينه مدرسًا بمرتب قدره تسعة جنيهات، أي بمعدل ثلاثين قرشًا في اليوم بمتوسط ثمانية دروس في اليوم، فيكون درسه بثلاثة قروش ونصف، وقد ظن عبد الجليل أنه أكرمه بذلك إكرامًا لا مزيد عليه..

وقدر عبد الجليل أن هذا المدرس يغنيه عن غيره، فاكتمى به، وبهذا كانت هيئة التدريس مكونة من رجل واحد إلى جانب الناظر، واتفق عبد الجليل مع اثنين آخرين على أن يقوموا بالتدريس للسنين الأولى والثانية يوم الاحتيال فقط، حتى يرى الملك ومن معه أن في المدرسة مدرسين، واتفق معها على خمسين قرشاً لكل واحد تعطي بعد مغادرة الملك للقريه ومرور كل شيء بسلام.. وقد كانت المعضلة هي تدريس اللغة الإنجليزية، إذ أن عبد الجليل استكثر أن يستخدم مدرساً لها وليس لديه في الواقع إلا فصلان، أي أن مدرستها سيعطي درسين فقط في اليوم، فطمأنه الشيخ عجوة إلى أنه يستطيع تدريس اللغة الإنجليزية أيضاً، وكل ما يلزمه أسبوعان يحفظ فيهما كتاب «الجرامر» وكتابي «سفنكس ريزر» و«طوك و ذ تشلدرن»⁽¹⁾ وهي الكتب المقررة تلك الأيام، وكان عجوة يحفظ أسماءها ويعرف شيئاً عن محتوياتها..

وأخذ عبد الجليل ومساعدته في إعداد التلاميذ، فجمعوا من الأولاد ما يملأ أربعة فصول، وقام عبد الجليل بإفهام الآباء أنه سيعلم أبناءهم بالمجان، فلم يكف ذلك لإغرائهم بترك أولادهم «يتسكعون في المدرسة ويهربون من الحقول»، فزعم لهم أن الملك لا يزور مدرسة إلا أمر للتلاميذ وآبائهم بكسوة وخمسة جنيهاً لكل واحد، وأمن على هذا شرارة، وأقسم بأغلظ الإيمان أنه رأى بعينه الملك يوزع الكساوى على الأولاد وأبنائهم ويعطيهم الهبات خمساً وخمسات، فتدافع الآباء لإدخال

أبنائهم.. واختار عبد الجليل منهم ما ملأ به الفصول الأربعة، وقسمهم بحسب الطول: الأقصر للسنة الأولى، والأطول منهم سيرًا في الثانية، وهكذا تجمعت أعجاز النخل في السنة الرابعة.. وبحث حتى وجد في القرية بضعة تلاميذ يدرسون فعلاً في مدارس ابتدائية في بلاد مجاورة، فاتفق مع آبائهم على توزيعهم في الفصول، بحيث إذا دخل الملك وجهت إليهم الأسئلة فألقوا الإجابات المحفوظة، وسر الملك وخرج مغتبطاً.. وأكد لهم أن الملك إذا اغتبط أخرج من جيبه في الحال مظروفاً يضم ما بين عشرة جنيهات وعشرين، وناولها للتلميذ النجيب الذي جلب إلى قلبه المسرة..

وأخذ عبد الجليل ومساعدته في عمليات تدريب الصبية على أن يكونوا تلاميذ: علمهم الوقوف في الطابور عند سماع الجرس، ثم الدخول إلى الفصول والجلوس على المقاعد بنظام، ثم الإصغاء إلى المدرس سواء فهموا أم لم يفهموا، ومغالبة النوم وفتح الكتب والنظر فيها كأنهم يقرأون. وتعلم التلاميذ أيضاً كيف يهبون وقوفاً إذا دخل المدرس، ولا يجلسون إلا إذا قال لهم: «جلوس».. أما إذا دخل الملك فعليهم أن يهبوا واقفين كأنهم غفر يتدربون، ويرفعوا اليد اليمنى بالسلام وعيونهم متجهة إلى الملك، ولا يجلسوا إلا إذا التفت الملك للمدرس وابتسم، وأصدر المدرس أمره بالجلوس.. وقد أخذت هذه العمليات وقتاً طويلاً، حتى ضاق ذراع عبد الجليل وكاد اليأس يستولى عليه، وكان يشترك مع صاحبه في تمثيل مشهد دخول الملك، فيقف عبد الجليل موقف المدرس، ثم يدخل الشيخ

عجوة ممثلًا دور الملك . وكان يضع يده اليمنى في جيب سترته كما قالوا له أن الملك يفعل، ويميل على رأسه الطربوش الذي لم يتعود بعد على لبسه، حتى يهتز الزر، وينفخ نفسه ليظهر بمظهر ملك، فكان الأولاد لا يرون منظر هذا الغراب المتطاوس حتى يغرقوا في الضحك، ولم يكفوا عن الضحك إلا بعد أن عدل الشيخ عجوة عن تقليد الملك، ورضى بأن يدخل الفصل كما هو، صعلوكًا كما خلقه الله، وعلى الأولاد أن يتصوروا أنه ملك، وكان ذلك أسير عليه وعلى الأولاد، على قلة مؤونتهم من التصور في ذلك الاتجاه..

وكان عبد الجليل قد وضع قصيدة خاصة بالزيارة ليلقيها التلاميذ جماعة عندما يقبل الملك على المدرسة، ويلقيها واحد منهم بلهجة فصيحة بين يدي الملك إذا دخل الفصل ومطلعها:

أهلاً وسهلاً بالمليك ومرحبًا ملك همام أشرقت به أنوار..

وأخذ التلاميذ يحفظونها، واختير واحد منهم فصيح العبارة ليلقيها منفردًا..

ومضى عبد الجليل ومساعدته يعملان ليل نهار، والتلاميذ أشقياء معهما كأنهم عمال يردمون «جورة» أخرى، وقبل الموعد بخمسة أيام اطمأن قلب عبد الجليل بعض الشيء، ورضى عن مساعدته فمنحه جنيهاً على سبيل التشجيع، وقد ندم على ذلك أشد الندم، لأن الأستاذ عجوة لم يكد يحصل على النقود حتى أسرع واشترى زجاجة خمر وسكر طول الليل، ولم يعد إلى رشده إلا آخر اليوم التالي..

ولم يتأذ أحد من هذا التغيير الذي شمل هذا البيت ومن الحياة التي دبت فيه فجأة بقدر ما تأذى «محروس»، فقد خصصوا له ولصاحبه غرفة صغيرة ارتجلوها ارتجالاً، ولم يراعوا في إنشائها حرمة كصاحب البيت القديم، وكشخصية موقرة لها قدرها واحترامها في القرية، وقد قبلت العجوز ذلك الوضع حباً في عبد الجليل الذي كان قد نزل من قلبها منزل الابن، ولكنها باتت منذ قريب تخشى أن تغير المدرسة على موضعها وموضع عجلها الحبيب، فقد سمعت شرارة يقول مرة:

- ياسي عبد الجليل.. كيف ندع هذا العجل في المدرسة؟.. ماذا يقول الناس عن مدرستك هذه؟.. مدرسة عجول؟..

فقفزت العجوز وأسرعت إليه وقالت والشرر يتطاير من عينيها:

- مالك أنت وما لمحروس أيها الصعلوك النصاب؟.. أما يكفيك أنك سرقت عم حافظ المسكين كاتب الطاحونة فأتيت تؤذينا بلسانك ووجه الخلوف هذا؟.. والله إن لم تبعد عنا لأقولن للعالم عن الحشيش الذي تشربه وسرقاتك التي لم يسلم منها أحد..

وتدخل عبد الجليل، ففض الأشكال وصرف شرارة وهو يسب ويلعن، ثم أخذت العجوز تحذر منه عبد الجليل وترجوه أن يبتعد عنه، فما زال بها حتى طيب خاطرها وطمأنها..

أما العجل محروس فكان يشهد هذا كله وهو يأكل في سكون. وكلما ترددت في أذنيه أصوات الأولاد المساكين يحفظون قصيدة «أهلاً وسهلاً بالمليك ومرحباً» ظن أن البيت عاد طاحونة كما كان فيها مضى..

بقيت على اليوم الموعد أربعة أيام، وبدأت طلائع الركب المقبل تهب على «الصعيد الجواني».. كان الملك في آخر يوم من زيارته لأسيوط، ثم يرحل إلى جرجا ليستقر يومين في سوهاج، يتفقد شئون رعاياه، ويهيج بطلعته البهية قلوب الشعب المشوق إليه، وينشر النور في أرجاء الوادي المستشرف نحو ذاته العلية، كما قال الأستاذ أحمد الخاوي في إحدى مقالاته التي كان «يعزفها» طوال الزيارة، وكأنه فرقة موسيقى نحاسية تعزف أمام موكب عرس..

وكانت تتقدم الركب طلائع ومقدمات: نفر من رجال القصر والداخلية يسبقون الملك إلى كل بلد لكي يطمئنوا إلى أن كل شيء على ما يرام، وأن الشعب قد نصب الزينات بنفسه، واستعد للتعبير عن شوقه نحو «ملك القلوب» بالمبيت في الطرقات التي سيمر بها الموكب، حرصاً على ألا تفوته فرصة العمر وهي اجتلاء العين بأجمل طلعة وأبهى صورة.. كما قال الأستاذ المذكور، بل كان «الألوف من أهل الصعيد الأمين يقضون الليل والنهار على جانبي شريط سكة الحديد مخافة أن تفوتهم ليلة القدر».. وكان رجال القصر يحرصون على أن يكون الواقع مطابقاً لهذه العبارات، فكانوا يرغمون الناس على دفع التبرعات لإقامة الزينات للتعبير عن شعورهم الفياض نحو العرش والجالس عليه، ويجمعون الآلاف بالقوة ويوقفونهم في الطرقات ليحيوا الركب، ويخرجون أهل القرى ويصفونهم على جانبي شريط سكة الحديد، ويمرّنونهم على الهاتف ويعاقبون من يتقاعس منهم عن أداء هذه الفريضة التي لم يعرف

الناس لماذا يفرض عليهم أداؤها، بل الكثيرون منهم لم يسمعوها باسم هذا الملك، ولا زالوا يحسبون أن حاكم مصر هو الخديوي توفيق الذي ردد عنه آباؤهم هتافهم المعروف:

الميه في الأبريق بكره يموت توفيق

العسكر في الطوابي ربنا ينصر عرابي

أو الخديوي عباس الذي هتفوا في طريقه:

رايح فين يا خديونا أيامك زادت بلاوينا

وقرايك نهبونا وهربوا فليحيى حامينا حرامينا

وربما ردد بعضهم هذه القطع عن سذاجة، فقد كانت كل ما لديهم من الأناشيد والمدائح، وكم من رجل منهم أخذوه إلى نقطة البوليس وضربوه وهو لا يفهم لماذا يضربونه، ويقسم لهم أنه بذل جهده في التحية والنشيد، حاسبًا لسذاجته أنهم يعاقبونه لأنهم لم يسمعه ينشد ويحيى..

وفي سيارة حكومية تقطع الطريق من قنا إلى كفر سهيل جلس الحكمदार مع «حب الرمان بك» رجل القصر ليشرفا على الإجراءات والاستعدادات التي اتخذت للاستقبال. كان الطريق غير معبد ولا مهيا، وكانت السيارة تحب فيه وكأنها سفينة تتقاذفها الأمواج، وقد دار رأس حب الرمان بعد نصف ساعة من رحيله من قنا لكثرة ما أرجحته السيارة وخلع الطريق عظامه، فإن مزاجه الرقيق الذي لم يعرف المشي إلا على طرق مفروشة بالورد لم يحتمل هذه «المرمطة» كلها، وجعل الحكمदार يواسيه ويشجعه ويتنقد معه «الحكومة» التي لا تفعل شيئًا، ونفذ صبر

حب الرمان وقال للحكمدار:

- ومن هي الحكومة هنا؟.. أليست أنت والمدير؟..
- نعم.. ولكنهم لا يعطوننا الاعتمادات اللازمة لتمهيد الطرق..
- وكيف يعطونكم والمدير معظم الأيام في القاهرة وأنت تقضي أربعة أيام من كل أسبوع هناك؟..
- لقد رأيت بنفسك يا سعادة البك حال الريف.. كيف يستطيع الإنسان أن يعيش هنا؟.. لو أقام الإنسان هنا أسبوعًا لأحس أنه انتقل إلى العالم الآخر..
- ومن المسئول؟.. هل تنتظرون معجزة من السماء تغير أحوال هذه البلاد؟.. أليست أنتم رجال الدولة والمسئولين عن ذلك؟.. هل وضعت أنت ومديرك خطة للإصلاح والتنظيم ثم طالبتهم بالمال اللازم لها؟.. أم ظللتكم كغيركم من المسئولين تلقون التبعة كلها على قلة الاعتمادات؟.. ولو حصلتم على المال لما عرفتم ماذا تفعلون به، لأنكم لم تفكروا في العمل يومًا ما، وكل جهدكم منصرف إلى الشكوى، وتحت ستار قلة المال لا تفعلون شيئًا وأنتم آمنون أن أحدًا لن يحاسبكم على شيء..

وكان حب الرمان يقول هذا والحكمدار جالس إلى جانبه صامتًا كأنه تلميذ يقرعه مدرسه، وكان كل همه متجهًا نحو الاعتذار والتماس المخارج والوعد بالعمل، فقد كان يخشى هذا الموظف الصغير في القصر، ويجلس أمامه كالأرنب خوفًا من أن يهمس في حقه بشيء في أذن مولاه

فيحدث ما لا تحمد عقباه، وصدق الأستاذ الحاوي الذي أضحك الملك
ومن حوله مرة عندما قال: «الجبين سيد الأخلاق»..

ثم بلغا قطعة مستوية من الطريق سارت فيها السيارة سيرًا ذلولا
بعض الشيء، فاستقرت معدة حب الرمان في مكانها وصفا مزاجه شيئا،
وأحس بالدفء الذي كانت أشعة شمس يناير ترسله فيها حوله، وأخرج
سيجارة وأشعلها، وبدأ على وجهه أن الرضا عاد إلى نفسه، واستشعر
الحكمдар ذلك، وأراد أن يحول مجرى الحديث فقال:

- والله أن مولانا لسياسي عظيم.. من كان يفكر في خطة عجيبة كهذه
لتحويل الرأي العام؟..

فقال حب الرمان، وكأنه فوجيء بكلام الحكمدار:

- أي خطة؟..

- أقصد خطة الاتجاه نحو الشعب مباشرة، والاتصال به.. لتعرف
أحواله..

- هكذا يقولون، ولكن ذلك خطأ، إذ الواقع أن مولانا يعرف أحوال
الشعب معرفة لا يتصورها أحد، ولو جلست معه وسمعت
ملاحظاته لذهلت من عميق فهمه لكل شيء.. إنه يعرف أحوال
البلد أكثر مما يعرفها ابن البلد..

- سبحان الله! مواهب.. مواهب عظيمة.. أنا دائماً أقول ذلك..
والله يا سعادة البك لقد كنت منذ أيام في مناقشة مع واحد من
المعارضين للسياسة الرشيدة التي يجري عليها مولانا اليوم، عضو

مجلس نواب سابق، فسمعتة يقول إن مولانا لا يحسن الحديث بالعربية، فضحكت منه وقلت له أن أحد لا يجيد العربية كما يجيدها مولانا، بل يستطيع الخطابة بها كأبلغ الخطباء..

فقال حب الرمان:

- هذه حقيقة ينبغي أن يعرفها الشعب. يقولون له أن الملك لا يحسن العربية وأنه تحدث بالفرنسية ذات مرة أثناء الصلاة، وهذا كذب، ولقد سمعت أنه يتحدث في القصر بالعربية، فذهلت.. أتدري من أول من حدثني عن اتقان الملك للعربية؟ المندوب السامي! قال لي أنه ذهل ذات مرة إذ سمع الملك يتدفق بالعربية. وقد نصحه المندوب السامي بأن يفاجئ الجمهور بذلك، ولكنه لم يشأ، ومن رآه أن ذلك يعتبر تزلفاً للشعب، وهو لا يريد أن يتزلف للشعب.. وهو يتحدث الفرنسية أحسن من الفرنسيين والإنجليزية أحسن من الإنجليز، ولا تفوته لمحة أو إشارة. تحدث مع المندوب السامي مرة بالإنجليزية وأفاض، فدهش وقال له: لا أدري كيف أعبر لجلالتكم عن شكري لحديثكم معي بلغتي الإنجليزية!.. وفهمها الملك، ولكنه كتم غيظه لأنه يعرف أن ذلك المندوب السامي خبيث قليل الأدب.. أتدري أن الملك قرر مرة طرده من مصر، ولكنه عاد فعطف عليه لأنه رجل فقير؟..

- فقير؟.. أليس لوردًا؟..

- طبعًا هو لورد.. ولكنه لورد من الفقراء.. إن كثيرين جدًا من اللوردات فقراء.. وهم يرسلونهم إلى بلادنا ليرتقوا..

ثم نظر فإذا السيارة تتوقف، وإذا الذي أوقفها شيخ ذو لحية طويلة
بيضاء وقف في وسط الطريق وأشار إلى السائق، فقال الحكمدار للسائق:
- مالك توقفت؟ .. أسرع..

- يا سعادة الباشا هذا هو الشيخ أبو بكر ولي الله، رجل لا أستطيع
مخالفته.. وهو يريد أن يباركنا بالركوب معنا، ولو أننا تركناه ومضينا
لأصبحت السيارة بثي..

وزاد غضب الحكمدار وعجبه، وفتح فمه ليلعن أبا السائق، ولكن
الشيخ فتح باب السيارة وقفز فيها وجلس، ونظر إلى الحكمدار وحب
الرمان وقال:

- السلام عليكم ورحمة الله..

قالها منغمة مفسرة بفمه كله، وانتظر أن يرد عليه أحد، ولكن أحدا لم
يرد عليه، فمضى يقول:

- ردوا السلام يا بني آدم.. ألستم مسلمين؟..

وملك الدهش الحكمدار من وقاحة هذا الشيخ، وبداله أن يقذف به
خارج السيارة، ولكن الشيخ قال:

- سعادتك تريد أن تقذف بي خارج السيارة.. مالك مشمئز هكذا
كأنني خنزير جلس على سجادة صلاتك!.. إننا ناس أطهار يا
صاحب السعادة.. دعوة مني تشفي ابنك المريض..

وذهل الحكمدار، فقد كان ابنه بالفعل مريضا، كان مصابا بالأم حادة

في صدره تغاديه وتراوحه منذ حين، ولكنها زادت عليه فبعث به إلى القاهرة، ونظر إلى الشيخ الذي مضى يقول:

- الولد بخير والحمد لله.. ربنا سيخفف عنه وسيشفي صدره إكرامًا له لا لك.. إنه عبد صالح من عباد الله.. أما أنت فجبار عنيد.. سق يا سائق!..

ودوت عبارة «جبار عنيد» في أذن الحكمدار كأنها صفة تلقاها، وظل دقائق واجمًا لا يدري ماذا يفعل، ولم يمسكه عن قذفه في الطريق إلا الخوف على ابنه المريض، ورجاء شفائه بدعوة من هذا الشيخ الغريب، ثم سمع الشيخ يقول وهو ينظر إليه:

عصفور وقاعد في عشه	ماللغراب بسس وماله؟..
عيشه على قه، وفرشه	طمع الغراب فيه قام جاله..
أمير ويشحت م الشحات	ويشارك العبد في ماله!..

وهز السائق رأسه مستحسنًا، ونظر إلى الحكمدار، فلاحظ أن وجومه قد زال بعض الشيء، وأن هذا «الشعر» الذي قاله الشيخ قد وقع من نفسه موقعًا طيبًا، وقال أبو بكر يخاطب السائق:

- أنت تعرف من هو الغراب يا واد يا حليم..

وسكت حليم، ونظر الشيخ إلى الحكمدار وقال:

- وأنت أيضًا تعرف من هو الغراب.. ومن هو العصفور أيضًا..

وقال الحكمدار:

- ما هذا الكلام يا شيخ؟.. غراب إيه وعصفور إيه؟..

فأمسك الشيخ بلحيته وقال:

- وهذه البيضاء التي صليت بكل شعرة من شعراتها مائة ركعة.. أنت تعرف الغراب، وتخاف من الغراب، وتعرف العصفور ولا ترحم العصفور!.. ماذا يأتي بالغراب إلى عش العصفور؟.. عصفور غلبان فقير راض بالغلب والفقر، ماذا يريد منه الغراب؟.. أليس يكفيننا «أفندينا» الذي حط بنا منذ سنوات ولم يدع عودًا أخضر إلا أحاطه بسور؟.. أنت تظن أنني أخشى أفندينا؟.. والله ما أخشاه.. إنه يعرفني ويعرف أنه لا يعيش إلا ببركة دعائي.. منذ شهر كان مريضًا وطلبني، دخلت عنده، كان نائمًا في سرير من حرير وحوله الأدوية أكواماً: إنجليزي وفرنساوي وأمريكاني.. قلبت الترايزة بما عليها بيدي، وقلت له: يا أمير.. أنت مريض من الحرير الذي تنام فيه، الحرير يورث المرض.. وما نام إنسان على الحرير إلا امتلاً جسمه بالأسقام وأحس أنه نائم على الشوك. قم يا أفندينا ونم على الخيش.. الخيش شفاء وعافية وبركة، وكل أولياء الله ينامون على الخيش، والخضر عليه السلام لا ينام إلا على الخيش، إن جسم الإنسان لثيم، «وإن أنت أكرمت اللثيم تمرّدًا»، ولا يصلحه إلا الذل ولا يريحه إلا التراب.. قم يا أفندينا ونم على الخيش ليعافيك الله!.. وفعلًا استمع لأمرى ونام على الأرض فعافاه الله ببركته.. وأنت يا حضرة الحكمدار، يا صاحب البدلة القصب والبنطلون بشريط، تريد أن يعافي ابنك؟.. إذن فألبسه هذا الحجاب، وسأقرأ

له الفاتحة وعدية ياسين والدلائل، وتنام والدته على الخيش ثلاث ليال فيعافي بإذن الله.. وقل للملك أن الشيخ أبا بكر يقول لك: أبعد عن كفر سهيل وأراضي كفر سهيل، الناس هنا مساكين فقراء وليس لديهم ما تأخذه منهم.. قل له: كفاية ما عندك.. أصبحت بحمد الله أغنى من قارون.. ولا مؤاخذه يا حضرات.. إننا أولياء الله لا نقول إلا الحق ولا نخشى شيئاً..

ثم نظر إلى حب الرمان، وكان وجهه مربداً يبدو فيه الغضب والحيرة والخوف أيضاً، فإن كلام هذا الرجل قد يؤذيه، ولا يمكن على أي حال ترك هذا الرجل يمس «الذات الملكية» بهذه الوقاحة دون عقاب.. وأحس الشيخ بما يدور في نفسه، فقال وهو يضحك:

- لا تغضب يا سيدنا.. إن الملك نفسه يعرف أنني ولي الله، وهو يحب كلامي هذا، إنه رجل صريح جاد.. يعجبه كلام أمثالي، وأنت أيضاً، أقسم بالله أن روحك في يدي! أتريد أن تتأكد من ذلك؟ اسمع يا سيدي، المسألة التي تحيرك أنا أعرف حلها: دع الخصام مع عمك، إنه رجل طيب، والقضية لن تكسبها، صالحة.. مرتبط الفرس الست بنته حرمك.. نعم، ردها إلى عصمتك، إنها سيدة طيبة وأموال أبيها في يدها.. ما رأيك الآن؟.. ألم أقل أننا نعرف كل شيء؟.. كم من مرة قلت للملك أشياء كهذه؟..

وكان حب الرمان ينظر ذاهلاً، فقد كان ذلك كله صحيحاً، وقد حيره هذا الرجل وأرهبه، ولكنه أراحه أيضاً، وأحس الشيخ بذلك، فتصنع

«العبط» وقال:

- وحدوه! أقول وحدوه!..

وردد حب الرمان والحكمدار والسائق: لا إله إلا الله.. ومضى الرجل يقول:

- متى يأتي الملك إلى بلدنا هذا؟..

وسكت حب الرمان، فمضى الرجل يقول:

- لا تخف يا ابن عمي.. هل هناك أسرار على؟.. أتظن أنني لا أعرف؟.. بالله العظيم إنني لأعرف اليوم والساعة.. ولكنني أحب أن أسمع منك..

وسكت حب الرمان، فنظر الشيخ إلى السائق وقال:

- لا يريد أن ينطق.. قف يا رجل.. سلام عليكم..

ووقفت السيارة، وقفز الرجل منها واختفى في حقل قصب، وعادت السيارة إلى السير، فقال الحكمدار:

- عجيب أمر أولئك الناس!..

فقال حب الرمان، وهو يتنفس الصعداء:

- مشعوذون!..

وساد صمت، ثم قال الحكمدار:

- هل عرفتكم الآن موعد الزيارة تمامًا؟..

- والله يا أخي لا أعرف.. إن الملك كما تعرف رجل متحفظ جدًا،

وهو يعتبر هذه الرحلة أمراً خاصاً به، أمراً متعلقاً بسياسته، وهو لا يقول لنا عن رحلة إلا قبلها بساعات. إنه الآن خرج من أسبوط، لا ندري إن كان سيقف في سوهاج أم لا.. ربما خطر بباله أن يقف في بعض القرى، وربما اتجه إلى هنا رأساً.. مثال ذلك أنه كان من المقرر أن يقف في بني سويف يومين لزيارة مقابر بني حسن، ولكنه عدل عن زيارة المقابر ولم يبق في بني سويف إلا سحابة النهار.. إنه لا ينزل في البلاد كما تعرف، يكفي بالبقاء في قطاره، وربما خرج وافتتح مؤسسة أو مؤسستين، ثم يعود إلى قطاره، وينام فيه، أنت تعرف الملوك..

- أي أننا لا نعرف إن كان سيقف في كفر سهيل أم لا؟.. لماذا التعب إذن؟.. هؤلاء الناس يظنون أنه سينزل بلدهم وسيزور بيت العمدة ويأكل فيه، لقد قلبوا الدنيا رأساً على عقب.. إنهم يحبون الملك جداً..

- من يدري؟.. ربما عطف عليهم ونزل بلدهم ودخل بيت العمدة وأكل فيه.. إنه رجل سياسي ماهر.. لقد أدهشنا في بني سويف عندما نزل وصافح العمدة ومنح أحدهم البكوية.. دع أهل القرية في استعداداتهم، إنهم لن يخسروا شيئاً، لن ينسى الملك لهم ما فعلوه.

- ومن أين يدري؟..

- إنه يعرف كل شيء..

وكانت السيارة قد أهلت على البلد، وبدت المحطة الجديدة في أبهى زيتها ترفرف فوقها الرايات ويحرصها الحفر حراسة شديدة، وعندما دخلت السيارة «الوسعاية» أحس حب الرمان أنه في سوق.. كانت قد تحولت إلى سوق عظيم، نصبت على جوانبها ساريات عالية تحمل الأعلام، ومدت جبال من كل سارية إلى التي تليها وعلقت فيها الأعلام وفرشت الأرض برمل أصفر جميل، وتجمعت في جوانبها جماعات من الناس، بعضهم باعه فرشوا على الأرض بضاعتهم، وبعضهم متسكعون جلسوا في الشمس جماعات صغيرة يتحدثون ويصطلون، وفي جانب وقف حاو في وسط حلقة واسعة من المتفرجين وأخذ يعرض ألعابه، وإلى جانب حلقة الحاوي كان شرارة خلف شيء كالمنضدة الكبيرة وضع عليه بضائعه وجلس يدخن الشيعة كأنه تاجر عظيم، وغير بعيد عنه وقف رجل بصندوق «سفيرة عزيزة»، لا يزال صوته يتردد «اتفرج يا سلام!..» ثم ينفخ في بوق، ليجمع الصبيان.

وما أن توسطت السيارة الميدان الفسيح حتى وجدت العمدة ونفراً من آله وأعضاء اللجنة يسرعون نحوها. كانت إشارة تليفونية قد صلصلت في الدار وانبأهم بخبر مقدم الحكمدار ومندوب الملك، فأسرعوا يعدون عدواً بعد أن أصدر العمدة أمره بإعداد ما يليق بالزائرين الخطيرين..

ونزل الرجلان من السيارة، وما كاد الحكمدار يرى نفسه وسط الفلاحين وقد أقبل العمدة يحياه حتى ركبته الحكمدارية فانتفخ وارتفعت هامته، ومد يده في حذر يصافح المستقبلين بأطراف الأصابع،

وفعل حب الرمان مثله، وتفضل على العمدة بابتسامة أبهجت قلبه، لأنها دلت الناس على أنه يعرف رجل القصر العظيم، وقد سعد العمدة بهذه الابتسامة سعادة كبرى، وأحس لها فخراً ونظر إلى من حوله لينبه من لم يتنبه منهم إليها..

ثم سار الجمع نحو بيت العمدة: الحكمدار ومندوب القصر وخلفهما قليلاً العمدة ثم بقية الأعيان، ثم جمع غفير من الأطفال يجرون ويصيحون: «الملك جه.. أوعى الملك يا جدع».. وزغردت النساء وأسرعت فرقة المزمار والطبل البلدي فوقفت بباب العمدة وأخذت تضرب «السلام» مرة بعد مرة، فلما وصل الركب باب البيت عزفت سلاماً «معتبراً» بذيل طويل نفخ الزمار من أجله شدقيه حتى صارا كرتين وجحظت عيناه.. وقد استشعر الحكمدار شيئاً من الخجل لهذا الموكب الحاشد الساذج، ودخل البيت وهو متأفف، وأخذ مكانه في القاعة التي اجتهد العمدة في تزيينها وفرشها حتى بدت جميلة حقاً، ثم قال:

- عندك ماء نظيف يا عمدة؟..

فنهض الرجل واقفاً وقال:

- أمال.. أئينا «بفتر» خصوصي.. للزيارة.. هات ماء يا عوض..

وأتى الماء والقهوة، وطلب الحكمدار إلى العمدة أن يخلي القاعة ليتناولوا، فخرج الجميع إلا العمدة وأبو تراب وعبد الوارث حمدان وعبد الجليل، فنظر الحكمدار إليه وقال:

- أرى أنك عملت اللازم يا عمدة..

- طبعًا يا سعادة الحكمدار، هذا يوم المنى.. نحن فلاحون ولا نعرف شيئًا، وقد عملنا جهدنا، جهد فلاحى.. نخشى ألا يعجب..

فقال الحكمدار:

- كان لابد أن نرسل لكم أحدًا ليوجهكم.. هذه المسائل ليست بهذه البساطة..

فقال حب الرمان:

- أظن أن أحسن ما فى الموضوع أن يعملوا ما يبدو لهم.. إن مولانا يريد أن يرى الناس على طبيعتهم، أنا أعرف مزاجه وذوقه.. لقد سمعته يقول مائة مرة أنه يريد أن يرى الشعب، إنه يحب الشعب جدًا.. أنا شخصيًا يعجبني ذلك وأحب أن يراه الملك بنفسه..

فتهلل العمدة وقال:

- الله يكرمك ويكرمه، والله نحن أيضًا نحب الملك ونريد أن نراه على طبيعته، وقد توكلنا على الله وقلنا نجعلها «حاجة فلاحى»، فيها تغيير طعم لمولانا وحاجة جديدة لمن معه.. وإذا كان سعادة البك مندوب السراي يتعطف علينا رجوته أن يعطينا شيئًا من وقته ليرى كل شيء..

فقال الحكمدار:

- وهل هناك شيء آخر؟..

- طبعًا يا سعادة الحكمدار، هناك الطبل والمزمار والشعراء والفنانون والبرجاس وخیال الظل والتعطيب..

فقال حب الرمان:

- الله!.. هذا والله ما نريده، إن مولانا يحب البرجاس والتحطيب
جدًا، يا ليتته يرى من هذا شيئًا..

فقال الحكمدار:

- يا سعادة حب الرمان بك وقت الملك ضيق، وهو لن يأتي إلى هنا
ليتفرج على برجاس ويسمع طبلاً بلدياً..

فلم يلتفت إليه حب الرمان وقال للعمدة:

- عال يا عمدة عال، نريد أن نقف على كل ما أعددت..

فانشرح صدر العمدة وقال:

- الله يخليك ويبارك فيك، صحيح إنك أمير ابن أمراء.. والله لقد
فتحت نفوسنا وأكرمتنا.. بإذن الله تقضون الليلة هنا لتروا كل
شيء..

فصاح الحكمدار:

- نقضي الليلة هنا؟.. أجننت يا رجل؟.. يبيت مندوب السراي
هنا؟..

فقال حب الرمان:

- ولم لا؟.. مهمتي أن أعرف كل شيء، ولا بأس عندي من المبيت
هنا، فالوقت الآن متأخر، ثم ماذا نعمل في قنا لو عدنا الآن؟..

فقال الحكمدار:

بس.. هذا بيت ريفي، ليس فيه من وسائل الراحة ما يليق بمقامك..

فقال العمدة:

- لماذا؟.. والله لقد أنشأت حمامًا جديدًا خاصًا بكلفني 300 جنيه..
ولدينا الأسرة في غاية النظافة، وقد أعددت الحجرة الكبرى لنوم
مولانا..

فقال الحكمدار:

- نوم مولانا؟.. أجنون أنت يا شيخ؟.. أحسبت أن الملك ينام
عندك؟..

فقال العمدة:

- والله يا سعادة الحكمدار نحن ناس فلاحون، عقولنا «علي قدنا»..
وقد عملنا الاستعداد الذي قدرنا عليه، وعشمنًا كبير، والاستعداد
لا يضر، فإذا شاء مولانا وأعجبه الحال شرفنا بالنوم، وإذا لم يعجبه
فقد قمنا بالواجب، وحضراتكم ستبيتون عندنا الليلة وسترون
كيف تستمتعون بالنوم تحت هذا السقف.. والله يا بكوات إن بلدنا
فيه ألد نوم في الدنيا، والواحد منا لا يضع رأسه على الأرض حتى
لا يدري أين هو، ويظل هكذا ما شاء الله حتى يوقظه الآخرون..
تريد أن تنام 15 ساعة، 20 ساعة، تنام الأربع والعشرين كلها، كما
تريد.. وتنامها نومًا عميقًا كأنك مع الملائكة..

فقال الشيخ أبو تراب:

- أصل النوم سنة من سنن الصالحين، وأولياء الله أما أن يتعبدوا أو
يناموا، والنوم أيضًا عبادة.. ثم، لماذا يصحو الإنسان في بلد هادئ

مثل بلدنا هذا؟.. والله العظيم إنني لأحزن عندما أجد نفسي قد
استيقظت في الصباح!.. أجد نفسي أمام ساعات طويلة، واليقظة
لا أدري ماذا أفعل فيها..

فقال الحكمدار:

- أليس وراءكم عمل؟..

- طبعًا.. ولكن أهم شيء عندنا هو الزرع، والزرع يطلعه الله بقدرته،
ليس أمامنا بعد إلقاء البذور إلا أن نتوسد أذرعنا وننام حتى يطلع
الزرع..

فقال الحكمدار:

- لهذا يضطرب الأمن، إن الأشرار فقط هم الذين لا ينامون..

فقال أبو تراب:

- والله إنهم ينامون أكثر منا، وقد حدث أكثر من مائة مرة أن نام
للصوص وهم يسرقون، وظلوا نائمين حتى أقبلنا فقبضنا عليهم
كما يقبض على الدواجن..

- إذن.. نرجو ألا تناموا يوم الزيارة، فيأتي الملك ويجدكم مع الملائكة..

- وهل هذا يجوز؟.. نحن يقظون منذ الآن، وسنظل يقظين حتى تتم
الزيارة على خير..

فقال لحب الرمان:

- حسنًا.. نريد أن نرى الآن ماذا أعددتُم لتسليّة الملك.. فقال العمدة:

- أخونا عبد الوارث حمدان هو المسئول عن مسألة التفاريح هذه،
وهو سيحدثكم عنها..

وانجهد الأنظار نحو عم عبد الوارث حمدان.. كان رجلاً في حدود الخامسة والخمسين من عمره، هيئته لطيفة وملبسه أنيق ووجهه بشوش فيه طيبة وسماحة. وكان قد نصب نفسه راعياً للفنون في هذا الركن الصغير من أركان الكون. كان رجلاً موسراً من صميم بيوت «العرب» في القرية، وكان في مبدأ حياته قد رغب عن الزراعة ومال إلى الدراسة، وشد رحاله إلى القاهرة حيث جاور في الأزهر أعواماً، ثم انصرف عن الدراسة ومال إلى الشعر والأدب وصنع شعراً لا بأس به، ونشأت الصلات بينه وبين نفر من الشعراء، وكان معظمهم فقراء يطمعون فيما يأتيه من «البلد» من خيرات الريف، فكانوا يبدون من الإعجاب بشعره بقدر ما يصلهم من ألطاف الدواجن والفطير والسمن وما إلى ذلك، واتسع صيته فعرف رجال الفن من موسيقيين وممثلين، وأصبح شخصية معروفة لا يغادر حفلة غناء لمنيرة المهديّة أو فاطمة قدرى أو حياة صبري، إلا حضرها.. وعندما انقصر عالم الفن إلى حزبين: حزب فاطمة قدرى وحزب حياة صبري أخذ جانب حياة وتعصب لها. وأصبحت له حلقة محترمة في قهوة الفن، وفي ليلة من الليالي نصبوه عمدة على هذا المقهى، وبايعه أنصار المغنية الكبيرة زعيماً على حزبهم، ودبج المقالات الرنانة في الدفاع عن مغنيته العزيزة نشرتها له مجلات الفن مثل الميكروسكوب والحياة الجديدة، وتكاثر حوله الشعراء والأدباء وأهل الفن واتخذ منزلاً واسعاً في شبرا، وأخذ ينفق في سخاء، ويبيع الفدان تلو الفدان حتى لم يبق عند إلا القليل، وأحس أنه مشرف على الإفلاس، وأنكره أهله واشتدت

ألسنة أهل القرية عليه، وبلغ من الأمر أن هدده أهله بأن يتبرأوا منه إذا سار في ذلك الطريق.. واهتم بأمره خال له، وكان رجلاً موسراً، فما زال به حتى صرفه عن هذا «الغي» الذي كان فيه، ثم زوجه بنته، وكانت فتاة في الرابعة عشرة وهو يقترب من الخامسة والأربعين، وقد سعد معها واطمأن إليها وإلى ما ورثت عن أبيها من الأرض والمال، واعتدل حاله، وأصبح يقضي في القرية شهراً وفي القاهرة شهرين وهكذا، وكلما سئم زوجه الصغيرة وقربتها هرب إلى القاهرة ليتنفس بعض الشيء، فإذا نفدت ذخيرته عاد إلى القرية كأنه طير من الطيور المهاجرة، وأتته زوجة بالطفل بعد الطفل حتى صار له من البنين والبنات تسعة، وفي حدود الخامسة والخمسين كان أولاده الكثيرون صغاراً يملأون حياته بهجة؟

وكان أهل الفن في القرية يلتفون حوله، وكان يستريح إليهم أكثر مما يستريح إلى أمثاله من الريفين الموسرين، ويأنف مما يطربون له من الوقوع في بعضهم البعض بالحق وبالباطل، ويستريح إلى «الشعراء» و«الفنانين» وأهل الزمر والطبل وأصحاب المواويل الحمر والمواويل البيض، وكان يحفظ من هذه مئات، ويعرف الزمارين والطبالين والمنشدين والشعراء. وكان شيوخ القرية يحترمونه ويحبونه وإن أنكروا منه هذا الاتجاه إلى «الكلام الفارغ»، ولكنه كان أطيهم قلباً وأنظفهم لساناً، لا يقول في أحد ولا يضيق بسفاسف المتحجرين من مشايخ القرية.

وقد بدت له الزيارة الملكية وكأنها فرصة سعيدة أتت على غير موعد،

فانصرف إلى الاستعداد والترتيب بكل قلبه، ممتيًا نفسه بأن يطرب الملك ومن معه بما يقدمه إليهم من ألوان المسرة، وتكلف في ذلك الاستعداد مالا كثيرا، فبعث يستدعي من يعرف من شعراء الريف وفنانيه، وكانوا يعرفونه جميعا ويحبونه، ولكنهم كانوا متفرقين من أسوان إلى الجيزة، كل منهم يطوف بالأسواق والبلاد سعيا وراء رزقه، فجمعهم وأنزل معظمهم في بيته، ومضى يسمع منهم ويراجع ويصحح ويختار ويجرب، حتى انتهى إلى شيء خيل إليه أنه أحسن ما يقدم في مثل هذه المناسبة.

وفي هذه الليلة أسعده العمدة عندما ترك له فرصة الحديث عما أعد من ضروب الفن والتسلية، ووجد الأنظار متجهة إليه، فاعتدل في مجلسه وقال:

- بماذا نبدأ يا حضرة العمدة؟.. أظن بالشعر، اتفقنا على أن يلقي أحد مشايخنا قصيدة بين يدي مولانا..

- هات ما عندك.. لكي نستفيد برأي سعادة الحكمدار وسعادة مندوب القصر في الاختيار.

فمال الحكمدار على أذن حب الرمان وقال:

- يا سعادة البك هؤلاء الناس لا تقدير عندهم للوقت، وسيصدعون رأسك بهذا الكلام الفارغ..

- لا بأس بذلك يا حضرة الحكمدار.. إنني لا أعرف شيئا من أحوال الريف، من يوم أن عدت من أوروبا لم أذهب إلى العزبة أبدا، وهذه فرصة أرى فيها شيئا.

- يا سعادة البك قم نعد إلى قنا قبل أن يستأخر الليل . هناك على الأقل
استراحة حكومية.

- لا تحدثني عن الاستراحة وحياة أبيك .. كفى ما لقيت من متاعب
في استراحات بني سويف والمنيا وأسيوط .. أي شيء في الدنيا خير
منها، وصدقني .. إنني هارب منها ..

- مع أنهم اعتنوا بتهيئتها لكم ..

- مساكين أولئك الذين يحكم عليهم بالنوم فيها .. ما علينا، دعنا مع
هؤلاء الناس .

وكان عبد الوارث ينتظر حتى فرغا من الهمس، فتنحى وقال:

- الشيخ عبد الجليل أعد قصيدة جيدة جداً، هيا ألقها يا شيخ عبد
الجليل ..

ونفض عبد الجليل واقفاً، ثم ثبت نظره في عيني الحكمدار وتنبأ
للإلقاء، وبدا وجهه في هذه اللحظة غاضباً كأنها سينهال على سامعيه سباً
وشتماً، ثم قال:

- أهلاً وسهلاً بالمليك ومرحباً ..

فقاطعه العمدة قائلاً:

- ما هذا يا شيخ عبد الجليل؟ .. هذا شعر أم قلة أدب؟ .. هل الملك
صاحبك أم قريبك حتى تقول له أهلاً وسهلاً، ومرحباً أيضاً؟ ..

كان عبد الجليل يحسب أنه أتى بدرة من درر الشعر الغوالي، فبهت

لمباغطة العمدة إياه بهذا الكلام، وأرتج عليه ووقف صامتًا لحظات
والعيون تقتحمه، ثم قال:

- يا حضرة العمدة.. الشعر هكذا....

- الشعر هكذا؟.. من قال إن الشعر معناه قلة الأدب؟.. لو سمع
الملك منك ذلك لخسف بك وبنا الأرض، أليس كذلك يا حب الرمان
بك؟..

- أظن يا عمدة ندعه يكمل قصيدته، ثم نرى..

- والله يا سعادة البك إنني أرى أنه لا يعرف أدب الملوك، وإذا كان
أول القصيدة كفرًا فما بالك بآخرها؟..

- دعه يا عمدة.. إنه رجل طيب.. دعه يقرأ بيتًا آخر.
فهز العمدة رأسه وقال:

- أنت حر.. سترى ماذا يقول، وإذا غضب مولانا فلست مسئولاً..
قل، قل يا سي عبد الجليل، هات ما لديك من الحجارة التي تسميها
شعرًا..

فقال عبد الجليل، بعد أن اعتدل وسعل مرتين ليصفو صوته، وقد
قويت نفسه بتشجيع مندوب القصر:

هلت علينا البشرىات بوجهه فرحاً به وتبسمت أزهاره

وسكت عبد الجليل ليرى وقع هذا البيت الرصين في نفس حب
الرمان، ونظر إليه العمدة لكي يحدد رأيه فيما قال عبد الجليل، فلما رآه

يبتسم آمن بأن هذا الشعر جيد، وقال:

- يبدو أنه اعتدل.. هيه.. قل..

ومضى عبد الجليل يقول:

بدت الغزالة تزدهي مختالة بجلاله وبدت لنا أقماره

فقال حب الرمان يخاطب العمدة:

- والله يبدو أنه شاعر صحيح، هذا الكلام لا بأس به، مالك وماله؟..

- مالي وماله؟.. والله ما قلت إلا أنه شاعر طيب، ولكنني كنت أخشى

أن تأخذه هيئة الملك فلا يحسن الإلقاء.. وهو يعرف أنني أمدح

شعره دائماً..

وسكت قليلاً ثم قال:

- أي أن سعادتك لا ترى بأساً بأن يقول للملك أهلاً وسهلاً؟..

- إنها عبارة لطيفة جداً، والملك يحبها، ثم إن رأيها مكتوبة على لافتة

كبيرة في الطريق إلى بيتك هذا.. لا أدري أين؟..

فقال عبد الجليل:

- فوق المدرسة يا سعادة البك، كتبنا البيت الأول على قماش كبير

وعلقناه فوق المدرسة..

- فكرة جميلة. حبذا لو وضعتم لافتة كبيرة عليها «أهلاً وسهلاً» في

المحطة وكررتوها في طريق جلالته..

فتهلل العمدة وقال:

- نعمل بإذن الله.. نعمل 100 واحدة ونعلقها.. حتى لا تقع عين الملك إلا على «أهلاً وسهلاً»..

وقال عبد الجليل:

- وقد حفظ تلاميذ المدرسة القصيدة ليرددوها على مسامع جلالته.. فقال حب الرمان:

- عال.. عال..

وتأهب عبد الجليل ليلقي خريدته العصماء، ولكن حب الرمان قال:

- كفى.. كفى يا شيخ.. شعرك جميل، وقد سمعنا منه ما يكفيننا ولا داعي لاتعاب نفسك..

- والله ليس في الأمر تعب..

- فيه!.. يكفي الآن.. كم بيتاً هذه القصيدة؟..

- القصيدة إلى الآن 80 بيتاً، وبإذن الله أتمها مائة..

فقال العمدة:

- يا نهار أبيك أسود!.. مائة بيت؟.. أجننت حتى تظن أن الملك

سيقف أمامك ثلاثة أيام بلياليها وأنت تنهال عليه بهذا الكلام؟..

تكفي الأبيات الثلاثة التي سمعناها..

فقال حب الرمان:

- ليقل خمسة.. تكفي خمسة أبيات..

فقال عبد الجليل:

- كيف؟.. إن القصيدة لا تجود إلا قرب آخرها.

- إذن قل الآخر، ودع الأول..

فطوى عبد الجليل الورق وجلس كاسف البال. ثم دخل عوض وهمس في أذن العمدة شيئاً، فنظر العمدة إلى ضيفه وقال:

- لو سمحتم.. نحضر الطعام، إنه شيء متواضع لا ينسب المقام.. أرجو أن تقبلوه منا..

فقال الحكمدار:

- يا عمدة، أحب أن تعطي إشارة للمديرية بأنني سأبيت هنا، وقل لهم أن يرسلوا سيارة جيدة تأخذنا من هنا الساعة الثامنة صباحاً، وإياك أن يتأخروا عن هذه الساعة.

ونهض العمدة ليعطي الإشارة، بينما دخل الخدم ووضعوا طبلية كبيرة فوقها صينية نحاسية لا يقل قطرها عن متر ونصف، وأقبلوا بأصناف الطعام ورصوها، وامتألت الصينية الواسعة بالديكة الرومية والدجاج واللحم والأرز وما إلى ذلك مما تحفل به موائد العمد في هذه المناسبات. وانتظر الناس حتى بدأ الفيضان، ثم بدأت المعركة، وانجلت وشيكاً على أنقاض وعظام وحطام..

وأقبل الخدم فرفعوا الصينية بما عليها، ثم أتوا بالماء والصابون فغسل الناس أيديهم، وأقبلت القهوة ومضى عبد الوارث حمدان يتحدث عما

أعد من أصناف «الفرجة» وألوان التسلية، فقال إنه استحضر أحسن فنانيين في القطر ليلقيا المواويل، وسيلقى أولهما موالاً في مديح الملك ويرد عليه الآخر بموال في ولي العهد، ثم يمضيان يتراشقان بالمواويل ما شاء الناس.. وأعد شاعراً يلقي قصة السيد عبد الرحيم القناوي وآخر يلقي قصة السيد البدوي، واستحضر المهدي أحسن عازف على الأرغول، والخيال أمير الزمارين والهلب طبال الأمراء كما يسمونه، ثم قال:

- وقد وعدتنا المديرية بإرسال فرقة موسيقية نحاسية لتعزف في المحطة..

فقال الحكمدار:

- ستكون هنا ليلة الزيارة.

ثم مضوا يحددون البرنامج، فذكر العمدة كل ما أعد مما تصور أنه يعجب الملك، ولم يذكر المدرسة، فقال عبد الجليل:

- والمدرسة؟.. نسيت افتتاح المدرسة يا حضرة العمدة؟..

فقال حب الرمان:

- أي مدرسة؟..

فقال عبد الجليل:

- مدرسة التاج الابتدائية، منحتنا الوزارة إعانة لتجديدها وإعدادها ليفتتحها جلالة الملك يوم الزيارة.

- ولماذا لم تقولوا ذلك من الأول؟.. هل تم إعداد المدرسة؟..

- نعم يا سعادة البك ..

- وأين الناظر؟ ..

- أنا يا أفندم ..

فصعد حب الرمان فيه النظر وحدره كأنه لم يملأ عينيه، ثم سكت،

فقال العمدة:

- وهل أعددت يا عبد الجليل ملابس مناسبة ليوم الافتتاح؟ ..

- طبعاً، ملابس جديدة.

فقال حب الرمان:

- إذن فأظن أن أول شيء يفعله جلالة الملك بعد نزوله من القطار

هو افتتاح المدرسة، ثم نسأله بعد ذلك فيما يريد أن يراه .. ولكنكم

ينبغي أن تسيروا في كل استعداداتكم. سأقول كل شيء لجلالة

الملك وأنا معه في القطار من قنا إلى هنا ..

وانتصف الليل وبدأت الأجفان تثقل بالنوم، ثم طلب الضيفان من

العمدة أن يدلّهما على فراشهما، فمضى بهما إلى غرفتين بدا بوضوح أنه أنفق

الكثير في إعدادهما.

وبينما كانا يغوصان في بحار النوم كانت البلدة خارج الدار تضج

بالحركة والأصوات، وقد دبت فيها حياة جديدة، وانقلب الليل نهراً

تضيئه «كلوبات» كبيرة وضعت في الوسعاية وفي الشارع المؤدي منها إلى

دار العمدة، وتجمعت القرية كلها في الوسعاية حول أبو غزالة الشاعر

والخيال الزمار والهلب الطبال والمهيدي عازف الأرغول، وتردد صوت
الشاعر بياليل يا عين.. مرات ومرات، والناس من حولهم لا يكادون
يملكون أنفسهم من فرط الطرب، وعندما تردد صوت الشاعر بأول
بيت من قصة سيدي عبد الرحيم:

اسمي محمد واسم أبويا حسين شريف وعاشق للحسن وحسين هتف
الناس من أعماق القلوب، فقد بدأ الطرب فعلاً وأيقنوا أنهم سينعمون
بمتعة كبرى إلى الصباح..

اليوم الموعود

وأخيرًا قبل اليوم الموعود...

وصحا العمدة من نومه متعبًا يحس فتورًا في نواحي جسمه كلها، فهو لم ينم بالأمس إلا مع الثالثة بعد منتصف الليل، وها هو يصحو مع الخامسة وكأنها مطارق تطرق رأسه وظهره ومفاصله كلها. وكانت أعصابه مثقلة بما أصابها من هزات الليلة الماضية، فقد كاد كل شيء يضيع بسبب خصمه خليل سلامة ومساعيه، كان قد سعى في القاهرة وأفهم بعض المسؤولين أن البلد فوضى وأن الجرائم لا تتوقف يومًا، وأن سبب المصيبة كلها ذلك العمدة الذي لا يؤمن على شيء ولا يستطيع شيئًا، واهتمت وزارة الداخلية بالأمر فبعثت مفتشين ليضبطا الأمر في آخر لحظة، فأقبل الرجلان يهددان بإلغاء الزيارة وصرف الملك عنها ومحاسبة العمدة على أفعاله، وقد اضطرب العمدة لذلك اضطرابًا شديدًا ولم يدر ماذا يفعل، ووقع في نفسه أن السبب في ذلك كله شرارة، فبعث في طلبه وهو ينوي أن يفعل به الأفاعيل، ولكن الرجل عرف كيف يتخلص ووجد له المخرج، ونصحه بالاتصال بالحكمदार واستئذانه في القبض على خليل سلامة واتهامه بتدبير مقتل المرأة التي وجدت جثتها في التربة. وقد ذهل العمدة إذ عرف أن هذا الشيطان يعرف قصة هذه القتيلة، ثم بعث في طلب شيخ الخفر مدبولي، وأرسلت المديرية رجالها، وما أسرع ما

حرر المحضر وأصدر الأمر وقبض على خليل سلامة وأولاده، وسيقوا إلى المديرية في سواد الليل ولما يمض على عودة الرجل من القاهرة إلا أيام قليلة، ووقع بذلك في شر أعماله، ونجا شرارة مما كان ينتظره من أهوال.. صحا العمدة ضيق الصدر مكدود الذهن، فأيقظ أهل داره، ومضى يتفقدتها ويصدر أوامره مشفوعة بكل ألوان السباب والشتائم، وكان عوض يسير خلفه مشنفًا أذنيه بلعنات العمدة يصبها على آبائه أجمعين واحدًا واحدًا حتى بدء الخليقة..

ولم يكن أحد قد أبلغ العمدة عن موعد محدد لوصول الركب العظيم، وآخر ما قاله له الأمور مساء أمس أن القطار الملكي يغادر قنا في العاشرة صباحًا، فتوقعوا أن يكون في كفر سهيل مع الحادية عشرة، غير أن أحدًا لم يقطع بقول، وكان عليهم أن ينتظروا على غير موعد، وقد تم الاتفاق على أن ترسل إشارة تليفونية إلى محطة كفر سهيل عندما يتحرك القطار من محطة قنا.. وبعثت المديرية بالخفر فرصتهم على جانبي شريط سكة الحديد من قنا إلى كفر سهيل، وكانت «دقة» رجال الإدارة قد اقتضت أن يرسل الخفراء من الليل، فبات المساكين في العراء، وما وافى الصباح إلا وقد هوموا جميعًا، ومرت بهم سيارة فأيقظتهم فاستقاموا وما يستطيع معظمهم أن يقيم ظهرًا، ولم يكن أحد قد فكر في طعامهم، فكان الواحد منهم يخالض الآخرين ويختفي في طلب رغيف أو كوز ذرة أو شيء يسد به رمقه، ومنهم من لم يجدوا إلا أعواد القصب ينتزعونها من الحقول خلفهم، وأرسلت المديرية نفرًا من العربان على ظهور الخيل وأرصدتهم على بعض مراحل الطريق، ليعدوا بخيلهم إلى جانب القطار

ما استطاعوا، لكي يرى الملك كيف أن حب الشعب يدفعه إلى ملاحقة
القطار للتلمي من طلعة «ملك القلوب المحبوب»!..
وأقبلت شرذمة من الخفر والعساكر لتقوم بالحراسة في الوسعاية،
والطريق إلى بيت العمدة وبعض نواحي القرية، وكانت الساعة التاسعة
عندما وصلت، وقد تجمع الكثيرون من القرويين في الميدان، فكان أول
ما فعله العسكر من إجراءات النظام أن انهالوا على من وجدوهم ضرباً
بالعصى والنبايت، ثم وقفوا صفين من المحطة إلى دار العمدة، وأقبل
الناس خائفين فوقفوا وراءهم، وما هو إلا قليل حتى كانت القرية كلها
قد تجمعت في الوسعاية وفي الطريق..

وتجمع أفراد لجنة الاستقبال الموقرة في دار العمدة وقد لبس كل منهم
أحسن ما عنده، ارتدى معظمهم جيب الصوف الذي زودهم به شرارة،
ووضعوا فوقها «النياشين المجيدة»، ثم ساروا بجملتهم يتقدمهم العمدة
إلى المحطة بين صفوف الجنود والخفر، وقد شملته وشملتهم خيلاء عظيمة
كأنهم قادة جيش خارج إلى الميدان، وصفق لهم الناس وتعالى الزغريد،
فزادت خيلاؤهم وأحسوا كأنهم سائرون في موكب النصر بعد أن هزموا
الأعداء.. وكانت الأعلام ترفرف فوق رؤوسهم، وبين الحين والحين
يمرون تحت لافتة من قماش شدت من أحد جانبي الطريق إلى جانبه
الآخر وقد كتب عليها «أهلاً وسهلاً بالملك ومرحباً».. وعندما بلغوا
المدرسة وجدوا عبد الجليل واقفاً بياها في ثياب جديدة جعلته يبدو وكأنه
إنسان آخر، فقد بدا في جبته السوداء وقفطانه الشاهي، وقد لف وسطه
بحزام حريري عريض، وزين رأسه بعمامة قائمة الجدران متقنة اللف

نظيمة الدرايزين وكأنه ناظر حقًا، وأسرع فانحنى وهو يصافح العمدة ومن معه، ودعاهم إلى دخول المدرسة، فدخلوا والعمدة لا يصدق عينيه، فقد وجد نفسه في فناء مدرسة حقًا، فيها أربعة فصول تتعالى منها أصوات التلاميذ وهم يرددون النشيد العتيذ..

وتقدمهم عبد الجليل إلى الفصل الأول، ووقف ببابه.. ووصل العمدة ومن معه، وصاح الشيخ عجوة: قيام!.. فقفز الغلمان وقوفًا كأنهم جند في الميدان، ثم تقدم الشيخ من العمدة وانحنى على يده ممثلًا للملك به ثم رفع هامته ونظر إلى التلاميذ وقال: جلوس!.. وجلس الأولاد ينظرون في سداجة إلى عمدتهم وقد انجلى وأصبح إنسانًا آخر، حتى خيل لبعض الغلمان - ولم يكونوا قد رأوه قبلاً - أنه هو الملك.. ثم أشار الشيخ إلى تلميذ صغير فانتفض واقفًا وانطلق يقول وكأنه صاروخ:

- أهلاً وسهلاً بالملك ومرحبًا!..

فلما ألقى عشرة أبيات أشار إليه المدرس بالجلوس، فجلس ثم التفت العمدة إلى السبورة، وكان الأستاذ قد كتب في أعلاها التاريخين الهجري والميلادي، وتحتها: «عدل الفاروق» بخط نسخ جميل، وتحتها «رضي الله عنه»، ثم تليها قصة عن عدل أمير المؤمنين!..

وبدأت التجربة الأخيرة للمسرحية.. أشار الشيخ إلى تلميذه وقال:

- اقرأ..

فقرأ:

- عدل أمير المؤمنين!

- وما هو العدل يا شاطر؟..

- هو ما تتمتع به في ظل مولانا الملك المفدي صاحب الجلالة أحمد
فؤاد الأول حفظه الله..

ثم أشار إليه الشيخ بالجلوس، وأشار إلى طالب آخر وقال:

- أمير يا شاطر.. ما معنى أمير؟..

- الأمير هو رئيس القوم وخيرهم وقائدهم، كالأمير فاروق ولي
العهد حفظه الله..

وأمره المدرس بالجلوس، فجلس، وسأل طالبًا آخر:

- ومن المؤمنون يا بني؟..

- هم المخلصون لعرش جلالة الملك المفدي إلى آخره..

- ما هذا يا كلب يا ابن الكلب؟.. من أين أتيت بـ «إلى آخره» هذه؟..

وإذا بالحاج أبو تراب - وكان من أعضاء اللجنة ومرافقي العمدة -
ينفجر في المدارس:

- كلاب يا ابن الكلاب؟.. كلب ينتش قفص أبوك أنت والي
خلفوك كمان..

وذهل الفصل كله، التلاميذ وهيئة اللجنة الجليلة وعبد الجليل، وكان
العمدة أشدهم ذهولاً، لأنه كان قد اندمج في دور الملك الذي يمثله،
واستطعم موقفه ومن حوله الحاشية والتلميذ يلقي أمامه شعر المديح،
فروعه ذلك السباب الذي بدد سحب الانسجام والوقار، ونظر العمدة
إلى صاحبه الشيخ أبو تراب مستنكراً وقال:

- ماذا جرى لك؟..

فقال والشرر يتطاير من عينيه من شدة الغضب:

- أما ترى إلى هذا الكلب وقلة حياته على ابني؟..
- ليس قصده يا أبا تراب.. إنه مدرس يريد أن يربيه.. والمعلم له احترام..
- ليس بالسباب.. إذا كان التعليم لا يتم إلا بلعن الأب فلست أريده أن يتعلم..
ونظر العمدة إلى الأستاذ عجوة نظرة كلها احتقار وقال في لهجة ملوكية:

- ماذا جرى لعقلك يا بهيم؟..
فقال الشيخ معتذراً:
- والله أفلتت مني.. ولكن تصور يا سيدي العمدة موقفنا لو أن هذا الغلام قال أمام الملك: «عرش الملك المفدي إلى آخره»..
وقال التلميذ:

- مكتوبة في الدفتر يا أفندي..
وقال الشيخ أبو تراب:
- كيف الحال يا أستاذ؟.. ها هي في الدفتر!..
فقال الأستاذ:

- قصدنا بها أن يختم التلميذ إجابته بعبارة «حفظه الله» كما فعل التلميذان اللذان قبله.. ولو قال التلميذ أمام الملك: «إلى آخره»
لرحنا بإذن الله في داهية..
فقال العمدة وهو يستعيد جلال الموقف:

- طيب.. دعوا هذا، وانظر يا أستاذ.. لا نريد أن يتكرر ذلك.. كن مؤدبًا مع أولاد الناس الطيبين.

والتفت لينصرف، فأسرع المدرس وانحنى على يده وحياء تحية ملوك، ثم وقف خافض الرأس أمامه، وانتفخ العمدة من جديد وعاد الجلال فركب الجماعة كلها، وخرج الموكب، وأغلق المدرس الباب، ثم أخرج مندبًا ضخمًا ومضى يمسح عرقه، وخلع عمامته فوضعها على إحدى التخت، ثم تنفس السعداء وقال: متى.. متى ينتهي هذا اليوم الأغبر؟.. وسار عبد الجليل أمام الجماعة يفسح لهم الطريق، وفي أثناء سيره كان يلتفت نحو العمدة ويقول:

- انظر ماذا فعلنا.. طاحونة خربة حولناها إلى مدرسة!.. انظر إلى هذا الفناء، إلى النظافة، إلى النظام..

ولم يعلق العمدة بكلمة، وإنما اتجه نحو الباب، ومضى والناس من حوله إلى الوسعاية. وسار وسط صفى العسكر والخفراء في طريقه إلى المحطة، وتجمع الناس خلف العساكر وأخذوا يهتفون له، وصاح بعضهم: «يا صلاة النبي»!.. وانتفخت أوداج الرجل ومن حوله، وأحسوا وهم في هذا الموكب أنهم أصبحوا شيئًا آخر. وعندما اقتربوا من المحطة أقبل رجل يجري ويقول:

- يا حضرة العمدة.. يا حضرة العمدة.. الموسيقى وصلت!!..

ومن ناحية المحطة دوى صوت طبول الموسيقى النحاسية: «بوم بوم بوم.. بوم بوم بوم..» ثم تلا ذلك العزف، وتطاير الناس إلى المحطة واختل النظام، فقد كانت هذه أول مرة تدخل الموسيقى النحاسية هذا

البلد، حتى العمدة ومن حوله أسرع بهم أقدامهم نحو هذه الفرقة النحاسية التي بدلت الموقف تمامًا، وانتقلت بالحفل من مولد ريفي إلى مهرجان استقبال ملوكي.. وعلى مقربة من الفرقة الموسيقية وقف الناس يتأملون أفرادها من الجند، كل منهم يحمل آله ويعزف، وأمامهم وقف صول بيده عصا قصيرة يشير بها يمينًا وشمالًا على وقع الموسيقى، وقد لبسوا ملابسهم الأنيقة التي تزينها الأشرطة والكردونات الحمراء..

وبينما كان العمدة منسجمًا مع أنغام الموسيقى أقبل عليه شرارة، وقد لبس معطفًا أسود فوق جلباب حريري أبيض ووضع فوق رأسه طربوشًا طويلًا أماله إلى اليمين، وزين صدر المعطف بـ «النیشان المجيدي»، وقال:

- كل شيء عال يا حضرة العمدة، من طلوع الشمس وأنا أجري هنا وهناك، رتبت الناس في الطريق، ووضعت كل إنسان في مكانه، وتعاونت مع الضباط على إخلاء المحطة بحيث لا يبقى فيها إلا هيئة الاستقبال، ووضعنا كردونًا من الخفراء حول المحطة حتى لا يتسرب إليها أحد، وأعددنا لكم الكراسي في المحطة لتستريحوا عليها حتى يقبل القطار، ووزعت الطبل والمزمار على مراحل الطريق، وأعطيت الأولاد نحو ألف علم لكي يلوحوا بها ترحيبًا بمولانا، وبقي أن نرتب الوقوف في المحطة والسلام على الملك..

وبدا السرور على وجه العمدة، وحمد الله على أنه لم يطرد هذا الرجل من القرية كما كان يريد، وإلا فمن كان يستطيع أن يعمل ذلك كله؟.. ثم دخل المحطة المزينة بالأعلام، ووجد نفرًا من الضباط والجنود فيها،

فسار إليهم وحياتهم، ثم أخذ يتحدث إليهم، وكلما انقضت دقائق قال:

- هل أتت الإشارة بتحريك القطار من قنا؟..

ثم تقدم شرارة وقال:

- يا حضرة الضابط، الأحسن أن تعرفنا أماكننا التي نقف فيها عندما

يصل القطار الملكي..

وكانما استاء الضابط من كلام شرارة فقال للعمدة:

- من هذا؟..

رجل تاجر من معارفنا..

- من أهل البلد؟..

- لا..

- وماذا يعمل هنا إذن؟.. لا يقف هنا إلا الأعيان..

ثم التفت إلى شرارة وقال:

- هيا اخرج من هنا.. هيا..

وقال شرارة وهو يسير خارجاً من المحطة:

- طيب يا حضرة العمدة. سأذهب إلى الدوار للإشراف على النظام

هناك، وسأنظر مسألة الطعام..

وجلست الهيئة الموقرة على الكراسي في المحطة في انتظار وصول

الإشارة بمبارحة القطار لمحطة قنا في طريقه إلى كفر سهيل، وكان العمدة

بادي القلق يقوم ثم يقعد، ويحدث هذا وينتقل إلى ذلك، ثم يعدل من

هيئة ملابسه وينظر إلى الشارة ليتأكد مما إذا كانت لا تزال في موضعها..

وكان ينظر بين الحين والحين إلى الضابط والجنود الواقفين في المحطة

متعجبًا من هدوئهم وتضاحكهم، كأنها الملك ليس على الأبواب.. وكانت المحطة في أحسن زينتها، كانت جديدة يلمع فيها كل شيء: المباني نظيفة جديدة لم يغادرها البناءون إلا أول أمس، دهان الأخشاب لا زال طريًا في بعض المواضع، والشبابيك لا زالت بزجاجها لم يتكسر منه شيء، خلف الحجرات تكدست أكوام من بقايا مواد البناء لم يتسع الوقت لرفعها، وستظل هناك إلى أن تبلى المحطة وما فيها، وناظر المحطة رجل قديم مسن، انتدبوه لنظارة المحطة هذا الأسبوع، وهو يرتدي بذلة جديدة وطربوشًا يلمع في بعض مواضعه، تكاد تشم منه رائحة الكي وهو يروح ويحيى، وينظر إلى الساعة ويصدر الأوامر وهو يتحسس بطنه المتدلي في فخر وعصبية، ثم يدخل الغرفة ليسأل معاون إن كانت الإشارة قد وصلت، ثم يعود ليقف على مقربة من ضابط البوليس.

وأخيرًا وصلت الإشارة.. وخرج معاون يصيح:

- القطار خرج من قنا!..

واضطرب كل شيء، كأنها اهتز قرن الثور الذي يحمل الدنيا..

ووقف العمدة، ووقف الأعيان ليحيوا القطار الذي سيصل بعد ساعتين.. وسرى الخبر إلى خارج المحطة، فتدافع الناس، وما هي إلا دقائق حتى امتلأت بهم المحطة، وضاع العمدة والأعيان والخفر والعساكر وسط الزحام.. وجن جنون العمدة فمضى يهدر كالجمل ولا أحد يسمع، بل وجد الناس يدفعونه يمته ويسره وهو لا يستطيع أن يملك نفسه، ولم يستطع الضباط والجند السيطرة على الموقف إلا بعد جهد شديد، وما زالت عصي الجند صاعدة هابطة حتى تراجعت

الجموع خارج المحطة وعاد النظام.. وبدأ العمدة كأنها هو خارج من معركة، وفقد معظم الأعيان هيئتهم وسمتهم وكبرياءهم وأدبهم أيضًا، وأخذوا يشتمون الناس والحفل واليوم بالمنتقى من السباب.. ثم تمالك العمدة جأشه، وأخذ يهديء أصحابه ويتظاهر أمامهم بأن ذلك الذي حدث لم ينل منه منالاً، ثم اتجه نحو الخفر وأخذ يستحثهم على المحافظة على النظام ويلعن آباءهم وآباء الذين جعلوهم خفرًا، ثم عاد إلى موقفه من أصحابه ووقف في صمت ينتظر صاحب الجلالة وهو خائف من أن يتكرر هذا الفعل مرة أخرى عندما يصل، فتكون كارثة لا يعرف إلا الله مداها..

مضى شرارة بعد خروجه من المحطة في طريقه إلى دار العمدة، وكان يسير وسط صف الخفر رافع الرأس ومن خلفه اثنان أو ثلاثة من المنقطعين إليه، ووجد الناس ينظرون إليه فملكه عجب وأحب أن يظهر للناس علو مقامه، فجعل يصدر إلى من خلفه تعليمات وأوامر، فلما توسط الوسعاية وقف وتلفت يمينًا وشمالاً ثم هتف:

- نريد النظام.. الملك على وشك الوصول، والله إن أخل أحد منكم بالنظام ليضعنه الملك في السجن.. أتفهمون؟..

وأسرع إليه نفر من الشبان والغلمان، بعضهم يضع الشارة على صدره، فأمرهم بالعمل على حفظ النظام وأخذ يوزعهم على مراحل الطريق.. وكانت الوسعاية تموج بالناس موجًا، وكانت جماعات من الناس تفد من القرى المجاورة وتتكدس في الميدان، فأخذ الناس يدفعون الخفر حتى

ضاق الممر الذي سيمر فيه الموكب، فنظر شرارة إلى الخفر وقال:

- ما لكم جامدين هكذا؟.. ألستم خفراء؟.. أين عصيكم؟.. اضربوا

بأمر الحكومة..

ولم يكد الخفر يسمعون ذلك حتى تركوا مواقفهم وانهالوا على الناس

ضرباً، وتعالى صياح النساء والرجال وتدافعوا وداس بعضهم بعضاً،

وأسرع ضابط من المحطة يهرول فقال له أحد الخفر:

- كله من ذلك الرجل.. ذلك العفريت الذي لا نعرف من أين أتى..

هو الذي أحدث الشوشرة كلها!..

فأمسك به الضابط وانهال عليه ضرباً، ثم تركه للخفر يكملون عليه،

وما هي إلا لحظات حتى أصبح حطاماً بين أيديهم، واستطاع آخر الأمر

أن يفلت وقد اندقت عظامه، فوضع يده في جنبه وتحامل على نفسه وسار

لا تكاد تحمله رجلاه..

وعاد النظام إلى الميدان بعض الشيء، وتعالّت فيه أصوات الباعة

يعرضون على الناس أعجب البضائع، من أقلام الرصاص والنياشين إلى

الصور والطعمية والشربات، واختلطت أصواتهم بصوت الحايي وسط

حلقته، وفي يده محارة ينفخ فيها فيخرج صوت قصير مبحوح يزعم

أنه صوت الجن والشياطين، وإلى جانبه وقف صاحب صندوق الدنيا

يصيح: اتفرج يا سلام.. والأطفال يتزاحمون ليأخذوا أمكنتهم على المقعد

المتهالك وينظروا في النظارات، وقد أسدل الرجل على رؤوسهم خرقة

حملت من الأقدار ما لا يمكن وصفه..

وجلس شرارة خلف المنضدة التي وضعها في جانب السوق

واستخدم شابًا يبيع له، وأخذ يتحسس جسده ويتأوه وهو ينظر إلى الناس يتخاطفون البضائع الرخيصة التي تكدست على المنضدة، والبائع يأخذ القروش ويعطي التفاهات، وشرارة يتأمل ذلك فيسري الريح عن نفسه ما يجذ من الآلام..

ثم نهض وسار نحو دار العمدة، فلما أقبل عليها وجدها مثل برج بابل، وقد كثر الداخل والخارج وتلاشى الرمل الأصفر الذي فرش أمامها.. وعاد إليه شيء من قوته ونشاطه، فنظر إلى مدبولي وصاح:
- هكذا يا شيخ الخفر؟.. الدار التي أعدناها وسهرنا في تحضيرها ليدخلها الملك تصبح مزبلة هكذا؟..

وجمع مدبولي ثلاثة من خفرائه ومضوا يزيحون الناس عن الباب ويخرجون الداخلين، حتى انتظم الأمر بعض الشيء، وبدأت الدار على هيئتها التي بذل العمدة جهده كله لتصير إليها جديرة بالزائر الكبير، وقد انتصبت فوق المدخل الأعلام..

وتسرب شرارة إلى حيث كان الطعام يعد، وكان العمدة قد أدخل رجة الدار الخلفية وجعل فيها مطبخًا، وأتى بعشرات من الخراف والديكة والدواجن من كل صنف، وجلب طاهيًا من قناليعد طعامًا للملك ومن معه، فلما دخل شرارة رأى شيئًا هاله: عشرات من الناس تطبخ وترتب وتعد، وصفًا طويلًا من الأفران تخبز وتشوي و«تسبك»، وتساعدت روائح ذلك كله فملأت صدره فانتعش وعادت إليه عافيته، وسال لعبه وود لو أصاب من ذلك الخير الكثير شيئًا، فدخل وأخذ يصدر أوامره،

ويصيب من هنا قطعة ومن هناك قطعة، واستمر الحال فمضى كالمجنون يأكل ويلعق أصابعه، ويأمر وينهى.. كل ذلك في وقت واحد!..

واقتربت الساعة، وبقيت نحو عشرين دقيقة على لحظة العمر.. ووقف ناظر المحطة كأنه ريان على ظهر سفينة، وهو ينظر في ساعة جيبه الكبيرة ويقول لمن حوله: «أين القطار؟».. في كل دقيقة، ثم صاح:
- دخل القطار في زمام الداودية يا أولاد.. بعد ربع ساعة يكون هنا.
وأسرع ضابطان يجريان ومن خلفهما صولات وجنود يبعدون الناس عن سور المحطة الخشبي، ويقولان:

- الملك مقبل يا رجال.. لا تضغطوا على هذا السور وإلا انكسر وغضب الملك.. يا خفراء أبعدوا الناس عن السور.. لا نريد أن يقفز أحد داخل المحطة.. نريد منكم هتافاً بأقوى الصوت.. ومن معه علم فليلوح به، ومن ليس معه فليصفق ويقل: يعيش جلالة الملك.. فاهمون؟..

وتكفلت عصي الخفر بإبعاد الناس عن السور الخشبي الضعيف، ووقف الناس بعيداً ينظرون إلى شريط السكة الحديد وإلى بعضهم بعضاً، وقال واحد منهم:

- ترى ما شكل هذا الملك؟..

- رجل مثلنا..

فقال رجل آخر:

- كيف يكون رجلاً مثلنا؟.. إذا كان هكذا فكيف يكون ملكاً؟..

- إذن ماذا تظنه؟..

- شيئاً مثل فرعون.. مثل عوج بن عنق..

- ثلاثة بالله العظيم يا رجال إنه لرجل مثلكم.. لقد رأيت صورته مرة، بل يقولون أنه أقصر من عمدتنا..

- إذا كان بهذه الهيئة فكيف نجعله ملكاً علينا؟..

- وهل نحن الذين نصنع الملوك؟.. الملوك يخلقهم الله..

فقال أحد الواقفين:

- لا.. ملوك هذه الأيام يصنعهم الإنجليز.. وقد اشترطوا على هذا الملك قبل أن يعينوه ألا يتكلم العربية، ولهذا فهو يتكلم الإنجليزية دائماً..

- ويصلي بالإنجليزي؟

- إذا كنت أقول لك إن الإنجليز حرموا عليه الكلام بالعربي فكيف يسمحون له بالصلاة؟.. إنه لا يصلي..

- أما حاجة غريبة يا أولاد! ملك شكله مضحك، ولا يتكلم العربي، ولا يصلي.. كيف يكون ملكاً؟.. ولماذا نقف له نحن ونهتف: يحيا الملك.. يحيا الملك؟..

- وهل نحن واقفون من أجله؟.. نحن ننتظر ما سيعطيه لنا.. يقولون أنه ينثر جنيهاً ذهبية من شباك القطار..

- من قال ذلك؟ هذا الملك لو وجدك جنيهاً لأخذك.. إنه بخيل بجمع المال وينهبه.. تصدق بالله؟.. إنه يأخذ كل يوم ألف جنيه ذهباً يضعها في جيبه ولا يراها أحد، ولا تقع عينه على قطعة أرض

إلا أخذها.. يقولون أنه آت إلى هنا ليأخذ العزب والأطيان التي لدى الأمير..

- ينصر دينه!.. ليأخذها منه.. هذا الأمير لص بخيل لا يدع لنا نقطة ماء نروي بها أرضنا.. دعهم يأكل بعضهم بعضاً.. كلهم لصوص..

ومضى الحديث بين القرويين على هذه الوتيرة حول الملك وحاله وزيارته، وعيونهم متطلعة إلى الجهة التي سيأتي منها، وأذانهم صاغية إلى شيخ خفر وقف مستعداً لإعطاء الإشارة للهتاف عندما يظهر القطار الملكي في الأفق...

وكان العمدة كأنه واقف على أعصابه، استعداد ستمته وهيئته ووقف وسط أصحابه من الأعيان يفتل شاربه وعيناه تنتقلان من صف العساكر الذي وقف جامداً على رصيف المحطة في انتظار القطار إلى ناظر المحطة الذي وقف ينظر في ساعته حيناً وفي الأفق حيناً، ثم ينشر إلى الضابط رئيس قوة البوليس، كأنه أحد العساكر الواقفين في انتظار التعليمات..

ثم تقدم منه أحد أعضاء هيئة الاستقبال وهمس في أذنه:

- يا عمدة.. ألا نذبح عجلًا ساعة وصول الملك كما نفعل عند وصول الحجاج؟..

ففكر العمدة وقال:

- نسينا هذا والله!..

- ما كان ينبغي أن ننسى.. هذا تقليد قديم، ورجال الملك يعرفون..

- وما العمل؟..

- نرسل من يأتينا بعجل..

- أسرع..

ونظر الرجل فإذا أحد أقاربه متوار إلى جانب حائط مبنى المحطة،
فأشار إليه، فأقبل، فأمره أن يأتي بعجل من أي مكان.. في بضع دقائق..

وخرج الرجل من المحطة وهو هتف:

- عجل!.. عاوزين عجل!..

وتجمع الناس حوله وقالوا:

- أي عجل؟..

- أي عجل! الملك يريد أن نذبح عجلًا ساعة وصوله..

- وأين نجد عجلًا الساعة؟..

وهتف أحد الناس:

- هناك عجل في المدرسة..

- المدرسة فيها عجول؟..

- أي والله.. العجل محروس..

- آه.. صحيح.. هاتوه..

واندفعت جموع الناس نحو المدرسة لتأتي بالعجل، وفوجيء عبد
الجليل بهذه الجموع تكتسح مدرسته، فأسرع يجري كمن يريد أن يطفىء
حريقًا، وتصدى للناس قائلاً:

- ماذا تريدون؟..

- محروس..

- محروس من؟..

- العجل محروس.. أمر العمدة بأن نذبحه تحت أقدام الملك.
ودار رأس عبد الجليل، ووقف جامدًا، فتركه الناس ومضوا يبحثون
عن العجل حتى اكتشفوا مكانه، ودخلوا كزبانية جهنم، وكانت العجوز
عند باب المدرسة فأسرعت تهرول وتصرخ، وشقت صفوف الناس
وتأبضت بمحروس وصاحت:

- ماذا تريدون؟.. هذا حارس البلد..

- الملك يريده!..

- لن يمسه أحد منكم..

وانتصبت المسكينة كالنمرة تدافع عن أعز ما لديها في الوجود.
وامتدت الأيدي تدفع العجل وتجذبه وهو واقف مروعا لا يدري
شيئا، ثم أمسك رجل غليظ القلب بذنبه وجره جرًا، وتعلقت المرأة
برقبة محروس وجعلت تولول وتصرخ، وتجمعت حولها نساء يصرخن
ويولولن، وأقبل نفر من الناس يدافعون عن محروس قائلين إنه مبروك
وإنه محسوب الأولياء، ودارت معركة، وأفلت العجل فانطلق بكل قوته
وسط الناس فتفرقوا ووقع هرج شديد، وتبعه بعضهم، وخرج العجل
من البلد بعد أن داس العشرات وأفضى إلى الفضاء، وانقطعت أنفاس
متابعيه وغاب عن الأنظار..

ووقع في الوسعاية هرج شديد، واختلط الحابل بالنابل، وضاع النظام
وأفلت الأمر من أيدي الخفر، وانتقل الهرج إلى المحطة، واندفعت الجموع
داخلها تصرخ: «العجل.. العجل.. محروس هرب..» وعاد العسكر إلى

عصيتهم يستعملونها، ولم يستطيعوا إخراج الناس، فاكثفوا بإيقافهم على جوانب الرصيف بعيداً عن منطقة الاستقبال..

وبدأ القطار في الأفق، وصدر الأمر للعسكر والخبراء فوقفوا وقفة عسكرية كاملة، وقد شدوا سيقانهم ونفخوا صدورهم ورفعوا رؤوسهم، وفعل العمدة فعلهم، ووقف يتبع بعينه القطار ليتقدم ومن خلفه جماعته ليحيوا الملك، وهو لا يدري أي هرج أصاب البلد..

وصدرت الأوامر للموسيقى لتكون على الأبهة لعزف السلام ساعة يقف القطار، وأشار شيخ الخبراء الموكل بالهتاف، فأخذت آلاف الحناجر تهتف وتصفق..

وأقبل القطار دون أن يخفف سرعته، فاخترق المحطة بسرعة البرق، ومن ورائه العربات تخطف أمام هيئة الاستقبال.. وطار القطار، وغاب عن الأنظار..

وتلفت العمدة حوله ونظر إلى الضابط، وظل الجميع صموتاً، ثم قال العمدة:

- ماذا جرى؟.. أهذا هو القطار؟..

فقال ناظر المحطة:

- نعم هو.. قطار الملك..

- ولماذا لم يقف؟..

- لا أدري..

- لعله لا يعرف أن هذه كفر سهيل..

وبينما كان يسأل ولا مجيب، ويتحرك في غير هدف، ويروح ويحيء

كالمجنون، كانت الجماهير تتدفق في المحطة تضحك وتصفق وتهتف ويدوس بعضهم بعضاً، وكانت الوسعية تموج بمن فيها موجاً، وهتف هاتف: الملك لن يأتي.. كانت ضحكة على العمدة! هيا إلى دار العمدة لنأكل.. هناك أكل يكفي مصر كلها..

وتدفقت الجماهير نحو الدار، واقتحمتها، وأفضت إلى المطبخ فانهاالت على ما فيه وأخذ كل إنسان ما قدر عليه، حتى كان بعضهم يحمل الخروف الكامل ويجري به إلى بيته..

وتسامع تلاميذ المدرسة بالخبر، فخرجوا على وجوههم يضحكون ويصيحون كأنها هم سجناء قد أفرج عنهم، وخلت المدرسة إلا من عبد الجليل والمدرسين والعجوز التي جلست وسط الفناء تندب محروسها.. ودار محروس في الغيطان حتى كلت أقدامه، ثم اتجه إلى داره وكان الطريق قد خلا، فلم يعد فيه إلا أفراد هنا وهناك، وسار العجل وحيداً حتى دخل المدرسة، فما رآته العجوز حتى صرخت من أعماق قلبها ونهضت إليه تعانقه.. وكان العجل مروعاً ما يزال، فسار يشتد في خطاه حتى دخل الفصل الذي كان مقرراً أن يدخله الملك، ودخلت العجوز من خلفه، ورقد العجل على الأرض وأكبت عليه العجوز تقبل رقبته وتبللها بالدموع وهي تقول:

- ذهب الشيطان في ألف داهية.. أنت الملك لا هذا المجرم الذي ضحك على الناس وخرب بيوتهم.. أنت الحارس وأنت محروس.. محروس بالنبى.. ألف صلاة على النبى.. يا محروس!

الفهرس

- 7 1 - العمدة وزيارة الملك
- 89 2 - في القطار
- 149 3 - في فندق إسبلنديد
- 187 4 - العمدة والباشوات
- 317 5 - موكب العمدة
- 413 6 - الشيخ أبو بكر والحكمدار وحب الرومان
- 459 7 - اليوم الموعود
